أحمد شوقي

الأعمال الكاملة

المسرحيات

الهيئة المصرية العامة للكتاب

أحمد شوقى

الأعمال الكاملة

المسرحيات

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٤

قام على تحقيق هذه الطبعة لغوياً وعروضياً
سعد درويش

وراجعها
الدكتور عز الدين إسماعيل

تصميم الغلاف والإخراج الفنى : سعد عبد الوهاب

تقـــديم

يحتل الشاعر أحمد شوقى مكانة مرموقة فى تاريخ الأدب العربى الحديث ، أهله لها عطاؤ ه الأدبى الغزير والمتنوع ، الذى شغل به الناس فى حياته على مدى نيف وأربعين عاما ، ومازالوا يشغلون به حتى اليوم ، شأنه فى هذا شأن المتنبى .

لقد كان مايزال حيا عندما اتفق النقاد فى أمر شعره واختلفوا ؛ لكنه بعد وفاته صار ملكا للتاريخ ، فتوارت دوافع المعاصرة بوجهيها الإيجابى والسلبى ، وبقى نتاجه الأدبى حيا فى ضمائر الأجيال ، مؤكدا أنه كان أمة وحده ، وأنه كان – بحق – شاعر أمته .

لم يكتف بأن يكون الشاعر المبرز فى زمانه فيقتصر نشاطه الإبداعى على فن القصيد ؛ ولو فعل لكفاه أن يكون شاعر عصره ، كسائر الشعراء الكبار فى تاريخ الأدب العربى ، ولكن طموحه الأدبى كان يجاوز هذه الغاية . كان يكفيه أن يكون الشاعر الذى رسخ دعائم النهضة الشعرية الحديثة ، ولكن إحساسه العميق بمطالب النهضة الأدبية بعامة ، دفعه – منذ صدر شبابه – إلى التطلع إلى آفاق أخرى من الإبداع الأدبى ، كان الواقع – آنذاك – يلح فى طلبها . ولا شك فى أن السنوات الأربع التى قضاها مبعوثا فى فرنسا ، والتى أتيح له فى أثنائها أن يزور إنجلترا ويمضى بها شهرا ، قد قوت فى نفسه ذلك الإحساس ، من خلال ما اطلع عليه من أشكال

أدبية ، وبخاصة فى مجال المسرح والقصة .

وهكذا اجتمعت كل الظروف ، العامة والخاصة ، على دفعه إلى الخروج من إطار القصيدة الغنائية المحدود ، وإلى المغامرة فى عالم المسرح ، فكتب - وهو ما يزال فى بعثته - مسرحيته الأولى المسماة «على بك الكبير» . ويبدو أنها لم تلق القبول من الخديو ، ولكن المؤكد أنها كانت - مثل كثير من الأعمال الأولى - عملا هزيلا ، بدليل أن شوقى نفسه قد عاد فى أخريات حياته فأعاد كتابتها .

والواقع أن إخفاق شوقى فى هذه التجربة الأولى قد صرفه ردحا من الزمن عن الكتابة للمسرح ، ولكنه بعد أن عاد من بعثته واستقر به المقام فى القاهرة ، اتجه إلى معالجة لون آخر من ألوان الإبداع الأدبى ، فكتب عددا من القصص ، فى وقت لم تكن القصة فيه قد أصبحت فنا أدبيا معترفا به ومقدرا من البيئات المثقفة . ولأمر ما لم يشغل أحد من نقاد شوقى المعاصرين له بهذا اللون من النتاج الأدبى ، بل ما تزال العناية بهذه القصص التى كتبها شوقى محدودة للغاية حتى اليوم ، على الرغم من أهميتها التاريخية والفنية .

وهكذا شاءت الظروف أن يظل شوقى مرتبطا بفن الشعر فى إطار القصيدة ، وأن تتحدد مكانته الأدبية على المستويين المصرى والعربى فى ضوء ما أبدع فى هذا المجال ، على مدى نيف وأربعين عاما ، فكان تتويجه أميرا للشعراء فى عام ١٩٢٧ .

وعند هذا المدى كان شوقى قد استنفد كل الطاقات التعبيرية لإطار القصيدة ، وكانت ظروف المجتمع قد تطورت فحصلت مصر على وعد باستقلالها ، ووضع الدستور وقامت الحياة النيابية ، واستحكمت دعوات التجديد واتضحت فيها الرؤية . عند ذلك عاود شوقى الحنين إلى مغامرته الأولى فى كتابة المسرحية الشعرية ، فإذا هو يتجه إليها بكل طاقته ، وإذا هو فى غضون السنوات الأربع أو الخمس الأخيرة من حياته يكتب سبع مسرحيات جديدة ، ويعيد كتابة مسرحيته القديمة «على بك الكبير» .

وإذا دل هذا النتاج الغزير فى ذلك الزمن المحدود على شىء فإنما يدل على أن شوقى ظل طوال ذلك الزمن مؤرقا بفكرة المسرح ، وأن هاجس هذه الفكرة لم يكف

فى نفسه ، إلى أن صارت الظروف مواتية فانطلق الشاعر فى الكتابة كأنه يسابق الزمن ، وكأنه وجد أخيرا متنفسا لذلك الهم الثقافى الذى حمله فى قلبه وفى ضميره زمنا طويلا .

* * *

وقد كان المسرح فى مصر حتى ذلك الوقت قد غلب عليه تياران استجاب كلاهما لجانب من الذوق العام ، أحدهما تيار الترجمة والتمصير للمسرحيات الكوميدية ، وبخاصة كوميديات «موليير» ، والآخر تيار عربى ، يستمد موضوعاته من الحكايات الشعبية ، وبخاصة من «ألف ليلة وليلة» ، ويمتلىء بمقطوعات الشعر التى تؤدى غناء . ومن خلال النكتة أو الغناء كانت المسرحية تجد طريقها إلى نفوس جمهور المشاهدين . ومع ذلك فإنه إلى جانب هذين التيارين كان تيار ثالث يظهر على استحياء فى أعقاب الحرب العالمية الأولى نتيجة لتزايد الاتصال بين مصر والثقافة الغربية ، وعودة بعض المبعوثين الذين درسوا أصول المسرح وفن التمثيل ، والذين حرصوا على أن يقدموا الأعمال المسرحية الجادة لكبار الكتاب الغربيين ، وفى مقدمتهم شيكسبير وكورنى وراسين . وربما كان هذا المناخ الجديد - بالإضافة إلى عوامل أخرى - هو ما شجع شوقى على معاودة الكتابة للمسرح .

* * *

ومهما يكن من شىء فقد استهل شوقى نشاطه المسرحى بمسرحيته المسماة «كليوبترة» ، ثم أعقبها «مجنون ليلى» و «قمبيز» و «على بك الكبير» و «عنترة» و «أميرة الأندلس» و «الست هدى» و «البخيلة» . ولاخلاف فى الترتيب من حيث الزمن حول المسرحيات الثلاث الأوليات ، والمسرحيتين الأخيرتين . وعلى كل فإن المدة القصيرة التى استغرقتها كتابة هذه المسرحيات جميعا تجعل للترتيب الزمنى لصدورها قيمة ثانوية . وما قد يراه بعض النقاد فى مسرحية متأخرة ، مثل «الست هدى» مثلا ، من تطور فى فن الكتابة المسرحية بالقياس إلى مسرحية متقدمة مثل «كليوبترة» أو «مجنون ليلى» يمكن مراجعته فى ضوء حقيقة أن طبيعة الاختلاف بين الموضوع التاريخى المأسوى فى «كليوبترة» ، والموضوع الواقعى الكوميدى فى «الست هدى» قد اقتضت أسلوبين مختلفين للمعالجة .

من أجل هذا آثرنا ، فى هذا المجلد من الأعمال الكاملة لشوقى ، أن نقدم إلى القارىء هذه المسرحيات مرتبة على النحو التالى : عنترة ، مجنون ليلى ، أميرة الأندلس ، ثم قمبيز ، فكليوبترة ، فعلى بك الكبير ، فالست هدى ، فالبخيلة .

وقد آثرنا هذا الترتيب لسبب موضوعى ، يأخذ فى الحسبان نتاج شوقى الشعرى فى مجمله . فقد رأينا كيف أن شوقى قد كتب هذه المسرحيات فى أخريات حياته ، بعد أن كان قد استوفى حظه من كتابة الشعر فى إطار القصيدة . وقد لاح لنا أن ما كتبه شوقى من مسرحيات لا يكاد يخرج فى مضمونه الكلى وفى مغزاه الأخير عما استأثر باهتمامه فى «شوقياته» ؛ فهناك إطاران موضوعيان ارتبط بهما كثير من هذه الشوقيات ، هما الإطار العربى والإطار المصرى . ومن جهة أخرى يشكل التراث العربى مصدرا أساسيا وجوهريا لثقافة شوقى ، فى الوقت الذى يشكل فيه التاريخ المصرى منذ عهد الفراعنة حتى زمنه رافدا أساسيا لشعوره الوطنى . ومن أجل هذا وذاك كانت المسرحيات الثلاث الأولى - فى هذا الترتيب - هى ما استمد فيها شوقى من ثقافته العربية ؛ وكانت المسرحيات الخمس الأخيرة هى ما استمد فيها شوقى من التاريخ المصرى القديم والحديث نسبيا ، ومن الواقع المعاصر .

لقد كانت هذه المسرحيات تتويجا لرحلة طويلة فى عالم القصيدة ؛ وهى لذلك لا يمكن أن تنفصل عنها ، بل إنها تفسرها بقدر ما تفسَّر بها . وهذا موضوع دراسة طريف ، ولكن لا مجال له هنا .

* * *

وقد يقال إن قدراً لا يستهان به من قصائد شوقى قد تحرك فى إطار آخر غير الإطارين العربى والمصرى ، هو الإطار الإسلامى ، وإن الجزء الأكبر من هذه القصائد قد ارتبط بالترك وبسلاطينهم بوصفهم حماة الإسلام . ولم يكن شوقى يعتقد هذه العقيدة وحده ، بل كان هناك آخرون مثله ، يقودون تياراً سياسياً يصطرع مع غيره من التيارات . ومع ذلك لم يفكر شوقى فى أن يكتب مسرحية يستمد موضوعها من التاريخ التركى فى أى مرحلة من مراحله ؛ وكل ما نعرفه فى هذا الشأن هو ما صرح به ابنه حسين من أن أباه كان قد شرع فى كتابة مسرحية عن محمد على الكبير ، رأس الأسرة المالكة فى مصر . أما القسم الآخر من هذه القصائد فيتعلق

بالإسلام فى قيمه الروحية ومبادئه الأخلاقية . وفى هذا المستوى نستطيع أن ندرك أن هذه القيم والمبادىء كانت تسيطر على رؤ ية شوقى لسلوكيات بعض شخوصه المسرحيين فى بعض المواقف ، سواء منهم العرب والمصريون . ومن ثم كان من الصعب أن نعزل بعض مسرحياته لكى نصنفها فى إطار إسلامى صرف .

ومرة أخرى يمكننا أن نتمثل تلك العلاقة القوية بين نتاج شوقى المسرحى ونتاجه الشعرى إذا نحن أخذنا فى الحسبان مصادر مادة هذه المسرحيات . فأربع من هذه المسرحيات مستمدة من التاريخ ، وهى قمبيز وكليوبترة وعلى بك الكبير وأميرة الأندلس ؛ واثنتان منها مستمدتان من روايات شبه تاريخية ، هما عنترة ومجنون ليلى ، واثنتان منها تضربان بجذورهما فى قلب الواقع الذى عايشه شوقى ، هما الست هدى والبخيلة . فإذا عرفنا أن المسرحيات الأربع الأولى قد اتصلت بالملوك والأمراء والولاة وحياة القصور اتصالاً وثيقاً ، أدركنا العلاقة الموضوعية والنفسية بين هذه المسرحيات وكثير من قصائد شوقى فى الأسرة المالكة وفى وصف حياة القصور التى خبرها عن قرب . وإذا عرفنا أن المسرحيتين التاليتين قد اتصلتا بشاعرين عربيين كانت عاطفة الحب مدار حياتهما ، أدركنا كذلك العلاقة الموضوعية والنفسية بينهما وبين قصائد شوقى الغزلية ، التى حاول فيها أن يشرح عاطفة الحب ، وأن يسمح لنفسه بالتعبير عن مشاعره الذاتية . ثم تأتى المسرحيتان الأخيرتان فتعلنان - باتصالهما المباشر بالواقع الاجتماعى - عن مرحلة التحول فى شعر شوقى إلى هموم الشعب ومشكلاته . وأيضا فإن الاتصال بين الفكاهة الشعبية الساخرة فيهما وشعر « المداعبة » عنده لا يحتاج إلى بيان .

وهكذا تصبح هذه المسرحيات فى هذا النسق معبرة عن مناح ثلاثة ، هى المنحى التاريخى ، والمنحى الذاتى ، والمنحى الاجتماعى . وهذه المناحى هى نفسها التى يعلن عنها حصاد شوقى الشعرى .

على أنه ينبغى أن يكون واضحاً أننا لم نقصد بهذه المقاربة بين نتاج شوقى المسرحى ونتاجه الشعرى أن نقول إن أحدهما يمكن أن يحل محل الآخر أو يغنى غَناءه ؛ وأيضاً فإننا لا نقصد بها أن ندعم النقد القديم الذى ذهب فيه أصحابه إلى أن شوقى قد نقل شعره الغنائى إلى مسرحياته . وكل ما قصدنا إليه هو أن نشير إلى

الأطر الموضوعية العامة لعالم شوقى كماتتمثل فى مسرحه وفى شعره على السواء . ويبقى بعد ذلك أن يتميز الإطار الفنى للمسرحية - حتى عندما تكون شعرية - عن إطار القصيدة .

* * *

وقد كتب شوقى مسرحياته شعراً باستثناء مسرحية واحدة كتبها نثراً ، هى مسرحية أميرة الأندلس .

وليس هنا مجال الخوض فى علاقة المسرح بالشعر ، قديماً وحديثاً ، ولكن ما ينبغى تسجيله هنا هو أن شوقى قد وجد نفسه - وقد أقدم على كتابة مسرح شعرى - مطالباً بأن يطوع ذلك القالب الضيق لمقتضيات الأداء المسرحى ، حيث تتباين الشخوص والمشاعر والأفكار فى المواقف المختلفة ، وحيث يبطىء الحوار ويسرع وفقاً لطبيعة كل موقف . ومن ثم فقد كان مضطرا - من أجل تحقيق هذا الأداء - إلى الخروج من قبضة الوزن الشعرى الواحد والقافية الموحدة ، إلى التنويع الدائم للأوزان والقوافى ، على نحو يضمن مرونة الأداء ، ويلائم طبيعة الحوار فى كل موقف ، بل فى كل منعطف شعورى أو فكرى فى داخل الموقف الواحد . ويمكننا أن نلاحظ - بالإضافة إلى كل ذلك - أن بنية البيت الشعرى الواحد صارت تفتت أحياناً - وفقاً لمقتضى الحوار فى مواقف بعينها - بحيث تستوعب مساحة البيت اللغوية حواراً متبادلاً بين شخصيتين ، على نحو ما نرى فى الحوار التالى من مسرحية عنترة :

عبلة : فتى ! وممن الفتى ؟

ناجية : من عامر

عبلة : وما حداه نحو عبس ؟

ناجية : الهوى

فهذه البنيات اللغوية الأربع ، المتمثلة فى سؤالين من عبلة ، وإجابتين من ناجية ، إذا ضمت جميعاً شكلت بنية عروضية لبيت شعرى واحد ؛ لكن ورودها على هذا النحو قد ذهب بالإيقاع الصوتى الحاد لهذه البنية العروضية ، وحقق للحوار

ما يقتضيه فى هذه اللحظة من مرونه وسرعة . وما نحسب أن شاعرنا كان فى مقدوره - وهو يرتاد كتابة المسرح الشعرى فى بيئة ألفت الشعر فى شكل القصيدة - أن يطوع هذا الشكل لمقتضيات الحوار بأكثر مما صنع . ومن ثم يصبح ضرباً من التجنى ما ذهب إليه بعض الدارسين* من أن شوقى لم يستطع تكييف المعجم الشعرى لمقتضيات الأداء المسرحى ، وأنه كان ينزلق فى الاسترسال الغنائى .

حقاً إن هناك مواقف يسترسل فيها الشاعر فيجرى على لسان أحد الشخوص حديثاً قد يطول حتى ليوشك أن يكون قصيدة . ولكن التأمل فى مثل هذه المواقف يدلنا على أن الشخصية لا تسترسل - فى الأغلب الأعم - إلا لأنها فى موقف « مناجاة » . والمناجاة بطبيعتها حديث مع النفس ، أو كشف عن مكنونها ؛ وهى وسيلة من وسائل الأداء المسرحى ، عرفها المسرح منذ القدم ، وما زال يستخدمها حتى اليوم . وكثيراً ما كان شوقى ينص فى توجيهاته المسرحية على أن الشخصية فى موقف مناجاة ، مثلما صنع - على سبيل المثال - فى بداية الفصل الرابع من « مصرع كليوبترة » :

كليوبترة : « كأنما تناجى نفسها »

نام ماركو ولم أنم   وتفردت بالألم

إلى أن تقول :

أيها العين أبصرى   إنما كنت فى حلم

وفى هذه اللحظة تلتفت إلى « شرميون » التى كانت تقف مع « هيلانة » فى أقصى الحجرة والدموع تنهمر من عينيها فتقول لها :

يا شرميون بلغنا موقفا حرجاً   لا الرأى ينفعنا فيه ولا الباس .

ومن الواضح أن تغيير شوقى للوزن والقافية هنا ، فضلا عن المضمون ، يوحى بخروج كيلوبترة من حالة التفرد والاستغراق فى المناجاة إلى حالة الحضور الجماعى .

ويبقى بعد هذا أن بعض الشعر الذى ورد فى مواقف المناجاة مشبع بغنائية تؤهله لأن يلحن ويغنى . وسواء قصد شوقى إلى هذا قصدا أو صدر عنه بطريقة

عفوية فإن هذا المسلك لم يكن بمعزل عن هدف من أهداف المسرح العربي قبل شوقي ، وهو - كما ذكرنا - التأثير في الجمهور عن طريق الغناء . وفي هذا الصدد يقول الدكتور محمد مندور : «ونحن لا نلوم شوقي لتضمينه مسرحياته بعض المقطوعات الغنائية ؛ وكنا نود لو مثلت - كما قلنا - بعض تلك المسرحيات كأوبرا ، وعندئذ كان لابد أن يختفي ما لاحظه بعض النقاد أو معظمهم من أن هذه المقطوعات الغنائية قد جاءت أحيانا دخيلة على بناء المسرحية ، معوقة لسير أحداثها وتطورها نحو خاتمتها»* .

والواقع أن مواقف المونولوج المشبعة بالغنائية لا تصادفنا في كل مسرحيات شوقي الثماني ؛ فعلى الأقل هناك المسرحيتان الأخيرتان ، وهما «الست هدى» و «البخيلة» . هاتان المسرحيتان قد خلتا من الغنائية ، لا لأنهما خلتا من مواقف المونولوج فحسب ، بل لغلبة الواقعية على أحداثهما كذلك . والواقع أن شوقي قد تنبه - بعد تجربته في «مصرع كيلوبتره» و «مجنون ليلى» ، وبتأثير ما وجه إليه حينذاك من نقد - فخفف في مسرحياته التالية من مثل هذه المواقف .

* * *

وعلى الرغم من تنوع مسرح شوقي من حيث مصادر مادته ، ومن حيث أساليب معالجته ، فإن القارىء المتأمل لهذا النتاج في مجموعه يستطع أن يستشف صدور شوقي في هذا النتاج كله عن مبدأ أخلاقي ، يحكم نظرته إلى التاريخ أو ما يشبه التاريخ من جهة ، وفهمه لوظيفة المسرح من جهة أخرى . فهو فيها يختار من أحداث تاريخية يدير حولها بعض مسرحياته يكون مدفوعا بمشاعر وطنية ، وأعراف وتقاليد اجتماعية ، يستهدف تعميقها في نفوس الجماهير وتأكيدها في ضمائرهم . وهو من أجل ذلك لا يفسر غدر كيلوبترة بأنطونيو على أساس من الانحلال في سلوكياتها ، أو ميلها إلى النجم الصاعد آنذاك وهو أكتافيو بقصد إغوائه ، وبرغبتها في تحقيق أمجادها الشخصية ، بل يفسر هذا الغدر في ضوء سياسة وطنية كانت كيلوبترة - في رأيه - تتبناها ، مؤداها أن توقع بين قواد الرومان حتى يفني بعضهم بعضا ، فتتمكن بهذا من بسط نفوذها على مصر وعلى الإمبراطورية الرومانية نفسها ؛ وكأن شوقي قد هدف من هذه المعالجة إلى إحداث نوع من التعاطف بين الجماهير وبينها ، وكسب

* محاضرات عن مسرحيات شوقي - معهد الدراسات العربية العالية ١٩٥٤ ص ٢٠ .

عطفهم عليها . أما أن يكون قد نجح فى تحقيق هذا الهدف أو لم ينجح فهذه مسألة أخرى .

ونفس الشيء يمكن أن يقال عن موقفه من واقعة زواج «نتيتاس» من قمبيز ؛ فهو يميل إلى جعل إقدامها على الزواج من هذا الملك الغريب موقفا وطنيا منها . لقد كان قمبيز قد هدد وطنها مصر بالغزو عندما رفض فرعون مصر أن يزوجه من ابنته . وقيام نتيتاس بدور البديل هو نوع من التضحية بالنفس فداء للوطن . هكذا أراد لها شوقى ، على الرغم من أن رؤ ية أخرى للأحداث نفسها قد تنتهى إلى تفسير آخر لسلوك نتيتاس ، مغاير لما رآه شوقى . وفى هذه الحال يمكننا أن نقبل وجهة نظر شوقى أو نرفضها ، ولكن دون أن نذهب إلى تخطئته . فشوقى لم يغير من أحداث التاريخ الكبرى المرصودة ، ولكنه مضى يفسرها فى ضوء مبدئه الأخلاقى ، ويوجه مغزاها توجيها خاصا ؛ وهذا حق مشروع له ولكل الأدباء ، عندما يتجهون إلى التاريخ ليأخذوا منه مادة موضوعاتهم .

ويرتبط بهذا المنزع عند شوقى ما يمكن ملاحظته من اختياره من حياة الأمة الحقب التاريخية التى تكون فيها فى حالة انكسار ، أو تكون قد ألمت بها فيها بعض الكوارث . فالنظرة العجلى قد ترى فى هذا الاختيار تعارضا مع أهدافه الوطنية ، وإلا فقد كان الأولى به أن يختار الحقب التى يبلغ فيها الوطن أوج الازدهار ، والتى يحقق فيها أمجاده . هكذا كان اختياره لأحداث « قمبيز » و« كليوبترة » ؛ فالأحداث الأولى تنتهى إلى سقوط مصر تحت سيطرة الفرس ؛ والأخرى تنتهى إلى وقوعها تحت سيطرة الرومان . فإذا اتجه إلى الأندلس اختار الحقبة التى أخذ فيها حكم « الطوائف » فى الانهيار ، وعلى وجه التحديد حقبة انهيار دولة المعتمد بن عباد فى إشبيلية . أما فيما يتصل بتاريخ مصر الحديث نسبيا فقد اختار - فى « على بك الكبير » - حقبة تصور انحلال الحياة السياسية والاجتماعية على أيدى المماليك فى زمن الحكم العثمانى . لكن المتأمل فى المسرحيات التى دارت أحداثها فى هذه الحقب يدرك أنها أكثر ما تكون ملاءمة لكتابة « المآسى » المسرحية بصفة عامة . لكن شوقى - مدفوعا بأهدافه الأخلاقية - كان يبحث فى قلب هذه الانتكاسات التاريخية عن البطولات التى تكتسب عندئذ قيمة وأهمية خاصة فيبرزها .

هذا فيما يتصل بمسرحياته الأربع ذوات العلاقة الوثيقة بالتاريخ المعترف به . أما فيما يتصل بمسرحيتى « عنترة » و« مجنون ليلى » فالهدف الأخلاقى يتركز فى تأكيد المبادىء والأعراف والتقاليد التى درج عليها المجتمع . فالقيم والأعراف الاجتماعية السائدة تمثل عند شوقى الإطار المرجعى للحكم الأخلاقى على شخوصه . فإذا اصطدمت مشاعر الفرد بأعراف الجماعة كان على الفرد أن يضحى بمشاعره فى سبيل تحقيق هذه الأعراف . وفى هذا يتمثل الصراع الذى كتب على الشخصية المأزومة عنده أن تخوضه . وهذا المنحى يدل على رغبة شوقى فى عدم الاصطدام بالتقاليد والأعراف ، أو إحداث أى هزة لها ، وميله - على العكس - إلى تأكيدها .

إن ليلى حين خيرت فى الزواج بين قيس وورد لم تتردد فى اختيار ورد ، على الرغم من حبها لقيس . على أن رفضها لقيس لم يقم على أساس من مبدأ نابع من ضميرها الشخصى ، بل من ضمير الجماعة التى كانت تأبى للفتاة أن تزف إلى من شبب بها فى شعره ، وكشف عن مشاعر الحب نحوها . فالتقاليد القبلية إذن هى التى اصطدمت برغبة ليلى ، فضحت بحبها أو بالزواج ممن تحب ، إبقاء منها على تلك التقاليد . وكذلك كانت التقاليد القبلية - على نحو آخر - هى المتسلطة فى « عنترة »

وعلى الجملة يمكن أن يقال إن التزام شوقى الأخلاقى بوجهيه الوطنى والعرفى هو المسئول عما يكشف عنه تحليل الصراع فى مسرحياته التاريخية وشبه التاريخية من نجاح أو إخفاق .

* * *

وكل من يتأمل مسرحيتى شوقى الأخيرتين ، « الست هدى » و« البخيلة » ، يدرك التطور السريع الذى حققه شوقى فى مجال الدراما الشعرية . وهذا التطور يتمثل فى عدة مستويات .

فعلى مستوى الاتجاه العام خرج شوقى نهائيا من إطار المأساة الكلاسيكية وانتقل إلى الملهاة الواقعية . وقد استتبع هذا انصرافه عن شخوص الملوك والأمراء . وعن الشخوص الذين صنعت الرواية الشعبية من حياتهم أسطورة ، واتجاهه إلى شخوص

عاديين مألوفين من طبقة البرجوازية فى مجتمع المدينة الذى عاصره . والطريف أن الشخصية الرئيسية فى كلتا المسرحيتين شخصية نسائية . فالست هدى امرأة ثرية ودميمة ، يطمع أزواجها الواحد بعد الآخر فى أن يرث ثروتها . والبخيلة كذلك امرأة تكتنز الثروة وتحرم نفسها وكل من حولها منها . ومن ثم كان أساس الدراما فى المسرحيتين هو المفارقة . والمفارقة من شأنها أن تثير الضحك ، ولكنها قد تنطوى كذلك على نقد لاذع . وبهذا تسجل هاتان المسرحيتان تطورا فى إنجاز شوقى الدرامى على مستوى الموضوع والتناول .

وقد استتبع هذا كله تطورا ملحوظا على مستوى الأداء اللغوى والشعرى . فاللغة فى هاتين المسرحيتين قد اقتربت إلى حد كبير من لغة الكلام وإن حافظ الشعر على تماسكها .

ومن جهة أخرى اكتسب الشعر كثيرا من المرونة والحركة نتيجة لتطويعه لمقتضيات الحوار . وسوف يلاحظ قارىء هاتين المسرحيتين إلى أى مدى امتزجت اللغة فيها بالشخوص وصارت دالة عليها ، وإلى أى مدى استوعب الشعر الإيماءات والنكات والتعبيرات الشعبية دون أدنى افتعال أو تكلف .

* * *

وبعد فليس الهدف هنا تقديم دراسة أو ما يشبه الدراسة لهذه المجموعة من المسرحيات ؛ وإنما هى كلمة تقديم لها ، لن تحول بحال من الأحوال بين القارىء وما ينتهى إليه من آراء خاصة . وقد اقتضى هذه الكلمة إصدار هذه المسرحيات الثمانى مجتمعة فى مجلد واحد ، بعد أن صدرت كل مسرحية منها فى كتاب على حدة . والحق أن معظم هذه المسرحيات قد طبع خلال الخمسين عاما الماضية عدة طبعات . أما مسرحية البخيلة فلم يسبق نشرها فى كتاب قط ، إلا فى هذه الطبعة التى تصدرها الهيئة المصرية العامة للكتاب . وقد كان من أثر الطبعات المختلفة غير المسئولة لتلك المسرحيات أن كثر فيها التحريف والتشويه والأخطاء اللغوية والعروضية ، وتداخلت فيها أحيانا أقوال الشخوص واختلطت على نحو يفسد

المشهد . وكان لابد من تدارك هذه الأخطاء والعيوب جميعا ، وإصدار هذه الطبعة الجديدة من هذه المسرحيات ، محررة ومدققة قدر الطاقة ، ضمن مشروع لإصدار أعمال شوقى الكاملة ، على نحو يليق بمكانته الأدبية فى تاريخنا الحـديث ، ووفاء لأجيال المستقبل .

القاهرة فى ١٦/١/١٩٨٤

عز الدين إسماعيل

أحمد شوقى

الأعمال الكاملة

المسرحيات

عنترة

تمهيد

زمن الرواية : حوالى منتصف القرن الأول قبل الهجرة

مكان الرواية : بادية نجد — أحياء عبس وعامر وما بينهما

أشخاص الرواية :

عنترة ، فارس بنى عبس ، أسود اللون لأمه .

عبلة ، محبوبة عنترة وابنة عمه .

مالك ، أبو عبلة ، وعم عنترة ، وهو سرى من سراة عبس .

زهير
عمرو ، إخوة عبلة .

صخر ، سرى من سراة عامر يحب عبلة و يتردد على حيها و يخطبها .

ضرغام ، فارس شاب من فرسان عبس يحب عبلة و يخطبها كذلك .

ناجيـــة ، فتاة من عبس تحب صخرا .

شـــدّاد ، أبو عنترة .

داحس ، رفيق عنترة .

مارد
غضبان ، عبـــدان .

رســـتم ، قائد الفرس .

ســـعاد ، خادم عبلة .

نكرات مسرحية ، رجال وخدم وفتيـات من عبس وعامر
راقصـات ومغنيـات و زامرون ،
ولصوص ...

الفصل الأول

« عين ذات الأصاد فى يمين المسرح وقد حفت بالنخيل. »
« وفى اليسار مضارب بنى عبس ، وأظهرها خيمة مالك الحمراء »
« التى يبدو جزء منها حوله ومن ورائه فضاء. فى جبهة المسرح ربوة »
« عالية وكثبان من الرمال تستوى بالأرض من ناحية اليمين. »
« الوقت فى مطلع الشمس وقد وقف عنترة أمام الخيام باديا »
« عليه النصب والكلال ، يسمع نباح كلاب من وراء الخيام »

المشهد الأوّل

عنترة :

سَلِي الصبْحَ عنِّى كيفَ ياعبلَ أُصبِحُ ... وأينَ يَرانِى نَجْمُهُ حِينَ يَلْمَحُ
أفى خيْمَتِي كالنَّاسِ أمْ فى بيُوتِكُمْ ... أَبُثُّ الخيامَ الشوْقَ وهْو مبرِّحُ
أُقبِّلُ أطنابَ البيُوتِ ورُبَّما ... تلفَّتُّ عن مُنْهَلَّةِ الدمعِ تسفَحُ
أرَى بِوُقُوفِى فى دِيارِكِ راحةً ... كما يَستريحُ ابنُ السبيلِ المطَرَّحُ
أبوكِ غَريرُ القلبِ لم يعْرِفِ الهَوى ... ولم يَدْرِ ما يأسُو القلوبَ ويَجرَحُ

يَخِفُّ لواشٍ يشرحُ الزورَ سمعُهُ وفى أُذْنِهِ وقرٌ إذا جئتُ أشرحُ
أرى الغيدَ من حولِى وفيهنّ سَلْوةٌ فَمَالِى أَردُّ القلبَ عنكِ فيَجْمحُ
فما سرَّنى منهنّ ما كان يُشتهى ولا رَاقَ لى منهنّ ما كان يَمْلُحُ
أَحِيدُ عن السَّارِى لكى لا يَريبُكم وأُقْصِى كلابَ الحىِّ عنّى فتنبحُ
فياعبلَ قد طالَ التّنائِى وظلُّهُ متى بتدانِينا الحوادثُ تَسمَحُ؟

[يصعد الربوة من اليمين]

ياليت حبّكِ عبلَ لى حبُّ القَطَاةِ لِشكْلِها
أو حبُّ قُبّرةِ الصّفا لأليفِها وخِلِّها
أو مثلُ حُبِّ نَجيبَةٍ مجنونةٍ فى فَحْلِها
ليتَ افْتتانَكِ لم يكُن بِشجَاعتِى وبِفَضْلِها
أو ليتَ حبّكِ لم يكن لقصائِدى وَلِنُبْلِها

[يهيئ لنفسه مضطجعا وراء نخلتين على الربوة تحجبانه عن سائر المسرح جهد المستطاع ثم يرقد ويعلو نباح الكلاب وثغاء الشاء وصياح الديكة ويمرّ به فتيان سائران على الربوة وقادمان من ناحية الخيام]

المشهد الثانى

أحد الفتيين: ماذاك؟ مَنْ؟ قِفُوا، انْظُرُوا جُلمودُ صخرٍ أم جَسَدْ؟
الآخر: هذا الفَتَى عنترةٌ كلُّ السُّرى له وُسُدْ

قَـدِ الْتوَى كالأُفعُـوا نِ وتَمطَّى كالأَسَـدْ

[يهبط الفتيان الربوة ويختفيان
ناحيـة اليمين وراء النخيل ويسمع
صوت هاتف من وراء الخيام]

المشهد الثالث

الهـاتف : الديكُ عِندَ البُيوتِ صاحَا يا حيَّ عبْسٍ عِموا صَبَاحَا
حيِّ هلَا يا رُعاةُ هُبُّـوا هاتُوا المَواشِي خُذُوا البِطاحَا
هلُمُّنَ ياراعياتِ عَبْسٍ الرِّعْيَ والحلْبَ والفَلاحَا

[يخرج صبية وجوار من كل ناحيـة فى الحى مارّين بالخيمة الحمراء ومتجهين الى الحظائر وراء النخيل بينما يجلس جماعة من الجوارى على حفافى العين يملأن الجرار ومن بينهن ناجيـة ثم تخرج عبلة من الخيمة الحمراء وتقف أمام بابها تمطى وتتثاءب]

المشهد الرابع

عبـلة : وَادى الصَّفا تَجَاوَبتْ وزَقْزَقَتْ عصَافِـرُهْ
وَانتبَهتْ خِيَـامُـه وَاستيْقَظتْ حَظائِرُه
صاحَتْ هُناكَ شاؤُهُ وَهَهُنَـا أَباعِـرُهْ

أوّلُهُ فى لُجّـةِ الـــفَجْرِ جَرَى وآخِرُهْ
نَبَــاتُهُ ومَاؤُهُ وظِلُّفُـهُ وحافِـرُهْ

فتاة تتغنى : جِئْنَ الصفا يا عَذَارى وآملأْنَ منـهُ الجِرارَا

الأخريات متغنيات :

جِئْنَ الصـفا ... ...

الأولى وحدها :

ماءً من الفَجْرِ أصْفَى فرِدْن صـفًّا فصـفًّا
واقعدْن فَاضرِبْن دُفّا وقمْنَ فاضرِبْنَ طارَا

الأخريات: جِئْن الصفا يا عذارَى وآملأْنَ مِنه الجِرَارَا

الأولى : تلك دُموعُ الغَوادى جُمِّعْنَ من كلِّ وادِ
فى عينِ ذاتِ الأصادِ ثم انفجَـرْنَ انفِجَارَا

الأخريات: جِئْن الصفا يا عذَارى واملأْن منـه الجِرَارَا

الأولى : رِدْنَ القَـراحَ الزُّلالا رِدْنَ الرَّحيقَ الحلَالا
فمـا سـقَى منْذُ سَالَا كمثْـلِ عبْسٍ دِيارَا

الأخريات: جِئْن الصّفا يا عذَارى وآملأْنَ منـه الجِرَارا

[تدخل عبلة خيمتها و يمرّ صخر أمام الخيام متهاديا
واقفا فى المسرح هنا وهناك بين الحين والحين]

المشهد الخامس

إحدى الفتيات : ناجيةُ اسمَعي انظُرى مَنِ الفتى يا ناجِيَه ؟
ذاك الفتى المُهندَمُ الـ حُلْوُ الرقيقُ الحاشِيَهْ

ناجية : كيف ألم تَرَيْه قبْلَ هذه فى النَّاحِيهْ ؟

الفتاة : للهِ ما أظرفَهُ

ناجية : أحببتِهِ يا غاوِيَه
خلِّيهِ فهْوَ مغرمٌ صَبٌّ بأخرى ساليَهْ

الفتاة : مَن الفتى ؟

ناجية : مِن عامرٍ أبوهُ موفورُ النِّعَمْ
يقالُ فى حِظارِهِ ألفانِ من حُمرِ النَّعَمْ

الفتاة : يحبُّ مَن ؟ يعبدُ مَن ؟ يا ليتَنِى كنتُ الصَّنَمْ

ناجية : إن التى هامَ بها بغيرِ عبدٍ لم تَهِمْ

الفتاة : عبلةٌ ؟

ناجية : لِمْ لا ؟ إنها اليومَ حديثٌ للأُمَمْ
صيَّرها عنترةٌ نارًا على رأسِ علَمْ

[تظهر عبلة على باب الخباء]

المشهد السادس

ناجيـــة :

خيمتـــكِ الحمـــراءُ يا عبـــلَ لعـمْرى فاخـــرهْ
تصـــلُحُ أن يَســكُنها عقـائـــلُ المنـاذِرَهْ

فتـــاة :

مُتِّـــعْتِ يـــا أُختُ بهـــا ولا تَـــزالُ عامِـــرهْ
وعاشَ أهـــلوكِ وعاشَ مالكٌ وعِشْتِ فى بيْتِكِ ياعبلَ المدى
مَـــعْ رَجلٍ كأنه ليثُ الوغَى

صخـــر : بل رَجلٍ كأنهُ بدرُ الدُّجَى

عبـــلة :

بدرُالدجى؟ لا . ليس ذاكَ بُغْيَتِى نحنُ الغوانى حسبُنا بدرُ السما
إنْ كان فى الأسْمارِ باتَ عندَنا أو فى الكَرى علَى المضاجِعِ انْحنَى
البـدرُ فى بِيضِ لياليـهِ مَعِى

صخـــر : ماذا تُريدينَ إذنْ ؟

عبـــلة : ليثَ الشَّرَى
أُريدُ أَجلادا شـديدَةَ القُوى وساعِدًا خشْنا بجُلْمودِ الصَّفَا

صخـــر :

وسِخْنـــةً كأنمـا قـد قُلِّبَتْ على هَبابِ القِـدرِ وجْهًا وقفَا

عبـــلة :

تُريدُ أن تسخَرَ من عنترةٍ؟ بيِّن كفَى يا صخرُ تعريضا كَفَى

إن كنت كالفتيانِ فامْضِ لاقِهِ

صخـــر : أنا ؟ أُلاقيـه أمجنونٌ أنا؟

لِمْ لاتقولينَ القَ حيَّـةَ الصَّفا أو أسد الصحْراءِ أو ذئبَ الفلا

عبـــلة : خَلِّكَ منه صخرُ لاتقْتَبس به لا تقْرِنْ صخر بفارِسِ الوغَى

صخـــر : الحقُّ أنى يابنـا ت عبْسَ خانَنى الصَّبرْ

سئمتُ من عنترةٍ ومن ثَنائه العَطِرْ

ومن حديثِ بأسِه ومن نُعوتهِ الأُخَرْ

وفتنــةِ البَــدوِ بهِ وشأنِه بينَ الحضَرْ

أكُلُّ ذئبٍ رِئْبُه وشَــبْعُه من البَشَرْ

وكُلُّ ليثٍ فاتِك وكُلُّ حيّـةٍ ذَكَرْ

وكلُّ سيْلٍ لم يدعْ وكُلُّ ريحٍ لم تَـذَرْ

عنـدَ الرجالِ والنسا ءِ كائنٌ له خطَرْ؟

عبـــلة : خلِّينَ صخرًا دعنْــهُ قد قتلَ الفتَى الحسدْ

إسمعْنَ شاةَ عامرٍ ماذا تقولُ فى الأسَـدْ

صخـــر : شاةٌ أنا يا بنات عبْسٍ إحسَبْتِنِى الشاةَ مايضُرُّ؟

فى الشاةِ واللهِ كلُّ خيرٍ وليس فيها أذًى وشرٌّ

مِزاجُها هادِئٌ لطيفٌ وشكلُها رائقٌ يَسُرّ

عبلة [ضاحكة]: اضحكن يا بناتْ العامرىّ شاةْ

[ثم الى صخر]: بُسبُسْ تعالَىْ بُسبُسِ

أخرى : هُس شاةَ عامرٍ هُسِي

خُذى كُلِى مِن تُرمُسِى

صخر : شهِدَ اللهُ قد أسأتُنّ فهْما

عبلة : نحنُ؟ بل أنتَ قد أسأتَ مَقالاَ

صخر : ما الذى قلت؟

عبلة : قلتَ ماقيمةُ البأ سِ وصغَّرتَ عِندنا الأبطالاَ

صخر : إنما قلتُ تأخذُ الذئبةُ الذئبَ وتُعطَى اللباءةُ الرئبالا

وابنةُ الناسِ لابنهِمْ فَقدِيمًا سَخَّر اللهُ للنّساءِ الرِّجالاَ

عبلة : لا تريدُ الرجالَ يا صخرُ إلا جُبَناءً أذلّةً أنذالاَ

صخر : بلْ أريدُ الحياةَ خيرًا وسِلْما ليس شرًّا سبيلُها وقتالاَ

أريد الجمالَ لهذا الجمالِ وأبغى الشّبابَ لهذا الشّبابْ

ويحزُنُنى أن تُزَفَّ الظِّباءُ الى أُسُدِ الغابِ أو للذِّئابْ

وأن تُحمَلَ امرأةٌ كالشُّعاعِ عَروسًا الى رجُلٍ كالهَبابْ

وفى البيدِ كلُّ فتىً كالسِّراجِ اذا أظلَم الليلُ أو كالشِّهابْ

عبلة : جميلٌ وليس بحامِي البيُوتِ ولا مانعٍ مِن يَدٍ مَالَه
اذا ماعوى الكلبُ ضلَّ السلاحَ وبلَّ من الخوفِ سِروالَهُ
يجودُ بزوْجتِــهِ للغُــير ويَرْمِى الى الذئبِ أطْفَالَهُ

صخر : ومَن تعنينَ يا عبلَ؟

عبلة : ومَنْ يا صخرُ من تَعْنِى؟
لقد أسرفتَ فى التعْرِيضِ باللَيْثِ وفى الطعْنِ

[تسمع ضجة وأصوات استغاثة من ناحية الخيام]

عبلة : وَيْحَ جيرانِى وَوَيْحِى صرخاتٌ وصَفِيرُ
وعلى الخيمَاتِ أشْبَاحٌ وأقْدامٌ تدُورُ
أتُرى قد نزَلَ اللّصُّ بعَبْسٍ والمُغِيرُ؟

صخر : الحيــاة الحيــاه النجــاة النجــاه
الفِــرار الفــرار الفِــرار الفِــرار

[يفر الجميع من هنا ومن هناك وتبقى عبلة وحدها فتخرج اليها من الخيمة الخادم سعاد]

المشهد السابع

سعاد : سيِّدتِى هىَّ اهرُبِى جَمْعُ الشَّياطينِ اقتَرَبْ

عبلة : أهرُبُ؟ لا! ما فى طِبَاعِ العَرَبِيَّاتِ الهرَبْ

نحنُ ثِنتانِ يا سُعادُ تعالىْ بجانبي
بلْ قِفي حيثُ أنتِ في طَرَفِ البابِ راقِبي

سعاد : ومَعي

عبلة : ما الذي حمَلْتِ ؟

سعاد [وتظهر خنجرها] : خَليلي وصاحِبي

[تدخل عبلة الخيمة ويسمع صوتها
من الداخل وترى من الباب]

عبلة : خنجرٌ مِثلُ خنجَري جَرِّديهِ تأهَّبي
خنجري أينَ خنجري اليومَ مِنِّي هُوَ ذا خنجري تعالَ أُغنِّي
حُطْ عفافي وَحامِ عن قُدُسِ العُزَّى ورُدَّ اللصوصَ عنها وعنِّي

[تتجه عبلة الى صنم بداخل الخيمة]

عُزّايَ قوِّي يَميني عُزّايَ لا تخذُليني
أبي تأخَّرَ عني وإخوتي تركُوني
وأين عنترةُ اليومْ أينَ حامي العَرينِ؟
لوْ كانَ في أرضِ عبسٍ بلجَرَّدَ السيفَ دُوني

عُزّايَ معبودَ ثَقيفْ وإلهةَ العَرَبْ
إنَّ اللصوصَ طَمِعوا فيما عليكِ مِن ذَهَبْ

لن يسلُبوكِ شَــعْرةً وفِىَّ عِرْقٌ يَضطرِبْ

[تخرج عبلة]

كيمِ الرِّجالُ، هلُمِّى قُومِى انْظرِى يا سُعادُ

[تدور سعاد حول الخباء فى حذر ثم تعود]

ســعاد : ســيِّدتى لا تُراعِى حــوْلَ الخِبـاءِ ثلاثَهْ

وجوهُهُــمْ كالجِنَـاتُ وبالثِّيَـابِ رَثَاثَــهْ

المشهد الثامن

« يظهر أحد اللصوص فتختفى الفتاتان وراء باب الخباء، حتى إذا حاذى الباب طعنته عبلة فى ظهره »

عبلة [هامسة]: ذِئبٌ؟ تعالَ خُذْ، مُتِ قَتلتُــهُ بِضَــرْبةٍ

المشهد التاسع

« يظهر لص آخر تطعنه سعاد »

سعاد [هامسة]. وأنتَ أيْضـا يا شَـقِى خُذْ امضِ مُتْ بهِ الحَقِ

اللص [ممددا على الأرض] :

آهٍ من الخَنَاجِرْ

الأول : شلَّت يمينُ الغَادِرْ

[يظهر لصوص آخرون
من هنا وهناك وراء الخباء]

المشهد العاشر

سعاد : سيِّدتِى

عبلة : سُعادُ ماذا؟ ما الخَبَرْ؟

سعاد : سيِّدتى الآنَ نُواجِهُ الخَطَرْ

سِرْبٌ من الذئابِ نحوَنا انحَدَرْ

عبلة : بَلْ هُو ذا سُعادُ فى البيْتِ انفجر

قِفِى سُعادُ ناحيهْ دونَكِ تلكَ الزاوِيَهْ

سعاد : وأنتِ مِن وَرَائِيَهْ

عبلة : لا بلْ مَكانى هَهُنا فَرِبَّةُ الدّارِ أنَا

سُعادُ لَلْمنيّهْ أحْلَى مِنَ الدَّنيّهْ

ولا يَزِيدُ فى العُمُرْ شيءٌ اذا الموتُ حَضَرْ

هيَّ ابنَتِى تقنَّعِى وناوِلِينِى بُرْقُعِى

وقاتِلِى الجمعَ مَعِى

أحد اللصوص : السلاتُ أكبرْ ما ذاك ؟

عبلة : خنجرْ

[تحاول أن تطعنه فيمسك بذراعها و يمسك لص آخر بذراعها الأخرى و يقبض لصان آخران على سعاد]

اللص : ما للبرقعاتِ والخناجرِ يحملنها؟

عبلة : لردعِ كلِّ فاجرِ

لص آخر : تعالَيْ اسفِرى ارفعِي ما ذَا وراءَ البُرقُعِ؟
الآنَ تمضينَ معِي !

[يحمل بعض اللصوص عبلة وسعاد الى ما وراء الستار من ناحية اليسار فتسمع استغاثة عبلة من هناك بينما يبقى فى المسرح سائر اللصوص]

المشهد الحادى عشر

عبلة(مستصرخة) وَاعنْترا وَاعنترا ليتكَ عِندى فترَى
حَلَّ الذئابُ ساحَتِى إلىّ ياليثَ الشّرَى

أحد اللصوص : الخيْمَةُ الحمْرا القُبَّةُ الكُبْرى
هُنا روائعُ التُّحَفْ هُنا نَفَائِسُ الطُّرَفْ
هُنا عصائبُ اليَمَنْ ووشْيُها الغَالى الثَّمَنْ

آخر [ممسكا بخناق أخيه] :

بُشرایَ دعْ یا ابنَ الزنا القُـرْط لِی

بَلْ لِي أنَا

آخــر :

الأوّل : السـيْفُ بيْنَنا حَكَمْ

الثانى [و يطعنه] : خُذْها وما شِئتَ فَنَمْ

الثالث : لا لَكَ القُرْطُ وَلا لَهْ

[ثم يطعن الثانى]

أَعطِنيــهِ يا حُثَالَهْ

[ضجة الغارة مستمرة من وراء الستار . يقدم من يسار الربوة المرتفع شـداد ومالك فيهرب اللصوص و يعثر القادمان بعنـترة وهو نائم]

المشهد الثانى عشر

شـداد : أضجْعَةً يا عَبْدُ والحيُّ سُبِي

عنـترة : مَنِ المُنادِي؟ سيِّدى: صوْتُ أبِي ؟

شـداد : ماذَا يَقولُونَ غدًا فى العَـربِ !

[يظهر من يمين الربوة بعض الهاربين]

المشهد الثالث عشر

أحد الهاربين :

أُبِيحَتِ الحِظارُ والخِيـامُ واختُطِفَتْ بجروةُ يا هُمَامُ

مالك : وأفرسًا طارَ بِهـا الطَّغَامُ !

مالك [لعنترة] : عنترَ قُمْ ردَّ عليَّ جَرْوَتِي

عنـــترة [ببرود] : سِرْ أنتَ أَنقِذها وابعثْ إخوتِي
وخَلِّنِي أَغنَمْ لذيذَ غفوتِي

[ويرقد]

هارب آخر : يا سـيِّدَ الماء ليْسَ لنا الماءُ
أُطرِدَتِ الإبلُ وسِيقَتِ الشّاءُ

شـــداد : يابنَ شدّادَ

عنترة [بتهكم] : ما أنا ابنٌ لِشدّادَ ولكنْ عبدٌ يَسُومُ ويَسْقِي
لستُ من عبسَ لا، ولستُ لكَ ابنًا لونُ أُمّي أفاتني منكَ حَقّي

شـــداد : قُـمْ يافتى عبسٍ انْهَضْ ذُد عنْ حَريمِي وعنّي
إذا رَدَدْتَ السبايا فأنتَ عنترةُ ابْنِي

عنـــترة : ياسـيِّدَ الحيِّ قُـلْ لي مَتى فَطِنْتَ لِشأْنِي
أأنتَ ذا تَدّعيـني وكنتَ تـبرأُ مِنّي؟

هارب ثالث : يا سـيِّدَ الوادِي هيَّ آحِيهِ هيَّ
عبـلةَ ...

عنترة [ناهضا] : ما الخطْبُ ؟

الفـــتى : سُلَّتْ مِنَ الحيّ

عنـترة :

أنا كالليث ما الهزيمة في طبعى وليس الفرار لى في جِبِلَّهْ

أنا حُرٌّ وإن أبت عبْسُ والنا س وآبائى السَّراة الأجِلَّهْ

لا لِحُرِّيَّتى أموتُ ولكنْ حبذا الموتُ في سبيلك عبْلَهْ

[يسمع صوت استغاثة من وراء الستار]

المستغيث : عنـترةَ البـأسِ ويا عـزيزَ الجـارْ

تـلك نِسا عبْسٍ حـلَّ عليها العـارْ

عنـترة : لبيْـك يا عبـسُ يا عبْـس لَبيْـك

عنـترةُ الـروْعِ أمِّنَ سِربَيْـك

[يسمع صوت عبلة من بعيد ومن وراء الستار]

عبـلة : واعنـترتا واعنـترتا

عنـترة : لَبيْك عُبيْلَ الليْثُ أتى

عبلةٌ يا عبـلَ لا تُراعى لبيْـك بالسيف بالقَناةِ

يا عبلةَ القلْبِ لا تُراعى لبيْـك بالرُّوح بالحياةِ

تأمَّلى غضْـبَتى ترَيْهـا كغضْبةِ الليْث لِلُّبـاةِ

[يظهر جماعة من اللصوص من ناحية الخيام يحملون أسلابا ، ويحاولون الهرب عن طريق العين حينما سمعوا صوت عنترة فيهبط عنترة من الربوة ويقطع عليهم الطريق]

المشهد الرابع عشر

عنترة : يا سَرَقَهْ يا فَسَقَهْ — الليثُ جا
رُءُوسَكم نُفُوسَكم — أوْ فالنَّجا
خَلُّوا الحُلى — دَعوا الوُسُدْ
من يَخْتَلِسْ — حَبْلَ مَسَدْ
فَوَيْلُهُ — مِنَ الأسَدْ

[يهجم عليهم]

كُونُوا ذِئابَ الفَلَا — إنِّى أنَا القَسْوَرَهْ
أحد اللصوص : عنترةٌ جاءَكُمْ — عنترةٌ عَنْتَرَهْ
عنترة : رُدُّوا الحُرَمْ الى الخِيَمْ — سُوقُوا النعَمْ الى الحِظَارْ
هلُمُّوا يا ذِئابَ القَفْرِ — لاقُوا السيْلَ والنارَا
هلُمُّوا جمعَكُمْ وابْرُوا — رِياحًا أجرِ إعْصَارَا
فهذا اليومُ فى البِيدِ — سيبْقَى بيْنَنا ثارَا
مَن يَبْرِزْ باللَّيْثِ من؟ — حَذَارِ من بطْشِى حَذَارْ
هاتُوا القَنَا ألْقُوا هُنا — إنى أنَا سَيْلٌ وَنَارْ .
أحد اللصوص : زَمْجرةٌ قَسْوَرَةٌ — عنترةٌ هيُّوا الفِرَارْ
آخــر : بَل اهجموا وأقْدِمُوا — لا تُحْجِمُوا فَذاكَ عارْ

أسيد : مكانكمْ ياقومُ لا تفرَّقوا كمْ ذَامنِ العبْدِ الى كمْ نفرقُ ؟

[لعنترة] : هَـلُمَّ عنترَ القَـنِي تُسْق الرَّدى أو تَتَّقِي

عنترة : مَنِ الفتى ؟

أسيد : ابنُ حُرةٍ!

عنترة : عرَّضْتَ يا أحمقُ بي

أنا ابنُ شـدّادَ فمنْ أبوكَ؟ جِئْـني بِالأبِ

أسيد : أبى مُعَـانِقُ الأسَـلْ سَلْ عنْ أبي مَنْ شِئْتَ سلْ

عنترة : شـــــدّاد أعلَى وأجَـلْ

أحد اللصوص : صَاحِبُكم وعنترهْ يا عجبًا هيّوا نَرَهْ

أُسَـيْدُ شهمٌ أَسَـيْدُ باسِـلْ

تعـالَ ننظُـرْ كيفَ ينُـازِلْ

ليثَ الصحارَى غـولَ القبَائلْ

[يطعن عنترة أسيد فيرديه ثم يجرى الى ماوراء الخيام باحثا عن عبلة ووراءه مالك وشداد]

المشهد الخامس عشر

لـص : أُسيْدُ عِش أنتَ اسيْدُ يَستاهِلْ

من يَطفر النـارَ فليس بِالعَـاقِلْ

آخــر : هــذا القَــدَرْ مَن يقتحِمُــهْ
هــذا الصخرْ مَن يَصــدِمُهْ

[يفرّ اللصوص من اليمين ويدخل عنترة
وعبلة من اليسار ووراءهما داحس وسماد]

المشهد السادس عشر

عنـــترة :

لبيك عبلةُ يا فِداكِ حَيــاتِي ... نادِى يُجِبْكِ مُهنَّدِى وقَنــاتِى
لو رَنَّ صوتُكِ فى جَوانِبِ حُفرَتِى ... لبّــاكِ من تُبَجِ الترابِ رُفاتِى
البِيدُ تحتَ يَدِى وتحتَكِ ضَيْعةٌ ... أنا لَيْثُ غابَتِها وأنتِ لَبــاتِى
رُوِّعتِ بِنتَ العَمّ ؟

عبــلة : مِمَّ ؟

عنـــترة : ألم يرُعْ
مَرْأى البُزاةِ حَمامَتِى وقَطاتِى

عبــلة :

مَرْأى البُزاةِ ؟ ترَى اللصوصَ بَوازِيا ... هُمْ دونَ ذلك ، هُم حُداةُ [illegible]
جُبناءُ خَطّافونَ أكبرُ همِّهمْ ... عكازُ شَــيْخٍ أو حُلِيُّ فتــاةِ

عنترة : ماذا لقيتِ من اللصوص؟

عبلة : بَل امضِ سَلْ

[تشير الى قتيلين على باب الخباء]

هذينِ كيفَ تلقيا طعناتى

أنا وابنتى هاتيكَ جندلناهما

عنترة : حقٌّ سعادُ فعلتِ

سعاد : سَلْ مَوْلاتى

عنترة :

أجَلْ أرى جثةً وأخرى داحِسُ ماذا ترى؟

داحس : دِمَاءَ

عنترة : أأنتُما تقتلان

عبلة : لِمْ لا؟

عنترة : من قلّدَ الخنجرَ الظِّباءَ؟

عبلة : ذِئابُ قَفْرٍ مَشَتْ إلَيْنَا كَوَالِحاً تُضمِرُ العَدَاءَ

عنترة : وأيْنَ كانَ الرجالُ ؟

عبلة : سَلْهُمْ

عنترة : وكيفَ لم يَسْمَعُوا النِّداءَ؟

عبلة : لقد تلفتُّ لم أجِدْهُمْ ولم أجِدْ حولِيَ النّساءَ

عنترة [ملتفتا لداحس] :

دَاحِسُ صِحْ وأَسْمِعِ وَنَادِ ، عبْــلَةٌ مَعِى
وَأَنَّهَا سَالِمَــةٌ وأنَّها لَمْ تُــرَعِ

[تدخل سعاد الخباء وينادى
داحس من وراء الخيام]

المشهد السابع عشر

داحس : ياعبْسُ بُشْرى لكُمُو قد وُجدتْ أختكُمُو
عنــتَرَةٌ حيالَكُمْ وعبــلةٌ بَيْنَكُمُو

عبــلة : عنــترةٌ ؟

عنــترة : عُبيلةٌ

عبــلة : مِن أَيْنَ ؟

عنــترة : مِن طولِ السُّرى
سَرَيْتُ أبْغِى الحىَّ ليــــلِى كلَّه حــتى دنا
وجِئتُ فى مُنبلَجِ الـــصّبح أسابِقُ الضُّحى
عساىَ أرعَى شاءَكُمْ كعادَتى فيمَــنْ رَعَى

عبــلة : لا لستَ تَرعى الشاءَ يا عنــترَ بل تَرعى الحِمَى
وأينَ يابنَ العــم كنتَ لم تَزُرْنا مِن مَدى

عنـترة : في عالَمِ الدنيـا وفي وادِي الحياةِ وفي شِعابِهْ
في البِيدِ عبلةُ في عَرِيـــــنِ الليْثِ في سلطانِ غابِهْ
عبـلة : سعاد

[تخرج سعاد من الخباء ويعود داحس من وراء الخيام فيصعد الربوة ويختفي وراء النخيل]

المشهد الثامن عشر

يا بنت اذهبي جيئي بتمر ولبن

[تدخل سعاد الخباء]

المشهد التاسع عشر

عنـترة :

أجلُّ لي ثلاثٌ ألبَسُ البيدَ حائرا كما يلبَسُ الليـلَ الطويلَ سقيمُ
اذا قمتُ من ذئبٍ عثَرتُ بحيّةٍ طريقٍ مَنايا كلُّه وسُمُــومُ
أهيمُ على وجْهي وقلبي من الجوَى على وجهِهِ بين الضلوعِ يهيـمُ
ويهـدأُ إلا حيـن تهتزُّ بانةٌ ويُطرِقُ إلا حينَ يشخَصُ رِيمُ
أجيءُ حِماكُم من نجومٍ بعيـدةٍ وترجِعُ بي مِن حيثُ جئتُ نُجومُ
ويحزُنُني يا عبـلَ أني أزورُكم فيصرِفُ عمّي الوجهَ وهْو كريمُ
يكاد يَسُلُّ السيفَ حين أجيئُه ويوقِدُ نارَ الطرْدِ حيـن أريمُ
نخاضَ الموالي في حديثي وأقبلتْ عليَّ مِن الوادي الظنونُ تحـومُ

وكم رامَ وُدّى فى القبائل سيدٌ وَوَدّ مكانى فى الديارِ زَعيمُ
ولو لم يَكُنْ يا عبلَ عمًّا ولا أبًا لِعبلَةَ سيمَ الخسفَ وهْو كظيمُ

عبلة :

تَسومُ أبى خسْفاً ؟

عنترة : مَعاذَكِ عبلَتِى

مَعاذَ الهوَى أنِّى إذن للئيمُ

ولكنّ عمّى جارَ

عبلة : هبْ لىَ ذنبَه

وهَبْنِى التى جارَتْ أكُنتَ تَلومُ؟

عنترة :

عُبيلَةُ جُورِى واتركى عمّنا يَجُرْ فإنى على عهْدِ الهوَى لَمقيمُ

[تخرج سعاد من الخباء حاملة قصعة فيها حجيع
وهو طعام يصنعه العرب من التمر واللبن ، فتضع
القصعة على الأرض وتدخل من حيث خرجت]

المشهد العشرون

عبلة : عنترَ خذْ قاسِمْنِىَ الحَيِيعا

عنترة : هاتى فقد كدتُ أموتُ جوعا

[يجلسان الى قصعة الحجيع فتتناول
عبلة بضع بلحات تعطيها الى عنترة]

عنـــترة :

حَسْبِي النوى عبلَ ما في التَّمْرِ لي أربٌ   مُنــاىَ كلُّ نواةٍ خالَطَتْ فاكِ

التمــرُ أطيبُ ما فيـهِ النواةُ اذا   مرّتْ بثغرِك أو مسّتْ ثناياكِ

لقد مررْتُ بوادٍ غيرِ ذى شجرٍ   نضْرٍ وإن لم يُصبْه الغيثُ ضحّاكِ

مُطيَّبٍ نفحتْنِي منـــه رائحـةٌ   كالمسكِ يا عبلَ أو تعْلو علَى ذاكِ

فقلتُ عبلةُ في الوادى مشتْ ورمتْ   على نَواحيهِ مِن فيهـا بِمِسْواكِ

عبـــلة : لقد أحسنْتَ يا عنتَر   فاقبَلْ من فمِى التمْــرا

عنـــترة : بروحى فُوكِ يا عبلــةُ هاتى الشهدَ والخمْرا

عنـــترة : عبسُ اشهدوا عبلةُ قدْ   قامتْ تزقُّ عنـــترهْ

كما تــزُقُّ فرخَهــا   على الغُصونِ القُـبّرهْ

عنـــترة : عبـــلَ

عبـــلة : لبيْكَ سَمِىَ الخيْلِ

عنـــترة : لاما   أنا لِلخيْــلِ يا عُبَيْـــلةُ حامِ

عبـــلة :

من إذن يُمسِك النجيبــةَ فى الســـسَّرْبِح ويحمى النجيبَ خلفَ اللِّجامِ؟

عنـــترة : ألهذا أحبَبْتِنِي؟

عبـــلة :   ولِشأْنٍ   كضُحَى الشمْسِ أو كبدْرِ التّمامِ

كلَّ يومٍ يُقالُ عنترةٌ أرْدَى كَمِيًّا وقامَ عن ضِرْغامِ

عنـــترة :

لم لا تَعشَــقينَ عبـلَ جَوادى؟ لم لا تَعشقينَ عبلَ حُسامى؟
أوَ ليْسا هُما شَريكَىَّ فى الفتْكِ وضربِ الطُّلَى وحصْدِ الهامِ؟

[يظهر داحس على الربوة ثم يهبط منها
حاملا معه فراخ نسر وثلاثة أشبال]

المشهد الحادى والعشرون

عبـلة : مـاذاك؟ مـاتحمـلُ؟ مـاذا عـنترة؟
ما تِلْك عنترَ؟

عنترة [متناولا أفرخ النسر من داحس] :

هَــذِى يا عبلَ أفـراخُ نَسْرِ
إغْــترَّ بِى أبـوَاها وكنتُ بالشِّعْبِ أسْرِى
فظلّلَ الأبُ صدْرى وغطَّتِ الأمّ ظَهْرِى
ومسَّــيانِى بكــرّ على الجبـالِ وفــرّ
توَهّمـانىَ صـيْدًا يهِى الفراخَ ويبرِى
فلم أكــنْ غيرَ يُــتْمٍ لِمُبتغِى الصـيْدِ مُرٍّ

عبـلة : مَاتَا؟

عنـترة : أجلْ لَقِيَا عبلَتِى جزاءَ التجرِّى

مُحطَّمين بكفِّى مُمزَّقين بظُفرى

[يدخل جماعة من المارين فتيانا وفتيات من ناحية العين و بينهم صخر وناجيــة]

المشهد الثانى والعشرون

صخــر : عبــلةُ لم تُسْبَ

صـــوت : عبلةُ فى الحَىِّ

آخـــر : عنـــترةٌ ثَمَّ لاخوفَ من شىٌ

عبــلة : وما هــذهِ الأُخرَى؟

عنـــترة : شُبولٌ ثلاثةٌ تُربَّى هنا بين البُيوتِ وتُصلَحُ

تعرَّضَ لى ليثٌ يُدِلُّ ببأسِــه الى جانبيْــهِ لبـــوةٌ تتبجَّحُ

وقد ملأ البيداءَ رعْدًا كأنمــا بكلِّ سـبيلٍ ذُو رُعودٍ مُلمِّـحُ

مَشيتُ إليــه فانْثَنى فطلبتُــهُ فاقبـــلَ تيَّــاهَ الخطا يترنَّحُ

ظللْنــا مليًّــا أتّقيــهِ ويتَّقِى و يُحجِمُ فى قولِ الوَعيدِ وأُفصِحُ

فأغمدتُ سيْفى فى قرارةِ جوْفهِ أليس لسيْفى ذلك الغمدُ يَصلُحُ؟

الى أن تعايا فى يَدى فذبحتُه ومن ذارأى الضِّرْغامَ كالشاةِ يُذبحُ

وكَمْ من كَمِىٍّ فى أعِنّـةِ سابحٍ تركتُ وراثى فى الدّمِ الحُرِّ يَسبَحُ

عبـــلة :

وما صنَعْتَ باللبـاةِ يابنَ عمْ

عنـــترة : عفوْتُ عنها

عبـــلة : ذاكَ واللهِ الكرَمْ

عنـــترة : اقتَحَمَتْنِي مرّتينِ وانْثنَتْ لم ترَ من فائدةٍ أن تقْتحِمْ

أنثى ضَعيفةُ القُوى تركتُها إنّ الإناثَ عندَ أمثالِي حُرَمْ

صخـــر :

شبولٌ تُربّى فى البُيوتِ أغَابةٌ حِمَاكُم ؟

عنـــترة : ونحُن الأسدُ فى الغابِ نَسْرح

ومالكَ ياهذا وعبْس ودُورِها وما أنتَ؟ مَنْ هذا الفَتَى المتوقّحُ؟

صخـــر :

فتىً زائرٌ من عامرٍ من سَراتِها وما هـو إلا معجَبٌ مُتمـدِّح

عبـــلة :

جبانٌ ذليلٌ جاء عبْسا وماءَها يعرِّضُ للإفكِ العذَارى ويَفضَحُ

فتـــاة :

فتَى عامرٍ فى كُربةٍ أينَ عامرٌ؟ يكادُ فتاها فى السراويلِ يَسلَحُ

ناجيـــة : أساتَ به ياعنترَ الظنّ

عنـــترة : ما أرَى وأَسمعُ؟ أُنثَى عنكَ ياخِـلُ تَنْضَحُ؟

صخر [همساً] :

دَعِينا دَعِيه لا تَزِيديه ثورةً

ناجيـــة : تنحَّ إذنْ قد أوشك الكبشُ ينطحُ

[ينصرف الجميع فلا يبقى إلا عبلة وعنترة]

عنــترة :

يا عبلَ كم بيداءَ جُبتُ مخوفةٍ ... قَذفتْ إلىَّ بذئبها والضيغمِ
فلقيتُ كلَّ مُنازلٍ بسلاحهِ ... وجعلتُ أضربُ باليدينِ وبالفمِ
أخّرتُ رُمحي وادّخرتُ مُهنّدي ... وربطتُ سرجي للكميِّ المُعْلَمِ
حتى تراءتْ ظبيةٌ فتملأتْ ... مما رأتْ رُعباً فلم تتقدمِ
لما رأتني والسباعُ تنوشُني ... نفرتْ نفارَكِ من عيونِ اللُّوَّمِ
ريمٌ تلفتَ لم يَفُتكِ بجيدهِ ... وبمقلتيهِ وفَتّهِ بالمبسمِ
فمنعتُها من كل ضارٍ ثائرٍ ... وأبحتُها الواديَ وقلتُ لها اسلمي

يا ليتنا يا عبلَ عُصفورتانْ ... في غُصنِ ضالٍ أو على فرعِ بانْ
في روضةٍ غُفْلٍ وراءَ الرُّبا ... لم يَسقِها إلا الغوادي يدانْ
على جَناحيكِ جناحي وفي ... فمي مكانَ الحبِّ هذا الجُمانْ

عبلة : لقد وددتُ فوقَ ما ... شئتَ لنا يا قسوره
من عيشةٍ وادعةٍ ... خاملةٍ مُستتره
لا بعيونِ الناسِ أو ... ألسُنهم مُكدّره

عنترة : لو لم تهيمى عبلتى بجملاتى المنكره
وايس بى أنا ولا بسحنتى المحتقره
لقلت إذ دعوتنى يا قمرى يا سكره!

عبلة : هذا السوادُ يا بنَ عمى مثلُ صِبغةِ السَّحَرْ
كالمسك والكحلِ هُما فى مَفرِقٍ وفى البَصَرْ
وما يضرُّكَ السوا دُ يابنَ عمى ما يَضُرْ
الكعبةُ الغَرّاءُ من أحسنِ ما فيها الحجَرْ
البَدْوُ فى إجلالهِ وفى وقارهِ الحضَرْ

عنترة : ماذا وددتِ يا عُبيلَ يا حياةَ عنتره؟

عبلة : وددتُ أنّى صدفٌ وأنتَ فيه جوهره
فى زاخرٍ لم يدرِ بعدُ الغائصونَ خبَرَه
وموضعٍ لم يَسمعِ الفُلْكُ به ولم يَرَه

عنترة : بى أنتِ يا عبلةُ بى لا بَلْ بأمى وأبى
لا بَلْ بعبْسٍ بل بنَجْدٍ بلْ بمُلْكِ العرَبِ

ستار

الفصل الثانى

المنظر الأول

« المكان كما كان فى الفصل الأوّل إلا أن خيمة الملك قريبة »
« جدًا تملأ المسرح أو تكاد ، ويبدو بابها كأنه ستر مسدول »
« ولا أثر لعين ذات الأصاد ولا لسائر خيام بنى عبس ؛ »
« ويرى مقدم المسرح كأنه طريق عام أمام الخباء . »
« الوقت فى الأصيل وقد وقفت عبلة وناجية تروصان »
« من ثقوب فى باب الخباء ثم تتحدثان ... ... »

المشهد الأوّل

عبلة : مَن يا تُرى الرجالُ منْ؟ أتى الحِمَى يا ناجيةْ؟
ناجية : ضيوفُكُمْ من عامرٍ من السَّراةِ العاليةْ

عبلة : وفيمَ يا أختُ جاءوا

ناجية :

لا أدرِ ... ما يطلبونا

عَساهُمُو رُسْل خيرٍ لعلّهم خاطِبونا

عبلة :

من عامرٍ أجلْ عرفتُ بعضَهم ويَخطبونَ عِندنا مَن يا تُرى؟

ناجية :

أظنُّ بنتَ مالكٍ عالمةٌ بكلِّ ما جَرى ويجْرِي في الحِمَى

ومَن عسى يُخطَبُ في الحيِّ سوَى عبلةَ ربّةِ السَّناءِ والسنَا؟

عبلة : هازلةٌ ياأختُ أمْ مجنونةٌ أنتِ؟ أجاءَ القومُ من أجْلِي أنَا؟

ناجية : لا تُنكِرِي عبلةُ لا تَجاهَلِي لم يبقَ سِرًّا أمرُ ذلك الفتَى

عبلة : فتًى ومِمّنِ الفتَى ؟

ناجية : مِن عامرٍ

عبلة : وما حداهُ نحوَ عبسٍ؟

ناجية :

الهوَى

عبلة : وما آسمُهُ

ناجية : صخرٌ

عبلة : لعلّه الذى في كل مَغرِبٍ علَى الماءِ يُرى

ناجية : كيف أما تهوِينَه ياعَبلَ

عبلة : لا أخْطَاكِ ما حسِبتِ يا نَاجِىَ لَا

ناجيـــة : يافرحتا خليتِهِ لي ترى

عبـــلة : اذهبي به متى أخذتُه منــك متى

| تنصرف عبلة من اليسار مسرعة باكية ، وتعود ناجية الى الوصوصة من ثقوب الخباء ، وبعد لحظات يقدم صخر من اليمين متأبطا صرة فيها ثياب |

المنظر الثاني

ناجيـــة :
عِمْ صَباحا ياعامرىُّ إلى أينَ؟

صخـــر : إلى عبــلَةٍ

ناجيـــة : أيُمكن ذا كَا؟

صخـــر : لِمَ لَا

ناجيـــة : عبلةٌ تَرى الذئبَ فى جَوْزِ الفيافى لِكنَّها لا تَراكَا

صخـــر : ما تقولينَ ؟

ناجيـــة : لم أقُلْ غيرَ حقٍّ هى ياعامرىُّ تَهوَى سِواكا

صخـــر : عبلةٌ لى غدًا

ناجيـــة : خُدِعْتَ ولم يصدُقْـــكَ شيطانُكَ الذى مَنَّاكا
صخرُ دعْ عبلةً وخلِّ هواها وتحوَّلْ إلى التى تَهْوَاكا

صخــــر : أنا أهوى سواكِ يا أُختَ عبسٍ

ناجيــــة : إمضِ لا نلتَ يا غبيُّ مُناكا

[ينصرف صخر من ناحية اليسار ، ثم تتبعه ناجية بعد قليــل من التفكير ثم يُجَر باب الستار المسدول عن داخل الخباء]

المنظر الثانى

« داخل خيمة مالك وتبدو النعمة على كل ما فيها وقد جلس »
« مالك القرفصاء فى جانب ، وجلس فى جواره وفى الجانب الآخر »
« رجال من بنى عامر — خدم وقوف بباب فى صدر الخباء »

المشهد الأوّل

مالك :

أَلجزورَ، الجزورَ؛ ألنارَ، ألنارَ؛ قِرى الضَّيْفِ ضيفنا اليوم عامرْ

[ينصرف الخادم]

المشهد الثانى

يا مَرْحَبًا بعامرِ العِلْيَـةِ الأكابرِ
حظٌّ لعَمْرى عظيم

الضيفان : لَنَحنُ أعظمُ حظًّا

مالك : سَراةُ عامرَ عنـدى

أحد الضيوف : فى دارِ سيِّدِ عبْسٍ

آخــــر : فى البِيدِ يا مالكُ قولٌ شائعٌ نُريدُ أن نعــلَمَ منكَ خبرَهْ
ثمّ نخُوضَ فى الذى جئْنا له
مالك : هاتُوا اسألُونى راشِدِين بَرَرَهْ
ماذَاكَ ؟
الضــيف : إنّ الناسَ قد تحدّثوا أنّكَ لن تَرضَى بغيْرِ عنـترهْ
مالك : صِهْرًا ؟
الضــيف : أَجــلْ
مالك : مَن قال؟ ذاكَ كذِبٌ أيطمعُ الأسوَدُ أنْ أُصاهِرَهْ؟
الضــيف :
ذلك يا مالكُ ما قلتُ لَهُمْ
[ثم يتلفت حوله]
لا يسمَعَنَّ ابنُ الإماءِ لا يَرَهْ!

آخــــر :
عبلةُ لا تُهدَى الى ابنِ أَمَةٍ يَرْعَى الشُّوَيهاتِ ويَسْقِى الأبْعِرَهْ
آخــــر :
أبا عبلةٍ جِئْناكَ نخْطبُ عبــلةً
مالك : لِمنْ ؟
الأول : لنجيبٍ سيدٍ وابنِ سَيِّدِ
لأبيَضَ من فِتْيانِ عامِرَ ماجــدٍ وليْس لعبدٍ عند شــدادَ أسودِ

مالك : ماأسمُ الفتى
الأول : صخْــرٌ مِنْ ولدِ الأشْــتَر
مالك : وهلْ رأى عبلَه؟
آخــر : ألفَ مرّه وسَمِعَ الخُــرَّ حديثَ الحُبّ
مالك :
أَصيخُوا لى ... أصاحِبُكُم شجاعٌ؟ فعبلةُ تُبغضُ الرَّجلَ الجبانا
أحــدهم :
كليْثِ الغابِ إقداماً وكرّاً اذا اعتقل المهنّــد والسّنانا
مالك :
أَصيخُوا لى أَصاحِبُكم جَوادٌ فعبــلَةُ تبغِض الرجلَ البخيلا
أحــدهم :
يكادُ ندَى يديْهِ حين يَهْــمِى يُنَسّى حاتم السـمْح المُنيــلا
مالك :
أَصيخُوا لى أصاحِبُكُم جميلٌ؟ فعبــلَةُ تُبغِضُ الرجلَ الدّميما
أحــدهم :
ألم تــرهُ ألم تنظــرْ اليــهِ اذن لم تُبصِرِ المَلَكَ الكـريما
مالك
أَصيخُوا لى أصاحبكُم فَصيحٌ؟ فعبــلَةُ تُبغِضُ الرجلَ العَييّــا
أحــدهم :
ألم تَرقُسّاً فى عُكــاظٍ؟ وسَحْباناً اذا شهِــدَ النّــديّا؟

مالك :

أَصيخُوا لى أصاحِبُكم رقيقٌ؟ فعبلَةُ تُبغِض الرجلَ العَنِيفَا

أحدهم :

ستُلفيهِ اذا حُمِلتْ إليهِ وَديعًا مثلَ نعجَتِها ألُوفا

مالك :

أصيخُوا لى أصاحِبكم غَنِيٌّ؟ فعبلَةُ طِفلةٌ تَهوَى الثَّراءَ

أحدهم :

سنُسكِنُها القصورَ كبنتِ كسرى ونُلبِسُها الجواهِرَ والفِراءَ

آخر :

ذكَرْنا شيخَ عبْسٍ كلَّ شيء ولم تذكُرْ لنا مهرَ الفَتاةِ

آخر :

فَهَيَّ سَل اقترِحْ ما شئتَ هيَّ أألفُ نجيبَةٍ أم ألفُ شاةِ؟

مالك :

عَلِمتُمْ أنّنِي مُثْرٍ غَنِيٌّ فلا أبغِي النِّعاجَ ولا النِّياقَا

ولستُ بجاعلٍ مَهرًا لبِنْتِي هِجانَ الإبْلِ والخيْلَ العِتاقَا

أحدهم : ولكن ما تُرِيدُ ؟

مالك : أُرِيدُ شيْئا لو ابتُلِيَ الحديدُ به لَضَاقَا

أحـدهم : إذنْ فاذكُرْهُ قلْهُ

مالك : وما انتِفَاعي ولو حَمَّلتُ صخـرًا ما أطاقَا
أصيخُوا لي اذهبُوا قولُوا لصخْرٍ يُقـدِّمْ رأسَ عنترةٍ صـداقَا

أحـدهم :
نَقولُ له انتزعْ قُلَلَ الرّواسِي؟ نقولُ له اهدِم السبْعَ الطِّبـاقَا؟
نقـول له تُطالبُـهُ بِمَهـرٍ تَضيقُ به القبـائلُ أن يُساقَا

آخـر :
ولِمْ لَا ؟ ما هُنالِك مُستحيلٌ هُنـاكَ دمٌ سئِلْنا أن يُراقَا
أليسَ المـالُ يصنعُ كلَّ شيء؟ ويَرشُو السُّمْر والبِيضَ الرِّقاقَا
ولو هَبطَ الأباطِحَ مالُ صخْـرٍ لغطَّى الشـامَ أو غَمَـرَ العِراقَا
اذا أعياهُ رأسُ العبدِ أغرَى مواليَ بيْتِـهِ ورَشَـا الرِّفاقَا

مالك :
ألانَ فَهِمْتُمُو قد ضِقْتُ ذَرْعًا بعنـترةٍ وضِـقْت به خِنَـاقَا
أريدُ العبـدَ ميْتًـا ما أُبالِي قضى بالسيْف أم ماتَ اخْتِناقَا
أُرِيدُ فِراقَهُ وأريدُ حـرًّا مِنَ الأصْهارِ يُبْلِغُنِي الفِراقَا
إذا ذاقَ الهـلاكَ لنـا عدوٌّ أنسألُ عنـه أينَ وكيفَ ذاقَا؟

أحد الضيوف :
في غـدٍ نحـرٌ وقِـدرٌ في غـدٍ دُفٌّ وزامِـرْ

انهَضوا بورِكَ فى الصِّهرِ لعبْسٍ ولِعَامرْ

[يهمون بالقيام]

مالك : مكانَكُمْ ياضيوفَ عبْسٍ هُنيْهَةً تَطعَمُوا المَجِيعَا
مَجيعُ البِيدِ من لَبنٍ وتَمْرٍ ولا تلْقاهُ إلا عنْدَ عبْسٍ
إذا الغِلمانُ للأضيافِ قامُوا فإنى خادمٌ ضيْفى بِنفْسِى

[ثم يخرج ليأتيهم بالطعام]

المشهد الثالث

أحدهم للآخر : لقد كذَبتَ كثيرا وقُلتَ واللهِ زُورا
قد زِدتَ للشاةِ شاةً وللبعيرِ بَعيرا
وقد صنعْت لصخْرٍ مخالبًا وزئيرا
ورُبما طارَ صخرٌ إذا رأى عُصفورا!

الآخر : أجلْ كذَبْتُ وما ضرَّ لستُ أوّلَ كاذبْ
وكلُّنا قد كذبْنا لكَىْ نَقومَ بِواجبْ
لقد خَطبْنا لصخْرٍ والكِذْبُ فنُّ الخواطِبْ!

ثالث : ومالكٌ كيف نسِيتمْ كلماتٍ قالَها
مُباهِيًا ببِنْتِهِ ومُظهِرا كمالَها
سِمِعْناهُ يقولُ ولا يُبالى فعبلةُ تُبغِضُ الرجلَ الدَّميما

ولم نر قبلَ عبلةَ في البوادي فتاةً عُلِّقتْ عبدًا زنيما
سمِعْناه يقولُ ولا يُبالي فعبلةُ تُبغِضُ الرجلَ العَنيفا
ولم نر قبلَ عبلةَ في البوادي فتاةً علِّقتْ ذِئبا مَخُوفا

[يدخل مالك حاملا قصعة فيها طعام ومن ورائه غلمان يحملون مثلها ، توضع القصاع على الأرض ، وينصرف الغلمان]

المشهد الرابع

مالك : الجيعَ الجيعَ يا ضيفَ عبْسٍ إطعَمُوهُ اطعَمُوا هنيئًا مَريئًا

[يقبل الحاضرون كلهم على القصاع]

أحدهم : ألبانُ عبْسٍ تفضلُ العُقارا

آخر : وتمرُها كلَم العذارَى

آخر : أُفديهما من لبَنٍ وتمرِ

آخر : [هامسا] لا أشتريهمَا بِزِقِّ خمرِ

مالك : ألانَ استعمِلوا الحزْمَ فما نعلَمُ ما يطرا
بني عامرَ لا تجْرُوا لِما كانَ هنا ذِكْرا

أحدهم : أبا عبلَةَ لا تَخْشَ سيبْقَى ما جرى سِرّا

آخر : وما ضرَّ اذا نحنُ . أذعْنا الأمرَ ماضرّا؟
ولِمْ لا نذكُرُ الخِطْبةَ أو لا نُعلنُ البُشْرى؟

إذنْ أنت تخافُ العبْدَ أو تخشى له شَـــرا؟

مالك : أليس الحزْمُ أنْ نأخذَ مِن عنـترةَ الحِـذْرا؟

فقـد يقتلِني وحْدى وقـد يقتُلُنـا طُرًّا

ولا يُبــقِي لنـا شاةً على المْرعى ولا بَكْرا

أحـدهم : أبو عَبـلةَ بالعبْـدِ وما يَفْعـلُهُ أدْرى

فَسِـيروا بالذى قالَ ولا تَعْصـوا له أمْرا

[يقومون عن الطعام ثم يحيون مالك ويبـدأون في الانصراف فاذا انصرفوا وقف مالك بباب الخباء]

أحـدهم : فى ذمّةِ الله وفى حِفْظِه... مالك

مالك : محْرُوسينَ بالله

المشهد الخامس

مالك : عَبــلَ

عبلة [من وراء الستار] : أَبى ؟

مالك : مِن أينَ يا عَبْــلَةُ

المشهد السادس

[تدخل عبلة]

عبـلة : وِن خِبائيــا

مالك : وأينَ تمضين ؟

عبلة : أُهيبُ بسُقاةِ شائيَا

مالك : قفي اسْمَعي لي ساعةً وخفّفي عنائيَا

عبلة : قُل أبي مُرْ

مالك : إذن تعالَيْ أَصيحي وزُهيرٌ أَخُوكِ أينَ زُهيرُ؟

عبلة : مع عمرٍو هُناكَ

مالك [ينادي]: يا عمرُو

عمرو [من وراء الستار] : لبيْكَ أبي

جئْ تعالَ هيّ زُهيرُ

[يدخل عمرو و زهير]

المشهد السابع

مالك :

عبلَ أصغِي في أرضِ نجدٍ شَبابٌ أُطلِعُوا في سَمائِها أقمارَا

مِنهمُ الأُسْدُ جُرأةً وثَباتًا والقوارينُ نِعْمةً ويَسارَا

مِثلُ صخرٍ

عبلة : ومَن يَرَبُّك صخرٌ؟

عمرو : عامِريٌّ من أرفَعِ البِيدِ دارَا

زهـــير :

مِن بَنِي الأشترِ الكَثِيرِينَ مالًا ونَخِيـــلًا وَضَـــيْعةً وعَقارَا

عبـــلة :

قدعَرَفْتُ الغُلامَ ذاكَ الفتَى النِّضْـــوَ الّذِى لايُطِيــقُ يَقْتُلُ فَارَا

كل يوم معَ العَذارَى كثِيرُ الـــعُجْبِ مُستَحْيِيًا كإحْدَى العَذارَى

أَتُرى يا أبِي وأنتَ أخِي يا عَمْـــرُو كيفَ انتقَيْتُمَا الأصْهارَا

زهـــير :

وأنا لا أرَى عُبَيْـــلةَ خـــيْرًا مِن أبِيهـا ولا أخِيها اخْتِيارَا

أنتِ مفْتُونةٌ بِأسـْــوَدَ عَبْـــدٍ مِن بنِي عَمِّنـا تَسَرْبَلَ قارَا

عبـــلة :

أوتَعْنِي الذى حَمَى حَوْضَ عبْسٍ وكَسَا البِيـــدَ سُؤْدَدًا ونَخَارَا؟

والذى قَـــلَّدَ الوقَائِـــعَ والأيّـــامَ عبْســا وخَـــلَّدَ الأشْـــعَارَا

يا زُهيْرُ اتئِـــدْ مَتَى كانَتِ الألْوا نُ تَبْنِي وتَهدِمُ الأحْرارَا؟

لم يَحُطَّ السّوادُ من أسَـــدِ القَفْرِ ولم يَرْفَـــعِ البَيَـــاضُ الحِمَـارَا

أرأيتَ السوادَ قد عبَدَ اللَيْـــلَ كما عبَـــدَ البيـــاضُ النَّهـارَا؟

مالك : زُهَـــيْرُ

زهـــير : أبِي

مالك : أصـــغ عمْرُو استَمِعْ ويا عبلَ آنَ لَنـا أن نَجِـــدَّ

عبـلة :

مَتَى كُنتُ هازِلةً يا أبى؟

مالك : هَزَلتِ ابنتى وأضعتِ الرَّشَدْ

وما زِلتِ بالعبْـدِ مَفْتـونةً وهيْهاتَ بالعَبْدِ يَرْضى أحَدْ

فَلا أنَا أرضَى ولا أخوَاكِ ولا مَنْ تدانَى ولا مَن بعُدْ

عبـلة :

أعَنْترةً يا أبى قد عَنَيْتَ ؟

مالك : أجَلْ

عبـلة : وَا لِعَنْـتَرَةَ المُضْطهَدْ!

أَبِى قد تَمَكَّنَ مِنكَ الوُشاةُ وأثَّرَ فيـكَ كَلامُ الحسَـدْ

ألَيْسَ ابنَ عمِّى؟ ألَيْسَ الجوادَ؟ ألَيْسَ الشُّجاعَ ألَيْسَ الأسَدْ؟

أما هُوَ مِنِّى ومِن إخـوَتِى نَمَـانَا أبٌ فى الأوَائِلِ ويَمَدْ؟

وَفى البِيـدِ رُدَّ لِآبائِهِ وليْسَ إلَى الأمَّهاتِ الوَلَدْ

أبى عنـتَرةٌ ليْس بِزِنجِىٌّ ولا عبْـدِ

ولم يُجْلَبْ مِنَ النُّوبِ ولم يحضَر مِن السِّنْدِ

ولكنْ مِيسَمُ اللَّوْنِ كَمِثْلِ الأسَدِ الوَرْدِ

فَتًى كالأسمَـرِ اللَّدْنِ جَمِيلِ الشَّعرِ الجَعْـدِ

شُجَاعٌ ذَائِـعُ الصِّيتِ جَوادٌ واسـعُ الرِّفْـدِ

عمـــرو :

أبي سُـدّى تُراجعُ المفتونا وعبثاً تُخاطِبُ المجنونا

زهـــير : فَمُرْ يكنْ ما شئْتَ أن يكُونا

مالك :

الأمرُ يا عبلَ ما تأمرينا فالشأنُ يعنيكِ ليس يعنينا

عبـــلة :

ذاكَ أمرُ الرّأيُ فيه لِعمْرو وزُهيرٍ وليْسَ لِي الرأى فيه

ياأبي اعقِدْ على زُهيرٍ لصخرٍ أو فزوّجْه يا أبي من أخيه

مالك [في دهش] :

أُزوِّجُ الـرِّجالَ بالرِّجالِ؟ ذاك لَعَمْرِي مُنتَهى الخبَالِ

زهـــير : اسْتَهْتَرَتْ أُختِي فَمَا تُبَالِي

مالك : إذنْ يا عبلَ أصررت؟

عبـــلة : أجَلْ ولْيَكُ ما كَانَا

فلنْ أرضى سِوى عَنْتَرَةَ ابنِ العَمِّ إنسَانا

[ثم تخرج غاضبة]

المشهد الثامن

مالك : إذن فانتَظِرى ياعبـــلَ لِلْعبْدِ ولى شَـأنا

[يخرج فى أثر ابنته ويقبل صخر من ناحية الطريق من جهة اليسار ومعه الصرة التي كان يحملها فى المنظر الأول]

المشهد التاسع

صخــر : عَمْرٌو زُهيرٌ؟ عَجَبُ الحظِّ صَديقاىَ هُنا!
يا طِيبَهـا لِقـاءَةً

عمــرو : لِلّــه ما أَسْــعَدَنا
أهْلًا بِصخرٍ مَرْحبًا بالقَمرِ العـالِي السَّنا
ما هَـذِه الحُـلَّةُ مَا أظْـرَفَهَا مَا أحْسَنا

زهــير : أصَــنْعَةُ الشّـامِ؟
صخــر : ولِمْ لا تَذْكُرانِ اليَمَنا؟
صَنْعاءُ أغْلَى من دِمَشْـقَ سِـلْعَةً وثَمَنا

عمــرو : تِلكَ أمـورٌ يَا أخى يَعرِفُها أهْـلُ الغِـنَى
زهــير : وما ذَلِك مَا المنديـل ياصخـرُ وما فيــه؟
صخــر : ثِيـابٌ مِثْلُ أثوابى مِنَ الوَشْيِ وغَالِيه
لِـكُلٍّ مِنكُمَا ثَوْبٌ إلَيْـهِ جِئْتُ أُهْدِيه

[يفرد الصرة فيتناول كل منهما حلة]

زهــير : عَمْرُو تأمَّلْ يا لَهَا حُلَّةً لِلّهِ ما أبْهَى وما أبْهَجا

الحقُّ ماقالَ فتى عامرٍ صَنْعاء أعلى بلد مَنْسِجا

[يرى فى الصرة طرحة من حرير فيتناولها]

وتِلك عَمْرُو ؟

عمـرو : طرْحةٌ مِثْلُ ذُنَابى الطاوُسِ

كمِثْلِها ما لَمَسَتْ فى الوَشْيِ كفُّ لامِسِ

عمرومبتسما : هـدِيَّةٌ لِعَبْـلَةٍ؟

صخـر : مجلوبةٌ من فارِسِ

زهـير : خلّنا صخرُ من هداياك . قلْ لى كيفَ أزمعتَ أن تُلاقِىَ عنترْ؟

صخـر : غدًا على العبْدِ أصُبُّ النَّحْسا عبْدَينِ من شرِّ العبيد نَفْسا

ومن أشدِّهم قُوَى وبأسا

إن صارَعا جُلْمودَ صخرٍ صَرعا أو قارَعا ضَيْغَمَ غابٍ قَرِعا

أو رَمَيَا الشمْسَ أصابا المطْلعا

غَضْبانُ وهو المنيّـهْ ومارِدٌ وهـوَ حيّـهْ

كِلاهُما جنّيّهْ

ها هُمَا أقْبَلا تأمّلْهما يا عمرُو

[ينظرون الى شبحين قادمين من ناحية اليمين]

عمـرو : ماذا أقـول جنّيان

ولِمَنْ يا تُرى هُمَا ؟

صخــر : السابِقِ الأوّلُ عبْدِى وقد شَريْتُ الثّـانى

[يدخل العبدان غضبان ومارد]

المشهد العاشر

تَعالَ غَضْبانُ قل لِصَـخْرٍ كم أسـدٍ صِدْتَ؟

غضـبان : نَحْوَ ألْفِ

عمـرو : ألْفٌ؟ أفى البيدِ ألْفُ لَيْثٍ لَوْ قُلْتَ لَيْثَيْنِ كان يكفِى!

زهـير : وكم ذِئْباً قتلْتَ ؟

غضـبان : اثنين !

عمـرو : ماذَا ؟

غضـبان : قتلْتُ عِدادَ ناصِيَتِى ذِئَاباً!

زهـير : وكنتَ إذا بَعثْتَ لها سِهامًا وجئْتَ تجسُّها وُجِدَتْ كِلَاباً!

وأنتَ يا مارِدُ قُـــلْ لى كيفَ صيْدُكَ الأسَـدْ؟

مارد : أصِيدُه إذا أتَى لِبَطْنِ وادٍ فرَقَدْ
وكُنْتُ فَوْقَ نَخْلَةٍ يَزِلُّ عنْها مَنْ صَعِدْ

والقَوْسُ فى حُضْنِى كما تحتَضِنُ الأمُّ الوَلَدْ
وكانَتِ السِّهامُ فى كنانَتى بِلا عَدَدْ
هُناكَ أرْمِى فأسُلُّ الرّوحَ من أصْلِ الجَسَدْ
فى حائِطِ التّامُورِ إن شِئْتُ وفى رُكْنِ الكَبِدْ

عمرو : غَضْبانُ

غضبان : لبيْكَ

عمرو : أجِبْنى

غضبان : سَلْ مُرِ

عمرو : كيفَ لِقا عنتَرَةَ الغَضَنفَرِ؟

غضبان : وجْهًا لوَجْهٍ ؟

زهير : لِمَ لا ؟

غضبان : لا أجْتَرِى

زهير : كيفَ تَبيعُهُ إذَنْ وتَشْتَرِى؟

غضبان : أقذِفُهُ مِن فَرْسَخٍ بِخَنْجَرِ أتْرُكُه كالتَّيْتَلِ المُعَفَّرِ

عفر : وأنتَ يا مارِدُ لَسْتَ تَجْهلُهْ

مارد : مَنْ يجهلُ اللَّيْثَ ؟

عفر : فكيْفَ تَقتُلُهْ ؟

مارد : آتي لرأسِ جَبَلٍ فأنزلُهُ وثَمّ

صخر : مَا ذَا ؟

مارد : لي سَهمٌ أرسلُه

يُودِّعُ الحياةَ من يَسْتَقبِلُهْ

[يتهامس الثلاثة لحظة ثم يتجه عمرو وصخر ناحية اليمين لينصرفا]

عمرو : الخيرُ في العَبدينْ سِيرا امضِيَا راشِدَيْنِ

[يخرج عمرو وصخر وينصرف العبدان من ناحية اليسار وتسمع ضجة تتعالى شيئا فشيئا ، وصياح وعويل ، فتظهر عبلة من الباب الذى فى الصدر ، فزعة مضطربة]

المشهد الحادى عشر

أصوات من الخارج : وَا وَلَدَا ! وَا كَبِدَا ! وَا أَسَدَا !

عبلة : زُهيرُ ما الضَّجّه ؟ ما هذه الرَّجّه ؟

زهير : أحسبُها قافلةً مُدْبِرَةً مُنهَزِمَه

تَعَرَّضتْ لِفَاتِك فَردَّها مُحَطَّمَه

[يسمع صوت مناد ينادى]

الصوت : يا مَعْشَرَ البِيدِ اسْمَعُوا بُشْرى لكُمْ أهلَ الحَسَمْ

بِظَهْرِ عَبْسٍ وَوَرَاءَ الـحَيِّ إِبلٌ وغَنَمْ

ألفانِ أو ما نحـــو ذا   لكَ مِن كَرائِمِ النَّعمْ
كانتْ إلى كِسرى تُساقُ   وإلى أرْضِ العَجَـــمْ

[يسمع صوت مناد آخر من ناحية أخرى]

الصـــوت : وراَءَ الحيِّ يا عبْس   مِن الأنعَامِ ألفانِ
جَنَى عنـــتَرَةَ الفلْحا   ءِ من أسْلابِ سرْحانِ
وكانتْ فى الفَلا تُزجَى   الى كِسْرى بْنِ ساسَانِ
ألا فَلْيعْـلمِ القـاصِى   مِنَ الحيّاتِ والدّانِى
بأنَّ الليْثَ قد جادَ   عــلَى الحىِّ بقُطعانِ

زهـــير : مَنِ الليْثُ ؟

عبـــلة : لحاكَ اللهُ   هلْ فى البِيدِ ليْثانِ ؟

[يمرّ على الطريق رجال ونساء هم فلول القافلة المسلوبه
فى هيئة ذعر واضطراب داخلين من اليمين]

المشهد الثانى عشر

احــدهم : وذِراعى وأينَ منِّى ذِراعى؟

آخـــر : أينَ ساقِى قد طيَّرَ السيفُ ساقِى؟

امـــرأة : نَعْلي . تركْتُ فى القِتال نَعْلي

أخـــرى : أمّا أنا خلفتُ فيـــه بَغْـلي

آخـــر : وَافَــرَسِى ما حالَ بَيْنَــهُ وبيْــن صاحِبِهْ!

أىُّ جَبانٍ حَطَّنِي عَنْ سَرْجِهِ وطَــارَدَ بِهْ!

عجوز [با كية] :

لَهفِي علَى فَوَارِسٍ من قَوْمي ناموا على العَــراءِ شرَّ نَوْمٍ

يا لَيْتَنِي لم يتأَخَّرْ يَوْمي

عبـــلة : تِلْكَ العَجُـوزُ ثاكِلَه تَبْكى ابنَهــا فى القافِلَهْ

يا أُمُّ ماذا دَهَـاكِ أَوْجَـعَ قلبي بُكَاكِ؟

العجـوز : عِشْرونَ من بَوَاسِلِ الفُرْسَان تَحْتَ لِوَاءِ وَلَدِى سرحانِ

عبـــلة :

سرحان ليثُ الضَّرْبِ والطِّعانِ؟

العجـوز : أجلْ تَرَكْتُهُــمْ علَى المَكانِ

وليمةَ الحِدَاءِ والغِرْبانِ

عبـــلة : إذنْ سرحانُ فى القَتْلَى لَكِ الرحمنُ مِن ثَكْلَى

من المُغِـيرُ؟

العجـوز : عُصْبَةٌ

عبـــلة : مَن الزَّعيمُ؟

العجـوز : عَنــــتَــرة

عبـــلة : عَنـــتَرَةٌ يفْعَلُ أفـــعَالَ اللُّصـــوصِ الفَجَـــرَهْ ؟

العجـــوز : لا يا ابنـــتى ظلَمتِـــهِ غنْـــتَرَةٌ لَمْ يَبْتَـــدِى
عنـــتَرَةٌ كالليْثِ عنْـــد شَـــبْعِهِ لا يَعْتَـــدِى

عبـــلة : من بَعَثَ الحـــرْبَ إذنْ ومنْ جَنَـــاهَا؟

العجـــوز : وَلَدِى
ثكلْتُ على الدرْبِ خيْرَ البَنِين وفاجَأنا فى الطَّرِيق الهَبَلْ
وكُنّا ثلاثِينَ غيْرَ الرُّعاةِ
مِنَ امرأةٍ مَعَنـــا أوْ رَجُلْ
وكان السَّوامُ كثيرًا يَضيقُ
بِهِ السَّهْلُ أو يَتَغَطَّى الجَبَلْ
وكُنَّا نُيمِّمُ أرضَ العـــرَاقِ لِنَجْتازَها

عبـــلة : نَحْوَ كِسْرَى؟

العجـــوز : أجَلْ

عبلة [غاضبة] : لتُمطُوا الرِّشَـــا وتَنالوا المنى ويُمنَح سرحانُ بعْضَ العَمَلْ
ويحْكُمَ فِي البِيدِ باسْمِ الهُمَامِ وتَحتَ ظُبَى فارسٍ والأسَلْ
ذَليـــلٌ ببَاب أنو شِروَانَ وعِنْدَ الخِيامِ العَزِيزُ البَطَلْ
إلى كم تَهيمون تحتَ النجوم وتفترِقُون افتراقَ السُّـــبُلْ؟
فنصْفٌ قِطاعٌ رعتْها الذِّئاب ونِصفٌ على البِيدِ فَوضَى هَمَلْ؟

وليس لكم دولةٌ في الوجودِ وتسحبُكم كالذُّيولِ الدُّول
ألمَّ على حوضِكم قيصرٌ وكسرى على جانبيه نزَلْ
ويحكمُكم تحتَ نيرِ الغريبِ ومهمازِه الأدعياءُ الدَّخَلْ
هُمُ الأمراءُ وقد يرتدونَ ببابِ الأعاجمِ ذُلَّ النُّذُلْ

أحدهم : سمِعتَ !

آخر : ما ذاك ؟

الأول : سمِعتَ النّاعيةْ ؟
فهِمتَ !

الثاني : فارقَني ترنحٌ ناحيةْ

الأول [لعبلة] : يا لكِ من مكابرهْ تطعنُ في الأكاسرهْ
وتلعنُ المناذرَهْ !

الآخر : عبلةُ تنطقُ الذَّهبْ لو كُنتَ تعقِلُ الخُطَبْ

الأول : وما الّذي ترْمي لهُ ؟

عبلة : أرمي لِتحريرِ العرَبْ

الأول : تحريرِهم ؟ مِمْ ؟

عبلة : من القيدِ

الأول : وكيفَ قُيِّدوا ؟

عبلة : الفُرْسُ والرُّومُ استرقُّوا قومَنا واستعبدوا

الثانى[لأخيه] : مَالى إذنْ ؟

الأول : ما ذَا ؟

الثانى : لا قيْـدَ فى رِجْـلِى

وأنْتَ والنـاسُ جَميعُكُم مِثْـلِى !

عبـلة : ألا بَطَلٌ نلتقِى حـوْلَهُ كإسْرَالَ(1) حوْلَ لِواءِ الرُّسُلْ ؟

يفُكُّ مِنَ الرِّق أعْناقَنا كَمَافكَّ مُوسى رقابَ الأُوَلْ

الأول : وَجدْناهُ ؟

صـوت : مَنْ ذاكَ مَنْ يا تُرى يكونُ ؟ تكلَّمْ لكَ الوَيْلُ قُلْ

عبـلة : أتَنْسونَ عنْترَةَ العبْقرِىَّ ؟

صـوت : أيحكُمُنَا العبْد هـذَا خبَلْ !

لَبِئْسَ أميرُ الرِّجالِ الغُرابُ وبِئْس الدَّليلُ إذا ما جَهِلْ

الأول : أتَجحَدُ عنترَةَ ؟

آخـر : خَـلِّهِ فما جدَّ فى قوْلِهِ بَلْ هَزَلْ

عبـلة : ما بالُكُمْ جَبلْتُمو يا عبْسُ قَـوْما ونِسَـا ؟

حتّى رَمَى هـذا الفتَى عنْـتَرَةً بمـا رَمَى

---

(1) بنو إسرائيل .

أليسَ في أرجُلِكُمْ نعْـلٌ وفي الأيْدِي عَصَا؟

[يهجمون على من سب عنترة ويضربونه]

الأوّل : ما لك يا فَـتَى بلغـتَ في الوَقاحَةِ المَـدَى

آخـر : ما ذا الذي غَـرَّكَ يا كلبُ بضِـرْغامِ الشَّـرَى؟

المضروب : وأنتَ مايعْنيكَ من عنـتَرةٍ؟ وماالذي يَعنيكَ منْ شأْني أنا؟

عبـلة :

صَدقْتَ ما كُنْتَ لِتَعْنِيَ أَحدًا لولمْ تَخضْ في الفَرْقدِ العَالي السَّنا

أما ابنُ شدّادٍ فـذُخْرُ قومِه يهُمُّ من رَاحَ ويَعْنِي مَنْ غَدَا

[يسمع صوت عنـترة من وراء
الستار قادما من ناحية اليسار]

عنـترة : يا بيـدُ ها أنا ذا أنا حامي حِماكِ وربُّ غابِكْ

إن كُنتِ جاهِلَتِي اخرُجي بجميعِ ظُفْرِكِ لي ونابِكْ

هاتي أسـودَكِ كلَّهـا هاتِي الكَوَاسِرَ من ذِئابِكْ

أحدهم : يا رِجالُ الفِرارَ قد طلعَ الليْثُ علينا هيوا الفِرارَ الفرارَا

[يفرّون جميعا من ناحية اليمين وتبقى عبلة وحدها]

المشهد الثالث عشر

عنترة [من وراء الستار] :

أيا عبل

عبـــلة : مَنِ الطارِقُ مَن بالخيْمةِ آستذْرَى؟

مَن الهاتِفُ مَنْ ؟

[يدخل عنترة]

المشهد الرابع عشر

عنـــترة : عنـــترة العبسىُّ

عبـــلة : يا بشرى !

عنـــترة : تعَـالَى ظبيـــةَ القـاعِ أَجيرى أســدَ الصحْرا

ســـتـــار

الفصل الثالث

المنظر الأول

« المنظر فى وادى الصفا على مقربة من حى بنى عامر على سبيل »
« مطروق . عيون ونخيل وأشجار ، عقلت عبلة بعيرها تحت شجرة »
« منها ، على بعد قليل . أناس يغدون ويروحون على الطريق »

المشهد الأوّل

عبلة : قُلْ لى بِربكَ مَن تحبُّ ومَن تحبّكَ يابَعيرْ
أىُّ النياقِ فإنهن علَى مراعينا كثيرْ
وهلِ اكتَفيْتَ بنَاقَةٍ أم أنتَ كالعبْسىِّ زِيرْ؟
تَلْهو بما دفَعَ الرّواحُ إليكَ أو ساقَ البُكورْ
مُتَنقِّلا بينَ البيُوتِ علَى عقَائلِها يدُورْ

ما حقُّ عنترَ عندَنا إلا التجنُّبُ والنُّفُورْ
مالى تَمَلَّك مُهْجَتِى عبدٌ على عبْسٍ أميرْ!
لوْ يَجمع العرَبَ السَّريرُ لجاءهُ يَسعَى السريرْ
كاللّيلِ إلا أنّهُ فى عيْنِىَ القمَرُ المُنيرْ
حَسَدَتْنِيَ الدنْيا عَلَيْهِ وكُلُّ محسودٍ خَطيرْ

[تنسل عبلة باطعام بعيرها بينا يمر فى الطريق ثلاثة فتيان، فيلمحون عبلة]

المشهد الثانى

قـراد : بُجَيْرُ ماذا ضَرَّ لوْ أَنَا أَتَيْنا الشَّجَرهْ
هلُمَّ نلْهُو ساعَةً بِالغادَةِ المُنتظِرَهْ
بجير : أأنَا مجنونٌ أنَا أَلْهُو بِرِيمِ القَسْوَرَهْ؟
لا يا أُخىِ لا أجْتَرِى على لَبَاةٍ مُسْتَتِرَهْ
الثالث : صَهٍ صَهٍ بُجَيْرُ حسبُ يا قُرادُ ثَرْثَرهْ
دعا الفُضولَ وابْعثَا تَحِيَّةً مُعطَّرَهْ
ما تلك إلا عبلَةٌ ما عبْلَةٌ بِنَكِرَهْ

[ينصرفون من الجانب الآخر ويسمع صوت عنترة من وراء الستار]

المشهد الثالث

عنـــترة : يا عبـــلَ ...

عبلة [لنفسها] : مَنْذا ينُادِى عبلَ ؟ عنترةٌ ؟

عنـــترة : يا عبـــلَ ...

عبلة [لنفسها] : تِلْك لعمْرِى نَبْرَةُ الأَسدِ

هذا هو الحبُّ هذا اسْمِى على فَمِهِ ... يأتى من القلْبِ أو يأتى من الكَبِدِ

يُردِّدُ اسمِىَ فى البَيْـداءِ منفَرِدًا ... وربمـا نَبِىَ اسْمِى غيرَ مُنفَـرِدِ

عنـــترة :

يا عبلَ أين جَبِينٌ لستُ سالِيَـهُ ... طلق البشَاشَةِ حلوٌ كالصباحِ ندِى

وأينَ يا عبـلَ فرْعٌ كان فَاْغيتِى ... وكان لهـَوِى اذا ضفرْتُهُ وَدَدِى

ولى يدٌ خَشْنَةُ الأظفارِ أنقُلُهـا ... مِنَ الغَـدائرِ أحيانًا الى اللِّبَـدِ

تَعِيثُ من شَعَرِ الغادَاتِ فى نَمَلٍ ... حِينًا ومن شَعَرِ اللبوَاتِ فى زَرَدِ

[يقبـل عنترة وفى أثره داحس فيختفى
داحس وراء الشجر بعيدا عن المسرح]

المشهد الرابع

عنـــترة : مَنْ أرَى ؟ عبلةُ ؟

عبـــلة : مَنْ ؟ عنترةٌ ؟

عنترة : مُهْجَتي عبلَةُ ماذا تصْنعين؟

عبلة : خرجتُ للنُّزْهَةْ عَلَى الصَّفَا وحْدِى
أَقْضِى هُنا بُرْهَةْ أَبُثُّ ما عِنْدِى
خَمِيلةَ البانِ وروْضَةَ الرَّنْدِ

عنترة [مشيرا الى البعير] :
وذاك يا نُورَ عبْس؟

عبلة : هذا بَعِيرى صِباحُ
رَبِّى مَعِى وبَعِيرى تَحْتِى وَهَذَا السِّلَاحُ

[وتريه سلاحها على هودج البعير]

عنترة :
أمثلُكِ عبلَ تخْشَى بأسَ شيءٍ وتتخذُ الكنائنَ والرِّماحا
لقدقُرِنَ اسمُكِ المحبوبُ باسمى أما يَكْفِى اسمُ عنترةٍ سِلاحا

عبلة : من أينَ يا ابنَ العمّ؟

عنترة : مِنْ عَالَمِ البِيدِ

عبلة : كمْ من فتاةٍ كَمْ ما ذا مِنَ الغِيدِ؟
يقولون عنترةٌ لم يقِفْ بحيٍّ من البِيدِ إلا خَطَبْ

فقالَ لِهاتيكَ ماتشتهي وغازَلَ تِلكَ وأُخرى أَحَبْ

خَلائِلُهُ صِرْنَ مِثلَ الحَصَى

عنترة : وأنتِ أصدَّقتِ هذا الكَذِبْ

أحاديثُ لفَّقها حُسَّدِي وقد يَخلُقُ الحَاسِدونَ الرِّيَبْ

عبلة : وأُختُ سعْدٍ ؟

عنترة : مَالَها؟

عبلة : ألم تقُدْ بعيرَها؟

وما نَسِيتَ فى ظلامِ الليلِ أن تَزورَها

[يسمع حفيف فى أوراق الشجر
ووطء أقدام فيقبل داحس مذعورا]

المشهد الخامس

داحس : سيِّدى سيِّدى خُذِ الحِذْرَ

عنترة : ماذَا داحِ؟

داحس : أحسَسْتُ أرجلًا ودَبِيبا

عنترة : لا تخَفْ داحِ

داحس : بَلْ أخافُ وأخْشى خطَرًا ماثِلا وشرًّا قريبا

[يعود داحس من حيث أتى]

المشهد السادس

عبـــلة : وما تكةٌ ؟

عنـــترة : كيف صُنْعى بها ؟

عبـــلة : بعثْتَ إليها بجـــلدِ النِّمِرْ

عنـــترة : وكيْفَ وأَينَ ؟

عبـــلة : لقد كانَ ذاكَ فلا تتنصَّلْ ولا تَعْتَذرْ

وهنـــدُ بِنْتُ عَامرٍ ألم تجئْهـا فى الخِبـا؟

وابنـــةُ بِسْطامٍ ألمْ تَنْـــثُرْ عليْهَـا الذَّهبا؟

وابنَـــةُ شـيْبانَ ألمْ تطِــرْ بِهَـا مُشبِّبَا؟

عنـــترة : قــد زوَّرُوا واختلَقُوا وحدَّثُــوكِ الكَذِبا

رُحماكِ ياعبلَ

عبـــلة : دَعْنى وامِضِ اشتغِلْ بالحَلائلْ

عنـــترة : من قالَ ذاكَ ؟

عبـــلة : كثيرٌ هَــذا حَديثُ القَبـائِلْ

عنـــترة :

لا وعينَيْكِ وَأَعْظِمِ بالقَسَمْ وَفَمٍ عن غُرَّةِ الصبْحِ ابتَسَمْ

لمْ أَنَمْ ياعبلَ عن عهدِ الهوَى من رَعَى أمرًا عظيمًا لم يَنَمْ

اذْكُرِى ياعبلَ أيامَ الصِّبا حينَ أَسقى بيْنَ عيْنَيْكِ الغَنَمْ

وشُــوَيْهاتُكِ حــوْلى أُنَّسٌ يَغتَرِفْنَ الماءَ من رَاحِى السُّحُمْ

إنْ حضرتُ الماءَ حامتْ وارتوتْ ... أو تولّى الماءَ غيرِي لم تَحُمْ
اذكُرِي إذ أنت طِفلٌ حُلوةٌ ... قد كَساكِ الحسْنُ فرعًا لِقَدَمْ
إذْ تَجيئينَ بِصِبْيانِ الحِمَى ... وصَبايا الحيِّ في ظِلِّ الخِيَمْ
فتقُصّينَ عليهِمْ خبَرِي ... معَ ذئبِ القفرِ أو ليثِ الأجَمْ
أنَا يا عبلةُ عبدٌ في الهوَى ... وأنا يا عبلَ في القُرْبَى ابنُ عَمّ
اطلُبِي الإيوانَ أَحمِلْهُ علَى ... رَاحَتَيْ كِسرى وهَاماتِ العَجَمْ
أو سلِيني الهرَمَ المشهورَ يا ... عبلَ أَجلِبْ لكِ مِن مِصرَ الهرَمْ
أوسلِيني البِيدَ مهرًا أو سَلِي ... ما وَراءَ البِيدِ من حُمْرِ النَّعَمْ
أو تعالَيْ نحتَذِي أشرَفَ ما ... قُلِّدَ الانسانُ سيفِي والقلَمْ
رُبَّ خيلٍ قُدتُ حتى قادَنِي ... وحَوَى رِقِّي بنانٌ كالعَنَمْ
وليوثٍ صِدتُ حتّى صادَنِي ... رشأُ القاعِ ورُعبوبُ الأكَمْ
قد رعَيتُ النجمَ حتى ملّنِي ... وتعهدتُ الدُّجَى حتّى سئِمْ
أشتهِي طيفَكِ في حُلْمِ الكرَى ... فيقولُ الليلُ لِي أينَ الحُلُمْ ؟

[في هذه الأثناء يظهر مارد وغضبان من وراء الشجر وفي غير الناحية التي اختفى فيها داحس ، فيسدّد أحدهما سهمه الى ظهر عنترة ، لتراه عبلة وتضطرب فيصيح عنترة بالرجل دون أن يلتفت اليه]

المشهد السابع

عنترة [ضاحكا] :

حذارِ ياوغْدُ حَذارِ يا لُكَعْ   الليْثُ لا يَقْتلُهُ الكلْبُ فَدَعْ

[يقع القوس من الرعب من يد مارد ثم يخرّ هو نفسه الى الأرض ميتا و يفرّ غضبان]

قد وقَعَتْ من يَدِهِ وقد وَقَعْ

المشهد الثامن

قد كَانَ لا بدّ أن أَرَاهُ   للّيثِ عَيْنانِ فى قَفَاهُ

سيرى انظرى ماتَ وربِّ الكعبَةْ   زمجرةُ الليثِ الهصُورِ صعْبَهْ

بِلِ اسمَعِى عبلَ اسمَعِى كلامِى   لولاكِ لم أَنْجُ من الحِمامِ

قد كنتِ أنتِ صنَمِى قُدّامِى   لكِ اتّجاهِى وبِكِ اهتمَامِى

رأيتُ فى عَينيْكِ قوسَ الرّامِى   ويدُهُ فى جعْبَةِ السِّهامِ

عبلة : وما رأَيْتَ ؟

عنترة : رأيتُ العينَ حائرة   والوجْهَ لونَهُ الإشفاقُ ألوانا

وقَفَّ شعْرُكِ وانسابتْ غدائرُهُ   كما أثرْتِ وراءَ الليلِ ثُعبانا

وقام صدرُكِ كالمِنفاخِ مُجتهِدًا   لا يُفرِغُ الريحَ إلا ارْتَدّ مَلآنا

فقلتُ شرٌّ ورائي لستُ أبصرهُ في عِطْف عبلة لما رُوِّعتْ بانا
ولاح لي الحبُّ في عينيك مرتسماً لم تستطيعي لهُ يا عبلَ كِتمانا

عبلة : الحبُّ ! كيف عرفتَ الحبّ ؟

عنترة : منكِ ومنْ عينيك

عبلة : قد تكذِبُ العينانِ أحيانا

عنترة :

لا عبلَ لا إنّ عينَ الحبّ صادقةٌ وما تعوّدتُ من عينيكِ بهتانا

عبلة :

أجل ولكنْ قديماً كان ذاك أجلْ هذا السوادُ لعيني كانَ إنسانا

عنترة : واليوم ؟

عبلة :

مالكَ في قلبي الجريحِ هوًى اليومَ عنترَ من أحببتُ قد خانا

عنترة :

دَعِي الوساوسَ والأوهامَ عنكِ دَعِي ياعبلَ بُحْرى على ما قيلَ نسيانا

[يسمع وطء أقدام]

عبلة : عنترَ تلك ضجةٌ فلنتوارَ ناحيهْ
لا يجد الواشي إلينا سُبُلاً والواشيهْ

[يختفيان وراء الشجر و يقبل من ناحية أخرى مالك وضرغام وزهير كأنهم مارون بالطريق ، و يتشاغل زهير بالشرب من ماء عين أو بشيء من مثل هذا]

المشهد التاسع

ضرغام : سيدَ الحيِّ

مالك : ألف لبيْكَ ضِرغامُ تكلّمْ أثَمَّ شيءٌ تقولُ ؟

ضرغام : سيدَ الحيِّ عبلةُ اختارَها القلبُ فهلْ لي إلى الزّواجِ سَبِيلُ ؟

مالك : والمهرُ يا ضِرْغامُ

ضرغام : مهرُ عبلَةَ ؟ اقترحْ تَرَهْ

قدِّرْهُ أو خلِّ إلى عبلَةَ أن تُقدِّرَهْ

وغاليَا ما شئتُمَا فيهِ وظُنَّا المقدِرَهْ

مالك : المهرُ يا ضِرغامُ غالٍ فاجتهِدْ أن تحرِزَهْ

ضرغام : سلْ تاجَ كسرى واقترحْ عِمامةَ المنَاذِرَهْ

سلْ سُبْحةَ القيصرِ أوْ فاطلُبْ صَليبَ القيصرَهْ

مالك : المهرُ فوقَ ذاكَ

ضرغام : قُلْهُ لا تخفْ أن تذكُرَهْ

مالك : إسمعْ إذنْ أصغِ لهُ المهرُ رأسُ عنتره

ضرغام [لنفسه] :

له الويلُ ماذا قالَ ؟

مالك : قد وجمَ الفتَى

ضرغام : أبا عبلَةَ اذكرْ هولَ ما أنتَ سائلُ

مالك : جبُنْتَ !

ضرغام : معاذَ الله ما الجبْنُ في دمي

مالك : فلِمْ ضِقتَ ذرْعا؟

ضرغام : مهرُ عبلةَ هائلُ

أأمْشي الى الفلحاءِ أخطفُ رأسَهُ ... فِداءُ الذي أمْشي إليهِ القبائلُ

كريمٌ لعمري والكِرام قدِ انقضوْا ... شجاعٌ وشُجعانُ الرجالِ قلائلُ

إذا قال بزَّ القائلينَ رَنينُهُ ... ومابزَّهُ في أيكةِ البِيدِ قائلُ

هَزارُ البوادي طارحتْه بشجْوِها ... رُباها وغنّت في صداهُ الخمائلُ

وما بيْنَنا ثأرٌ ولا بيْن أهلِهِ ... وأهلي عداوات خلَت وطوائل

مالك : وعبلةُ يا ضِرغامُ؟

ضرغام : مَا شأنُ عبلةٍ؟

مالك : أليس فِداها في الحجازِ المَقاتِل؟

ضرغام :

أجَلْ وفِداها الشمسُ ما التقتِ الضحَى ... عليها وما رَفّتْ عليها الأصائِلُ

مالك :

أأنتَ تخافُ العبْدَ؟

ضرغام : لِمْ لا أخافُهُ ... تُخافُ وتُرجى في الرجال الفَضائلُ

وإن ابْنَ شدادٍ وإن ذاعَ بأسُهُ ... فتًى مِلءُ بُرْديْهِ عفافٌ ونائلُ

من العُصْبةِ المسطورِ فى البيتِ شعرُهم قصائدُهم أستارُهُ والوَصائلُ

ما لك :

فما لَكَ مُصفَرًّا كأنَّك هالِكٌ من الخوفِ قبلَ الطعْنِ والضرْبِ زائلُ؟

تعالَ زهيرُ اسمعْ حسِبْناهُ حائطًا

[يقبل زهير]

زهير : فما هُوَ؟

ما لك : ركنٌ فى العواصِفِ مائلُ

وأمْلتُه سيفًا فلما لبِستُه إذا هو عُودٌ أنكرتْهُ الحمائِلُ

وقلتُ غَمامٌ يُمطِرُ الحىَّ فى غدٍ فكانَ جَهامًا ما لَنا فيهِ طائلُ

وقلتُ كليبٌ نستَطيلُ بِصهرِهِ إذا هُوَ كلبٌ

ضرغام : ضَلَّ ما أنتَ قائِلُ

وأقسِمُ لولا ظَبيةٌ تحتَ خيمةٍ وغصنٌ حوتْه فى الحِجالِ الغَلائلُ

لما رُحتَ إلا جُثةً فى الثَّرى لقًى وغالتْك من قبلِ المَغيبِ الغوائلُ

ما لك : تجرأتَ يا ضِرغامُ

ضرغام : ما تلكَ جُرأةٌ ولكنْ كما قد كِلْتَ لى أنا كائِلُ

ما لك :

كفَى حسَبٌ يا ضِرغامُ حسْبُ وقاحةٍ فما أنتَ إلا مُكثِرُ الزهوِ خائلُ

لقد قلتَ قولًا شفَّ عمّا وراءَهُ وقامتْ على لؤمِ النِّجارِ الدلائلُ

ولا يرفعُ الأبطالَ أنك مِنهُمُو فما هذهِ للباسلين شمائلُ

وما لكَ كالأبطالِ سيفٌ تُجيلُهُ ولكنْ لِسانٌ بالسفاهةِ جائلُ

أيذكرُ عبدُ السوءِ فى كل قفرةٍ وذكرُكَ يا ضرغام فى البِيدِ خامِلُ

أما أنت كالفلْحاءِ صِنديدُ قومِهِ أما لكَ كالفلحاءِ سيفٌ وعامِلُ؟

ألا حسدٌ للعبْدِ؟

ضرغام: لا . لستُ حاسدًا ولا أنا للنّارِ الأكولةِ حامِلُ

أأحسدُ مَن يحيا العُفاةُ بمالِه ويأوِى اليتامَى ظلَّهُ والأرامِلُ؟

أأحسدُ من لا يَعصِمُ البيدَ غيرُه إذا زحفتْ من أرض كسرى الجحافلُ؟

أأحسدُ من يُرجى لتأليفِ قومِهِ اذا افترقتْ تحتَ الملوكِ القبائلُ؟

مالك :

يؤلّفنا عبدٌ أما ثمَّ سيّدٌ عن العبدِ يغنِينا أمَا ثمّ عاهِلُ؟

إذن فليسُمْنا الخسْفَ كِسرى وقومُه وقيصرُ والرومُ الجفاةُ الأراذِلُ

أيمنعُنا عبدٌ ؟ إذنْ نحنُ عُزّلٌ فأينَ عوالينا وأينَ المناصِلُ؟

ضرغام:

لقد عِيل صبرى للّذى أنا سامِعٌ

مالك : إذا الصبرُ لم ينفَدْ فما أنتَ فاعِلٌ؟

ضرغام:

عِقابٌ يُنسّيكَ الوقاحةَ عاجلٌ وآخرُ متروكٌ الى الغدِ آجِلُ

مالك :

رُوَيدكَ يا ضِرغامُ مالكَ هاذِياً ومالَكَ قد ضاعتْ لديكَ المنازِلُ؟

فما العبْدُ إلا كالدُّخانِ وإن عَلا الى النّجمِ مُنحطٌّ الى الأرضِ سافِلُ

ضـــرغام :

تعالَ تأهّبْ

[يمسك بكتفيه فيهزه هزا]

مالك : كاهِلي خلِّ كاهِلي

ضـــرغام : أقالَبُ زُبْدٍ ذاكَ أمْ ذاكَ كاهِلُ

زهير [صائحا] :

هلُمُّوا سَراةَ الحيِّ هاتُوا رِجالَكُم

مالك : الَّى فعبْسٌ فاجأتْهـا النـــوازِلُ!

يا عبْسُ

[ويرى عنترة قادما فيجرى
نحو الحى هو وابنـه زهير]

عنـــترةٌ ؟

المشهد العاشر

عنترة [من وراء الستار] : لبيك مَابِكُمُ؟ خَوْفٌ من السيْلِ أم خوْفٌ مِن النارِ؟

أللهُ أمّنَ بالفلْحاء سِرْبَكُـــو أفْعَى الصّريمِ وليث القفْرةِ الضّـارِى

[يظهر عنترة]

المشهد الحادى عشر

مَن الفتى من أرى؟ ضِرغامُ أنتَ هُنا   أغارةٌ ؟ أين عهــدُ الجار للجارِ؟

أجِئتَ تَسبي مَهاتي ؟

ضــرغام: جئت أخْطُبها

عنــترة : ما أجملَ الصِّدْق لم يُلْبَس بإنكارِ

فما جَرى ؟

ضــرغام: نَال مِنّا مالكٌ وبَغى   عليكَ بالشتم هذا العائبُ الزّارِى

حتى انصرفْتُ إليــهِ كَىْ أؤدّبَهُ

عنــترة : يا ليتَ أدّبتَــهُ تأديبَ جبّار

ضِرغَامُ

ضــرغام: عنــترةُ

عنــترة : اسْمَعْ بيلناشَرَكٌ   فى حبّ عبلةَ قد يَدنو من الثارِ

فاجعــلْ لنفسك أنثى غيرَها أرَبًا   فإنّ عبلةَ آرابِى وأوطــارِى

ضــرغام:

وأنت فاعبُــدْ سِواها إننّى رَجلٌ   جعلتُ عبــلةَ أوثانِى وأحجــارِى

تعالَ نذهبْ الى شمسِ النهارِ معًا   نقول عبلةُ قـد خُيِّرتِ فاختارى
فما ترى أنتَ ؟
عنـــترة : رَأْيِى أن نَصيرَ إلى   جمـالِ تضْحيةٍ أو فضلِ إيثـارِ
رأْسى ورأسُك فى الميزانِ قد وُضِعا   وحُكمِ سيفِك أو سيفى هوَ الجارِى
من ماتَ منا قَضى حقَّ الهوَى كرمًا   وليْس بالموْتِ دُون الحبِّ من عار
ضــرغام :
رأيتَ عنـــترَ رأيا لستُ أَتْبعُـهُ   يأباهُ حـبى وإعجـابِى وإكبارِى
واللهِ لا جمعتْنـا ساحةٌ
عنـــترة : لِم لَا ؟   الحـربُ تجمـعُ مِغـواراً بمغـوارِ
ضــرغام :
هبْنِى قتلتُك
عنـــترة : ماذَا ضرَّ ؟
ضــرغام : كيف إذن   تكونُ فى البيد أنبائى وأخبارى؟
ألستُ شِـبْلا فَتِيًّا من شبُولتِهـا   فهلْ أجرِّبُ فى الرِّئبالِ أظفارِى؟
وكيف أفلقُ رأسًا ملؤُهُ شرفٌ   أحقُّ من جَبَهـاتِ الروم بالغارِ؟
وكيف أضرِبُ عُنْقا فى أمانَتِهـا   كرامَةُ القوْمِ من بَدْوٍ وحضَّارِ؟
وكيْف أرمى لِسانا طَالَمـا سُقِيتْ   بشَهدِه البِيـدُ من شَرْبٍ وسُمَّارِ؟
عنترة ينادى : ياعبلَ
عبلة [من وراء الستار] : لبيكَ يا ابنَ العمِّ

[تقبل عبـــلة]

المشهد الثاني عشر

ضرغام : أنتِ هُنا؟

عبلة : أجلْ

ضرغام : إذن سمِعتْ ما قيلَ أُذْناكِ؟

عبلة :

أجلْ علمتُ بما قد دارَ بيْنكُما

عنترة : فما ترينْ؟ لعَلَّ القولَ أرْضاكِ

ياعبلَ حبُّك في لحْمي جَرى ودَمِي وقد يحُبُّكِ ضِرغامٌ ويَهْواكِ

ضرغام : أحبُّها حُبِّي العُزّى وأعبدُها عِبادةَ اللاتِ

عنترة : بِنْتَ العمِّ بُشراكِ

ضرغام :

ولو يُطافُ بغيرِ البيْتِ في زمَني ما طُفتُ يا عبلَ إلا حول مَغْناكِ

عبلة :

ماذا تَقولُ ابنَ عمِّي بِمْ تُبشِّرني بُشرَى بماذا ؟

عنترة : بهذا العَاشقِ البَاكي

عبلة [لنفسها] :

يُحبُّني؟ ربِّ أشقيْتَ الفوارِسَ بِي فلا أُتيمُ إلا المُعلَّمَ الشّاكي

عنـــترة :

عبلَ اسمعِي عبلَ هذا الحبُّ كيف أتَى هلْ كان فى فترَاتِ الدهْرِ يلقاكِ؟
عساهُ جاءكِ يشكو الحبَّ من زمَنٍ لعـلَّه بالهوَى مِن قبـلُ ناجاكِ
ضِـرغامُ هاتِ تكلَّمْ

ضـرغام : أنتَ تَظلِمُنِي فـما نصبْت لعبْس قطُّ أشْراكى
قولى لعنترةٍ يا عبل ما خُلُـقِى كما يقولُ ولا فى شِيَمتى ذَاكِ
هل التقيْنا على ذاتِ الأصادِ ضُحىً وهـل لقيتُكِ إلا فى عذارَاكِ؟
وهل نظرْتُكِ إلا خاشِعا خَفِرا كما نظرْتِ وراءَ السِّـتْرِ عُزَّاكِ؟

عنـــترة :
الآنَ يا عبـلَ تختارِينَ راضِـيةً هاكِ الخطيبيْن قد مدّا يداً هاكِ

عبـلة :
إنى قد اخترتُ يا ابن العمِّ من زمَنٍ

عنـــترة : مَن ؟

عبـلة : سـيِّدى !

[تندفـع اليه]

عنـــترة : عبدُكِ الوافِى ومولاكِ !

[تسمع ضجة وقعقعة سلاح وأصوات]
[استغاثة من الحى كأنها من بعيد]

عبـــلة :

ما ويحَ أذني صيحةٌ وفـوارسٌ ما ذاكَ عنـــترُ؟

عنـــترة : غارةٌ وصـــياحُ

عبـــلة : ضِرغامُ عنترَ ما مُقامُكَ هاهُنا؟ والحيُّ ثَمَّ مروَّعٌ يُجتاحُ

[يقبل داحس مضطربا]

المشهد الثالث عشر

عنـــترة :

ماذا وراءَكَ داحِ ما دهَمَ الحِمى ؟

داحس : فِئـةٌ عليهم شِكَّةٌ وسِلاحُ

وطِئَتْ تُرابَ المهدِ أرجلُ خيلِهمْ ولهـا عليـه نشوةٌ ومِراحُ

عنـــترة :

أمِنَ البوادي؟

داحس : بلْ غساسِنةٌ علَى قسماتِهِـمْ أثرُ النعيمِ صُـباحُ

في ظلِّ دجْلةَ والفراتِ ترعرعوا وغدوْا على وشْيِ الرِّياضِ وراحُوا

أولادُ لخمٍ والذين رمَى بهِـمْ أرضَ العِـراقِ تطلُّعٌ وطِمـاحُ

جاءَ الحجازُ بهم ومكةُ والتقتْ فيهمْ جِبـالٌ حولَهـا وبِطاحُ

نُشِئوا هُنالكَ فمـا تصلَّبَ مَنْسِرٌ لهمُـو ولا بلغَ التمـامَ جَنـاحُ

عنـــترة : ما يبتغُون ؟

داحس : أظنُّ رأسَكَ سؤْلَهم هتَفوا بهِ حوْلَ البُيوتِ وصاحُوا

أنسيتَ سرحانا وكيفَ قتلتَهُــمْ وفوارِسا بُهمًا بسيْفِكِ طاحُوا

ضــرغام :

ما القــوْمُ ؟

عنــترة : عسكرُ رُستُمٍ

ضــرغام : مَن رُستمٌ؟

عنــترة : بطــلٌ له شرفٌ وفيــهِ سَماحُ

وفتى يُعظِّمهُ العِـراقُ وصاحبُ كِسرى إليــه بأنسِهِ يرتاحُ

عنترة [لداحس] :

ما شكلُه ؟ ما لوْنُه ما وجْهُــه؟

داحس : رَيّانُ أبلجُ ناعمٌ وضّـاحُ

ضــرغام :

هذا الجمالُ فما شجاعةُ رُستمٍ

داحس : موتٌ لمن يمشي اليــه مُتــاحُ

عنــترة : وثيــابُه ؟

داحس :

زَرَدُ الحديدِ وبُرنُسٌ ضافٍ على أعْطافِه ووشــاحُ

قدحفَّ ساعدَه السِّوارُ ورفَّ في أُذْنَيْــه قُرطُ اللؤلؤِ اللّمّــاحُ

[تزداد الضجة وتقترب الأصوات]

ضرغام :

اسمع لواءَ البِيد أصغ لِصوْتِهمْ ... هـذا النِّداءُ يَزيدُ والإلحاحُ

[يسمع صوت رستم]

الصوت :

العبدُ! رأسُ العبدِ

عنترة [لداحس]: إمضِ فقلْ لهُم ... رأسِى لهم فى مَنكِبَىَّ مُباحُ

[ثم يواجه الأشباح القادمة من بعيد]

ياقومُ لمْ أفهمْ نداءَ كُمُ اعزُبوا ... إذ ليس فى لُغةِ الأسُودِ نُباحُ

ويحٌ لرأسِى قد غدا كرةً لهم ... راحٌ تجىء به وترجِعُ راحُ

كثُروا عليه فى الطِّلابِ ودونَهُ ... نتقطَّعُ الأسْيافُ والأرْماحُ

[يقبل جماعة من الحى هاربين
وينصرف عنترة وضرغام للقاء المهاجمين]

المشهد الرابع عشر

عنترة [من وراء الستار]:

لبيْكَ يا أسْوارُ تعلَمَ أيَّنا ... يُبكَى عليهِ فى غدٍ ويُناحُ

عبلة [للقادمين] :

حُيِيتُمو عبْسُ عِمُوا مَساءَ

عبسُ اسْمَعوا الزَّئيرَ والعُواءَ

قُوموا انْظرُوا عنترةَ اللّواء

[يشرف الكل على المعركة الدائرة من وراء الستار]

أحدهم : علَى قَـدَمْ حَيُّوا العَـلَمْ لَيْثَ الأجَـمْ

عنترة [من وراء الستار] : عبَـل عبـلَ

عبـلة : لبيْكَ ألفَ لَبْ

أحـدهم : ذاك عبـدُ شـدّادٍ انقـلَبْ

عبـلة : بَـلْ لـواءُ عبْسٍ فتَى العـرَبْ

أنْصِـتُوا اسْمَعُوا الرعْد فى السُّحُبْ

تلك صرْخَـةُ الليْثِ فى القَصَبْ

أحـدهم :

وآخرُ ليس دونَ أخيه بأساً

عبـلة : أجلْ

الأوّل : ضِرغامُ العَضْبُ الحُسـامُ

مُبيدُ الضيغمينْ بشِعْبِ خَبْتِ

آخــر : أجلْ ضِرغامٌ الموتُ الزؤامُ

المنظر الثاني

« نفس المنظر بعد زمن قصير ، لاتزال عبلة ومن معها من »
« بني عبس يشرفون على المعركة ، وإن كان يبدو أنهم قد تأخروا »
« في المسرح الى مكان أبعد من مكانهم في المنظر الأول قليلا . »
« في مقدمة المسرح من ناحية أخرى جماعة قليلة من بني لخم »
« أنصار الفرس وبيد أحدهم صندوق وحديثهم يكاد يكون همسا »

المشهد الأول

واحد من بني لخم :

ماذاكَ ؟ ما الصُّندوقُ ؟ ما بأكُفِّكُم ؟

حامل الصندوق : السِّلْمُ يا إخوانُ والإصلاحُ

العبدُ رأسُ العبيدِ بُشرى فارسٍ اليومَ كلُّ مَحَلَّةٍ أفراحُ

[يفتح الصندوق فترى فيه رأس قتيل معطى]

آخر :

أبرأسِ عنترةٍ أتيتُمْ مالَهُ يَثْرُو ؟ وما لِلسِّتْرِ عنهُ يُزاحْ ؟

آخـــر :

أتراهُ حيًّا !

آخـــر : هل جُنِنْتَ

الأول : إذنْ قَضَى وتنَاْمتْ من غُولِها الأرْواحُ

آخـــر :

من ذَا الذى ذبَحَ الغضنْفرَ ؟

الجماعة : رُسْتُمُ فَحْلُ العِراق وكَبْشُه النَّطّاحُ

آخـــر :

حُطُّوهُ ننظُرْ يا إلهى مَا أرَى [يكشف القاتل الرأس]

ويْلٌ لهم أىَّ الرءُوسِ أطَاحُوا؟

ما ذاكَ عنترةٌ ولكن رُستُمٌ مَنْ يا تُرى الجانِى مَنِ السَّفّاحُ؟

آخـــر :

مَن غيرُ عنترةٍ يُجَنْدِلُ رُسْتُمًا قد كانَ بين الضيغَمينِ كِفاحُ

ماتَنْظُرونَ الرأسَ فى الدّمِ غارِقًا وعليه من كل الجهاتِ جِراحُ؟

لهفى على قَسماتِه وجبينِه عفَتِ البشاشةُ وانطفَا المِصْباحُ

آخر [صائحا] :

يالكسْرى ونَواحِى فَارِس لِقَتيلٍ حوْلَ عبْسٍ دَارِس

قَتَلَ العبْدُ بحُرٌّ فارِسِى قائدِ الجحفلِ أُسْوارِ العِراقْ

يا بَني المُنذرِ آلِ الأشهَبِ شَرَفَ الفرْسِ ومجدَ العرَبِ
قد صحِبْتُم رستما في الموكبِ فاركَبُوا في ثارِهِ الخيلَ العِتاقْ
بيْنَنَا ياعبسُ يومٌ ذُو نَبَا

[تتجه الجماعتان: بنو عبس
وبنو لخم بعضهما الى بعض]

بنو عبس : مرحَبًا باليومِ أهلًا مرحَبا
أحدهم : هذه السُّمْرُ أُعِدّتْ والظُّبي أُرْهِفَتْ وانتَظَرَتْ يومَ التّلاقْ
عبلة : أولادَ لَخْمٍ
آخر : مَنِ المُنادي؟
آخر : عبلَةُ
الأول : مَنْ تِلكَ ؟
الآخر : بِنتُ مالكْ
عنترةٌ جُنَّ في هواها والبنتُ جُنَّتْ بِهِ كذلكْ
آخر : لبيْكِ لبيْكِ أُختَ عبْسٍ
عبلة : ألا أُنبِّئكُمُو بأمْسِ؟
ما نحنُ إلا أبناءُ جِنْسِ نحن بنُو الشمْسِ والصحارَى
لا تحفِلُوا رُسْتمًا دعوهُ خلُّوهُ للفُرْسِ يثأرُوهُ
ولا يُقاتِلْ أخًا أخوهُ منكم ولا تخذُلوا الدِّيارَا

حُشِرْتُمو تحتَ كلِّ رايهْ وأسْرَجُوكُمْ لِكلِّ غايَهْ
وسَّعْتُمو الملكَ والولايَهْ لِكلِّ كسْرى وَكلِّ دَارَا»
قبيلةٌ تحتَ حُكْم كسرَى وقيْصرُ الرومِ دانَ أخْرَى
أصبحْتُمو للغَريبِ جِسْرا يَركُبُهُ كُلّما أغارَا

أحدهم : ما ذا تقُولينَ يا فتاةُ؟ أَيترُكُ القائدَ الغُزاةُ
كأنّه فى الطّريق شاةُ وذابحُ الشاةِ قد تَوارَى ؟

عبلة : يا لَجمُ يا بنى العَرَبْ يا لَجمُ حُرْمةَ النَّسَبْ !
[ضجيج]
رُوَيْدَ ما هذا الجلَبْ

بنو لخم : نُريدُ رأْسَ عنترَهْ

عبلة : قد رُمْتُمو ما لم يُرَمْ ما أنْتُمو ولا العَجَمْ
بِبَالِغِى لَيْثِ الأجَمْ

بنو لخم : نُريدُ رأْسَ عنترَهْ

أحدهم : يا عبلَ أحْيي رُسْتما — إنْ شئْتِ — نَحْقِنِ الدِّما
أو نَاوِلِينَا المُجْرِمَا

الجميع : نُريد رأْسَ عنترَهْ

[يسمع صوت عنترة مقبلا من
بعيد فيلتفت الى ناحيته الجميع]

الصوت :

أراكِ يا عبلَ تغضبينا يا عبلُ منْ ذا تخاطبينا ؟
منْ ذا الذي يرفعُ الجبينا مخاطبًا ملكةَ العذارى ؟

عبلة :

عنترةَ البأسِ خلِّ سيفَكْ وعُدَّ لخمًا في الحيّ ضيفَكْ
ولا يرَ الأقربونَ حيفَكْ ولا يقولوا العبسيُّ جارا

ما أنتَ من ظلمَ القريبَ وهذه لخمٌ قرابتُنا الأداني فاءٌ بدارِ
بالأمسِ تبني ركنَ قومِك باذخًا واليومَ تفعلُ فيه فعلَ المعوَلِ
بالبيتِ بالعُزّى بعبلةَ بالهوى بالحقِّ إلّا سرتَ سيرةَ مُجْمِلِ

[يظهر عنترة]

المشهد الثاني

عنترة : ما لكِ عبلَ ثائرهْ ما يبتغي المناذرهْ
صنائعُ الأكاسرهْ

بنو لخم : نُريدُ رأسَ عنترهْ

عنترة : رأسي أنا

واحد من بني لخم : لِمْ لا أجلْ

عنترة : هلْ لكمو به قِبلْ

الكل : أجَلْ أجَلْ أجَلْ أجَلْ

عنترة : يا بُعدَ رأسِ عنترهْ !

يا لَخمُ هاتوا جمعَكم هاتُوا القَنا وامْضُوا لِكسْرى وارْجعُوا فى جَحْفَلِ

جِيئُوا بفُرْسانِ العراقِ وفارِسٍ من راكبٍ فيلًا ومِن مُترَجِّلِ

وتقلّدوا أمْضَى المَناصِلِ واطلُبوا رأْسِى بما قُلّدتُمُو من مُنْصُلِ

هلُمُّوا يا بَنِى لَخمٍ خُذُوا رأسىَ من جِسْمِى

بما شِئْتُمْ فَبالسيفِ وبالرُّمحِ وبالسَّهْمِ

[ينازلهم و يقتل منهم مقتلة عظيمة فيفرون صائحين]

أحدهم : خلّنى أنجُ بنفسِى

آخر : أنجُ مِن جَبّارِ عبْسٍ

ذاك جِنّىٌّ ولا يَبرُزُ لِلجِنّىِّ إنْسِى

عبلة : رُحماكَ عنترَ

عنترة : أنتِ عبلةُ ذِى

عبلة : أجَلْ

عنترة : ما تأمرينَ سلِي الخوارِقَ أفْعَلِ

عبلة :

رُحماكَ عنترَ لا تَشِم سيْفًا ولا تطعنْ برمحٍ واتّئِدْ وتَمَهّلِ

[يلقى عنترة سلاحه ثم يقبل عليها]

لم أنسَ ذِكرَكِ والجراحُ تسيلُ من ... ـدِي وتصبغُ أشقرى بالعَنْدَمِ
(ولقَدْ ذكرتُكِ والرِّماحُ نواهِلٌ ... مِنّي وبيضُ الهندِ تقطُرُ من دَمي)
فمَضَيْتُ أعتَنِقُ الرِّماحَ لأنَّها ... خَطَرَتْ كأسمَرِ قدِّكِ المتقوِّمِ
(ووددْتُ تقبيلَ السُّيوفِ لأنَّها ... لمعَتْ كبارِقِ ثغرِكِ المُتَبَسِّمِ)

ستار

الفصل الرابع

« فى حى بنى عامر وفى مضارب بنى الأشتر وفى خيام صخر. »
« سرادق نخم وسامر حافل فيه جماعة من سراة عبس وأخرى »
« من وجوه عامر . خدم يروحون ويجيئون بقصاع الطعام »
« وأوانى الشراب . جماعة يزمرون ، وآخرون يضربون »
« على الدفوف والمزاهر... ... ... »

المشهد الأوّل

أحدهم : عبـلةُ فى الوَشْيِ   زُفَّتْ الى عامِرْ
يا زامـرَ الحَيِّ   هاتِ اشْدُ يا زامِرْ
هيِّ ارتجِـلْ هيِّ   وأطـرِبِ السّامِرْ

شيخ من عامر :

الطعامَ الطعامَ يا عبْسُ قومُوا   الطعامَ الطعامَ ضيفانَ عامر

آخـر :

الشرابَ الشرابَ تلك بواطيه وهذي أقداحُه ياحساةُ

دونكم تَمْرَ عامرٍ مااكتَسَت أَطيبَ مِنهُ ولا ألذَّ النَّواةُ

دونكُم من زبيبِ جِلّق والطـائف مالم يَسقِ الملوكَ السُّقاةُ

آخـر :

هـذا شرابُ الرماةِ دعْني مِنهُ وهاتِ اسْقِنى الكُروما

آخـر :

هيَ جواريَ الحِمَى هيَ صبَايا عامِـرِ

فمْن الى الدُّفُوفِ واضرِ بْن على المَزاهِـرِ

زِدْنَ جمالَ العُرسِ أوْ زِدْنَ جمال السامِرِ

قـد كمَلَ الأُنُسُ قد بَجريت الكأسُ

قومُوا اطرَبُوا عبْسُ

قد كمَلَ السامِرْ وزَنّم الـزّامـرْ

قومُوا اطرَبُوا عامِرْ

غنـاء : يا عبـلَ حيِّينا إنا مُحيُّوكِ

هـاكِ الرياحينا يَنفحْن عن فِيكِ

ياعبـلَ ياحُـرَّهْ يا ملْـكَةَ البِيـدِ

أصبحتِ كالدُّرّه في مَفرِقِ البِيـدِ

ضيف : لاَ تسقِنى التمرَ ولا بنْتَ الشعيرِ والذُّرَهْ
وعاطِنِى مايشربُ الرُّ ومُ وراءَ أنقرَهْ
إذا شرِبتُ أربعًا منها انقلبتُ عنترَهْ!

[يسمع صوت عنترة من بعيد
يخاطب رجالا من وراء الستار]

صوت عنترة : مَنِ الرجالُ ؟

صوت أحد الرجال : ومَنْ أنتَ ؟

صوت عنترة : فاتِكٌ ومُغيرُ
من آثَرَ العيْشَ فلْينجُ بالنفْسِ
لا جرَّدَ اللهُ سيْفِى على عبْسِ

واحد من بنى عامر : عنترةٌ ؟

آخر : ماذَا ؟

الأول : عنترةٌ جاءَ

آخر . بل ذاكَ سكرانُ يقولُ ما شَاءَ

آخر : ماذا تردُّ الهواءُ؟

آخر [ثملا] : ما ذاكَ إلا ثُغَاءُ
شُوَيْهةٌ جاوَبتها مِنَ المراعِى الشَّاءُ

صوت عنترة : وقفتم يا رِجال ؟

صوت أحد الرجال : أجلْ وَقفنا

صوت عنترة : نَزالِ إذنْ نَزالِ إذَنْ نَزالِ

صوت أحدالرجال : تأهبْ يا فتى

صوت عنترة : أبناءُ عمّي ؟ إلهي كيفَ أصنعُ بالرِّجالِ ؟

صوت أحدالرجال : تأهبْ يا فتى للقاءِ عبْس

صوت عنترة : وأنتمْ فاستعِدّوا للقِتالِ

[تسمع قعقعة سلاح]

واحد من بني عامر :

أمَا تبيّنْتَ الفتى أما عرفْتَ الزمجرَه ؟

واحد من بني عامر [ثملا] : عامرُ

آخرون : ماذا ؟

الأول : ظفرت أيديكمو بالجوهره

فزتم من البِيدِ ومنْ سمائِها بالنيِّرهْ

آخر : وبعْد ؟ ...

آخر : ماذا تبتغي ؟ فيمَ تعكّد المنجره ؟

الأول : أريدُ أن أعلمَ أينَ اليومَ أينَ عنترهْ ؟

عبسٌ على سِلاحِها وعامرٌ مُنتظِرهْ

وذاكَ سيفي في يَدي فليجئْ العبْدُ يرَهْ !

أحدهم : أعوذُ بالعُزّى أعوذُ باللّاتِ
آخر : نَعوذُ بالْبيتِ من الفُجاءاتِ

صوت عنترة :

أنا الذى لقّبَنِى أَبى وأمّى القسْوَرَهْ
ضجّت ضَراغِمُ الفلَا من حملَاتِى المنْكَرَهْ

واحد من بنى عامر [لآخر من بنى عبس] :

أوَلَم تقلْ لى إن رأسَ العبدِ كان صَداقَ عبلهْ ؟

الآخر : قد قيل ذاك أجل
الأول : فكيف إذن نراهُ؟

ثالث [من عبس] : أنت أَبْلهْ !

منذا الذى يَقوَى على رأس الغضنفرِ عنتره؟
قد ماتَ رستُمُ دونَه وهَوَى أُسَيْدُ القسوره
وجنى شيوخُ الحىِّ من مَهرِ الفتاة الثرثره
فرضُوا صداقَ فتاتِهم نَعَمًا تُساقُ وأبْعِره!

[يدخل عنترة ومعه رجال آخرون من عبس وفتاة مقنعة فينهض السامرون ويشهرون سيوفهم ويفر من بنى عامر غير قليل ، ويبرز لعنترة واحد من بنى عبس]

المشهد الثاني

المقدم : أنَا الذي تعلَم عبسٌ أنِّي   أذودُ عنها وتَذودُ عنِّي
خُذْ يا ابنَ عمِّيَ الحِذارَ منِّي

عنترة : مرحبًا بِكْ مرحبًا بِكْ   عِشْ تمتَّعْ بِشَبابِكْ

[يحمل عليه عنترة فيطير السيف من يده ولا يؤذيه]

تعالَ سيفُكَ طارَا   لا تخشَ بالأَسْرِ عارَا
إنِّي أرْعى الأَسارَى

[يأخذه رجال عنترة أسيرا]

عنترة : خُذُوا الأسيرَ ناحِيَهْ   ولا تَجُزُّوا الناصِيَهْ

[يبرز له آخر من بني عبس]

المقدم : إنِّي أنا الغضنْفرُ العَبْسيُّ   تعرفُني الرِّماحُ والقِسِيُّ
والوحشُ في الفلاةِ والإنسِيُّ

عنترة [حاملا عليه] :

أنا المنَايَا المائِلَهْ   أنا القَضايَا النَّازِلَهْ
غضنفَرٌ في قافِلَهْ

[يحطم سيفه]

سيفُكَ يا هـذا كُسِرْ وصاحبُ السيفِ أُسِرْ

[إلى رجاله] : خُـذوهُ

[إلى منازله] : هيَّ إمْضِ سِرْ

[يأخذه رجال عنترة فيبرز له شاب ثالث]

المتقـدم : أنا أخُـو الأشبَالِ مثـلُ أبى الرئبـالِ
بالقِرْنِ لا أُبالى

عنـترة : وأنتَ أيْضـا يا حـدَثْ ما الحـرْبُ ياطِفـلُ عبَثْ
قِفْ لا تَسِرْ إلى الجدَثْ

[يحمل عليه عنترة فيطير السيف من يده]

الشـاب : أينَ مَضَى سيفِي ؟ قد كانَ فى كفِّى

عنـترة : لا تَقْتَبِمْ ولا تَسَـلْ سيفُكَ فى سَيْفِى دَخَلْ !
سِرْ قِفْ هناكَ يا بطَلْ !
الآنَ أنتَ لُعْبَتِى إلحَـقْ بِصـاحِبَيْكَا
إمِضِ انضِمْ اليهِمَا

[وفى هـذه الأثناء يكون قد رفع بيده من الأرض
مبارزا آخر كان قد خرج اليه فيقذفه بجانب الشاب]

وضُـمْ ذَا إليـكَا

[ثم يخاطب الجماعة]

سُدًى حربُكُمْ ياقومُ ألقُوا سِلاحَكُمْ ولا تُرْكِبُونى فى دمائِكُمُو وِزْرَا

رأيتُمْ يدِى؟

أحد بنى عامر : ما كانَ أعْظمَ بطْشَها؟

عنترة : وسَيْفِى؟

آخر : كسَيْفِ الموْتِ يَفْرِى ولا يُفْرَى

[يقترب عنترة من الفتاة
المقنعة التى دخلت معه]

انْهضِى الآن يا عروسُ تعَالى لا تخافِى منِّى ولا مِنْ رجالى

بطلٌ كلُّهم فلا خوْفَ مِنْهمْ كيفَ تشْقَى النساءُ بالأبْطالِ

[يرفع عن وجهها القناع فاذا هى عبلة]

صخر [فى ذهول] : مَنْ هذِه؟

عبلة : عبلةٌ!

صخر : مَن بمَن تزوّجْتُ إذَنْ؟

مَن التى تركْتُ فى الخِباءِ؟

ومَن تُرى تكونُ فى النِّساءِ؟

رجل لآخر : لكنْ أجبْنِى ألسْنَا فى دارِ صخْرٍ وعُرْسِهْ؟

الآخر : نعمْ وأحسَبُ صخْرا جرتْ أمورٌ بنحْسِهْ

عنترة :

فيامَا عامرُ انتظِروا قضائِى فإنِّى الموْتُ ما منْه فِرارُ

وأنتمْ عبسُ للأوْطانِ عُودوا فما فِى عامرٍ لكمْ قرارُ

نَسيتُ لكم وأَنْسى ما جَنيتُمْ تُحَبُّ وإن تنكّرتِ الدِّيارُ

الجماعة : [كل جملة يقولها رجل] :

العفـــوَ عنـــترهْ الصفحَ يا بطَــلْ
مُرْنا بِمَـا تشـا أمرُك مُمْتَثَــلْ

عنـــترة : رأيتُمُو يا قومُ عبـــلَةَ معِي وكنْتُمُو حسِبْتُمُوها فى الْخِبَا
نِيطَ بعبْسٍ وشبابِ عَامرٍ أن ينْقُلوها مِن حمًى الى حِمى
ساقُوا بعيرَها وكانُوا حوْلَهَا عشرِينَ فتيانا أشِدّاءَ القُوى
أدركتهُمْ على الطَّرِيقِ فنجَا من المَنُونِ بالفِرَارِ مَن نجَـا
وماتَ دونَ الرحْلِ نحوعَشْرةٍ قد غُودِروا مُجندَلين فى الفَلَا
وهؤُلاءِ هم بَنُو العمِّ أبوْا إلا المسِيرَ معنا الى هُنـا

كانت مَعِى ناجيةٌ فركِبَتْ بعيرَ عبْـلةٍ وحثّتِ الْخطا
فى وشْيِ عبْلَةٍ وفى خِمارِها وانطلَقتْ تُحدَى باتْبَاعِى أنَا

رجـــل : حـــديثُ عبـــلةٍ عجَبْ لَيؤْثرَنَّ فى العَـــرَبْ
لَترْوِيَنَّه الحِقَبْ

صخـــر : واشِـــقْوَتِى وابـــلَائِى فَقَـــدْتُ إِبْلِى وشَـــائِى!
عبـــلة : يا صخرُ إنَّ فى الخباءِ جارِيةْ تَهواكَ فى السرِّ وفى العَلانِيَةْ

صخـــر : جارِيةٌ تخطُبنِى! من ؟

عبـلة : ناجيـــة

صخـــر : ناجِيـــةٌ؟ ومن أرادَها لِيَهْ ؟

عبـلة : أنا التى جعلتُها مكانيهْ

عنـــترة : ناجيـــةٌ يا فــتى جارِيةٌ كالرَّشا

وأنتَ بانٍ بها إن شئتَ أولم تَشَا

صخـــر : قبِلتُ بالحُكمِ إنْ قبلتْ عامـر

مُرْهُـــم بما شئتَ أنتَ هُنـــا الآمِرْ

عنـــترة : من يُخالِفُ إرادتِى مِنكُمو يَمِضِ ناحِيَـــهْ

[لا يتحرك أحد]

قـــد قبِلتُمْ مَشيئَتِى ورَضِيـــتُمْ قضائيَـــهْ

إشهدوا عُرْسَ عبْلةٍ واشهدُوا عُرْسَ ناجِيهْ

عبـلة : إنِّى أخافُ

عنـــترة : عجَبًا يخافُ جارُ الأسَـــدِ

عبـلة : غدًا يُقـالُ صِـــدْتَنِى وكنتَ لى بمَرْصَدِ

غداً يقالُ قد تآ مرْنا على التّمرُّدِ

يُقالُ خان عمَّهُ

عنترة : وأنتِ

عبلة : خُنْتُ والِدى

عنترة : لِيَقُلِ السّامِرُ مَا قدْ شاءَ ولْيَهْذِ الندى
ولتَقُسِمِ البِيدُ لما نأْتِى بهِ وتَقْعُدِ
ماذا يَهُمُّ بعدَ ما قد صارَ كنْزِى فى يَدِى
وبعدَ أن نِلْتِ مُنا كِ وبَلَغْتُ مَقصِدِى

عبلة : والناسُ من كلِّ فُضو لىٌّ وكلِّ مُعتَدِ؟

عنترة : الناسُ ؟ خلِّى لِقَنا تِى النّاسَ أو مُهنَّدِى
أنتِ اذا أطعَمْتِهِمْ مُخَّ الرَّشا لم تُحْمَدِى
غداً يخصُّونَكِ بالـ ـتمليقِ والتّودُّدِ
البِيدُ معبَدٌ وأنـ ـتِ دُميةٌ فى المَعبدِ

واحد من عبس :

عنترَاسلَم لعبْسَ نحنُ فِداؤُكْ لَقِيَ الذلَّ والردَى أعداؤُكْ
لقد أبَى عمُّكَ أنْ يُهدِى إليكَ الجوهَرهْ
عمُّك نحنُ قومُهُ نحنُ لنا أنْ نأمُرَهْ
عنترَ هاكَ عبلَةً عبلَةُ هاكِ عنترَهْ

عنترة : الآنَ صخرُ امضِ إلى الخباءِ جئْ بناجيَهْ

عامرُ عبسُ أقبلوا زُفّوا العروسَ الغاليَهْ

ما هِيَ بالخادمِ في عبسٍ ولا بالرّاعيَهْ

لكنْ فتاةٌ حُرّةٌ من البيوتِ العاليهْ

تزوّجتْ بوافرِ المالِ كثيرِ الماشيَهْ

صخر : عنتر

عنترة : صخرُ هاتِ قُلْ

صخر : وإبلي وشائيَهْ؟

عنترة : تُرَدُّ في غدٍ اليكَ وهي مهرُ ناجيَهْ

يا عبلَ ساعَفني في قربِكُم زمني وشاءَ ريبُ الليالي أن نعيشَ معَا

يا بيدُ هيَّ اشهدي أعراسَ عنترةٍ ويا سِباعُ تعالَيْ هنّئي السَّبُعَا

عبلة :

التأمَ في عامرٍ شملي بعنترةٍ وكان ظنّيَ في شملي به انصدعَا

قد اجتمعنا على عُرسٍ وفي فرحٍ كم من شتيتَيْنِ بعد الفُرقةِ اجتمعَا

إنّي وضعتُ بناني في يدَيْ أسدٍ لو مرَّ مِخلبُه فوقَ الصّفا خشعَا

سامَ القبائلَ إجلالي وملّكني عقائلَ البِيدِ حتى صِرْنَ لي تبعَا

ستار الختام

مجنون ليلى

تمهيد

زمن الرواية :

صدر الدولة الأموية

مكان الرواية :

بادية نجد

أشخاص الرواية :

قيس — مجنون ليلى

ليلى

المهدى — أبو ليلى

ورد — زوج ليلى

ابن عوف — أمير الصدقات فى الحجاز وعامل من عمال بنى أمية

زياد — راوية قيس وصديقه

منازل — غريم قيس فى حب ليلى

بشر — رجل من بنى عامر

ابن ذريح — شاعر من شعراء الحجاز
نصيب — كاتب ابن عوف
سعد — رجل من بنى عامر
الغريض — مغن مشهور
ابن سعيد — شاعر
أمية — رفيق ابن سعيد
الأموى — شيطان قيس

عضرفوت هبيد عسر عاصف	شياطين

بلهاء — جارية قيس
عفراء — جارية ليلى

سلمى هند عبلة	فتيات من بنى عامر

رجال — قوافل — حداة — صبية — فتيات

الفصل الأول

« ساحة أمام خيام المهدى فى حى بنى عامر — مجلس من مجالس السمر فى هذه الساحة — فتية وفتيات من الحى يسمرون فى أوائل الليل ، وفى أيدى الفتيات صوف ومغازل يلهون بها وهم يتحدثون — تخرج ليلى من خيام أبيها عند ارتفاع الستار ويدها فى يد ابن ذريح »

« ليلى »

دعى الغزْلَ سلمى وحَيِّي معى منارَ الحجازِ فتى يَثْرِبِ (١)

« تصافحه سلمى »

ويا هِنْدُ هذا أديبُ الحِجاز هلمِّي بمَقْدَمِهِ رَحِّبي

« تصافحه هند ويحتفى به السامرون »

« سعد »

أمِن يثربٍ أنت آتٍ ؟

« ابن ذريح »

أجل من البلدِ القُدُس الطيِّب

---

(١) يثرب — المدينة المنورة

« ليلي »

أيابنَ ذَريحٍ لقينا الغمام

« هند »

وطافَتْ بنا نَفَحاتُ النبي

« عبلة ـ هامسة إلى سعد »

مَن ابنُ ذَريحٍ ؟

« سعد »

فتًى ذِكرُه على مَشرِق الشمس والمغرب
رَضيعُ الحُسَيْنِ عليه السلامُ وتِرْبُ الحُسَيْنِ من المكتبِ

« عبلة ـ الى بشر ومشيرة الى ابن ذريح »

أتسمَعُ بشرُ رضيعُ الحُسَيْنِ فديْتُ الرضيعيْن والمُرضِعهْ
وأنت إذا ما ذكرنا الحسينَ تصاممتَ !

« بشر ـ هامسا ومتلفتا كأنما يخشى أن يسمعه أحد »

لا جاهلاً موْضِعَهْ
ولكن أخاف امرأً أن يرى عليَّ التشيُّع أو يَسمَعَه
أُحِبُّ الحسينَ ولكنما لساني عليه وقلبي معه !

حَبَسْتُ لسانيَ عن مدحه حِذارَ أُميَّةَ أن تقطعه
إذا الفتنةُ اضطرمتْ في البلاد ورُمْتَ النجاة فكُن إمَّعه !

« ليلى »

إبنَ ذريحٍ نحن في عزْلةٍ فهل على مُستفهِمٍ منك بأسْ ؟

دارُ النبيِّ كيف خلّفتَها ؟ كيف تركتَ الأمرَ فيها يُساسْ

« ابن ذريح »

تركتُها ياليـــلَ مَضبوطةً يحكُمُها والٍ شـديدُ المراسْ
إن حديثَ الناس فى يثربٍ همسٌ وخطوَ الناس فيها احتراس

« ليـلى »

إبنَ ذريح لا تَجُزْ واقتصِدْ أحلامُ مَرْوانَ جبالٌ رَواسْ
يؤسّسُون المُلْكَ فى بيتهم والعُنْفُ والشدةُ عند الأساس

« تتضاحك الفتيات وتقول إحداهن لأخرى »

« فتاة »

ليــلى على دينِ قيسٍ فحيثُ مــال تميــلُ ؟
وكلُّ ماسرَّ قيســا فعنــد ليــلى جميــلُ

« ابن ذريح »

مـا الذى أضحـك منى الظّبياتِ العـامريهْ
ألأنى أنا شيعىٌّ وليــلى أمــويهْ ؟
إختلافُ الرأى لا يُفْســدُ للود قضيـــه

«ليـلى»

أعِرْنى سماعَك يابنَ ذريحٍ ولا تسمَعِ الطفـلةَ الهـاذيهْ
أتيْتَ لنـا اليومَ من يثربٍ فكيف ترى عالَمَ البـاديه
أكنتَ من الدور أو فى القصور ترى هـذه القبّـةَ الصـافيه ؟
كأن النجومَ على صدرهـا قلائدُ ماسٍ على غـانيه

« هند »

كفى يابنةَ الخال ! هذا الحريرُ ... كثيرٌ على الرِّمَّة الباليه
تأمَّلْ تر البيدَ يابن ذريح ... كمقـــبرةٍ وَحشَةٍ خاويه
سئمنا من البيد يابن ذريح ... ومن هذه العيشة الجافيه
ومن مُوقدِ النار فى مَوْضِعٍ ... ومن حالب الشاة فى ناحيه
وراغيةٍ من وراء الخيام ... تُجيبُ من الكلأ الثاغية (١)
وأنتم بيثربَ أو بالعراق ... أوِ الشام فى الغُرَف العاليه
مُغنِّيكمو مَعبَدٌ والغريضُ ... وقَيْنتُنا الضَّبُعُ العاويه
وقد تأكلون فُنونَ الطُّهاةِ ... ونأكل ماطَهتِ الماشيه

« ليلى »

قد اعتَسَفتْ هندُ يابنَ ذريحٍ ... وكانت على مَهدها قاسيه
فما البيد الا دِيارُ الكِرامِ ... ومَنزلةُ الذِّمَم الوافيه
لها قُبلةُ الشمس عند البُزوغ ... وللحَضَرِ القُبلةُ الثانيه
ونحن الرياحينُ مِلْءَ الفضاء ... وهنَّ الرياحينُ فى الآنيه
ويقتلُنا العِشقُ والحاضراتُ ... يَقُمْنَ من العشق فى عافيه
ولم نصطَدِم بهموم الحياة ... ولم نَدرِ ـ لولا الهوى ـ ماهيه
وآنا نخف لصَيْد الظباء ... وآنا الى الأسد الضاريه

«هند ـ ساخرة »

وفى كل ناحيةٍ شاعرٌ ... يغنِّى بليلاهُ أو راويه

(١) الراغية : الناقة والثاغية : الشاة

« تحاول ليلى أن تمد رجلها فتتألم وتستغيث »

« ليلى »

قيسُ ، إلىَّ قيس

« هند »

ما دهاك ليلى ما الخبرْ

« ليلى »

أُحس رجلى خدِرت حتى كأنها الحَجرْ

« هند »

قد صحتِ قيسُ مرتين

« ليلى »

أو ثلاثاً ما الضرر

« هند ـ متهكمة »

إسم الحبيبِ عندنا نذكره عند الخدر

« ليلى »

هند كفى دعابة إن هو الا اسمٌ حضر

« لنفسها »

يا قيسُ ناجَى باسمك القلبُ اللسان فعثَر

« عبلة ـ ضجرة »

أما سوى هذا الحديثِ شاغلُ ؟ كيف ظللْتَ اليومَ يا منازلُ ؟

« منازل ـ ضاحكا »

منازلُ اليومَ كأمس هازلُ يشرَبُ أو يَطعَمُ أو يُغازلُ !

« هند »

بخٍ ! كذا فلتكنِ الحياةُ مُت يابعيرُ وانفقى ياشاةُ
انغَمست فى الترف الرعاةُ !

«ليلى»

وكيف ظللت اليوم سعدُ ؟ أهازلٌ كتِربك أم فى صالحٍ ورشادِ !

« سعد »

بل الجدُّ ياليلى سبيلى وديْدنى حياتى بوادٍ والمجُونُ بواد
صحبتُ زيادا طول يومى تلقفا لأشعار قيسٍ من لسان زياد
وإن زيادا ـ منذ كان ـ لرائحٌ علينا بشعر العامرىّ وغاد
ولولا زيادٌ ما تمثّل حاضرٌ بأشعار قيسٍ أو ترنم باد

« يبدو على ليلى شىء من الزهو فتتهامس الفتيات »

« سلمى »

انظرى هند ترىْ ليلى ! كتست زهواً وكبرا
وتعالت كابنةِ النعمان أو كابنة كسرى !

« هند »

لمَ لا سلمى ، ألم يرفعْ لها المجنونُ ذكرا ؟

« عبلة »

لِمْ إذن ياهند من قيس وبما قال تبرا ؟

هند

عَبَثُ النّسوةِ ! إنا نحن بالنسوة أدرى !

« سلمى »

سلوا الآن بشرا فيم أنفق يومه ؟

« أصوات »

سلوه

« هند »

سلى يا ليلَ عن يومه بِشرا

« ليلى »

وهل يومهُ الا شؤونٌ كأمسِهِ من الصيد؟

« هند »

إن الصيد لذتُه الكبرى

« بشر »

نعم هو ملهايَ الذى لا أملّه ولا النفسُ تُعطَى عن تناوله صبرا

ولو كان عيشى فى قصور أميّةٍ لعلّمتُ فنَّ الصيد فتيانها الزهرا

وما أنا صيَّادُ الأرانب مثلَهم ولكن على حيّاته أَلجُ القفرا

« ليلى »

إذن هاتِ واصدُقْ بشرُ فى القول مرّةً

ولا تخترعْ أو تبنِ من حَجَرٍ قصرا !

« بشر »

دعى عنكِ هذا السُّخْرَ ياليلَ واسمعى

« ليلى »

تحدّثْ فلا واللهِ لم أُضمرِ السُّخرا

« بشر »

بكَرتُ كدأبى اليومَ أبغى قنيصةً
ومَن يتصيَّدْ يحسبِ الغُنمَ والخُسرا
(رأيت غزالا يرتعى وَسْط روضة
فقلت أرى ليلى تَراءتْ لناظرا) [1]

« هند ـ مشيرة الى ليلى »

وأىَّ الليالى بشرُ آنست ؟ هـذه

« بشر »

إذا شئتِ ـ أو هاتيكِ ـ أو حُرةً أخرى.
فقلتُ له ياظبىُ لا تخشَ حادثا
(فانك لى جارٌ ولا ترهب الدهرا)
(فما راعنى الا وذئبٌ قـد انتحى
فأعلق فى أحشائه الناب والظُّفرا)
(ففوّقتُ سهمى فى كَتومٍ غمستُها
فخالط سهمى مهجةَ الذئبِ والنحرا)

« ليلى ضاحكة »

أخى بشرُ لا شُلّتْ يمينُك من يدٍ
ولا فَضَّ فاكَ الصبحُ والليلُ ما كرّا

(١) الأبيات التى بين الأقواس من شعر المجنون

سمعنا بإقدام اللصوص وفتكهم
فلم نر أدهى منك فتكا ولا أجرا !
ووالله لم تغضب لظبي ولم تثب
بذئب ولم تُعمِلْ خيالا ولا فكرا
أخذتَ فلم تترك لقيسٍ بضاعةً
سرقتَ لعمرى الظبيَ والذئبَ والشعرا !

« ضحك من الجميع »

حديثُ الظبيِ والذئبِ وقيسٍ لستُ أنساه
زيادٌ عنه نبّانى ولا ينبيك إلاه
رأى قيسٌ على رابيـة ظبيا فناداه
فألقى الظبيُ أذنيهِ ومسّ الأرضَ قرناه

« ثم تقول فى لوعة وصوت مخفوض وكأنما تحدث نفسها »

بُروحى قيسُ! هل راحت ظباه القاع تهواه ؟
وهل يَرثى له الريمُ ولا أرثى لبلواه ؟

« تسترسل فى حديثها الأول : »

على فيه من العُشْبِ بقايا صبغت فاه
رأى فى جيده قيسٌ وفى عينيه ليلاه
فبينا هو فى الشوقِ وفى نشوة ذكراه
حبا الذئبُ من الوادى الى الظبى فأرداه

تغدى بحشا الظبي غـــداء ماتهناه

رماه قيس في المقتل بالسهم فأصماه

« بشر : مندفعا بحماسة ! »

أجل ياليلَ ! ما قلتِ سوى شيء شهدناه

وإن لم تذكرى القبرَ ولا كيف خططناه

حفرنا القبرَ للظبي وقمنا فدفناه

وصلّينا على الميْتِ وبالدمع سقيناه

فقولوا ولتقل ليلى معى يرحمُه الله !

« أصوات : بين الضحك والسخرية »

أجل بشرُ !

أجل بشرُ !

أجل يرحمه الله !

« ابن ذريح »

بشرُ كفى هزلا وتخليطا كفى ويابنةَ العم مضى الليلُ سُدى

أرسلنى قيسٌ فلو أخبرتنى متى متى بأمر قيسٍ يُعتنى ؟

بتنا نخافُ أن يجلَّ خطبهُ وتبلغَ البلوى بقيسٍ المدى

وقيسٌ ياليلى وإن لم تجهلى زين الشباب وابنُ سيد الحمى

لم ندرِ فى حيّك أو فى حيّه فتى حكاه نسبا ولا غنى

ولا جمالا ، وهنا (ياليلَ) ما ترينَ أنتِ لا الذى نحن نرى

« بشر ــ ساخرا »

بخٍ بخٍ ! إبنُ ذريحٍ خاطبٌ

« ابن ذريح »

أسكت فلست للمروءات أخا !

« ليـلى ــ غاضبة »

فيم هذا الـكلامُ يا بنَ ذريحٍ ؟

« ابن ذريح »

إتقى اللهَ واقصِدى فى التجنى

« ليـلى »

ما تجنّيت

« ابن ذريح »

بل ظلمت ، دعينى أُحسنِ الذّودَ عن صديقى وخِدنى

« ليـلى »

أنا أَوْلى به وأحنى عليـــــه لو يُداوَى برحمتى والتحنّى
يعـلمُ الله وحـده ما لقيس من هوًى فى جوانحى مستكِنِ
إننى فى الهوى وقيسا سـواءٌ دَنّ قيس من الصبابة دَنّى
أنا بين اثنتين كلتاهما النا ر فلا تَلْحَنى ولـكن اعِنّى
بين حرصى على قَداسة عرضى واحتفاظى بمن أُحبُّ وضنّى
صنتُ منذ الحداثة الحبَّ جَهدى وهو مستهترُ الهوى لم يصنّى

قد تغنى بليلة النيل ، ماذا كان بالغيل بين قيس و بيني ؟
كل ما بيننا سلامٌ وردٌّ بين عين من الرفاق وأُذن
وتبسّمتُ في الطريق إليه ومضى شأنه وسرتُ لشأني

« تهيب بالسامرين وقد بلغ بها الغضب أقصاه »

أَوْغل الليلُ فلنقمْ

« ابن ذريح ـ متوسلا »

بل رويدا واسمعي (ليلَ)

« ليلى »

خلِّ عنّيَ دعني !

« تدخل خباءها بينما ينفض السامرون فلا يتثاقل منهم في القيام »
« الا منازل ـ الهرج والأسف يسودان الجميع »

« بشر »

انفضّ سامرُ ليلى وكان حفلا كريما

« سعد »

قد فضّه ابنُ ذريح ففض عِقدا نظيما
أثار ليلى فهاجت كما تنفّر رِيما
ترى أتُبغِضُ قيسا

« ابن ذريح »

لا تقلبوا الحبَّ بغضا
ليلى العشيةَ غضبى ويُصبح الصبحُ ترضى

« سعد »

أنعم (منازِ) مساء

« منازل »

نعمت سعدُ مساء

« هند »

بشرُ مُسّيتَ بخير

« بشر »

أنعمي هندُ مساء

« هند »

نحن يحوينا طريقٌ فامض بلّغني الخِباء

« سعد ـ ضاحكا »

احذرى يا هند منه !

« هند »

أنا لا أخشى اعتداء

قد عرفتم وعرفنا كيف يصطاد الظباء !

« تسمع ضحكاتهم من أقصى الطريق بينما يظهر »

« قيس وزياد من جانب المسرح الآخر »

« قيس »

سجا الليل حتى هاج لى الشعرَ والهوى
وما البيدُ الا الليلُ والشعرُ والحبُّ

ملأْتُ سماءَ البيدِ عشقاً وأرضَها
وحُمِّلْتُ وحدي ذلك العشقَ يارَبُّ
أَلَمَّ على أبياتِ ليلى بيَ الهوى
وما غيرَ أشواقي دليلٌ ولا رَكبُ
وباتت خيامي خُطوةً من خيامها
فلم يَشْفِني منها جوارٌ ولا قُربُ
إذا طاف قلبي حولها جُنَّ شوقُه
كذلك يُطغِي الغُلّةَ المنهلُ العذبُ
يحن إذا شطَّت ويصبو إذا دنت
فياويحَ قلبي كم يحن وكم يصبو
وأرسلني أهلي وقالوا امضِ فالتمس
لنا قبساً من أهل ليلى وما شبّوا
عفا الله عن ليلى لقد نوَّتْ بالذي
تحمّلَ من ليلى ومن نارها القلب

« منازل — وقد سمع همهمة الصوت ورأى شبحيهما فى الظلام »

أرى شبحاً مقبلاً فى الظلام	وأسمع همهمة فى الدجى
هو ابن الملوّحِ دلَّ الهُزالُ	عليه ونمّ اضطراب الُخطا
عدوّى البين وما بيننا	ولا بين صاغيتَيْنا [(١)] جفا
روى شعرَه البدو والحاضرون	وشعريَ ليس له من روى

(١) صاغية الرجل قومه

وهــام بليـلى وهامت به لقد كنت أولى بهذا الهوى
تشرّد مستعظمـا فى البلاد وجُنّ فما ازداد الا نُهى
وإنى لأبديه اليه الوداد وأخفى له فى الضلوع القِلى
وأحسُدُه حسدا ما علمت أقيسُ الشقىُّ به أم أنا

« يتقدم منهما خطوات »

من الراكبُ الليلَ ؟ قيسٌ أخى ؟

« قيس »

منـازل ؟ ما أعجبَ الملتقى !

« منازل »

أقيساً أرى فى ظلال البيوت ؟ وعهدى بقيس حليفَ الفلا

« قيس »

منازل ، من أين ؟

« منـازل »

من عندِها من السمر الممتع المشتهى

« قيس : حنقا »

أمن عند ليـلى تجرُّ الذيول حديث لعمرُ أبى مفترى

« منـازل »

بل الصدقُ ماقلتُ يابن الملوّح

« قيس »

إخسأ متى قلت صدقا متى ؟

وما كنت تصنع ؟

« منازل ساخرا »

ما يصنعون لموت لعمرىَ فيمن لها
وسامر ليلى كثير الزّحام فلست تعدّ شباب الحِمى
وليلى تُفيضُ على من تشاء رضاها وتحرمُه من تشا

« زياد مغضبا »

منازل، قيسُ، سبيلكَ قيس ! وَكِلْ لىَ تأديبَ هذا الفتى

« منازل — وقد أخذ بتلابيبه »

تؤدبُني زيادُ وأنت ظل لمجنون وراوية لهاذى
وتزعمُ أننى نِدٌّ لقيس رضيت من المصائب غيرَ هذى !

« زياد »

من قال ذا ؟ أنت لقيس نِدّ لم يبق فيكِ يا حياةُ جِدّ

إمضِ بنا ناحيةً يا وغد !

« يجره الى حيث تسمع أصواتهما من بعيد ثم تختفى »
« فيقبل قيس على خباء ليلى وينادى »

« قيس »

ليلى !

« المهدى : خارجا من الخباء »

من الهاتف الداعى ؟ أقيس أرى ؟ ماذا وقوفُك والفتيان قد ساروا

« قيس : خجلا »

ماكنتُ يا عمُّ فيهم

« المهدى : دهشا »

أين كنت إذن ؟

« قيس »

فى الدار حتى خلَتْ من نارنا الدار

ما كان من حطب جزْلٍ بساحتها أوْدى الرياحُ به والضيفُ والجار

« المهدى ــ مناديا »

ليلى ــ انتظر قيس ــ ليلى

« ليلى ــ من أقصى الخباء »

ما وراء أبى ؟

« المهدى »

هذا ابن عمِّك ما فى بيتهم نار

« تظهر ليلى على باب الخباء »

« ليلى »

قيس ابن عمى عندنا يا مرحبا يا مرحبا

« قيس »

مُتِّعتِ ليلى بالحياة وبلَغْتِ الأربا

« ليلى : تنادى جاريتها بينما يختفى أبوها فى الخباء »

عفراء

« عفراء ــ ملبية نداء مولاتها »

مولاتي

« ليــلى »

تعــــــالَيْ نقضِ حقا وجبا

خــذي وعاءً واملئيــــه لابن عمي حطبــا

« تخرج عفراء وتتبعها ليلى »

« قيس »

بالروح ليلى قضت لي حاجةً عرضت

ما ضرها لو قضت للقلب حاجاتِ

مضت لأبياتها ترتاد لي قبسا

والنار يا روحَ قيسٍ ملء أبياتي

كم جئتُ ليلى بأسباب ملفقة

ما كان أكثر أسبابي وعلاتي

« تدخل ليــلى »

« ليلى »

قيس

« قيس »

ليــــــلى بجانبي كلُّ شيء إذن حضرْ

« ليلى »

جمعتنا فأحسنت ساعــــةٌ تَفْضُلُ العُمُرْ

« قيس »

أتجدِّين ؟

« ليلى »

مافـــــــؤا دى حديدٌ ولا حجر
لك قلبٌ فسله يا قيـــــس ينبئْكَ بالخبر
قدْ تحملتُ فى الهوى فوق ما يحمل البشر

« قيس »

لستُ ليـــــلاى داريا كيف أشكو وأَنفجِر ؟
أشرح الشوقَ كله أم من الشوق أختصِر ؟

« ليلى »

نبئنى قيسُ ما الذى لك فى البيد من وطر ؟
لك فيهـــا قصائدٌ جاوزَتْها الى الحضر
كلُّ ظـــبيٍ لقيته صُغت فى جيده الدرر
أتُرى قد سلوْتنــا وعشقتَ المهَا الأُخر ؟

« قيس »

غرت ليــــلى من المهَا والمهـــا منك لم تَغَر
حبّب البيدَ أنهـــا بكِ مصبوغةُ الصُّوَر
لست كالغيــــدِ لاولا قمرُ البيـــد كالقمر

« ليلى : وقد رأت النار تكاد تصل الى كم قيس »

ويحَ عيـــنىَّ ما أرى قيس !

« قيس »

ليلى

« ليلى : مشفقة »

خذ الحذر !.

« قيس : غير آبه الا لما كان فيه من نجوى »

رُبَّ فجر سألتُه هل تنفستِ فى السَّحر
ورياح حسِبتُهـــا جـرَّرَت ذيلَكِ العطِـر
وغـزالٍ جفُــونُه سرقت عينكِ الحوَر

« ليـلى »

إطرح النـــارَ يافتى أنت غادٍ على خطـر
لهبُ النـارِ قيسُ فى كمك الأيمن انتشر

« قيس : مستمراً بعد أن رمى النار من يديه »

وذئابٍ أرقَّ ياليـــلَ من أهلِكِ الغُـــيُرُ
أنِســتْ بى ومرّغت فى يدى الناب والظفرُ

« ليلى »

ويح قيسٍ تحرقت راحتاه وما شَعــرْ

« قيس »

أنت أججتِ فى الحشا لاعجَ الشوقِ فاستعرْ

ثم تخشَيْنَ جمرةً تأكلُ الجلد والشَعَرَ

« يترنح قيس فى موقفه وتظهر عليه بوادر الاغماء »

« ليلى »

فِدَاكَ أبى قيس ، ماذا دَهاك ؟ تكلم ، أبِن قيس ، ماذا تجد

« قيس »

أحسُّ بعينىّ قد غامتا وساقىّ لا تحمِلان الجسدْ

« يخر صريعاً الى الأرض فتتلقاه على صدرها صارخة »

« ليلى »

يا لأبى للجارْ قيسٌ صريعُ النارْ مُلقىً بصَحن الدارْ !

« يخرج أبوها من الخباء على صوت استغاثتها »

أبى ها أنت ذا جئت أغثنا أبتِ أدركْ
لقد حُرِّق بالنارِ فما يصحو إذا حُرِّك

« المهدى »

يرانا الناسُ ياليلى

« ليلى »

أبىانفِ الناسَمن فكرك
هنا لا تقعُ العيْنُ على غيرى ولا غيرك
ولا يَطْلُعُ إنسانٌ على سرى ولا سِرك
ولا أجدر من قيس باشفاقك أو برك
أبى صدرىَ لا يقوى فأسنده الى صدرك

« المهدى — وهو يتلقى عنها جسد قيس ويحاول إنعاشه »

رعاكِ اللهُ ياليلى وكافاكِ على صبرك
أخافُ الناسَ فى أمرى وأخشى القلبَ فى أمرك
وكم داريتُ ياليلى وكم مهّدْتُ من عذرك
ولستُ الوالدَ القاسى ولا الطامعَ فى مهرك

« يناجى قيسا فى غيبوبته »

أبا المهدىّ عوفيتَ ويا بورك فى عمرك
أرانى شعرُكَ الويلَ وما أروى سوى شعرك
كما لذّ على الكُرهِ كلامُ الله للمشرك!

« يتحرك قيس ويبدو عليه كأنما سبق فيناديه »

قيس

« قيس — يحاول الوقوف فتسنده ليلى »

لبّيك عمّ

« المهدى »

حسبُك فاذهبْ لا تطأْ لى بعد العشيّةِ دارا

« ليلى »

أبتِ لا تجزْ على قيسٍ

« المهدى »

لِمْ لا إن قيسا على القرابةِ جارا

« ليلى »

أبتى ما تراه كالقَنن الذا وى نحولا وكالمغيب اصفرارا ؟
وتأملْ رداءه ويديْه تجد النارَ أو ترَ الآثارا
أبتى دَعْه يسترحْ

« المهدى »

بل دعينا لا تزيدى ياليلَ سُخطى انفجارا

« قيس »

حسبُ يا ليلَ، حسبُ ذلا لعمّى وكفى حلفةً له واعتذارا
عمٌّ ماذا جنيت ؟

« ليلى »

ماذا جنى قيس

« المهدى »

نسيتِ الرُّواةَ والأخبارا

« قيس »

إنهم يأفِكون يا عمّ

« المهدى »

والغَيـل أليلاً غشيتَه أم نهارا ؟
ما الذى كان ليلةَ الغَيْل حتى قلتَ فيها النّسيبَ والأشعارا ؟

« قيس »

لم تكنْ وحدَها ولا كنتُ وحدى
إنما نحن فتيةٌ وعذارى

جمعتنا خمائلُ الغيل بالليل كما يجمــعُ الحمى السمّارا
ليسَ غيرَ السلامِ ثم افترَقنا ذهبتْ يَمنةً وسرتُ يسارا

« المهدى »

إمضِ ياقيس إمض لاتكسُ ليلى كلَّ حينٍ فضيحةً وشنارا
فكأنى بقصة النــار تُروى وكأنى بذلك الشعر سارا
وكأنى ارتديتُ فى الحى ذلا وتجللتُ فى القبائل عارا
إمض قيسُ امضِ

« قيس »

عمُّ رفقا بليلى وبقيسٍ ولا تكن جبارا
الحذارَ الحذَارَ من غضب الله ومن سُخطه الحذار الحذارا

« المهــدى »

إمض قيس امض جئت تطلب ناراً
أم ترى جئتَ تُشعلُ البيتَ نارا ؟

« يخرج قيس »

ســــتــــار

الفصل الثانى

« طريق من طرق القوافل بين نجد ويثرب . على مقربة من حى بنى عامر حيث »
« تبدو مضارب هذا الحى على مدى البصر وعلى سفح جبل التوباد — قيس وزياد »
« جلوس الى جذع نخلة ، يستشرفان شبحا يسير نحوهما »

« قيس »

زيادُ ، ما تلك ؟ مَن الجُوَيْرِيَهْ ؟ أتلك (بلهاء) ؟

« زياد »

أجل قيس هِيَهْ

« تظهر بلهاء وعلى رأسها قصعة »

« قيس »

بلهاء كيف الحىُّ ؟ كيف أُمَّيَه ؟

« بلهاء — وهى تضع القصعة »

تسأل عنكَ كما سألتَ

« تبدو على قيس كراهة للطعام وعزوف عنه »

« زياد »

بالله قيسُ إلا أكلت

« يشتد ميل قيس عن الطعام »

« بلهاء هامسة لزياد »

زيادُ ما ذاق قيسٌ ولا همّا

« زياد »

طبخُ يدِ الأمِّ يا قيسُ ذُقْ مِمّا
الأمُّ يا قيسُ لا تطبُخُ السُّمّا

« ينزع عن القصعة غطاءها »

تعال تأمّلْ قيسُ ، تلك ذبيحةٌ

« قيس »

عسى اليومَ نحرُه

« زياد »

أين نحنُ من الأَضْحى ؟

« قيس »

أرى صُنعَ أمى يازيادُ ، فَدَيتُها بروحي وإن حمّلتُها الهمَّ والبَرْحا
ستخبرنا البلهاء

« زياد »

بلهاء بِيِّنى ولا تكتمى عنا الحديثَ ولا الشرحا

« بلهاء »

لقد مرّ عرّافُ اليمامةِ بالحمى فما راعنــا إلا زيارتُه صُبحــا

طوى الحىَّ حتى جاء عن قيس َسائلا   وأظهرَ ماشاءَ المودّةَ والنُّصحا
ولاحت له شاةٌ جَثومٌ بموضعٍ   تخَيَّلَها ظلا من الليل أو جُنحا
فقال اذبحوا هاتيك فالخير عندَها   فقام اليها يافعٌ يُحسِنُ الذَّبْحا
فقال انزعوا من جُثة الشاةِ قلبَها   فلم نألُ قلبَ الشاة نزْعا ولا طرْحا
فلما شويناهــــا رَقَى بعزائم   عليها وألقى فى جوانبها المِلْحا
وقال اطلبوا قيسًا فهـذا دواؤه   كأنى به لمـا تناولَه صَحَّا

« زياد »

تعلّلْ قيسُ بالشـــاة   عساها تذهبُ الحبّا
فمـا العرّافُ بالمجهو   ل لا علماً ولا طبّـا
ولم تَعلَمْ عليه البيد   تدجيـلا ولا كذِبا
طبيبٌ جرّبَ اليابسَ   فى الصحراءِ والرَّطْبا
فذقْ قيس ولا ترْتبْ   بمـا قال وما نَبَّـا
وتلك الأمُّ ياقيـــس   أطِعْهـا تطِع الربّا

« قيس »

زياد اسمعْ وكن عونى   وخلِّ اللومَ والعَتبا
إذا ما لم يكن بُدٌّ   فإنى آكُلُ القلبا

« زياد »

قيسُ يبغى القلبَ يابلـــهاء أين القلب أينا ؟

« بلهاء »

هـو عنـدى ويسيرٌ ما اشتهى قيسٌ علينا

هـو فى الشاة

« زياد »

هلمّى أخرجى القلبَ إلينا

« بلهاء »

القلبُ ! أين القلبُ ؟أيـــن يا ترى وضَعْتُهُ ؟

يا ويحَ لى ! نسيتُ أنى بيــدى نزعتُهُ !

« قيس »

وشاةٍ بلا قلبٍ يداووننى بهـا

وكيف يُداوى القلبَ من لاله قلب !

« تسير بلهاء الى الحى ويظهر صغار من ناحية الحى يلهون فى طائفتين وإذ تقع »
« أبصارهم على قيس وزياد تتغنى كل طائفة بغناء »

« الطائفة الأولى »

قيسُ عُصفورَ البوادى وَهــزارَ الرّبَواتْ

طِرتَ من وادٍ لِوادى وغمـرتَ الفـلواتْ

إيهِ يا شـاعـرَ نجـدٍ ونجىَّ الظّبَيـاتْ

أضمـرِ الحبَّ وأبدِ لأعَفّ الفتَيـاتْ

« الطائفة الثانية »

قيسُ كشّفتَ العذارى وانتهكتَ الحُرُماتْ

ودمغْتَ الحىَّ عارا فى السنينَ الغـابراتْ

قد ذكرتَ الغَيْلَ دعوى واصطنعتَ الخلوَاتْ
صَلِيَتْ ليلى ببلوى منك دون الفَتَياتْ !

« يلتقط قيس بضع حصوات من الأرض ويهم أن يحصب بها الصغار ثم يتردد »
« فينتثر الحصا من يده ، بينما يظهر من جانب الطريق الآخر ابن عوف وكاتبه نصيب »

« قيس : مناجيا نفسه »

قيسُ لا ! سامحْ صغارا لا يُحسُّون الخطيئه
إنهم فيما أتوْه ببغاواتٌ بريئهْ
لقَّنوها كلماتٍ نزهاتٍ أو بذيئه

« زياد : وهو يصرف الصغار »

إذهبوا عودوا الى آبائكم واذكروا قيسا بخير يا خُبُثْ
إذهبوا أوْحُوا الى أترابكم وليُبلِّغْ حَدَثًا منكم حَدَثْ
سيْطرَ الحبُّ على دنياكمو كلُّ شيء ما خلا الحبَّ عَبَثْ

« يجرى الصغار أمام زياد مضطربين ثم يختفون عن الأنظار ، بينما يستلق قيس »
« على الأرض فى شبه إغماء »

« ابن عوف : الى نصيبٌ وزياد يطارد الصغار »

انظرْ نُصيْبُ ضجةٌ وصبيةٌ ورجلٌ يرمى الصغار بالحصا

« نصيب »

أرى أميرى نشَأً تعلقوا بابن سبيلٍ مُتعَبٍ واهى القُوى

« ابن عوف »

بل امضِ سَلْ

« نصيب : معترضا زياد »

من الفتى ؟

« زياد : لنفسه وقد رأى ابن عوف »

ماذا أرى ؟ هذا أميرُ الصَّدَقات ههنا

« ثم يرد على نصيب »

قيسُ إمامُ العاشقين

« ابن عوف »

أيُّهم فهم كثير ، كل قيس يهوى

« زياد »

أجلْ ولكنّ الذى تُبْصِرهُ أرفعُهم ذكرا وأعلاهم سنى

« ابن عوف »

لعله قيسُ الذى نعرِفُه لقد رَويْت شعرَه فيمن رَوى
فأين ظلُّه زياد ؟

« زياد »

أنا ذا أنا الذى يتبعُه حيثُ مشى

« ابن عوف »

أنت الذى تهدى لكلّ قريةٍ مُجاجةَ النحل ونفحةَ الرُّبا
ما بالُه يطَا التراب حافيا ويقطعُ البيدَ مُمَزّق الرّدا
خُذ يا نُصَيْبُ بُردتى فغطّه لا يلحقنّه من العُرِى أذى

« زياد »

إحفظ عليك البُرْدَ يا أميرُ لا   فقرَ اليه بابن سيد الحمى

إن لقيس من ثياب الوشْيِ ما   يفنى به العمر وما يُعيي البلى

« ابن عوف : مناجيا نفسه »

ياويحَ قلبي ما خلا من قسوةٍ   ما بالهُ رَقَّ لقيسٍ ورثى

« يقبل على قيس »

قيسُ بُنيّ

« زياد »

هو في إغماءة   من وَجْده وما أظنُّه صحا

« يسمع صوت حاد من ناحية نجد ، ويتعالى الصوت قليلا قليلا حتى يظهر الحادى »
« ومن ورائه قافلة تسير الى المدينة ثم يذوب الصوت قليلا قليلا حتى ينقطع »

« أنشودة الحادى »

يا نجدُ خُذْ بالزمامْ   ورحِّبِ

سرْ في رِكاب الغمامْ   ليثرِبِ

هذا الحُسيْنُ الامامْ   ابنُ النبي

النورُ في البيد زادْ   حتى غَمَرْ

أُحْدُ الحيا في الوهادْ   أُحدُ القمر

أُحْد جمالَ البوادْ   زينَ الحضرْ

ابنَ النبي

« ابن عوف »

سمعتمو ؟ يا لكِ من   رنة حادٍ مُطرِبِ

« زياد »

يا ليت شعرى ما الركا ب مَنْ لواءُ الموكب

« نصيب »

قد بيَّن الحادى فقل أصمٌّ أنت أم غبى ؟
هذا منارُ العرب هذا الحُسينُ ابنُ النبى
هذا الزكىُّ ابنُ الزَّكىِّ الطيِّبُ ابنُ الطيب
عارَضَنا الحسينُ فى طريقه ليثرب
هذا سنا جبينه مِلءٌ الوهاد والرُّبى
قد جلَّ حاديه جلا لَ القارئ المطرِّب

« ابن عوف هامسا الى نصيب »

نصيبُ صه لا تسلكنْ بنا مسالكَ التُّهَمْ
ولا تَظاهرْ بالهوى لوارثِ البيت العَلَمْ
إحذرْ جواسيسَ ابنِ هندٍ وعيونَ ابن الحكَمْ
نحن رجالُ دولةٍ قوَّامةٍ على الأمم
ليس بعينها عمًى ولا بأُذْنها صَمَمْ
تسمع فى ظل القصور همسَ رُعيان الغنم

« الى زياد مشيرا الى قيس »

زياد انظرْ فما انفكّ صريعَ الوجد والذكرى
كما مرّ بنا الركبُ الحسينىُّ به مرّا

فلم يشغَلْ له بالا ولم يوقظْ له فكرا

« زياد »

رويدا سيدىَ مهلا ولا تستغرِب الأمرا
لقد سقناه بالأمس لحجِّ الكعبةَ الغرَّا
فلما لمس الركنَ ومسَّتْ يدُه السِّترا
وقلنا الآنَ من ليلى ومن فتنتهـا يبرا
سمِعناه ينـادى الله من ساحته الكبرى

« ابن عوف »

وماذا قال ؟

« زياد »

ما تابَ من العِشق ولا استبرا
ولكن قال يارَبُّ ملكتَ الخيرَ والشرا
فهاتِ الضُّرَّ إن كان هوى ليلى هو الضرا
وإن كان هو السحرَ فلا تُبطلْ لها سحرا
ويارَبِّ هَبِ السلوى لغيرى وهبِ الصبرا
وهبْ لى مَوْتةَ المُضنىَ بها لا مِيتةً أُخرى

« يقبل على قيس ويميل عليه بحنان »

جنانيك قيسُ إلامَ الذهول ؟ أفِقْ ساعةً من غواشى الخَبَلْ
صليلُ البغال ورَجْع الحُداء وضجَّةُ رَكْبٍ وراء الجبَلْ
وحادٍ يسوق رِكابَ الحسَيْنِ يهزُّ الجبالَ إذا ما ارتجلْ

فلم يبقَ ماشٍ ولا راكبٌ على نجدَ الا دعا وابتهلْ
فقمْ قيسُ واضرعْ مع الضارعين وأنزِلْ بنجدٍ الحسيْنِ الأملْ

« يسمع صوت حاد آخر قادما الى نجد من ناحية يثرب ، على رأس قافلة أخرى »
« وتمر هذه القافلة كما مرت الأولى »

« أنشودة الحادى »

هلا هلا هيَّا * إطوى الفلا طيَّا * وقرِّبى الحيَّا * للنازح الصَّبِّ
جلاجلٌ فى البيدْ * شجيةُ الترديدْ * كرنَّةِ الغرِّيدْ * فى الفنَنِ الرَّطْبِ
أناح أم غنَّى * أم للحمى حنَّا * جُليْجلٌ رنَّا * فى شُعَبِ القلبِ
هلا هلا سيرى * وامضى بتيسير * طيرى بنا طيرى * للماء والعُشْبِ
طيرى اسبقى الليلا * وأدركى الغيْلا * العهدَ من ليلى * وَمنزِلَ الحبِّ
بالله يا حادى * فتِّشْ بتوْبادِ * فالقلبُ فى الوادى * والعقلُ فى الشِّعبِ
يا قمرا يبدو * مَطلعهُ نجدُ * قد صنع الوجدُ * ما شاء بالركب

« يفيق قيس ثم يتلفت مصغيا الى الحداء »

« قيس »

ليلى ! مناد دعا ليلى فخفَّ له نَشْوانُ فى جنبات الصدر ِعربيدُ
ليلى ! انظروا البيدَ هل مادت بآهلها
وهل ترنَّمَ فى المزمار داودُ
ليلى ! نداءٌ بليلى رنَّ فى أذنى سحرٌ لعمرى له فى السمع ترديدُ
ليلى تردَّدُ فى سمعى وفى خلدى كما تردَّدُ فى الأيك الأغاريدُ
هل المنادون أهلوها وإخوتُها أم المنادون عشاقٌ معاميدُ

إن يَشرَكونى َفى ليلى فلا رجَعَتْ جبالُ نجدٍ لهم صوتا ولا البيدُ
أغيرَ ليلاى نادوْا أم بها هتفوا فداء ليلى الليالى الخُرَّدُ الغيدُ
إذا سمعت اسمَ ليلى ثُبتُ من خَبَلي وثابَ ما صَرَعتْ منى العناقيدُ
كسا النداء اسمُها حسنا وحبّبَه حتى كأن اسمَها البشرى أو العيد
ليلى ! لعلىَ مجنونٌ يُخيَّلُ لى ؟ لا الحيُّ نادوْا على ليلى ولا نُودوا

« ابن عوف »

لا تكتئبْ وتعالَ يا قيسُ استرحْ
مما تكابد في الهوى وتلاقى

« قيس »

هل أنت آسٍ يا أميرُ جراحتى
أم أنت من سحر الصبابة راقِ؟

« ابن عوف »

بل من رُواتكَ قيسُ من زمنٍ مضى
لم أخلُ قيسُ عليك من إشفاق

« قيس »

قل للخليفة يابنَ عوفٍ فى غدٍ منذا أباح له دمَ العشاق ؟
هدَرتْ حكومتُه دمى فتحرّشتْ بدمٍ على سيف الجفُون مُراق

« ابن عوف »

أرَضيتنى عند الخليفةِ شافعا ؟ يا قيس

« قيس : فى أنفة »

لا والواحدِ الخلاق

بل عند ليلى فامض فاشفعْ لى لدى
ليـــــلى وناشِدْ قلبَها أشواقى
جِئْها فذكِّرْها العهودَ وحِفظَها
واذكرْ لها عهدى وصِفْ ميثاقى
لَيلى إذا هى أقبلتْ حَقَنتْ دمى
كرما وفكَّتْ يا أميرُ وَثاقى

« ابن عوف »

الآنَ قيسُ اذهبْ فبدِّلْ حلَّةً
وتَردَّ غيرَ ثيابِكَ الأخـــلاق
فالصبحَ تدخلُ حىَّ ليلى قيسُ فى
ركْـــبى وبين بطـانتى ورفاقى

« قيس : الى زياد »

أسمعتَ ما قال الأميرُ ؟ زيادُ ، طِرْ
نحو الحمى بجَـنَـاحى المشتـــاق
إذهبْ وسلْ أمى أعزَّ ملابسى
من كل شـامىٍّ وكلّ عراقى
واذكرْ لها فضلَ الأمير ، ولم تزَلْ
نِعَمُ الأمـير قلائدَ الأعنـــاق

« يسير زياد نحو الحي بينما يتمسح قيس بابن عوف كالطفل »

سكرا لصُنعِكَ يا أميرُ ودُمتَ مَقصودَ الرحابْ

عجّلْ أمير

« ابن عوف ضاحكا »

بل انتظرْ أنسيتَ ياقيسُ الثيابْ ؟

« قيس »

مَنْ مُبلغٌ أمي الحزينةَ أن عقلي اليومَ ثابْ ؟

ومَن البشيرُ اليكِ ياليلى بقيسٍ في الركابْ ؟

اليومَ أهلا بالحيَاة ومرحباً بكَ ياشبابْ !

ستار

الفصل الثالث

« قطعة من الصحراء تبدو فى يسارها طائفة من مضارب بنى عامر ممتدة الى ماوراء »
« اليسار على سفح جبل التوباد — خباء مضروب الى يمين هذه الطائفة من المضارب »
« كأنه نهاية خيام الحى — على اليمين أشجار بان يقف فى ظلها ابن عوف »
« وحاشيته وقيس وزياد »

« ابن عوف »

تراءى الحىُّ للركْبِ   وأشرفْنا على الشِّعبِ
أفِقْ قيسُ أما فى رؤ   يةِ الخيماتِ ما يُصبى ؟
ألا تهتفُ بالشكوى   الى ليلى وبالعتْبِ

« قيس »

ديارَ الحى من ليلى   سلامٌ من شَجٍ صَبِّ
على الحى على الدار   على ليلى على الحِبِّ
عدا الركبُ على طيبٍ   كريحِ المندلِ الرَّطْبِ
فيا ليلى عسى اليوم   أبلُّ الشوقَ بالقربِ
عسى الخِطْبةُ لا تنزلُ   فى ناديكِ كالخطبِ

عساهم لا يقولون فتى مشتركُ اللب
ولا يذهبُ إحسانى ولا يبقى سوى ذنبى
يقولون بها غنّي لقد غنّيتُ من كربى
سلى تُربَكِ كم مرّغت خــدّىّ على التُّرب
وكم جُـدتُ علَى الرمل ولم أبخَلْ على العشب
بدمعٍ مثل دمعِ الثُّـكلِ مغروفٍ من القلب

« يتطلع ابن عوف الى ناحية الحى »

« ابن عوف »

قيسُ انتبهْ قيس

« قيس »

مَن المنادى ؟

« ابن عوف »

الحىُّ فى السلاح سَدَّ الوادى
وأنت قيسُ بعد حينٍ غاد على خصوم لُـدُدٍ شِـداد
فالقَ الرجالَ صاحىَ الفؤاد لا تَلْقهم مُضيَّعَ الرشـاد

« قيس : متطلعا كذلك »

أتُبصِرُ يابنَ عوفٍ حىَّ ليلى تَدجّج فى السلاح ولا تراها ؟
فما لى لا أُحقِّقُ غيرَ ليـلى و إن كثُر السوادُ لدى حماها
لقد ألقىَ هوى ليـلى حجابا على عينى فلستُ أرى سواها
و بغّضتِ النصيحَ إلىّ ليلى وسـدّ مسامعى عنه هواها

« يسمع من بعيد ومن ناحية الحي لجب وقعقعة »
« سلاح ويقترب الصوت ويتعالى شيئاً فشيئاً »

أرى حيّ ليلى في السلاح ولا أرى ... سلاحاً كهجر العامريّة ماضيا
دمي اليومَ مهدورٌ لليلى وأهلها ... فداء لليلى مُهْدَراتُ دمائيا
لي اللهُ ! ماذا منك يا ليل طاف بي ... وما ذلك الساقي وما ذا سقانيا ؟
دعوني وما عندي لليلى أقولُه ... لليلى وأستنشي الذي عندها ليا
أهيمُ فأستعدي نهاري على الجوى ... وأقبعُ ليلى أستجيرُ القوافيا
(فما أشرفُ الأيفاعَ الاصبابةً ... ولا أنشدُ الأشعارَ الا تداويا)
إذا الناسُ شطرَ البيت ولّوا وجوههم تلمستُ ركنيْ بيتها في صلاتيا
(أصلّي فما أدري إذا ما ذكرتُها ... أثِنْتَيْن صلّيتُ الضُحى أم ثمانيا)
توارتْ وراء الجمْع ليلى فخانها ... فمٌ كابتسام الصبح يأبى التواريا
وطيبٌ به خُصّتْ حوى الطيبَ كلّه ... فمن هبّه الأقاحي أو فهبّه الفواغيا
فأحسستُ من فرْعي لساقيَّ هزّةً ... كأن عياناً منك لاقى عيانيا
دعونا وما يبقى إذا ما فنيتمو ... فوالله ما شيءٌ خلا الحبَّ باقيا
مشى الحبُّ في ليلى وفيَّ من الصّبا ... ودبّ الهوى في شاء ليلى وشائيا
وإني وليلى للأواخر في غدٍ ... لشُغْلٌ كما كنا شغلنا الأواليا

« يبدو على وجهه الاصفرار والجهد ثم يترنح فيتلقاه »
« زياد — تسمع أصوات الحي من قريب »

« ابن عوف »

زيادُ أدركْه أدركْ ... إني أرى الداء عادَهْ
لقد تضاءل قيسٌ ... واصفرّ مثلَ الجراده !

وليس قيسٌ بمُلقٍ إلا إليـــك قِياده
الآن أسعى لقيسٍ سـعيا أخافُ فسادَه
فمِـلْ بنـا وبقيسٍ حـــتى يُصيبَ رشادَه

« يحملون قيسا ويختفون به وراء شجر »
« البان ، وتظهر طلائع الحي من اليسار وعلى »
« رأسها المهدى ومازل ، وكلهم شاكى السلاح »

« المهدى »

يا قومُ إن البغْيَ شرٌّ مركَبُهْ والخيرُ فى جانب من يُجَنَّبُهْ
هذا ابنُ عوفٍ قد أطلَّ موكبُه وإن قيساً فى الرَّكاب يصحَبُه
جاء يرومُ صِهرَكم ويَخْطُبُه وقد علِمتمْ كيف ساء مذهبُـه
وكيف طال بابنتى تشبُّبُه

« صـوت »

كِلْه الى سـيوفنا تؤدِّبُهْ لقـد وجـدناه وكنا نَرقُبُهُ

« المهدى »

لا ، دمُ قيسٍ دمُنا لا نقرَبُه يكفيه منا أننـا نُخَيِّبُهُ
ونَصرِفُ الأميرَ عما يطلبُهُ

« صوت آخر »

شيخَ الحـــى لاتضعُـفِ ولا تردَّدْ وقـــف
ذُدْ عن عقيـلة الحـى وامنعْ حيـاضَ الشرَفِ
لاتُصـــغِ للشافع فى قيـــس ولا المستعطِفِ
ليس ابنُ عوْفٍ فى الذى سعى له بالمنصِـــف

أبا لأميرِ بعد ما أجار قيساً تحتفى؟
لا تخشَ بأسه ومن رجاله لا تخف
نحن كعثمانَ وليلى بيننا كالمُصحَف

« يظهر ابن عوف وحاشيته من »
« وراء الشجر ومعهم زياد »

« ابن عوف »

عِمْ أبا ليلى صباحاً

« المهدى »

عِمْ صباحاً يابنَ عَوْف

« ابن عوف »

قل لهم يُلقُوا السلاحا ليس ذا مَوْطِنَ خوف

« صوت من الحى »

يابنَ عوفٍ ياأميرْ ليس ذا شأنَ الوُلاةِ
كيف تَحمى وتُجيرْ مُستبيحَ الحُرُماتِ؟

« ابن عوف »

عامِرُ يا أجاوِدَ البطاحِ وأسمحَ الناس بُطونَ راحِ
مالى وللسيوف والرماحِ؟ ضيفٌ أنا وما من السَّماحِ
رَدك وجهَ الضيف بالسلاحِ ماجئتُكم ياقومُ للكفاحِ
بل جئتُ للتوفيق والإصلاحِ

« تحدث ضجة فى جانب الحى وتصايح وتهامس »
« ثم يلقى كثير منهم السلاح ويغمد السيوف »

« صوت من الحى »

يا أبا ليـلى بليــــلى جُدْ لقيسٍ بالحــــياةِ
إنه شاعرُ نجــدٍ ونَجِىُّ الظَّبيَــــاتِ

« صوت آخر »

قيسٌ أخٌ وابنُ عمٍّ وليس أهـــلا لذَمّ
نجمٌ أضـــاء بنجد سما على كل نجـــم
هبـوه جُنّ بليـلى ليس الغـــرامُ بجُرم

« منازل : حيث يستقبل الجمين خطيبا »

إن قيساً معشرَ الحى أخٌ وابنُ عمٍ أفمنه تبرأونْ ؟

« أصوات »

لا ورَبِّ البيت

« منازل »

أصغوا لى إذنْ ثم ظنوا كيف شئتم بى الظنونْ
إن قيساً شاعرُ البيد الذى لا يُجارَى أفأنتم منُكِرونْ ؟

« أصوات »

لا وربِّ البيت

« منازل »

أصغوا لى إذنْ ثم ظنوا كيف شئتم بى الظنونْ
إن قيساً سيدٌ من عامرٍ وابنُ سادات ، أفيه تمترون ؟

« أصوات »

لا وربِّ البيت

« منازل »

أصغوا لى إذنْ ثم ظنوا كيف شئتم بى الظنونْ
إن قيساً قد بنى المجدَ لـكم ولنجدٍ أبقيسٍ تكفرون ؟

« أصوات »

لا وربِّ البيت

« منازل »

أصغُوا لى إذن ثم ظنوا كيف شئتم بى الظنونْ
إن قيسا كاملٌ فى عقله أو آنستم على قيسَ الجنون ؟

« أصوات »

لا وربِّ البيت

« منازل »

أصغُوا لى إذن ثم ظنوا كيف شئتم بى الظنون
أنا لم أعــدِلْ بقيسٍ شاعرا لا ولا أنتم بقيـسٍ تعدِلون

« أصوات »

لاوربِّ البيت

« منازل »

أصغُوا لى إذن ثم ظنوا كيف شئتم بى الظنون
أنا فى وُدى وإعجـابى به لايدانيـنى الرواةُ المعجبون
شعرُه يبــنى ويفنى غـيرُه ليس كلُّ الشعر ترويه القرون
شعرُ قيس عبقرىٌّ خالدٌ ليتــه لم يتخلَّله المجون

ولو ان المتجـــني شاعرٌ غيرُ قيسٍ أوشك الخطب يهون
رُبَّ شعرٍ قال فى ليلى ، به هتف البدْوُ وضجَّ الحاضرون
إننى أخشى عليكم عارَه رُبَّ عارٍ لبس تمحوه السّنونْ
ضجرتْ ليلى وضجّت أمُّها وأبوها وتأذّى الأقربون
وغَدا كلُّ فتى من عامرٍ حين يلقى النّاس ، مَحنِىَّ الجبين

« أصوات كثيرة »

هو ماقلت

« منازل »

إذن ما بالُكم لم تثوروا ، مالكم لا تغضبون ؟
هو ذا قيسٌ مع الوالى أتى يطأُ الحىَّ وأنتم تنظرون
وأبو ليلى امرؤٌ أدرِى له رِقّةَ القلب وأخشى أن يلين
بعدَ حينٍ يعبَثُ القومُ بكم ومن الحىِّ بليلى يخرجون
آن يا قومُ لكم أن تعلموا أن قيساً هتك الخدرَ المصون
قيسُ لم يترك لليلى حُرمةً ما الذى أنتم بقيسٍ فاعلون ؟

« صوت »

ما جنٌ لابدّ من تأديبه

« صوت آخر »

إن بالسَّوْط يُرَبىَّ الماجنون

« صوت »

نأخــذُ الحىَّ عليه

« آخر »

ولنقفْ دون ليـلى وحماها كالحصون

« منازل »

حلّل السلطان بالأمس لكم دمَ قيسٍ ما الذى تنتظرون ؟

« صوت »

حلّل السلطان بالأمس لنا دمَه

« أصوات أخرى »

إنا بقيسٍ فاتكون

« ضجيج واندفاع »

« صوت »

مُنازِ يابنَ العم ما هذا الخبرْ ؟ رفعتَ قيساً لجعلتَه القمرْ

والآن أغريتَ بقتله الزُّمَرْ كفعل جزار اليهود بالبقر

برّأها من العيوب وعَقَرْ !

« يصعد بشر منبرا للخطابة فيجتمع حوله جماعة من الناس »

« قائل »

إرجعوا يا قومُ هذا منبرٌ

وخطيب

« يسأل أحدهم »

ليت شعرى من يكونْ ؟

« آخر »

أو أعمى أنت هذا بشرْ

« آخر »

هل يحسن الخُطبة بشرٌ ويُبين

« يحاول منازل أن ينسل من الجماهير »

« بشر »

قف منازِ اسمعْ سمعتَ الرعدمن جانبيْ صاعقةٍ فيها المَنون
وسمعتَ الذئب فى جوْز الفَلا وسمعتَ الليثَ فى جوف العرين
أخطيبٌ أنت أم خطبٌ وإن لم تَهُن والخطبُ أحيانا يَهُون

« منازل صائحا »

بشر . . .

« بشر »

قف !

« منازل »

مالك يا بشرُ ولى ؟
إن حربَ الأهل والصحب جُنون

« بشر »

لِمْ إذن حاربتَ قيساً لم تصن
حرمةَ ابن العم أو حقَّ الخَدين؟

« منازل »

قلتُ بشرُ الحق

« بشر »

خلّ الحق ما
أنت والله على الحق أمين

إنما أنت لقيسٍ حاسدٌ منطوى الصدر على الحقد المَهين
كلما حدّثتَ عنه عامراً قرأتْ فى وجهك الداء الدفين
ترسِلُ الزفرةَ تتلو أختَها وتَفُشُّ الصدرَ من حين لحين
يا منازِ يا بن عمّى أصغ لى أنت دونٌ أنت دون أنت دون !

« منازل »

دعونى

« بشر من المنبر »

دعونى فلا بدّ لى

« رجل »

أتاتك

« بشر »

لا بد أن أقتلَهْ

« منازل »

دعونى

« بشر »

دعونى

« رجل »

دعوه اتركوه

« آخر »

ومن كتَّفَ النذلَ أو كبّله :

« منازل »

دعونى

« رجل »

دعوه

« آخر »

كلا البطلين

يقولُ الوعيدَ ولن يفعله

« بشر »

دعونى

« رجل »

تقدَّمْ

« منازل »

دعونى

« رجل »

انطلق

« بشر »

دعونىَ

« رجل »

جئه

« منازل »

دعونى

« رجل »

امش لهْ

« آخر »

تنحَّوْا وخلُّوا سبيليْهما ولا تخشوْا الوقعة المقبلهْ

« بشر »

منازلُ فى عقـــله كاملهْ

« منازل »

وعقلك يا بشرُ ما أكمـلهْ

بشر

أنتزو على الحىّ نَزْوَ الديوك ونقفزُ كالأكبُش المرسـلهْ
وتَفلَقُ رأسى كرُمانة وأفلقُ رأسـك كالحنظلهْ
فـماذا يردُّ عليك العويلُ وماذا انتفـاعىَ بالولولهْ ؟

« زياد »

منازلُ كنت كثير الكلام · ووالله ماقلتَ الا الكذبْ

« صوت »

أتزعمُه كاذباً يا زيادُ ، وقد ذاد عن حُرمات العربْ ؟

« زياد »

رويدكَ لا تنخدِع يا فتى ولا تأخذ الأمرَ دونَ السببْ
فلم يبغِ الا خداعَ الجموع وجلْبَ الظنون وخلْقَ الرِّيبْ
وأثّر فيكم وفى آخرين وأفرغ فيكم سُمومَ الرِّيَبْ

« صوت »

منازلُ دافعَ عن سُنَّةٍ مُعظَّمةٍ من قديم الحِقب

« زياد »

تأمل منازلُ سُخْطَ الجموع وجهلَك ماذا عليهم جلَبْ !
أجل قد غضبتَ ولكنما لنفسك ليس لليلى الغضب
تحضُّ على قَتل قيسَ الرجالَ لتحظى بليلى إذا ماذهب

« أصوات »

يُريدُ ليحظى بليلى ؟

« زياد »

نعم !

« صوت »

تكلمْ

« صوت آخر »

أينْ

« ثالث »

إن هذا عجب ! ·

« زياد »

ساوه ألمْ يكُ يَغشَى النَّدِيَّ ويطلبُ ليلى أشدَّ الطلب ؟

« صوت يخاطب المهدى »

إذن كان يخطبُ ليلى ؟

« المهدى »

نعم !

« صوت »

إذن قد تجنّى

« صوت آخر »

إذن قد كذَب !

« زياد »

منازلُ قل لهمو كم ضرعـــت لليلى وكم أعرضتْ لم تُجِبْ

« صوت »

منـازلُ اخدعْ وغُشَّ غيرى

« آخر »

قد جازَ الا علىّ كِذْبُكْ !

« ثالث »

ما أنتَ إلا جـوٍ شـقىٌّ تحبُّ ليـلى ولا تُحبُّكْ !

« تحدث ضجة حول منازل ويقف ثلاثة رجال »
« فى ركن قصى من أركان المسرح يتحدثون »

« الأول »

قـد اختلف الحيُّ فى أمر قيسٍ
وليـلى فكلٌّ له مـذهبُ
وأنت الى أيِّ رأيـيـ تميـلُ
وأيَّ الفريقـــين تستصْوِبُ

« الثانى »

إذا صـدقت نظرتى فى الأمور ولى نظرةٌ قلمـا تكـذِبُ
منـــازلُ غادٍ على خيبةٍ وقيسُ على فضـله أخْيب
وقد يُخفقـان ويلقى النجاحَ غريبٌ له فيكمو مأرب

« الأول »

غريب ؟

« الثانى »

أجل من نواحى ثقيف

« الأول »

ومن ذاك ؟

« الثانى »

وردُ

« الأول »

وما يطلب ؟

« الثالث »

رأيناه فى الحى يمشى الحياء وقيـــل أتى عامرا يخطُب

« الأول »

وليـلى ابنةُ الشيـخ مارأيُها … أما من حسابٍ لها يُحسب ؟

« الثانى »

أراها وإن لم تَخطَّ الشبابَ … عجوزاً على الرأى لا تُغلَب
تصونُ القديمَ وترعى الرميمَ … وتُعطى التقاليدَ ماتوجب
وبالجـاهلية إعجابُها … إذا قل بالسلف المعجَبُ
ومن سُنَّة البيدنفضُ الأكفِّ … من العاشقين اذا شببّوا
فلا تعجبوا إن جرى حادثٌ … يُحدث عنه ويُستغرب
وإن رضِيَتْ وردَ بعلا لها … وقيسُ الأحبُّ لها الأقرب
فينا طالما التمست مهربا … وأرضُ ثقيفٍ هى المهرب

« منازل »

بنى عامرٍ لا تُضيعوا الحُلومَ … فإن الأناة بكم أجملُ
هبوا لىَ آذانكم إننى … أجِدُّ وصاحبُكم يَهزِلُ
خطبتُ وأخطبُ ليلى غدا … وما لىَ يا قومُ لا أفعلُ
وقد تُعرِضُ اليومَ ليلى فلا … أضيقُ ، عسى فى غدٍ تُقبِلُ
فما قيسُ أجدرُ منى بها … ولا هو خيرٌ ولا أفضل

« زياد »

إليك منازلُ ! لا تَتّزِنْ … بقيسٍ قد اختلف المنزلُ !
ولا يستوى الشاعرُ العبقرىُّ … ومن هو من باقلٍ أبقل

« منازل »

وما أنت ؟ بيِّنْ لنا يازياد

« زياد ــ ممسكا بذراع منازل »

ستعلم منيّ ما تجهل

هلُمَّ مُنازِ ، هلمَّ الصراعْ ! ووِدِّعْ ضلوعَك وانْعَ الذراعْ

« منازل »

خلِّ زيادُ خلِّ عن ذراعى

« زياد »

سألتَ ما أنت ؟ فأصغِ ، راعِ

إنى أنا ممزِّقُ الأضلاع !

« ثم يجره من ذراعه ويمضى به الى خارج المسرح »

« صوت »

ما ذا يكون يا ترى ؟

« آخر »

هيّوْا نرى هيوا نرى

« آخر وهم يتدافعون »

زيادُ غـــيرُ هازلِ

« آخر »

نوحوا على منازلِ

« آخر »

حمامةٌ وبازي !

« آخر »

هلكتَ يامنازِ !

« آخر من بعيد »

إهرب من البرازِ

« يخلو المسرح الآن إلا من المهدى وابن عوف »
« ونصيب ثم نسمع صرخة من وراء الشجر »

« مهدى »

ما بقيسٍ يابنَ عوف؟

« ابن عوف »

إنه مغمًى عليه

« مهدى »

قيسُ لا بأسَ عليك كبّروا فى أذُنيْه

« صوت من وراء الشجر »

الله أكبر الله أكبر

« ابن عوف لنفسه »

سُدًى كبّروا ما أُذْنُ قيسٍ مفيقةٌ وإن كبروا فيها أذانَ بلال
ولكن على ليلى يُفيقُ وشبهها إذا ما بدتْ ليلى بشكلِ غزال
ويصحو على ليلى إذارددَّ اسمُها وراء بُيوتٍ أو وراء رِحال

« المهدى »

دَمُ الوُدّ والقُربَى و إن كان ظالما عزيزٌ علينا أن نراه يسيل

وإنى لإنسانٌ وإنى لوالدٌ ولى مذهبٌ فى الوالدين جميل
فرفقا بقيس يا أميرُ ونحِّه بعيدا لعل الشرَّ عنه يزولُ

« ابن عوف »

أناةً أبا ليلى وحِلما ولا يكنْ عليك لطغيان الظنون سبيل
رددتم ركابى واتهمتم زيارتى وأجلبَ فتيانٌ وضجَّ كهول
تأملْ تجدْ جمْعاً مغيظا وكثرةً تصولُ وماتدرى علامَ تصول !
رءوسٌ تنزَّى الشرُّ فيها وراءها نفوسُ ذئابٍ مالهن عقول
تطَلَّبُ أن يُلقى اليها بجُثّةٍ على غير جوع أو يُساقَ قتيل
نواظرُ مايأتى به اليومُ من دمٍ وإن لم يُساورْها صدًى وغليل
نزلتُ فلم أُكرَمْ فهل أنت متُبعى وقومُك نارَ الطَّرد حين أميل؟
أبيْتُم علىَّ القولَ قبل استماعه فلم تُنصفوا والمنصفون قليل
فهل لى أبا ليلى بناديكَ وقفةٌ فإن الذى قد جئتُ فيه جليل
وما أنا مَرْءُ السوء أورجلُ الأذى ولكنْ سفيرٌ خيِّرٌ ورسول
ولم أتخذْ جاهَ الأمور ذريعةً ألا إنما جاهُ الأمور يزول

« المهدى »

بقيتم بخير يا وُلاةَ أميةٍ ولا زال يقوى رُكنُكم ويطول

«مشيرا الى باب الخباء»

هنا مجلسٌ تأوى اليه لعلنى أقولُ صوابا أو عساك تقول
وثَمَّ ترى ليلى وتسمعُ قولَها وليلى لها رأىٌ يُساقُ جميل

فسلها عسى أن نهتدي ماجوابُها إباء وردٌ أو رضى وقبــول

« يهم ابن عوف بخلع نعليه »

« المهدى »

أتخلَعُ نعليك لا يابن َعوف نَشَدتُك بالله لاتفعلِ
أتمشي الى منزلى حافيا فديتُك،من أنا؟ ما منزلى؟

« ابن عوف »

خلعتُهما وانتعلْتُ الترابَ الى خيْمة السيِّد المفضِلِ

« نصيب : متدخلا »

دعهْ يامهدىُّ يفعل إنما يَرمِي لمعنى
كالحسْين بن علىٍّ هو بالعشــاقِ يُعنَى
الحسينُ انتعل التربَ الى والد لُبنَى
فرآه حافيا فى ساحة الدار فجُنَّا
قال لا أملِك يابن المصطفى بنتًا ولا ابنا
أنت فى الدار أمــيرٌ فبما شئتَ فمُــرنا

« لنفسه »

يادهر دُرْ بما تشا ويا حوادثُ اهزلى !
ويا وظيفةُ اعزُبِى ويا جرايةُ ارحلى
يبغى ابنُ عوفٍ أن يكو نَ كالحسيْنِ بنِ على !

« يدخلان وينادى المهدى : »

هو الضيفُ ياليل َهاتِ الرُّطبْ وهاتِ الشِّواء وهاتِ الحَلَبْ

وهاتى من الشهد ما يُشتَهى ومن سَمَنَة الحىّ ما يُطّلَبْ
فما هو ضيفٌ كَكلّ الضيو ف ولكن أميرٌ كريمُ الحَسَبْ

« ليلى من وراء حجاب »

أبى ألفَ لبّيْك !

« ابن عوف »

لا بل قفى فما بى ظَماء ولا بى سغَبْ
وأعلَمُ أن القِرى دِينُكم وأن أباكِ جـــوادُ العربْ
ولـكن طعامىَ

« المهدى »

ماذا ؟ اقترِحْ

« ابن عوف »

طعامُ الرســول بلوغُ الأرَبْ

« المهدى »

إذن قفى ليـلى اقرُبى

« تظهر ليلى من وراء الستر »

تقـــــدّمى ورحّبى

حـلّ ابنُ عوفٍ دارَنا

« ليـلى »

أكرِمْ بـه وأحببِ !
قـد زارنا الغيثُ فأهـــلاً بالغـــمام الصيِّب

« ابن عوف »

أهــــلاً بليـلى بالجمـالِ بالحِجـــــى بالأدبِ
عشتِ وقيساً فلقــــد نوّهـتما بالعــــــرب

« ليلى ــ بين الخجل والغضب »

أتقْرِنُ قيساً بنـا يا أميرُ ؟

« ابن عوف »

ولِمْ لا وقد جئتُ من أجْلهِ
ومَنْ أنا حتى أضُمَّ القلوبَ وأعطفَ شكلاً على شكلِهِ
لقـدْ جمعَ الحبُّ رُوحيْـكما وما زالَ يجمعُ فى حبلِهِ

« ليلى : فى استحياء »

أجلْ يا أميرُ عرَفتُ الهوى

« ابن عوف »

فهلاّ عطَفْتِ على أهـله ؟

« يلتفت الى المهدى »

أبا العامريّـةِ قلبُ الفتــاةِ يقـول وينطِقُ عن نُبْـله
فأصــــغِ له وترفّقْ به ولا يسْعَ ظُـلمُكَ فى قتــــله

« المهدى »

أأظلم ليلى ؟ معاذَ الحنان ! متى جـار شيخٌ على طفـله ؟
هو الحُـكْمُ ياليلَ ماتحكمين خُذى فى الخطاب وفى فصله

« ليلى »

أقيساً تريد ؟

« ابن عوف »

نعم

« ليلى »

إنه مُنَى القلب أو مُنتهى شُغله
ولكن أترضى حجابى يذالُ وتمشى الظنونُ على سِدْله
ويمشى أبى فيغضُّ الجبينَ وينظرُ فى الأرض من ذلّه
يدارى لأجلى فضولَ الشيوخ ويقتلنِى الغمُّ من أجله
يمينا لقيتُ الأمرَّيْنِ من حماقة قيسٍ ومن جهله
فُضحتُ به فى شِعابِ الحجازِ وفى حَزْنِ نجدٍ وفى سهله
فخذْ قيسُ ياسيدى فى حماك

« فى حياء وإباء »

وألقِ الأمانَ على رَحْلِهِ
ولا يفتكرْ ساعةً بالزواج ولو كان مَرْوانُ من رُسْلِهِ

« ابن عوف »

إذن لن تقبلى قيساً ولن ترضَيْ به بعلا
إذن أخفق مسعاىَ وخاب القصدُ ياليلى

« ليلى »

على أنك مشكورٌ ولا أنسى لك الفضلا

وأوصيكَ بقيسَ الخيرَ لا زلتَ له أهلا
لقد يُعوِزُه حامٍ فكنْه أيها المولى

« تلتفت الى أبيها وكأنما تحاول »
« أن تحبس فى عينها دموعا »

أبى كان وردٌ ههنا منذ ساعةٍ ففيم أتى ؟ ما يبتغى ؟

« المهدى »

جاء يخطبُ

« ابن عوف »

ومن وردُ ياليلى وهل تعرفينه ؟

« ليلى »

فتى من ثقيفٍ خالصُ القلبِ طيّبُ
أتى خاطباً بعد افتضاحى بغيره وعارى، أهذا يابن عوفٍ يُخيّبُ ؟
أبى : أين وردُ الآن ؟

« المهدى »

عند قرابةٍ من الحىّ نمّوه اليهم ورحّبوا
فإن شئتِ أرسلنا اليه

« ليلى »

ابعثْ ادْعُه وجئنا بقاضى نجدٍ اليوم يكتب

« ابن عوف »

تجاوزتِ ليلى غاية السُّخْط فاذكرى عواقبَ رأىٍ قد رأيتِ سخيفِ

« ليلى : متهكمة »

أكنتَ ابنَ عوفٍ غيرَ أنثى ضعيفةٍ

تناهتْ لرأى فى الأمور ضعيف

« ابن عوف »

أرى وقفتى يا ليلَ كانت شريفةً ولكنْ جزائى كان غيرَ شريفِ

« ليلى »

أنظِّفُ ثوبى يا أميرُ فطالما ظهرتُ به فى الحىِّ غيرَ نظيف

« ابن عوف »

لئن كنتِ يا ليلى بوردٍ قريرةً فإنى على قيسٍ لجدُّ أسيف

« ثم يخاطب أباها »

ألآن بحفظ الله ياسيد الحمى

لقد طال لُبثى عندكم ووقوفى

ووُفِّقت يا ليلى

« ليلى »

لقد كنتَ سيدى حليفاً لقيسٍ، هل تكونُ حليفى!

« ابن عوف »

سألتِ مُحالاً إنما جئتُ خاطباً لورد القوافى لا لورد ثَقيف!

« يخرج من باب الخباء ويشيعه »
« المهدى الى ماوراء شجر البان »

« ليلى »

ربّاهُ ماذا قلتُ ! ماذا كان مِن شأن الأمير الأرْيَحِىّ وشانى ؟
فى موقفٍ كان ابنُ عوفٍ مُحسناً فيه وكنت قليلةَ الاحسان
فزعمتُ قيساً نالنى بمَساءةٍ ورمى حجابى أو أذال صِيانى
والنفسُ تعلَمُ أن قيساً قد بنى مجدى وقيسٌ للمكارم بان
لولا قصائده التى نوّهن بى فى البيد ما علِمَ الزمان مكانى
نجدٌ غداً يُطوَى و يفنَى أهله وقصيد قيسٍ فىّ ليس بفان
مالى غضِبتُ فضاع أمرى من يدى والأمرُ يخرجُ من يد الغضبان
قالوا انظرى ماتحكمين فليتنى أبصرتُ رشدى أوملكتُ عِنانى
مازلتُ أهذِى بالوساوس ساعةً حتى قتلت اثنين بالهذيان
وكأننى مأمورةٌ وكأنما قد كان شيطانٌ يقودُ لسانى
قدّرتُ أشياءَ وقدّر غيرها حظٌّ يخُطُّ مصايرَ الانسان

ستــــار

الفصل الرابع

المنظر الأول

« حول ديار بنى ثقيف ، فى قرية من قرى الجن ، حيث اجتمعت طائفة منهم »
« للحفاوة بقيس وهو يهيم على وجهه ضالا فى الفلوات ، وبينهم شاب منهم »
« فى شكل إنسى جميل الثياب يتردى الحرير من فرعه الى قدمه ، وعلى رأسه »
« عقالان من الحرير المحلى بالذهب، هو الأموى شيطان قيس ـ الجميع ينشدون »
« ويرقصون »

« نشيد الجن »

هذا الأصيلُ كالذَّهبْ   يسيلُ بالمرأى العجبْ
على الوهادِ والكُثُبْ

الرقصُ يبعثُ الطربْ   هلمَّ يا جنَّ العربْ
هلمَّ رقصةَ اللَّهَبْ   إذا مشىَ على الحطبْ
نحن بنو جهنَّما   نغلى كما تغلى دَمَا
نثور فى الأرضِ كما   ثارَ أبونا فى السما
نحن بنو الجبارِ   العلَمِ المنارِ

إبليسَ بِكرِ النار   يا عزَّ من لهُ انتمى
نحن الرُّعـــُودُ القاصفهْ   نحن الرياحُ العــــاصفه
والظلمـــــاتُ الزاحـــفَه   عرمرَماً   عرمرَما
لنـــا وما لنا صُـــوَرْ   نرى ونسمعُ البشر
ولا يَروْنَ من حضَرَ   منا ومن تـــكلما
نقول حينَ نصطدمْ   بســـــادةٍ أو بخَدَم
صمم صمم صمم.صمم   عمىً عمىً عمىً عمَى

« هبيد »

فيمَ اجتمعْنا هَهنا ؟   يا عضرَفُوتُ ما الخبر ؟

« عضرفوت »

لا أدْرِ ... تلك ضجةٌ   حضرتُها فيمن حضَرْ
فسل أخاك عَسَراً

« هبيد »

ماذا هناك يا عسَرْ ؟

« عسر »

نحن مسوقونَ الى   ما ليسَ ندري كالبقرْ

« الأموى »

بني الجنّ في أرضِكم عابرٌ   من الإنسِ يرسُفُ في ضُرِّهِ
فعــالوا بهِ واعلموا أنه   فتىً نبَّهَ الشعْرُ من قدرِه

« هبيد »

وأينَ تُرَى هـــو ؟

« آخر »

ماذا يكون

« الأموى »

وماذا يهمُّك من أمره

ألم تعلموا أن لى صاحبا من الإنس أحكُمُ فى شعرِه

« هبيد »

أجل أنت تُوحِى له ما يقولُ وتقذفُ ما شئت فى فـكرِه

« الأموى »

إذن فاعلموا أنه عاشـــق تملَّأت البيدُ من ذكره

« عاصف »

وأعلم أن الهوى واحـــد حوى المستهامِيْن فى أسْره

وأن التى ســـحرت قلبهَ مدلِّهةُ القلبِ من سحره

« الأموى »

وانى لأكفُلُ ليـــلى له وأصرِفُها عن هـوى غـيرِه

سَهِرْتُ على طُهر ليلى الزمانَ ولم أغمِض العينَ عن طُهرِه

صرَفتُ عن الحب حتى الزواجَ وما قدَّسَ اللهُ من سِره

ولو أنَّ عينى تَشقُّ القبورَ سهِرْت على الحبِّ فى قبره !

« عضرفوت »

ومن يكون

« الأموى »

قيس

« عضرفوت »

من قيس

« عاصف »

وهـــل يخفَى القمرْ !
الشاعـرُ الذى سـحر والساحر الذى شَعَـــر
حَنْجَرةٌ لنـــا وترْ منهـــا وللإنس وتر

« هبيد »

وما لنـــا يا عضرفوتُ ولِفتيـــان البشرْ ؟
وما لقِينـــا منهمو ومن أبيهم غـــيرَ شر !

« عضرفوت »

بنى الجنِّ اسمعوا أبِكم زكامٌ

« جني »

ولِمْ ؟

« عضرفوت »

تَنَتنتْ لعَمرِكُمو الجواء

« آخرُ »

وما فى الجو ؟

« عضرفوت »

ريحٌ آدميٌّ

ففيه نَتانةٌ وله ذَكاه

إذا البشرىُّ مرَّ علىَّ يوماً فقَد مرَّت علىَّ الخُنْفُساه

« جنى »

أجل بعداوة البَشَرِ ابتُلينا وطال بها التبرّمُ والعَناء

مضى بالكبر إبليسٌ أبونا وكلٌّ تراثِ آدمَ كبرياء

يَعيب رجالُهم فيقال عبنا وتَدْفِنُ عارَها فينا النساء

وان عَجزَ المطبب قال داء من الجنِّى ليس له دواء

وان قَفَزَت صغارهمو فزلّت فمنا معشرَ الجنِّ البلاء

وخِفنا من أذاهم فاحتجبنا فما عصم الحجاب ولا اختفاء

وكم متعوذٍ بالله منا تعوذ الأرضُ منه والسماء !

« عضرفوت »

وقد نشكو من الناس التجنى وننسى ما جناه الأنبياء

« جنى »

أَرُسْلُ الله أيضاً من عِدانا ؟

« عضرفوت »

أجل هم فى عداوتنا سَواء

بنى فخماً سليمانُ وضخماً ولولا الجنُّ ما نهضَ البناء
بنينا تدمرَ الكبرى بأيدٍ فهلْ تدرونَ ما كان الجزاء ؟

« جى »

وما كان الجزاء ؟

« آخرون »

أينْ !

« عضرفوت »

عذابٌ

وسجن ما لمدّته انقضاء !

فتحتَ الماءِ

« جى »

تحتَ الماء ؟

« عضرفوت »

عانٍ

عليه طلاسم وعليه ماء !

وفى جوف القماقم لو علمتم

« آخرون »

وما ذا فى القماقم ؟

« عضرفوت »

أبرياء !

« جنى »

ومن ذا زجَّهم فيها ؟

« عضرفوت »

أميرٌ

علينا لا يُرَدُّ له قضاء

نبيٌّ فهو عدلٌ حيثُ يَقضِى

ومَلْكٌ فهو يفعلُ ما يشاء !

« عاصف »

قيس يا قومُ منكمو ليس قيسٌ من البشر

« جنى »

قيس منا وإنما فى بنى عامرٍ ظهر

« آخر »

إننى قد رأيتُه يتفلّى على الشجر

« ثالث »

وسمِعناهُ قد عوى عَوَّةَ الجنِّ واستتر

« رابع »

أنا أيضاً رأيته ركِبَ الظبىَ فى السفر

« عاصف ــ متطلعا »

تعالَوْا فانظروا

« يتطلع الجميع الى حيث ينظر »

« جنى »

ماذا ؟

« آخر »

عجيبٌ

« عضرفوت »

نرى شبحاً يُدحرِجُه الفضاء

أقيسٌ ذا ؟

« عاصف »

نعم هو فاستعدوا فقد وجب التحفزُ واللقاء

« هبيد لجنى آخر »

تأملْ قيساً المُضنَى تجدْه من الذَوَبان أصبح كالخيالِ

« الآخر »

لقد ضلّ الطريقَ أما تراهُ يُصفّق باليَمين وبالشّمال ؟
وقد قَلَبَ الثيابَ عليه نَهْجاً على عاداتهم عند الضلال

« يظهر قيس فيلتفون حوله وينشدون »

ســـــلامٌ مَلِكَ الحبِّ وســلطانَ المُحبينــا
وأهــلا وعلى الرحبِ لقــد شُرِّفَ وادينــا

أتى الجنُّ من الوادى يُحيّـــونك بالورد
حدا ركبَهم الحــــادى الى ناديك من بُعْدِ

« يتلفت قيس ذات اليمين وذات الشمال »

رَب الى أين انتهت بى َ السُّرى وأىَّ وادٍ أنزلتنى ياتُرى
عساىَ فى الشامِ لعلِّى جزْتُه أو أنا بالطائف أو أين أنا ؟
وهــذه المُسوخُ حولى جِنَّةٌ أم عملُ الوهمِ وتهويلُ الكَرى
لا، أنا صاحٍ

« يتحسس جسمه »

هذه رِجلِى وذِى يدى وتلك مُقلتى يقظَى ترَى
ولِمَ لا أُومِنُ بالجن وأَنْ تكون للجنّة كالناس قُرى؟
لا أدّعى معرفــةً بعــالَمٍ ظاهرُه أكثرُ منه ما اختفى

« يمسح جبينه ويعيد النظر والتطلع »

تلك منَ الجنِّ لعمرى شِرذِمَهْ وهـــذه خيلهمو المُسَوَّمَهْ
نعامــة كالفرَس المُطهَّمَهْ وأرنبٌ مُسْرَجَةٌ ومُلجَمــه
وقُنْفُذٌ وظَبيةٌ وشَيْهمهَ

ياعجباً كلَّ العجبْ ! الجنُّ منى عن كَثَبْ
ســودٌ دقاقٌ فى العيونِ كالدُّخَانِ فى الحطب
يخرجُ من أفواهها ومن عيــونِهـا اللهب
من كل مَن جال بقَرْ نيه وصـــال بالذَنب

« الجان »

نَبِيَّ الحبِّ لا تَخش أذًى أو شِرَّةً منا
عَطفْت الطيرَ والوحشا فلِمْ لا تَعطِفُ الجِنا ؟
وسَلْ حسّان والأعشى وشيطانَيْهِما عنا

« الأموى »

تركتُ ورائى الشامَ لم أنتفعْ به ولا هو من شوقى القديم شفانى
وعدتُ الى نجدٍ أقاسى صبابتى ووجدى كأنى ما بَرِحتُ مكانى
تركتُكِ ليلى فانفجرتِ لياليا مؤلفةَ الأشكالِ جِدَّ حِسان

فلم يَخْلُ سيْرى منك يوماً ولا السُّرى
ولم يخلُ من تمثالِكِ القمران
على كل أرض من هواكِ سوارحٌ
ملأنَ سبيلى أو مَلَكن عنانى

(وأجهشتُ للتوْباد حين رأيتهُ وكبر للرحمنِ حين رآنى)
(وأذريْتُ دمعَ العينِ لماعَرَفْتهُ ونادى بأعلى صوتِهِ فدعانى)

« يدنو منه قيس ويتأمله »

« قيس : لنفسه »

يا ويحَ عينى ما ترى ؟ وويحَ أذْنى ما تَعى !
وأين عقلى ؟ غاب عنى اليومَ أو عقلى معى ؟
الشعر لى مُذ قلته من شفتى لم يُسمَع

من ذا الذى أوْحَى به لذا الغلام المُدَّعى ؟

« يقترب من الشاب ويأخذ فى انتقاده »

عقـــالان يمانيّان منْ وَشْيٍ وعِقيانِ
يُضيئان كلمْحِ الشمـــس فى جلدة ثعبان
وأين الشفَقُ الأحــــمَرُ من مطْرَفِكَ القانى ؟
وقــد تقرُب فى الروْ عةِ من أملاك غسّان
وقد تبلُغُ فى الشعــــر الى رقـــةِ حسّان
فما شأنك ياهـذا ؟

« الأموي »

وما يَعنيكَ مِن شــانى ؟

« قيس »

أرى سارقَ أشـعارٍ جـريئاً ما له ثانِ
فقـد يُسطَى على بيتٍ وقـد يُسرَق بيتانْ
ولا يَنتحِل الإنسان أبيـــاتاً لإنسان
وما أنشَدْتَ من شـعرٍ فمن صنعى وإحسانى
ولم أهتفْ به بعـدُ ولم تَسمَعْه أُذنان
فمَن أنت ومِن أين أتتْ أُذْنُك الجانى ؟

« الأموى »

أنا الملقى عليك الشعـــرَ مِن آنٍ الى آن
أنا الهاجس والشيطان

« قيس »

لا ، لا ، لستَ شيْطانى

« ثم يناجى نفسه »

أجلْ سمِعتُ باسم شيــــطانى ولـكن لم أرَه
أبى وأمى حـدّثا نى فى الليـــالى خبرَه

« يعود الى خطاب الأموى مترددا »

ألستَ أنت الأمويّ ؟

« الأموى »

لا تخَفْ أن تذكرَه

« قيس »

ما أنت إلا صـــورةٌ فى عصبى مُصوَّره
وعبثٌ لو كان عقــلى حاضرا لأُنكره

« قيس — وهو ينكت الأرض بعود »

ويحى أقيسٌ واحد أم نحن قيسان هنا ؟
وأيُّنا الشاعر هـــذا الأمويُّ أم أنا ؟
أم الذى بى وبه من عَبَثِ السحر بنا ؟
أم أنا مجنـون علَـــىّ حبُّ ليـلى قد جنى

« الأموى »

قيس

« قيس »

لبيكَ قيس

« الأموى »

ما أنا قيس

« قيس »

من إذَن ؟

« الأموى »

قلتُ إنَّنِي شيطانُهْ

« قيس »

قيس من آدمٍ فما أنت منه

« الأموى »

أنا من قيس عامرٍ وجـدانُهْ

« قيس »

أنت وجدانىَ ؟ استعذتُ بربى منك

« الأموى »

لا تستعذ به جلَّ شانُهْ !

هكذا شاء : كلُّ شاعرِ قومٍ عبقرىٌّ اللسان نحن لسانه

« قيس مشيحاً بوجهه ومطرقاً »

يا عجَبا أصبحَ بالجـــنِّ لســـانِى يعمرُ !

وصرتُ ينْهَى ماردٌ على فمي ويأمرُ
ما للساني لا يطولُ ؟ ما له لا يقصرُ ؟
يا ليت شعري كيف لا يخرُجُ منه الشرَرُ ؟

« الأموي ـ واضعا يده على كتف قيس »

علامَ قيس فيم أنت مُطرِقٌ مفكِّرُ ؟
في خبري ؟

« قيس »

أجل وما صدقْتَ فيما تُخبرُ
ليس لساني ماردًا إن لساني بشَرُ

« الأموي »

قل وحدك الشعرَ إذنْ !

« قيس »

تظنُّني لا أقدِرُ ؟

« الأموي »

جرِّب إذَن قلْ أرِنا يا قيسُ كيف تَشْعُرُ !

« قيس »

وما تُحبُّ ؟

« الأموي »

قريةُ الجنِّ وهذا المنظَرُ
أليس فيما أنت راءٍ قيسُ ما يؤثِّرُ ؟

« قيس »

إسمع إذن يا أمويُّ !

« الأموى »

إننى أنتظر

« قيس »

وجوهٌ تَصوّرُ ، وفضاءٌ يزهرُ ، ورمال فى مطارح البصر تزخَرُ ،
وقريةٌ تموجُ بالجنِّ كأنها عَبْقَرْ !

« الأموى ضاحكا »

قــه قــه ! تعالَوْا واضحكوا !

« تضحك جماعة من الجن »

« قيس فى غضب »

قه قه . . أمِنّى تسخَرُ ؟

« الأموى »

ما هكذا يا شاعرَ الـــبيدِ البيوتُ تُكسَرُ

« جنى آخر »

إنك لا تَنْظِمُ يا قيس ولكنْ تنثُرُ !

« الأموى »

مالك قيــسُ مُفْحَماً هذا لعمرى الحَصَرُ !
لا يُفحَم الشاعرُ لكن يُفحِم الشُّوَيْعِرُ

مالك كالعُودِ الذى أدبرَ عنــه الوترُ ؟
مـا للقوافى الآنساتِ منـكَ قيسُ تنفرُ ؟
كيف ترى لسانَكَ الا آن

« قيس »

عليـه حجرُ !

أنتَ على مشـــاعرى وشعرىَ المسيْطِرُ !
إن غبت غاب خاطرى وإن حضرتَ يحضرُ

« الأموى »

الآن لا تُنكرُ نِى قيسُ وكنت تُنكِـــر !
عجبتَ كيف تختفى الجنُّ وكيــــف تظهرُ
ياقيسُ هـــذا عالمٌ طِينتُـه التجـــبُّرُ
تطغَـى على رائدهـا صحْــــراؤه وتغمرُ
وغـاية المُعِن فى نظـامِهِ التحـــيُّرُ
مهما علِمت عنـه فالذى جهِلْتَ أكــــثرُ !

« قيس »

يا أخَـا الجنِّ لئن كنتَ أخاً لى وخليلا
أنا فى أعمـاء أرض لا أرى فيهـا السبيلا

« الأموى »

أين تبغِي قيس ؟

« قيس »

ليلى كن الى ليلى الدليلا

« الأموى »

مِلْ يميناً يا أبا المهدىِّ ثم امشِ قليلا
تجد المنزلَ والماءَ الذى يشفى العليلا

« ينطلق قيس آخذاً يمينه مهرولا »

المنظر الثانى

« فى حى بني ثقيف بالطائف حيث ترى دار ورد على بعد قليل – ورد مضطجع »
« على الرمل وبجانبه يجلس رفيق من رفاقه – يقترب قيس من الخباء مناجيا نفسه »

« قيس »

إن قلبي لمخبرى أن هاتيكَ دارُها
أنا بالطائف الذى قـرّ فيه قرارها
فى ثقيف تنـقلى وثقيف ديارها
ما لساقى جَرَرْتُها فتعـابى انجرارُها
ولقلبى يقـول لى قـد تدانى مزارُها
كيف لا أهتدى لليلى وفى القلب نارها

ليت ليـــــلاى نُبِّئتْ أننى اليومَ جارها

« يتبين وردا وصاحبـه »

عجبٌ ! هُديتُ الدارَ بعد ضلالة ما كان شيطانى علىّ كذوبا
هــذى منازلها وذلك بعلُها بعثَتْ الىّ ديارُ ليلى الطّيبا
هذا غريمى وردُ أشقر كاسمه أتراه ألبس جلدَه مقلوبا !
ما بالُه افترش الأديم كأنه بغلٌ يُعفِّر فى التراب جنوبا !

« رفيق ورد »

ورد أرى من المدَى القريبِ شخصاً يدبُّ نحونا كالذيب
على خُطاه خَشيةُ المُريبِ

« ورد »

لِمْ لاتقولُ حيرةُ الغريب
لعلَّه ابنُ سبيلٍ يمــــرُّ بالحى مرّا
إنى أراه سـقيما يجرُّ ساقيْه جـــرا

« ينهض من رقدته قلقاً »

« الرفيق »

عرفتَ مَن هو ؟

« ورد »

قيسٌ به الغـرامُ أضرّا

« الرفيق »

قيس ؟

« ورد »

أجل

« الرفيق »

كيف أفضَى إليك ؟ كيف تجرّا

« ورد »

دعنى وقيساً وشأنى لعـــل فى الأمر سرّا

« ينصرف الرجل ويتلاقى ورد وقيس »

« قيس »

أهذا أنت وردبنى ثَقيفٍ ؟

«ورد»

نعم والوردُ ينبتُ فى رباها

« قيس »

ولِمْ سُمِّيتَ وردا لم تُلَقّبْ بقُلاّم العشيرة أو غَضاها!

« ورد ــ فى سكون وحلم »

وما ضرّ الورودَ وما عليهـا ؟

إذا المزكومُ لم يَطعَمْ شـــذاها

« قيس »

(بربِّكِ هل ضممتَ إليكَ ليلى
قُبَيْلَ الصبح أو قَبَّلتَ فاها ؟)
(وهل رفّتْ عليكَ قرونُ ليلى ..
رفيفَ الأُقحُوانَةِ في نداها ؟)

« ورد — بعد فترة سكون »

نعم ولا ياقيس

« قيس »

بل لا بدَّ من لا أو نعمْ

« ورد »

هبْها نعمْ ياقيسُ هل مع الحلال من تُهَمْ ؟
المرْءُ لا يُسأل : هل قبّلَ أهلَه ؟ وكم ؟
أجل لقد قبّلتُها من رأسها الى القدم

« قيس غاضبا »

تلك لعمري قُبلةُ الحُمّى بلاءٌ وسقمْ !
أو قُبلةُ الذئبِ إذا الذ ئبُ على الشاة جَثَمْ

« يتراجع قليلا وكأنما يحدث نفسه »

قلبي يقول لىَ : لا ! يا صِدْقَهُ فيما زعم !

« ورد »

إذن تعالَ قيسُ واسمعْ في أناةٍ وكرمْ

لا تجعلنَّ الغضبَ الـــجائرَ بيننا الحكَمْ
إسمع حـــديثى إنه ما خطَّ مثلَه القـــلم
وسِرُّه لا الأهـــلُ يد رون به ولا الخدَم
أنا الذى ظُلِمتُ قيـــس ما أنا الذى ظَلَمْ
أليَّـــةً وما علىَّ لك يا قيـــس قسَمْ
كم مرَّتِ الليـــلةُ بى والليلتان لم أنم
منذُ حوت دارىَ ليـــلى ما خلوْتُ من ندَم
كانت إطافتى بها كالوثنىِّ بالصنَّم
وربمـا جئتُ فِرا شَها فخانتنى القـــدم
كأنها لى مَحْرَمٌ وليس بيننا رَحِم
شعرُكَ ياقيسُ جنى علىَّ هـذا واجـترَم
هيبتهـــا فامتنعتْ كأنها صيدُ الحرَمْ
وهَبتُها للحبِّ والشـــعرِ وقيسٍ والألم

« قيس »

ولكن تعالَ سَرِىَّ ثقيفٍ أبِنْ لىَ مالم تُبيِّنْ تعالَ
تقولُ لَقيتَ بشعرى الشقاء وجرّ عليك بيانى الوبالا
لقد قلتَ قولا فأوْجزتَه فبالله إلا شرحت المقالا

« ورد »

إذن . أصغِ قيس

« قيس »

قل الصدقَ وردُ

« ورد »

وهل كان لي الصدقُ إلا اختلالا

فلولاك ما اخترتُ إلا ثقيفاً ‏ ‏ ولم أُلقِ للعامريات بالا
ذهبتُ بشعرك منذ الشبابِ ‏ ‏ أُغنِّي القِصار وأروي الطِّوالا
أرى بين ألفاظِه ظِلَّ ليلى ‏ ‏ وألمحُ بين القوافي الخيالا
فلما رُدِدْتَ وقيل القصائد ‏ ‏ والعشقُ بين المحبَّيْن حالا
خرجتُ الى حيِّها خاطبا ‏ ‏ ولم أدَّخِرْ دون مسعايَ مالا
بنيْتُ بهـــا فتهيَّبتُها ‏ ‏ وأيُّ امرئٍ هاب قبلي الحلالا
فشعرُك يا قيسُ أصلُ البلاء ‏ ‏ لقيتُ به وبليلى الضلالا
كساها جمــالا فملَّقتُها ‏ ‏ فلما التقينا كساها جلالا
إذا جئتُها لأنالَ الحقوقَ ‏ ‏ نَهتني قداستُها أن أُنالا

أمثلِكَ أبا المهدي !

« يستحيل كلامه الى همس ، إذ تبدو ليلى على باب الخباء »

أُنظرْ هذه ‏ ‏ ليلى علينا طلعتْ من الخبا

« ثم ينادي بصوت متهدج »

ليلى تعالَيْ أسرعي ، قيسٌ أتى ‏ ‏ ليلى هُناكِ ، مَنْ تُحبِّين هنا

« قيس »

أمازحٌ يا وردُ قل لى أنت أم تَسخَرُ منى أم نَرَى تَهزَا بنا ؟

« ورد »

بل قلتُ جِدًّا لم أقلْ مُهازلا

« قيس ــ هاما بالذهاب اليها »

إذن فدعْها لاتُجشّمْها الخُطـا

« ورد ــ وليلى تقترب »

إسمعْ أبا المهدىّ همسَ خطوها كأنه وَطْءُ الغزال فى الحصا

دعوتُ فاهتمّتْ ولو لم أدْعُها لوَجَدتْ ريحَكَ من أقصى مدى

قيسُ تثبّتْ واستَعِدَّ ، هى ذى أتتْ ، فلا يذهبْ بلُبِّك اللقا

الآن أمضى لسبيلى

« قيس »

بل أقِمْ إلبثْ أعِنِّ ، إننى خُرتْ قُوَى

« ورد »

قيسُ أرى الموْقف لا يجمعُنا أنت حبيبُ القلب، والزوجُ أنا

يا لـكما منى ويالى منـكما ! نحن الثلاثةُ ارتطمنـا بالقضا

« ينصرف وتقبل ليلى على قيس »

« قيس »

ليلاى ، ليلى القلب

« ليلى »

قيس مالى دارتْ بى الأرضُ وساءحالى ؟

« قيس »

فداكِ ليلى مهجتى ومالى ... من السَّقام ومن الهزالِ
تعالىْ اشكى لى النوى تعالِى ... أَلقِى ذراعيْكِ على خيالِ

« تصافحه بشوق »

« ليلى »

أحقٌّ حبيبَ القلب أنت بجانبى ... أحلمٌ سرى أم نحن منتبهان ؟
أبعد تراب المهد من أرض عامرٍ ... بأرض ثقيفٍ نحن مغتربان ؟

« قيس »

حنانيْك ليلى ، ما لخلٍّ وخلّةٍ ... من الأرض إلا حيث يجتمعان
فكلُّ بلاد قرَّبتْ منك منزلى ... وكلُّ مكانٍ أنت فيه مكانى

« ليلى »

فمالى أرى خدَّيك بالدمع بُلَّلا ... أمِنْ فرَحٍ عيناكَ تبتدران

« قيس »

فداؤكِ ليلى الروحُ من شرِّ حادثٍ ... رماكِ بهذا السُّقْم والذَّوبان

« ليلى »

ترانى إذن مهزولةً قيس ؟ حبّذا ... هُزالى ومَن كان الهُزالَ كسانى

« قيس »

هو الفكرُ ليلى، فيمن الفكر ؟

« ليلى »

فى الذى تجنَّى

« قيس »

كفانى ما لقيتُ كفانى

« ليلى »

أأدركتَ أن السهمَ ياقيسُ واحدٌ وأنَّا كلَيْنا للهوى هدفان ؟

كلانا قيسُ مَذبوحٌ قتيلُ الأبِ والأمِّ
طعينان بسكِّينٍ من العادة والوهم
لقد زُوِّجتُ ممَّن لم يكن ذوْقى ولا طَعْمى
ومن يكبُرُ عن سنّى ومن يصغُرُ عن علمى
غريبٌ لا من الحىِّ ولا من وَلَد العمِّ
ولا ثروتُه تربِى على مال أبى الجَمّ
فنحن اليومَ فى بيت على ضِدَّيْن مُنضَمّ
هو السجنُ وقد لا ينطوى السجنُ على ظلم
هو القبرْ حوى مَيْتين جارَيْن على الرّغم
شتيتيْن وإن لم يَبْعُدِ العَظْمُ من العَظم
فان القربَ بالرُّوحِ وليس القربُ بالجسم

« قيس »

تعاليْ نعِشْ ياليلَ في ظل قفْرةٍ من البيد لم تُنقَل بها قدمان
تعاليْ الى وادٍ خليٍّ وجدْولٍ ورنّةِ عُصفورٍ وأيْكةِ بان
تعالى الى ذكرى الصّبا وجنونه وأحلام عيشٍ منْ دَدٍ وأمان
فكم قُبلة ياليلَ في ميْعة الصِّبا وقبلَ الهوى ليست بذات معان
أخذْنا وأعطيْنا إذ البَهْمُ ترتعى وإذ نحن خلف البَهْم مستتران
ولم نكُ ندرى يومَ ذلك ماالهوى ولا ما يعودُ القلبَ من خفقان
مُنَى النفس ليلى قرّبي فاكِ من فمي كما لفّ مِنقاريْهما غَردان
نذُقْ قُبلة لا يعرف البؤسَ بعدها ولا السُّقمَ رُوحانا ولا الجسدان
فكلُّ نعيم في الحيـاة وغبطة على شفتينا حين تلتقيـان
ويخفقُ صدرانا خفوقا كأنما مع القلب قلبٌ في الجوانح ثان

« تنفر ليلى »

« ليلى »

وكيف ؟

« قيس »

ولِمْ لا ؟

« ليلى »

لستَ ياقيسُ فاعلاً ولا لي بمـا تدعو إليـه يدان

« قيس »

أتعصِينني يا ليلَ ؟

« ليلى »

لم أعصِ آمري ولـكنّ صوتاً في الضمير نهاني

وورد يا قيس ؟ وردٌ ما حفَلتَ به
لقد ذَهلتَ فلم تجـــعلْ له شانا

« قيس : غاضبا »

تعنين زوجكِ ياليلى

« ليلى : منكسة رأسها »

نعم

« قيس »

ومتى أحببْتِ وردا ؟ تُرَى أحببتهِ الآنا !

« ليلى »

فيمَ انفجارُكَ ؟

« قيس »

من كيدٍ فُجئْتُ به

« ليلى »

إنى أراك أبا المهـدى غيْرانا

وردٌ هو الزوجُ ، فاعلمْ قيسُ أن له
حقاً علىّ أؤدّيه وسـلطانا

« قيس »

إذن تحابيتما ؟

« ليلى »

بل أنت تظلمنى فما أحبَّ سواكَ القلبُ إنسانا

ولستُ بارحةً من داره أبدا
حتى يُسرِّحنى فضــــلا و إحسانا
نحن الحرائرَ إن مال الزمانُ بنا
لم نشـــكُ الا إلى الرحمن بلوانا

« قيس »

بل تذهبين معى !

« ليلى »

لا ، لا أخونُ له عهداً ، فما حادعن عهدى ولا خانا
فتًى كنبْع الصفا لم يختلفْ خلقًا
ولا تلوّنَ كالفتيـــان ألوانا

« قيس : متهكماً »

أراكِ فى حبِّ وردٍ جِدَّ صادقةٍ
وكان حبُّكِ لى زوراً و بهتـــانا

« ليلى »

قبس !

« قيس : صارخاً »

اتركينى بلادُ الله واسعةٌ ! غداً أبدّلُ أحبابا وأوطانا

« يحاول أن يتركها فتمسك به ليلى »

« ليلى »

العقلَ ياقيس !

« قيس »

لا خَلِّى الرداءَ دعى

« ثم يفلت منها ويندفع الى سبيله »
« تاركا اياها باكية فى هيئة استعطاف »
« ليلى »

وارحمتاه لقيسٍ عاد ما كانا!

واهاً لقيسٍ وآهِ ما صنعا ؟ آ كثّرَ قيسٌ بلواى والوجعا .

« تدخل عفراء »

عفراء عندى

« عفراء »

لبّيْك سيدتى الصبرَ واستدفعى به الجزعا .

« ليلى »

لقد سمعتِ الحديث كيف إذن

صبرى على ما جرى وما وقعا؟

قلتُ لقيس مقالَ مشفقةٍ لم يُلقِ بالاً له ولا سمعا

وقيسُ ذو جِنَّةٍ وإن زعموا جنونَه مدَّعًى ومصطنعا

تحير الناسُ فى جنون فتىً لا عقلَ الا بشعره ولعا

واللهِ لو جاء فى محاسنةٍ يسألُ وردَ الطلاقَ مامنعا

فوردُ يا عفرَ لا كِفاءَ له   مروءةً في الرجال أو ورعا

آه من من السُّقم

« عفراء »

ألفَ عافيةٍ

« ليلى »

آه من الحادثات

« عفراء »

ألفَ لعَا

« ليلى »

أنا عُذريةُ الهوى أحملُ العبْءِ   وإن ناءَ بالصبابة جهدي
المحبّات ما بكيْن كدمعي   في الليالي ولا أرقن كسُهدي
ويح قيسٍ وويحَ لي أي ثارٍ   للمقادير عند قيسٍ وعندي
أتعب الحيَّ داء قيسٍ ودائي   وتعايى الدواء كُهّانَ نجد
لا الحواميمُ تصرِفُ الجنّ عنا   حين تُتلى ولا رُقى السحر تُجدي
أبقيسٍ وبي هوى عبقريٌّ   يَسلُبُ العقلَ من ذويه ويُردي
علّةُ البيد من قديمٍ وداء   ضاعَ فيه الرُّقى وحار المُفَدّى
ما سلاحاه حين يقتلُ إلا   من عفافٍ ومن وفاءٍ بعهد
لم تعَذّبْ بالحب عذراءُ قبلي   كعذابي ولن تُعذّبَ بعدي

« عفراء »

هي عذراء ؟ ربيَ اشهدْ !

« ليلى »

أجلْ عذراءُ حتى يضمّني رُكنُ لحدي

« عفراء »

والذي أنتِ تحتَه ؟

« ليلى »

تحت بعلٍ غيرِ ذي جَفوةٍ ولا مستبدِّ

راعني اللومُ من جميع النواحي فتواريْتُ في مُروءةِ « ورد »

« يقبل ورد وقد سمع آخر ما كانت تقول »

ربِّ ماذا سمعت ؟ ليلى شكورٌ لك نفسي الفِداءُ يابنتَ «مهدي»

« ليلى »

ورد

« ورد »

ليلى

« ليلى »

رُحماكَ وردُ وعفوا

كنتُ أخفي الجوى فأصبحتُ أُبدي

« ورد »

ما بليلى ؟ ماذا أثاركِ ليلى ؟ هدِّني روْعَكِ المُفزَّعَ هدِّي

« ليلى »

الداء يا وردُ فيّ مجتهـد ملتهمٌ هيكلي وما شبعا
أصبحتُ لا أشتهي الطعامَ ولا
يَحمَدُ جنبي الىّ مضطجَعـــا
قلبي من اليأس حين حلّ به أُحسّ يا وردُ أنه انصدعا
لم يحملِ اليأسَ ساعةً ولقد كان بما حمَّلوه مضطلِعا
المتمني بالعيش منتفِــعٌ ولن ترى يائساً به انتفعا
القدرُ اليومَ والقضـــاء على
حربكَ قيس وحربيَ اجتمعـا

ســـتـــار

الفصل الخامس

«مقابر على سفح جبل التوباد فى طريق عام على مقربة من حى بنى عامر يبدو»
« من بينها قبر جديد مازال أشخاص من الحى يهيلون عليه التراب ويضعون »
« الأحجار، ومن حوله كثير من رجال الحى وفتيانه وصغاره يرى بينهم المهدى »
« وورد وكلهم باك أو حزين — يبدأ المشيعون فى الانصراف وهم يعزون المهدى »
« ويصافحونه واحداً بعد واحد ويمرون على ورد مرورا »

« معز »

إنا لله أبا ليلى

« آخر »

صبرٌ أبا ليلى جميل

« فى أثناء انصرافهم يمر رجل فى الطريق »
« فيسأل صبياً من صبيان الحى فى ناحية »

«المار»

قبرُ مَنْ يا صبى ؟

« الصبى »

قبرُها يا أبى

« المار »

إمرأةٌ ؟

« الصبي »

نعم

« المار »

ومَن تكونُ ؟

« الصبي مشيرا الى المهدى »

بنتُ ذا الرجلْ

لُيلى ابنةُ المهدِى ألستَ من نجدِ ؟

« صبي آخر »

أجلْ قد دُفنتْ ليلى وما جفّ لها لْحَدُ

وذا الشيخ أبو ليلى وذا صاحبُها وردُ

هنا الوالدُ والزوجُ

« المار »

وقيسٌ !

« الصبي »

لم يجيءْ بعدُ

« يقترب الرجل من المهدى فيعزيه »

« المسار »

مَهْـدىٌّ أجملْ جزعا

« معز »

يا أبا ليلى جمالكْ

« آخر »

عزاء أبا ليـــــلى

« آخر »

عزاءً أبا ليـلى

« آخر »

صبرٌ أبا ليلى جميل

« صديق من أصدقاء ورد هامسا إليه »

لقد أحسنتَ ياوردُ　　وما للناس إحسان
يُعزُّون أبا ليـلى　　وما عزّاك إنسان
بل انظُرْ ترَهم أقسى　　عليك اليوم ما كانوا
على الأوجُه بغضاء　　وفى الأعيُن عُدوان

« ورد »

مهلاً أخى وانظُرْ إلى النـــــاس بعين مُنصفِ
هم يأخذون مابدا　　ويتركون ماخفِى

ظنُّ الجماعات فىَّ سوءٌ ورأيُهم فىَّ ما أصابا
يرَوْن أنى عدُوُّ قيسٍ أخذتُ ليلى منه اغتصابا
وزدتُ نفسيْهما شقاءً وزدتُ قلبيْهما عذابا
ليسألِ الناسُ قبرَ ليلى فإن فى قبرها الجوابا

« يلتفت الى المهدى بعد أن يعزيه آخر معز »

تجمَّلْ أبا ليلى

« المهدى ــ مصالحا إياه »

تجمَّلت طاقتى ولستُ بخوّارٍ قليلِ التجلُّدِ
حَمَلْتُ فُضولَ الناسِ ياوردُ حِقْبةً إذا قمتُ من بأْغٍ عثَرتُ بمعتدِ
يَعيثُون فى عرضى فمن كل معولٍ ومن كل مِقراضٍ ومن كل مبرد
وهذا يحيِّينى ويقطعُ فَرْوتى وهذا يُفَدِّينى ويهدمُ سؤددى
ويا وردُ لو لم تُرْخ ستراً على ابنتى لظلَّتْ بعِرضٍ فى البوادى مُبدَّد

حَفِظتَ ابنتى حفظ الشقيق ومُرِّضتْ
ببيتك تمريض الصغير المُمهَّد
وصيّرتَ ليلى فى حماكَ وخدرِها كعذراءِ ديرٍ أو كدُمْيةِ معبَد
لقد صنتَها ياوردُ فاذهبْ فما أنا بناسٍ لك المعروفَ أو جاحدِ اليد
وليلى فتاةٌ حُرةٌ بنتُ حرّةٍ أحبّتْ غلامًا سيّدا وابنَ سيّد

وأعلمُ أنى كنتُ حربَ هواهُما وكنتُ معالواشى وعَوْنَ المفنّد

« يلتفت الى القبر باكيا »

بظل الله ياليلى

« ورد »

وفى بحبوحة الخُلْدِ

وهذا نَجدُ ياليلى فنامى فى ثرى نجدِ

« يدخل دائرة المسرح من جانب الطريق الآخر »
« الغريض المغنى والشاعر ابن سعيد وأمية وسعد »

« الغريض »

دنا الحىُّ يابن سَعيدٍ وثمَّ

« ابن سعيد »

وما ثَمَّ ؟

« الغريض »

أُنظر يُجبْك النظرْ

« ابن سعيد »

قبورٌ ؟

« الغريض »

أجل عارضَتْنا القبور وعما قليل نُجيزُ الحُفَرْ

« ابن سعيد »

وهل نحن إلا على حُفْرَةٍ هى الأرضُ أوهى قبر البشر

مُحجّبةٌ بغرور الحيـاة يراها إذا غرغر المحتضَر
غريضُ : بصُرت بقـبرٍ جـديد

« الغريض »

وماذا سـوى الموت فى ذا العَفَرْ ؟

« ابن سعيد »

أخٌ كان يملأُ أمسِ الهواء ويحيا الحياةَ ويجرِى العُمُرْ
نزيلٌ لعمرى غريبُ الغِطـــاء

غريبُ الوِطـاء غريبُ الحُجَرْ

لدى منزلٍ كبيوتِ الكِراء مرارا خلا ومراراً عَمَرْ
يُزارُ كثيراً فدون الكثير فغِبّاً فيُنسى كأن لم يزَرْ
وليس بنافعه الواصلون وليس بضائره من هجَرَ
فياميتَ أمسِ عدتْكَ الرياحُ

وحيَّاكَ فى الفترَاتِ المطر

وأمسِ كعادٍ وإن كان منك

مُطيفَ الخيال قريبَ الصُّوَر

لقد نفض الليلُ منكَ اليـدينِ

وأدرك فيـــك النهارُ الوَطَر

وأمسيتَ تحت لواء التراب

قهرتَ القضاء ودِنتَ القـدر

تلفتْ وراءكَ أين الغرورُ　　وأين السرورُ وأين الأشَرَ
وأين مَعالِمُ عُرْسِ الحياة　　وأين سنا ليله المزدَهِر
وأين شبابٌ كحُلْمِ العروسِ
ضَحوكُ العشيّاتِ طَلْقُ البُكَر
وأين العداواتُ من سافرٍ　　مُبينٍ ومن كاشحٍ مُستتر
وأين المودّاتُ من صُحبةٍ　　كنحلٍ يَحُمْنَ وأنت الزَّهَر
قليلون عندامتناعِ القِطافِ　　كثيرون عند رجاء الثمر
وكم مَن سَقيتَ بشَهْدِ الوداد　　فلم يَجْزِ الا بصابِ الابِر
فذُقْ سِنةً لا كَكلِّ السِّناتِ
ونَمْ ليلةً ما لها من سَحَر
وقُل للصديقِ طوَيْنا الحديثَ
وقلْ للعدوِّ دَفنّا الخبر
وهيّىءْ مكانيهما فى الترابِ　　فإن ركابهما مُنتظَر

« سعد »

أميةُ ماذا ترى فى الغريض؟

« أمية »

وماذا أرى فى أميرِ الطربْ؟

« سعد »

لقد علِم الناسُ أن الغريضَ
مُغنّى الحِجازِ وشادى العربْ
ولكن...

« أمية »

وماذا وراء « ولكن ؟ » فمن شأنها أن تُثيرَ الرِّيَب

« سعد »

أميَّ اخفِضِ الصوتَ لا يسمعَنَّ

فيغضبَ فهو قريبُ الغضب

وأُذْنُ المغنى تُحسُّ النسيمَ

وتسمعُ فى الكأسِ رقصَ الحبَب

أميةُ إنى أخافُ الغَريضَ وإن التَّطَيُّرَ بى قد ذهب

« أمية »

وأين ترى الشؤمَ حولَ الغريض

وكيف ؟

« سعد »

رُويدكَ تَدرِ السبب

أليس الغريضُ يَهيجُ البكاء

فلو رام دمعَ العروسِ انسكب

ترعرع فى بيئةِ النائحاتِ وعلّمنه النَّدبَ حتى ندَبْ

ينوحُ بيثربَ آلَ الرسولِ

ويُذكِى مآتمَ أهلِ الحسَبْ

« أمية »

وأين يدُ الشؤمِ مما ذكرتَ
وأيّ بلاء علينـــــــا جلَبْ
وما هو الا مُغنّي الحيـاةِ بناحيتيها الأسى والطرب

« سعد »

ولـكننا قاصدو عامرٍ لنقضيَ حقًّا لقيسٍ وجب
ونسـألَ عن عاشقٍ فى الديارِ
طويلِ البـلاء ثقيل الوَصَبْ
ومن زار بالنـائحـات المريضَ
وأهلَ المريضِ أضاع الأدب

« يتهيأ القريض للغناء »

هو ذا هـــاج شجْوه هو ذا يُرسلُ النّغَمْ
هـاتفٌ من نُواحِهِ رنّ فى القـاعِ والأكَمْ
هو فى كلّ خـــاطرٍ وفؤادٍ صَـــدَى الألم

« أنشودة القريض »

واديَ الموتِ ســلامُ وســقَى القاعَ الغمامُ
السماء القُدْسُ محرابُكَ والأرضُ الحـــرامُ

أنتَ في الصَّمتِ مُبينٌ ومن الصَّمتِ كلامُ
لم يَمتْ أهلُك لكن غشِيَ الليلُ فناموا
غُيَّبٌ لم ندر ما صاروا ولا أين أقاموا

« يخرجون الى ناحية الحي من حيث يسمع آخر »
« الأنشودة ثم يدخل من الجانب الآخر على »
« أثر اختفائهم ، قيس وزياد »

« قيس »

جبلَ التَّوْباد حيّاك الحيا وسقى اللهُ صبانا ورعى
فيكَ ناغيْنا الهوى في مهده ورضَعْناه فكنتَ المُرضِعا
وحَدَوْنا الشمسَ في مَغرِبها وبكَرْنا فسبقنا المَطلَعا
وعلى سفحك عشنا زمنا ورعينا غنَمَ الأهل معا
هذه الرَّبوةُ كانت ملعبًا لشبابينا وكانت مرْتعا
كم بنيْنا من حصاها أربُعًا وانثنينا فمحونا الأربُعا
وخطَطْنا في نقا الرمل فلم تحفظِ الريحُ ولا الرملُ وعى
لم تزَلْ ليلى بعيني طفلةً لم تزِد عن أمسِ إلا إصبَعا
ما لأحجاركَ صمًّا كلما هاج بي الشوقُ أبتْ أن تسمعا
كلما جئتُكَ راجعتُ الصِّبا فأبتْ أيامُهُ أن ترجِعا
قد يهونُ العُمرُ إلا ساعةً وتهونُ الأرضُ إلا موْضِعا

« يظهر بشر قادما الى المقبرة من ناحية الحى »

« بشر »

عـــــزاءً قيسُ !

« قيس »

مَنْ ؟ بشرٌ ؟

« بشر »

أجلْ

« قيس »

فيمنْ تُعزِّينى ؟

أنا الميّتُ يا بشرُ وإن أخّرَ تكفينى

« يضطرب بشر وقد أدرك جهل قيس »
« وحرج الموقف ثم يميل هامسا الى زياد »

« بشر »

يجهَلُ قيسٌ موتَها ولم أخَلْ أن يجهلَهْ
ويْحَ له وويْحَ لى ! ماذا عسى أقولُ لهْ
إن الحبيبَ نعيُهُ الى المحب مُعضلهْ
إنى أخاف إن أنا خبّرْتُهُ أن أقتُلَه

« قيس »

بشرُ

« بشر »

لَبَّيك قيسُ

« قيس »

من أين يابشرُ ؟

« بشر »

من الحيّ

« قيس »

ماحوادثُ عامرٍ ؟

كيف أمي يابشر ؟

« بشر »

برّحها الشوق

« قيس »

وأهلي . .

« بشر »

حنينهم متكاثر

« قيس »

ولِداتي من فتيةٍ وعذارى ؟

« بشر »

كلُّهم شيِّقٌ لعهدك ذاكر

« قيس »

كيف بيْتٌ لنا بمدرَجةِ الريح

وناد على النجـوم وسامِرٍ ؟

والنخيلاتُ كيف خلفتَها بشر ؟

« بشر »

كما هن باسقـاتٌ نواضر

« قيس »

ومِهارى التى تركتُ صِغـاراً ؟

« بشر »

كبِرت قيسُ فهى جُردٌ ضوامر

« قيس »

عزّت البيدُ ، تُنبتُ السابق الفذّ

وتأتى بفـارس وبشـاعر !

« يضطرب بشر »

ويح بشرٍ ماذا به ؟

« بشر »

قيس !

« قيس »

بشرٌ !

أنت فى نفسكَ الخفيّةِ ثائر

تُشبهُ الحزنَ والبكى نبَرَاتُه

لك كانت كضاحكات المزاهر

« بشر — الى نفسه ثم الى قيس »

ربِّ ماذا أُجيب ؟ لاشىءَ ياقيس ..

« قيس »

بل الحزنُ فى مُحيّاك ظاهر

ولقد راعنى لك اليوم جِدٌّ

من خليعِ العِذار بالأمسِ سادِر

« تغرورق عينا بشر بالدموع »

ماجرى؟ ماالذى أثارك يابنَ العم؟

ماهذه الدموعُ البوادر ؟

« بشر »

قيس لا شىءَ

« قيس »

بل كتمتَ جليلاً

هذه وَجمةُ النَّعِىِّ المحاذر !

« بشر »

قيس . .

« قيس »

لا ، لا تَجِمْ ولا تُخفِ شيئا
أنا يابشرُ بالفجيعةِ شاعر
خُلِجتْ قبل نلتقي عينيَ اليسرى
وريعَ الفؤادُ روْعةَ طائر

« بشر »

أعفِني ! أعفِني ! بربك ما أنت
على ما أقولُه لك قادر !

« قيس »

أماتت ؟

« بشر »

أجل قضتْ أمسِ . .

« قيس — وهو يغمى عليه »

والبلاه !

« بشر »

لله — ما أشدَّ المقادر !

« يمضى بشر فى سبيله »

« زياد ــ مقتربا من قيس »

هو مغمىً عليه ربِّ أيصحو ؟ هل لهذا العذاب يارِبُّ آخر ؟

« يصحو قيس »

« زياد »

تباركتَ يارِبِّ قيسٌ أفاق ؟ صحتْ عينهُ وصحا المسمعُ !
رجعتَ لنا قيس

« قيس »

هيهاتَ هيهات !
من كان فى النَّزْع لا يرجعُ

لقد بقيتْ خفقةٌ فى السراج سيلفِظُهـا ثم لا يسْطع
زيادُ غـدًا يلتقى الموجَعون وموعِـدنا ذلك البلقع !

« يشير الى المقابر »

عرَفتُ القبورَ بعَرْف الرياح ودلَّ على نفسـه الموْضعُ
كَثكلى تَلَمّسُ قبرَ ابنهـا الى القبر من نفسها تُدْفع
هداها خيالُ ابنهـا فاهتدت وليلى الخيـالُ الذى أَتبَع
لنـا اللهُ يا قلب ! ليلاك لا تجيبُ وليـلاى لا تسمع !
فُجعنا بليلى ولم نكُ نَحسَبُ يا قلبُ أنا بهـا نُفجع

« يقترب الى القبر باكياً فيكب بوجهه على حجر من أحجاره »

أعينىَّ هـذا مكانُ البكاء وهـذا مسيلك يا أدمعُ !
هنا جسمُ ليلى هنـا رسمُها هنا رَمقى فى الثرى المودَع

هنا فمُ ليلى الزَّكِىُّ الضحو ... كُ يكادُ وراء البلى يلمَعُ
هنا سِحرُ جفنٍ عفّاه التراب ... وكان الرُّقَى فيه لا تنفع
هنا من شبابى كتابٌ طواه ... وليس بناشره البَلْقع
هنا الحادثاتُ ، هنا الأمل الحـلوُ يالهيلَ ، والألمُ المُمتع
طريدَ المقادير هل مَن يُجيرُ ... كَ منها سوى الموتِ أو يمنع ؟
تَذلُّ الحياةُ لسلطانها ... وللموت سلطانُها يخضعُ
طَريدَ الحياةِ ألا تستقِرُّ ... ألا تستريحُ ، ألا تهجَعَ ؟
بَلى قد بلغتَ الى مفزَعٍ ... وهذا الترابُ هو المَفزَعَ

« يظهر الأموى شيطانه من بعيد ويناديه »

« الأموى »

قيسُ

« قيس »

مَن الهاتِفُ من ... نادَى الشريدَ المُطرَّحْ

« الأموى »

أنا الذى أوْحى اليكَ ... حُبَّ ليلى واقترَحْ

« قيس »

إذهبْ وإن لم أدْرِ رُوحٌ أنت أم أنت شبَحْ
إذهبْ فلستَ صالحاً ... وأىُّ شيطانٍ صلَحْ
كنتَ قرينَ السوء لى ... وكنتَ شرَّ من نَصَحْ

لولاك ما بُحتُ بما خدّش ليلي وجَرَح
كأنه في عِرضها زيتٌ على الثوب سَرَح

« الأموي »

أفقْ قيسُ

« قيس »

سِرْ خَلّني يا خيال ومَنْ بالخيال لمن لم يَنَمْ

« الأموي »

حنانيْكَ قيسُ أقِلَّ العتابَ ولا تَسكبنَّ دموعَ الندمْ
تفرّدْتَ بالألم العبقريّ وأنبغُ ما في الحياة الألم
مُريبُك يا قيسُ فوق التراب وأنت مع النَّجم فوق التُّهَم
أخذتَ سبيلَك نحو الخلود وليس الخلودُ سبيلَ الأُمَم
قُم اهتِف بليلى وشَبِّبْ بها وخَلِّ التقاليدَ وانسَ الحُرَم
وطِرْ في الهواء طليقَ الجناح وسِرْ في الأديم طليقَ القدم
فلو أنصفَ الناسُ خَلَّوْا كما كتَرْكِ الوفود حَمامَ الحَرَمْ
قُم ابسُطْ جناحَك فوقَ القِفار وطِرْ في الوهاد ، وقَعْ في الأكَم
وأترِعْ من الوتر العبقريّ سَماءَ القصور وأرضَ الخِيَم
وألِّفْ على الحب شتىّ القلوب وأرسِلْ سرَّ الجمال النغم
تَغَنَّ بليلى وبُحْ بالغرام وبُثَّ الصبابةَ واشكُ السقَم
فلا خيرَ في الحب حتى يَذيعَ ولا خيرَ في الزهر حتى ينِمْ

« قيس »

أقوم ؟ .... هات قدَما

أقول ؟ .... أعطنى فما

أما ترانى هيكلاً محطَّماً مُهدَّما !

« يختفى الشيطان ويستمر قيس »

يارَبَّ قيس هل نعيتُ وهل جرتْ كأسٌ تدورُ على النفوس مَشاعُ

أوْ لا فما بالى أنوء بهيكل للموت فيه والحياة صِراع ؟

اليومَ آذننا القضاء بحكمه ما لى ولا لك يا حياةُ دفاع

راجعت فى الموت الحياةَ وعادنى فى النزْع يا ليلى اليك نِزاع

كيف الوَداعُ من الحياة ولم يُتَحْ لىَ منك يا ليلى الغداةَ وَداع

هيهات لم تعدِمْ شذاكِ قرارة حولى ولم يَعدِمْ سناكِ يَفاع

وعلى سماء البيد منكِ بشاشةٌ وعلى رمال البيد منكِ شُعاع

وكأن كل ضبابةٍ دونَ الضحى قسَماتُ وجهك دونهن قناع

« يمر به ظبي سارح فيتأمله قليلا ويناجيه »

يا ظبى بَكِّ من افتداكَ بمالِه

إذ أنت عانٍ تُشترَى وتُباع

وأباح طفلكَ ماءَه وطعامَه إذ هنَّ عَطْشَى بالفلاة جياع

يا قاعُ كن نعشى وكن كفَنى وكن

قبرى وقُمْ فى مأتمى يا قاع

واجمعْ لتشييعى الظِّباءَ ، ومَنْ رأى
مَيْتاً بأسراب الظباء يُشـــاع

أتُرى أموتُ كما حييت مُشرَّداً
لا الأهلُ من حولى ولا الأتباعُ

وأبيتُ وحدى لا الوحوشُ أوانسٌ
حولى هناك ولا الظباء رِتاع؟

« تتخاذل سيقان قيس فيتلقاه زياد ويظهر »
« ابن ذريح على مقربة من القبر خاشعا باكياً »

« زياد »

قيسُ لا بأسَ عليكْ أنا ذا بين يديْكْ

« قيس »

نفسُ اطمئنى الآن لستُ وحـدى
قد حضَر الذى يَخُطُّ لحـــدى
ويُرشِدُ الحىَّ الىّ بَعدى زيادُ أنتَ المُشفِقُ المُفَدّى
لم أنفرِدْ إلا رُئيتَ عندى

« يتبين شبح ابن ذريح »

زيادُ ما ذاكَ منـــذا يبـــكى وراءَ الضريحِ
إنى أغارُ على القـــبر من غريبٍ الجُروحِ

« زياد »

لا تخشَ يا قيسُ منه فإنه ابنُ ذَرِيحِ

« ابن ذريح »

يا ليلَ قبرُك ربوةُ الخُلْدِ نفَحَ النعيمُ بها ثرى نجدِ
فى كل ناحيةٍ أرى ملَكا يتنفسون تنفُّسَ الورد
لبِسوا الجُمانَ الرَّطْبَ أجنحةً
وتناثروا كتناثُرِ العِقد
وتقابلوا فعلى تحيّتهم مِسْكُ السلام وعَنبرُ الرد
وكأن نجواهم وسُبحتَهم
صَوْبُ الغمامة أو صَدَى الرعد

نفحاتُ طيبٍ ههنا وهنا ما للرياض بهن من عهد
يا قيسُ صبرا ههنا ملَكٌ ذِبْحُ الصبابة مُشْهَدُ الوجد
أصحُ انتبِهْ واطرَحْ بعينك فى بَهَجِ السماءِ وحُسْنِ ما تبدى

« قيس »

أين السماء وأين مُحْتَضَرٌ طلَعتْ عليه الأرضُ باللَّحْد
السهدُ عذّبنى وذى سنةٌ أجِدُ الشفاءَ بها من السُّهد
ولقد أقولُ لمن يُبَشِّرُنى بالخُلد ما أنا داخلٌ وحدى
لو أن ليلى فى النعيم معى أو في الجحيم تساويا عندى

ليلى النعيمُ وقـد ظفِرت بها فاليوم نرقُدُ فى ثرى نجـــد
إنى أحبُّ وإن شقِيتُ به وطنى وأوثِرهُ عـلى الخُلد

« يسمع صوتا ضئيلا كأنما هو خارج من القبر »

« الصوت »

قيس

« قيس »

مَن الصوتُ ويحى أبى سِحرُ

« الصوت »

قيس

« قيس »

زيادُ اسمعْ وأصغِ يابِشرُ

« الصوت »

قيس

« قيس »

سمعتُ اسمى يلفظُه القبرُ

« الصوت »

قيس

« قيس »

تناديني من قبرها باسمى
لبّيْكِ ياليـلى بالروح والجسم

« يدخل فى دور الاحتضار الأخير »

هل أسا الموتُ جِراحينا وهل قرّب الدارَ وهل لمّ الشتاتْ ؟

« أصوات »

قيس ، ليلى

« قيس »

رنَّةٌ في أُذُني ردّدتْ قيسَ وليلى الفلَواتْ
نحن في الدنيا وإن لم ترنا لم تمُتْ ليلى ولا المجنونُ ماتْ

ستار الختام

أميرة الأندلس

تمهيد

زمن الرواية : عصر ملوك الطوائف .

مكان الرواية : أشبيلية ، أغمات .

أشخاص الرواية :

المعتمد بن عباد ، ملك أشبيلية .

الرميكية ، الملكة .

العبادية ، أم المعتمد .

بثينة ، بنته .

القاضي ابن أدهم ، قاضي القضاة .

الأمير حريز ، من أبطال الأندلس .

الأمير بولس ، شقيق ملك الأسبان .

أبو الحسن ، تاجر بأشبيلية .

حسون ، ابنه .

ابن حيون ، من الأدباء .

أبو القاسم ، من الأدباء .

مقلاص ، مضحك الملك .

لؤلؤ
جوهر ، من حجاب الملك .

ابن شاليب ، رسول ملك الأسبان .

الباز بن الأشهب ، لص شهير .

أمراء

جند

مقـــدمة

جرت حوادثُ هذه القصــة فى زمنٍ كان قطعة من ليل الملمات . أخذت الأندلسَ فى جنحها الحالك ثم تركته نظمًا منحلا وركنا مضمحلا ، وشمسا من دول الإسـلام سقُمت فألح عليها السقْم فاحتضرت ، فكانت لهـا فى الغـرب هـدّة وكانت عليها فى الشرق ضجة . وخلال تلك القطعة من ليل الملمات كان الأندلُس تحت ملوك الطوائف ، وكان هؤلاء الملوكُ على شرفِ بيوتِهم وتمـيز شخصياتهم ونبوغهم فى كل علمٍ وأدب أصحابَ بذخٍ وترف وأخدانَ صبْوة وخلاعةٍ ، لاحظَّ لهم من همة الملك ولا نصيب من مراشـد السلطان . وإنك لتعجب من انغماسهـم فى اللذات ونسيانهم لذكـرِ العواقب ، وهم أتعبُ خلقِ الله وأكثرُ الملوك ركوبًا للغرَر ، واستهدافا للخطر ، ومشيا على الحبائل والحفر ؛ فأما فى داخل دويلاتهـم فكيد وائتمـار ، وفتنة نومها غِرار ، وسيفها فى الغِمد قليـل القرار ، حتى لا تكاد الشمس تطلع إلا على ملِكٍ

مخلوع ولا تغـرب إلا على ملكٍ مقتول ؛ وأما فى الخارج فكنتَ ترى هؤلاء الملوكَ بين نارين تتواعدان ، و بين سـيلين يتهدران : فملك الأسبان الفونس يتجنّى و يعتدى ، و يضرب الجزية و يفرض الإتاوات ، ويبعث لأخذ الأموال جباةً أهلَ غلْظة وقِحة ؛ وصاحبُ مُرّاكش يوسـفُ بن تاشفين هو وقوّاده و وزراؤه مشـغوفون بالأندلس يمطرونه الرسـل والرسائل إلى قضاته وفقهائه ، مهيئين بذلك لفتح بنوْا عليه الرجاء وعلقوا به الآمال . وكان ملوكُ الطوائف يخافون جارهم هـذا المسـلّحَ المتوثبَ سلطانَ المغـرب و يرجونه فكان تملقهم له لا ينقطع ، وكانت الأموال تحمل إليـه فى صورة المعونة ، وكانت الرِّشى تقـدّم لوزرائه ورؤساء دولتـه فى صورة الهدايا والألطاف ؛ وكل هذا المـال إنمـا كان يجمع من المكوس والمغارم ! فتخيّل كيف كان بؤس الرعيـة ، وتأمل كيف تذهب معالم البلاد بين عبثِ الفرد وغفلة الجماعة ... ولقد كان على قرطبة وهى حاضرة الملك أن تحمل شطر هـذا البلاء فلم تلبثْ أن انحطت عن ذلك المكان العالى الذى كانت فيه دار الخلافة ومطلع القصرين الدمشـق (١) والرصافة فصـارت كرسىّ إقليم وقاعدةَ دوَيْلة وعرش ملك صغير يؤدّى الجزية ولا يُحس لها ذلة ولا هوانا .

(١) قصور الخلفاء الأول من بنى أمية فى قرطبة .

الفصل الأول

المنظر الأول

« مقصورة من مقاصير البديع "قصر المعتمد بن عباد" فى اشبيلية »
« و إلى يمينها مصلى و فى مؤخرها ستار كبير يحجب . وقد وقف على »
« بابها جوهر حاجب بن عباد ولؤلؤ ساقيه ومقلاص مضحكه »

جوهر [إلى لؤلؤ] : كيفَ وجدتَ وجه الملك اليومَ يالؤلؤ ؟

لؤلؤ : كسنّته، يفيض من البَشاشةِ والبِشْر .

جوهر : بل أنت واهم يالؤلؤ ! إن وجه الملك تغير فى هذه الأيام و بدا عليه التغضن وأثّرت فيه الهمومُ أثرَها الظاهرَ المبين.

مقلاص : كان الله عونَ الملِك ، إنه ليحمل من هموم الملْك وأكدارِ السياسةِ ماتنوء به الجبال، لعن الله السياسة وقبّح الوِلاية ، ولا جعل لى من أشغالها نصيبا .

جوهر [يضرب بيده على حدبة مقلاص] : وأىّ نصيبٍ كنت تؤمِّل من أمور الدولة يا مقلاص حتى سألتَ الله أن يحرمك منه ؟

مقلاص [ملتفتا] : دعنى من هذيانك يا جوهر وانظر : هذه الأميرةُ

أقبلتْ كأنها البدرُ فى الليـلةِ الظلماء أو كأنها الظبىَ يتخطّر على الحصباء .

[تدخل الأميرة بثينة]

بثينـــة : يا بشراىَ ما هذا الحظُّ العظيم ، أصدقائى الثلاثةُ ههنا ، يجمعهـم باب الملك : جوهر حاجب الملك ، ولؤلؤ ساقى الملك ، ومقلاص .

مقلاص [مقاطعا] : مقلاص المهرجُ الساقِطُ والمضحِكُ الوضيع .

الأميرة [بثينة] : لا تقـلْ هـذا يا مقلاص ! ولكن قل نديمُ الملك ، وصديقُ ابنته بثينة .

مقلاص : أنا مقلاص المهرجُ صـديقُكِ أنتِ يا أميرة اشبيلية ، بل يا مليكة الأندلس ، بل يا شريكـة الشمس فى عرش الوجود ؟ !

الأمـيرة : أعرفتَ الآن مكانك ؟

مقلاص : عرفته يا سيدتى و إنى به لمزهوٌّ فخور .

الأمـيرة : إذاً فاعلم أيضـا أن هـذا الحاجب جوهر قد يأذن على الملكِ لرجالٍ يكره لقاءهم و يغُمّه رؤيتُهم وسماعُهم .

مقلاص : أمّا أنا يا سيدتى فما وقفتُ على باب الملكِ مرة إلا حجبتُ عنه الفِكْرَ والغمّ .

الأمـيرة : وهذا الساقى يا مقلاص .

مقلاص : هـذا السـاقى يا مولاتى يقبض كل يوم من دِماغ الملك

شعاعا ، ولولا أنّ دِماغه الشريف كالشمس التى لا تنفَد أشِعّتها لكان اليوم جُمْجُمَةً لا عقل فيها كأكثرِ هذه الرءوس التى نراها فى الطرقات .

الأمــيرة : وأما أنتَ يا مقلاص فتسـقِى الملك كلَّ ساعةٍ من رحيقِ مَزْحِك ودُعابتِك ما يملؤه غِبْطة وعافية وسرورا .

جوهر [مقاطعا — متدخلا] : لقد استأثرتَ يا نديم الملِكِ و يا صديقَ الأميرةِ .

مقلاص [مغضبا] : بالرغم من أنفِك !

جــوهر : لقــد آســتأثرتَ يا مقلاص بحــديثِ الأميرةِ فتنحّ ساعةً واترك لنا فَضْلة من الشهد .

جوهر [للأميرة] : مولاتى ، ســيدتى ، بثينة أيةَ وحشــةٍ خلَّفْتِ فى القصرِ يا مولاتى .

الأمــيرة : أو أبدًا تبالغ ؟

جــوهر : كلا يا مولاتى ! هى كلمةٌ طافتْ بالقصرِ منــذ افتقدناكِ هذا الدهرَ الطويل

الأمــيرة : أتعُــدُّ الثلاثةَ الأيام دهرًا يا جوهر ؟ ألم أقل لك إنك تبالغ كثيرا ، لِمَ لَمْ تسألنى يا جوهر أين كنت؟

جــوهر : أعلم أنكِ كنتِ فى قرطبةَ يا مولاتى .

الأميرة [وتبتسم ابتسامة سخر] : أجل كنتُ فى مُلكنا الجديد يا جوهر .

جـوهر : وكيف وجدته ؟

الأمـيرة : العنوانُ قبّة ، والكِتاب حَبّة .

جـوهر : أرجو ألا يكون غرامُ الأميرةِ بأشبيلية وطنِها الغالى ومهدِها العزيزِ قد أنساها ذِكر الفضلِ لقرطبةَ دارةِ الملكِ الأولى ومهدِ الفتح والعمران و ...

الأمـيرة : أجل . وسماءِ الرعودِ والعواصفِ وَوَكْرِ الفِتنِ والقلاقلِ ... آهِ من قرطبة ونُجاءاتها يا جوهر ، وويل على أخى الظافر من هذه الولايةِ الحمراءِ التى لم يُقلّدها أميرٌ الا قتِل أو عزِل ... عرشٌ يضطرب تحت كلّ جالس ، وتاجٌ لا يستقِر على رأسِ كلِّ لابس .

مقلاص : مولاتى !

الأمـيرة : مقلاص . أشبيليةُ وأبى وأنت كانتْ ذكراكُم ملءَ خاطرى فى قرطبةَ ، هل من دُعابةٍ جديدةٍ يامقلاص تُنسينى ما لقيتُ من الغم والكدر على تلك العاصمةِ الثانيةِ لملكنا السعيد .

مقلاص : لا تقولى هـذا يامولاتِى فيَغضبَ القرطُبيون ؛ انهم لا يُقدِّمون على مدينتِهم حاضرةً من حواضِرِ الدنيا ولو كانت دمشقَ أو بغدادَ فكيف يرضون أن تكون الثانيةَ لأشبيلية وما مدينتنا فى زعمِهم الا بلدُ الخلاعةِ والمجون .

الأميرة [ضاحكة] : وأين قرطبةُ منا الآن ، وأين القرطبيون يامقلاص

و بيننا و بينهم سَفَرٌ شاقّ طويل؟ تُرى من علّمك كلَّ هذا الحرص ومن أين لك كل هذا الدهاء !

مقلاص : هى الأيامُ يا أميرتى . هى الأيام . وهذا السيفُ ماذا ... كنتِ تصنعين به يا مولاتى ؟

الأميرة : كنتُ أتقى بهِ عوادى الفُجاءات .

مقلاص : وهذا اللثام ؟

الأميرة : كنت أذود به عنى العيونَ والظنونَ فى بلدٍ ضيقِ الصدْرِ مُبَلّدِ العقلِ؛ شتان بينه و بين أشبيلية ذاتِ العقلِ الواسع والصدرِ الرحيب .

الأميرة [لجوهر] : لقد نسيتُ يا جوهر ذكر وَاجبٍ كان علىّ أن أُقدّمه قبلَ كل شىء .

جوهر : وما ذاك يا سيدتى ؟

الأميرة : السؤالُ عن الملِك .

جوهر : هو يا مولاتى بخير . أبدًا يسألُ عنكِ .

الأميرة : وأين هو الآن ؟

جوهر : هو فى الصلاةِ يا سيدتى .

الأميرة [تطرق فى تأثر ثم تقول] : يا ويحَ أبى لقد نظرت اليه وهو فى قصرِ السوسانِ الضيق الصغير بقرطبةَ فوجدتُه كئيبا متململا كأنَّ تلك السقوفَ المنخفِضَةَ لم تكن تليق برأسه العالِى وكأن

تلك الحجراتِ الضيقة لم تُصنع لعينه السامية الطمّاحة . وكأنما كان يَرى الزهراء أولى بأن تُقلّه ، وأجدر بأن تُظلّه . وهنالك دنوتُ حتى صرتُ خلفه بحيث أسمعه ولا يرانى . فسمعته يقول وكان وحده فى الحجرة مطلا من نافذةٍ يلقى نظرَه على قُرطبةَ .

جوهر [باهتمام] : وماذا كان يقول يا مولاتى ؟

الأميرة : كان يقول : قرطبة ... مُلْك جديد أُضيفَ الى ملكِ أشبيلية ؛ ما أصغر المضاف والمضاف اليه . أنظر ابنَ عباد الى العرشِ كيف صغر ، والى الصولجان كيف قَصُر ، والى المُلكِ كيف اختُصِر ، وتأمل مكان الحكم فى قرطبة كيف سُدّ اليوم بالمعتمد ، ومجلسَ الناصرِ كيف شُغل بابن عباد .

جوهر : نحن بانتظار القاضى ابنِ أدهم يا مولاتى .

مقلاص [متداخلا] : لعله هذه الكركبة التى تتدحرج من بعيد منحدرةً الينا .

الأميرة [مستضحكة لجوهر] : استقبل أنتَ يا جوهر القاضى وأدخِله على أبى فإن قضاة الأندلس لا يستأذن لهم على ملوكه .

الأميرة [ثم لمقلاص] : وأنت يا مقلاص . أعرفتَ أنى وجدتُه .

مقلاص : وما ذاك يا مولاتى ومن هو ؟

الاميرة : أنسيت يا مقلاص حين تقولُ لأبى بمَسمع منى إن الزوجَ الكفءَ لبثينة لم يُخلق بعد لا فى الأندلس ولا فى غيره .

مقلاص : لا لم أنس يا مولاتى . قلتُ هذا ولا أزال أعيدُه .

الأميرة : إذاً فاعلم أن الزوجَ الذى يَصلح لى قد خُلِق .

مقلاص : ومن ذاك ؟ ما ٱسمه وأين هو الآن ؟

الأميرة : كل هذا تعلمه بعد حينٍ يا مقلاص . تعالَ معى الآن، اتبعْني ودعْ جوهر ولؤلؤ يستقبلان القاضى الجليل ...

الأميرة [الى جوهر] : فى حفظ الله يا جوهر .

الأميرة [الى لؤلؤ] : فى حفظِه يا لؤلؤ .

جوهر ولؤلؤ معا : فى ذمة اللهِ وكلاءتِه يا مولاتى .

الأميرة : لا تَنسيا أن تذكرانى عند الملك وأنى رهنُ إشارتِه .

[تخرج الأميرة مع مقلاص] .

جوهر : أشكر الله أن أخّر مجىءَ القاضِى .

لؤلؤ : كذلك كنتُ أحدّث نفسى وأخشى على مولاتى فى زيها هذا من عين الشيخ ولسانه .

[يظهــر الملك]

الملك : هل جاء القاضى ابنُ أدهم يا جوهر ؟

جوهر : أجل يا مولاى رأيتُه فى ساحةِ القصر .

لؤلؤ : وقد عادت الأميرةُ من قرطبةَ يا مولاى .

الملك : أوعادت الآن ؟

لؤلؤ : أجل يا مولاى .

الملك : أهى بخير ؟

لـؤلـؤ : بأتم عافيةٍ يا مولاى .

الملك : إذا انتهى ابن أدهم من زيارتهِ فأتِ بها الىّ .

لـؤلـؤ : أمرُك يا مولاى .

[يخرج لؤلؤ] .

الملك : وعليك يا جوهر أن تَستقبِل ابنَ أدهم وتأتينى فى أوفرِ بشاشةٍ وتعظيم .

[يخرج جوهر ثم يرجع يتقدّم القاضى]
[ابن أدهم وينادى من باب الحجرة]

جوهر [مناديا من الباب] : القاضى ابنُ أدهم .

القاضى : السلام على الملك ورحمة اللهِ و بركاته .

الملك : وعليكم السلامُ أيها القاضى ومقدم الخير، فقد علمتُ أنك كنتَ نزيل المغربِ فى الأيامِ الأخيرةِ وكنتَ به ضيفا على أمير المسلمين يوسف بن تاشفين .

القاضى : هو ذاك يا مولاى .

الملك : فكيف الحوادثُ والأحوالُ هناك ؟

القاضى : عندى من ذلك الشيءُ الكثير وسأذكره فى مجلسٍ تالٍ يامر به الملك ولا أذكر الآن إلا رسالة حمّلنيها الأمير سِيرى بن أبى بكر .

الملك : وما هى أيها القاضى ؟

القاضى : أو يعرف الملكُ الأميرَ سيرى ؟

الملك : كيف لا أعرفه ! هو كافلُ الدولةِ المغربيةِ وكبيرُ وزراء السلطان وقائدُ جيوشهِ الأكبر . وما يبتغي مني الأميرُ أيها القاضي ؟

القاضي : إنه يخطب إليك الأميرةَ بثينة .

الملك : ألشخصه يخطبها أم لواحدٍ من أولاده فهم فيما أعلم كُثْرٌ وأصغرهم فيما أذكر يوافق ميلادُه ميلادَ بثينة .

القاضي : بل يخطبُها لنفسه أيها الملك .

الملك : إن هذا عجيبٌ أيها القاضي ... ... وما كان جوابُك ؟

القاضي : قلتُ له إن الملكَ ابنَ عباد يذهب ببنته بثينة كلَّ مذهبٍ ولا أظنّ قلبَه يطاوعه على تزويجها في الغُربةِ وإخراجها الى بلادٍ بعيدة .

الملك : أحسنتَ أيها القاضي . فما هذا زواج ... إنْ هذا إلا قبرٌ أخطُّه بيدي لبثينة . على أنني مُحضِر إليك بثينةَ لتحدّثها وتسمعَ منها .

الملك [الى جوهر] : جوهر . جئنا بالأميرة يا جوهر .

[يختفي جوهر لحظة ثم يعود بالأميرة]

الأميرة : أبي !

الملك : بنيّتي !

الأميرة : أطلبتَني يا أبي ؟

الملك : تعالَيْ بثينةُ حيّي عمكِ القاضي ابن أدهم .

الأميرة : السلام عليك يا مولانا القاضي ورحمة اللهِ وبركاته .

القاضى : وعليكِ السلام يا بنتَ أكرمِ الملوك . تعالىْ خذى مجلسكِ بين أبيكِ وعمك .

الملك : مع من عدتِ من قرطبة ؟

الأميرة : مع لِثامى وجوادى .

الملك : وكيف وجدتِ قرطبة ؟

الأميرة : وجدتُ طرقاتِها تموج بالفقهاءِ يعرفهم الناظر بزِيِّهم فذكرتُ عندئذٍ شُهرَة هذا البلدِ بالفتنةِ والتشغيبِ وجرأة أهلِه على أمرائِهم وحكامهم وأشفقتُ منه على أخى الظافر ، وإن كنتُ واثقةً بحزمِه وعزْمِه .

القاضى : ومن أنباكِ أيتها الأميرةُ أن الفِتْنة والشَّغَب يجيئانِ من ناحيةِ الفقهاء ؟

الأميرة : لم يبق سِرًّا يا سيدى القاضى أن الفقهاء يُعلّقون سَعادةَ الأندلس وخلاصَه بإلقائه فى أحضان جيرانِه سلاطين المغرب .

القاضى : وأنتِ يا بنتَ ملوكِ المسلمين ، أما تجدين ما يطلبُه الفقهاءُ فى قرطبةَ أجدى على الأندلسِ من بقائِه على الحالِ التى هو فيها مُشرِفا على التَّلَفِ والضياع ؟

الأميرة : لا يا سيدى القاضى ليس فى الحق أن يَغتصِبَ جماعة من المسلمين أوطانَ جماعةٍ غيرِهم من المسلمين فإن الوطنَ هو كالبيتِ فى قداسته وكالضيعةِ فى حرمتِها .

الملك [متدخلا فى الحديث] : لقد بعثتُ يابثينة فى طلبك لغير هذا الشأن وفى أمرٍ ذى بال وإنى أتركك للقاضى التحدّثَ معكِ فيه ،

الأميرة [ملتفتة الى القاضى] :

تكلمْ ياعمُّ فكلى إصغاء ؟

القاضى : لقد خطبكِ الى أبيك رجل من عظماء الإسلام فى هذا الوقت هو الأمير سيرِى بنِ أبى بكر وزيرُ الدولة المغربية .

الأميرة : أفارغ هو أم مشغول يا سيدى القاضى ؟

القاضى [فى حيرة] : بل له من الأزواج ثلاثٌ وستكونين الرابعةَ وستكونين المدلّلة الممّهدةَ من بين أزواجه .

الأميرة [فى غضب] : إنك يا سيدى القاضى تدعونى الى خُطةٍ لا أنا مضطرة فأحمل النفس الكارهة على قبولها ولا الأمير ابنُ أبى بكر معطل البيتِ من الربةِ الصالحةِ فيتشبثَ بها ويُصر عليها ، بل تلك خطة لم أجد أبوىَّ عليها ولم آلف رؤية مثلِها فى حياةِ أسرتى : فهذا أبى جعلنى الله فداءه لم يتخذ على أمى ضرّة ولم يكسر قلبها بالشريكةِ فى قلبه بخاءت بنا أولاد أعيان ، نجتمع فى جناح الأبوة ولا نفترق فى عاطفةِ الأمومة ، ولو شاء أبى لكان له كنظرائه الملوك والأمراءِ نساءٌ كثير ولكان له منهن بنو العلات تحسبهم إخوة وهم أنصاف إخوةٍ من كل دَجاجةٍ بيضة ومن كل شاةٍ حمل .

القاضى [متلطفا] : شهد الله لقد أحسنتِ يا ابنتى . ولكن مصلحةُ الملكِ أنسيتِها ونصرةُ الوالد أغفلتِ عنها . وسلامةُ الأندلس أأهملتِ شأنها ؟

الأميرة : لا يا سيدى القاضى كلُّ ذلك فى المحل الأولِ من نفسى واهتمامى ولكننا مختلفان فى النظر فأنت ترى أن الأندلس لا ينهض من كبوتِهِ إلا اذا مدّ السلطان اليه يده وأنا أتخيلها يدَ الذئبِ يمدّها الى الحمَلِ ، وأنتَ يا سيدى القاضى قد أخذك اليأس فى أمر الأندلس وأنا كلى رجاء ولا أستبعد أن تتهيأ لأبى ، وهو كهف الأندلس وملاذه ، الفرصةُ لجمْع الكلمةِ وضربِ الأفرنج ضربةً تُريح العربَ منهم السنين الطِوال وأنتَ تعلم أن تاريخ الأندلس مفعَم بالفجاءات السعيدةِ من هذا الطِراز .

القاضى : يُريد الله بكم اليسرَ ولا يُريد بكم العسرَ ، ولقد رددتُ عنكِ أيتها الأميرة وعن أبيكِ الملك وأحسب أنى أحسنتُ الردّ .

الملك : كل الإحسان أيها القاضى .

القاضى : الآن لم يبق إلا أن أنصرف .

الملك : مشيّعا بحفظِ الله ورعايته .

[ينصرف القاضى ويشيعه الملك]

الملك [للقاضى] : كيف تجدُ بثينة يا ابنَ أدهم ؟

القاضى : بورِك لك فيها وبورِك للأندلسِ فى عقيلته ! إنى أجدُها روحَ الوالدِ وأرى عليها طبعةَ الزمنِ وحضارةَ الجيل .

[يعود الملك ومعه مقلاص بعد أن يودع القاضى]

الملك : أعلمتَ يامقلاص؟ أسمعتَ أن سيرى ابن أبى بكر يخطبُ الىَّ بثينة ؟

مقلاص [ملتفتا الى بثينة بصوت خافت] : أهذا الذى وجدته ياسيدتى ؟ إنى لا أهنيك بتيْسِ المغرب .

الأميرة : لا يامقلاص إن الذى وجدتُهُ هو غزال الأندلس لا تيْس المغرب .

الملك : خبريني يابثينة ماذا وجدتِ فى قرطبة .

الأميرة : حال من القذارةِ تتنزه عن مثلهِ أشبيلية .

الملك : هذا من توالى الفتنة والاضطرابِ على الناسِ حتى شُغلوا عن تنظيفِ مدينتهم التى كانتِ المثالَ المحتذى بين المدن نظافة ونظاما ... ثم ماذا ؟

الأميرة : راعتنى قصورُها المهجورةُ الموحشةُ كأنها الأطلال .

الملك : هذا من انقراضِ الوارثين أو ضيقِ نعمتِهم عن سكنى الدورِ الواسعة وصِغرِ أقدارهم عن نزولِ المنازلِ الرفيعة .

[يظهر على بثينة التأثر والاغتمام] .

الملك : ماذا غمّك يا بثينةُ ؟

الأميرة : تذكرتُ يا أبى قصورَنا بجزعت ، قلتُ : الزاهى ترى

ما نصيبه، والتاجُ ما ذا غداً يصيبه، والبديعُ ما يكون مصيره، والمؤنس هل توحش مقاصيره ؟

الملك : بنيتي خلي عنك هذه المواجس، ولا تحملي على الشباب البؤس والهم فإنه لم يخلق لهما . اصرفي الشبابَ الى الضحك والغبطة فإنهما طبيعته وديدنه . ألا نعود لحديث قرطبة . خبريني كيف وجدت أسواقها ؟

الأميره : دون أسواقِ أشبيلية حركة ونشاطا إلا سوقَ الكتب فلا أحسب بغدادَ أقامت مثلها، دخلتُها ياأبي فلبثتُ فيها ساعة أتأمل ما يقع فى جوانبها وأشهد النداء على نفائس الكتب وذخائرِ المخطوطات، وهى فى أيدى الناسِ يقلّبونها فى اعتناءٍ وإشفاقٍ كأنها كرائم الحجارةِ فى أسواق الجوهر .

الملك : وهل كنتِ تهتمين بكتابٍ هناك ؟

الأميره : أجل ياأبى . نُودىَ على رسالة المنجم الضبّى، التى سماها : هل القمر مسكون ، وكنتُ سمعتُ بها وكنتُ أريد إحرازَها فسرنى الظفرُ بها، وكان بالقربِ منى فتى حسنُ الهيئةِ ظريفُ الثيابِ هو لا شك من بنى البيوتات، وكان ينازعني الرغبة فى الرسالةِ فلم يزل يزيد فيها وأنا أحرجه فأزيد حتى بلّغها الى خمسِ مائة دينار فقبضتُ يدى فرجع اليه المنادى فأخذَ المالَ وناوله الرسالة .

الملك : لا أظنّ حرص الشابّ على الرسالة إلا للباهاة، ولكى يقال عنده بخزانة كتب حوتْ كل ثمينٍ ونادرٍ حتى رسالةَ المنجم الضبيِّ فإن الشهرةَ فى قرطبة من قديم الزمان أن يتنافس الناس فى اتخاذِ الخزائنِ للكتب حتى الذين لا علم لهم بما فيها .

الأميرة : ظلمتَ ياأبى غريمى الشابّ فقد كنتُ ألحظ عليه الحرص على الرسالة والسعيَ لإحرازِها حتى ما بقى فى نفسى شك أن الفتى من أهلِ المعرفةِ والاطلاع .

الملك : وكيف هو يابثينة : ما شكله؟ ماصفته ؟

الأميرة : شاب يناهز الثلاثين ، جميل وقور يشبهك يا أبى أوكأنه أخى الظافر وما كان أعظمَ أدبَه ومروءتَه فانه حين غلبنى على الرسالة بادر فقال : أيها الفتى الملثم ! إن كان اعتناؤك بهذه الرسالةِ شديدا كما رأيتُ فعرِّفنى بموضعِ إقامتك وأنا أستصنع منها نسخة وأبعثُ بها اليك . فشكرتُ واعتذرتُ بكثرةِ أسفارى فى الأندلسِ فانطلق شديدَ الفرح بما نال وكان جواده بانتظارِه فاعتلاه فواللهِ يا أبى ما رأيتُ قط بعدَك و بعد أخى الظافر أرشقَ وثُو با على جوادٍ ولا أحسنَ قياما فى صهْوةٍ من غريمى الشاب .

الملك [مبتسما وهو يضع يده على كتفها] : أخشى يا بثينة أن يكون غريمُك الشاب أعرفَ بتصيدِ القلوبِ منه باعتلاءِ الجياد .

مقلاص : الآن عرفته هو فتى السوق، هو فتى الرسالة .

[يدخل لؤلؤ و يقول] :

الجماعة يتواردون على مجلس الشراب أيها الملك فانظر ماذا تأمر ؟

بثينة : وأنا أيضا ذاهبة لبعض شأنى إن أذنت .

الملك : فى كلاءة الله يا بثينة .

[تخرج بثينة] .

المنظر الثانى

« ترفع الستار الخلفية عن مجلس شراب الى جانبه ستر مسدل »
« وفى وسطه مائدة حولها الملك وجماعة من حاشيته وتطل »
« هــذه المنظرة على الوادى الكبير حيث للــلك زورق » .

المـــلك : ما عندَكَ من الشراب لأصحابنا يالؤلؤ ؟

لـؤلـؤ : خمورُ مالِقة وزبيبي أشبيلية .

المـــلك : وماذا هيأتَ لهم من نقْلٍ وطعام ؟

لـؤلـؤ : الجوزُ واللوزُ من وادى الطلْح .

الملك [يرفع عقيرته ويغنى] : الجوزُ اللوزُ ياربَّ الفوز .

أحد الحاضرين [الى جاره] : هــذا لحنُ الملك الذى يحبه ويهتِف به حتى فى الحمــام .

مقــلاص : ولحنى أيها الملك أتسمعه ؟

المـــلك : قل . هاتِ يا مقلاص .

مقلاص [يغنى] : الجوزُ اللوزُ بوادى الحوز (١) .

المـــلك : مرحى ! مرحى ! .

---

(١) متنزه مشهور بالأندلس .

الحاضرون جميعا : مرحى ! مرحى ! .

الملك [لمقلاص] : تعالَ قِفْ خلفى يا مقلاص وقم عند رأسى .

مقلاص : ها أنا قائم عند رأسك الشريف هل أفلّيه ؟

الملك : تأدّبْ يا وَقاح. القُمّلُ لا يوجدُ فى رءوس الملوك .

مقلاص : ما أدرى يا مولاى ولكنى أعلم أن القُمّلَ يوجد فى لبدةِ الأسد وأنت أسد الأندلس الذى يعنو له الملوك .

الملك : لله ما أمرّ لسانَك وما أحلاه . فهو كمشرطِ الجراحِ الماهرِ جمعَ مرارةَ القطعِ وحلاوةَ الشفاء .

الملك [الى لؤلؤ] : ثم ماذا يا لؤلؤ ؟

لؤلؤ : كلُّ مالذّ وطابَ من السمك . بعضُه مجلوبٌ من بحرِ الزقاق . وبعضٌ من صيدِ الوادى الكبير .

الملك [يتغنى] : الجوزُ اللوزُ ياربَّ الفوز .

الملك [الى وزيره ابن سعيد] : ماذا يقولون فى المدينةِ يابنَ سعيد ؟

الوزير : لا حديثَ اليومَ لأهل أشبيلية الا تلك النكبةُ التى حلّتْ بأبى الحسنِ التاجر .

الملك : واهًا لأبى الحسن . وويحَ الأندلسِ ما أعظَمَ مصيبتَهُ فى تاجرِه العاملِ الموفّقِ الأمين .

الملك [الى ابن سعيد] : وكيف وقعتِ الكارثةُ يابنَ سعيد ؟

الوزير : كانتْ لأبى الحسنِ التاجرِ فى لُجَجِ البحارِ ثلاثُ بوارج

وهى، الزُّهرة، والثريا ، والجوزاء ، خرجتِ الزهرةُ الى الاسكندرية تحمل اليها مقدارا عظيما من الزيت الأشبيلى فأخذها عاصفٌ فغرقتْ فى الطريق . وأقلعتِ الثريا بعد ذلك بأيامٍ مشحونةٌ بالمتاجرِ المتنوعة الى ثغور الأندلس فصادفها أسطولٌ للفرنجة كان يتجوّل على الشواطئ فأخذها مَغْنَمًا باردا . وكانتِ الجوزاءُ قد سبقتْ أختيها الى عَرضِ البحرِ تقصد سواحلَ المغرب محمَّلةً الشيءَ الكثيرَ من مصنوعاتِ الأندلس ومتاجرِه فشبّتْ فيها النار فأعيا إطفاؤها فسقطتْ شعلةً فى الماء .

الملك : ويح لأبى الحسن ويح ! !

الوزير : إن أبا الحسن أيها الملك شيخ كبير قد فرغ من الدنيا وفرغتِ الدنيا منه ، فمصيبتُه أقصرُ عمرًا وأهونُ وقعًا من مصيبةِ ابنِه الواحدِ وولدِه النابهِ الشاب حسون .

الملك : قد ذكر لى اسمه وسمعتُ الثناء عليه من كثيرٍ من الناس .

الوزير : وإنه لكما نعتوه لك أيها الملك وفوق مانعتوه : شابٌّ جميلٌ وقورٌ جرئٌ ، وافرُ القِسْطِ من العلمِ والأدبِ ، تعلّم لغةَ الإسبانِ حتى أجادَها حديثاً وكتابةً يجرى بها لسانه كما يجرى بها قلمُه .

الملك : إن شابا هذا شأنه وهذه همته فى الحياة لا يترك نُبوغَه

سدّى ولا يوكَلُ الى اليأس القاتل، بل يجْمُلُ بنا أن نأخذَ بيدِه فنُهوِّن عليه عثرةَ أبيه البريء .

الجماعة [يتهامسون] : ما هذا السِتر ؟

آخر [همسا] : تُرى ماذا يُخفي هذا السِتر ؟

ثالث [همسا] : ماذا خبأ لنا الملك وراءَه ؟

الملك : فيم تتهامسون؟ لعلكم تذكرون الستر . إشربوا الآن ما بدا لكم واطربوا، وأما الستر فستعلمون نبأه بعد حين . لقد وزعتُ عليكم من أيامٍ وفدَ النصارى من نُبلاءِ الاسبان فماذا صنعتم بهم وكيف كانت أنصبتكم ؟

الملك [ملتفتا الى وزيره داني] .

الوزير داني : كانتْ حِصّتي يا مولاي أطيبَ الحِصِص، فضيفي شابٌّ نبيلٌ طروبٌ لطيفُ الأذُنِ، مولعٌ بالقيثارةِ لا يضعُها من يدِه وله عليها ضربٌ يأخذ بالألباب .

الملك [متبسما] : يسأل آخر من الجلساء . وأنت يابن الصائغ كيف ضيفك ؟

ابن الصائغ : أنا أقل الإخوانِ حظا أيها الملك، فضيْفِي رجلٌ كهلٌ قِسّيسٌ يقطع الليلَ بالصلاةِ وتلاوةِ الانجيل .

الملك : بل لعلك أعظمُ الجماعةِ حظا ولا تدرى .

ثالث من الجلساء [مخاطبا الملك] : أما أنا أيها الملك فقد ابتليتُ برجلٍ شيخٍ شرّيب خمرٍ لا يرويه فى اليومِ دنٌّ ولا دنان . فاذا

كان قبل كل طعامٍ قدّمتُ له ز بيبي أشبيلية فأقبل يعبه
عبا كما يقع الظمآن على الماءِ الزلال ؛ وقد شربَ من خمرِ
مالقة فى ثلاثِ ليالٍ أقامها عنـدى ما يكفينى أنا شهرا
وأنا الذى يعرف الملِك وَلعى بالخمرِ المالقى .

الملك : وأنت يا لؤلؤ كيف ضيفُك وما حاله ؟

لؤلؤ : إنه شاب يا مولاى خفيفُ الظل والروح . مولعٌ بالرقص
وأنا أتلقى عليه كل ليلةٍ دروسا فى الرقصِ الأسبانى حتى
كدتُ أحسنه .

الملك : وأنتَ يا مقلاص . كيف ضيفُك وماذا يصنع معك ؟

مقلاص : ضيفِى يا مولاى رجلٌ كهلٌ بادنٌ ضخمُ الجثـةِ كالخنزيرِ
المتدلى البطنِ من تراكبِ الشحمِ واللحمِ اذا جاء فى البيتِ
و راح ارتجتِ الجُدرانُ واهتزَّ ما على الرفوفِ من آنيـةٍ .
واذا نام خرج الغَطيط والنخير من حلقهِ ومن أنفِه ومن كل
موضع فيه ولو نام فى جبانةٍ لأيقظ غطيطُه الأموات .

الملك : وكيف طعامُه يا مقلاص؟ وما أحبُّ الألوانِ اليه؟ .

مقلاص : هو يا مولاى مجنون المعـدةِ بالإوزّ . له كل صباحٍ على
الريقِ إوزّة وغداؤه إوزّة وعشاؤه ...

الحضور جميعا : إوزّة .

الملك [ملتفتا لوزيره دانى] : وماعندك أنتَ يا دانى مما يقولون فى المدينة؟

دانى : يتهامسون فى المدينةِ بأن الفتنة قد تحركت شياطينها فى قرطبة

وأن القـادرَ صاحبَ طُلَيْطُـلَةَ يسعى لأخذها من ولدِك
الأميرِ الظافر، وأنه يستعين فى دسه وكيدِه وتدبيرِه بالبطل
حُريز وصاحبه ابن طولون .

الملك : الولاياتُ يا دَانى كخلايا النحل فيهـا العسل وفيها الأسل
وأنا واثقٌ بحزمِ الظافرِ وعزمه والله يفعل بعد ذلك مايشاء
إن ضيوفَكُم النبلاءَ أيها الأصحاب سيكونون هنا بعد ساعةٍ .

الملك [الى جوهر] : وأنت يا جوهر أنظر . أين الجندیان ؟

جوهر : بالباب يا مولاى .

الملك : أدخلْهما .

[يدخل الجنديان]

الملك [الى الجنديين] : أين الكلب؟ ! أجئتما به ؟

الجنديان : هو بالبابِ يامولاى يرسُفُ فى قيودِه .

الملك : أدخلاه .

[يدخل ابن شاليب اليهودى يجر قيوده]

ابن شاليب : التحية والإجلال للملك .

الملك : تحية لا نتقبلها من رجلٍ شتمنا بالأمسِ بمسمع من رجالِنا
وأعواننـا .

ابن شاليب : معاذا الله أيها الملك : ما شتمتُ ولا تهجمتُ ولا نسيتُ
أنى نزيل هـذه المملكة ، يجبُ علىّ لصاحبهـا التوقيـرُ
والإكبار .

المـــلك: بل أنت تكذبُ يابنَ شاليب .

ابن شاليب: على رِسلك أيهـا الملك ، أنسيتَ أن ورائى ملِكا عظيما يسألُ عن أمرِى وأنا سفيرُه عنـدك ورسولُه اليك، وقد يغضبُ لى إن أنتَ نلتنِي بسوء .

المـــلك: فان كان السفير وَقّاحًا قليلَ الأدب ؟

ابن شاليب: هذا كثير أيها الملك فاجعل للإهانةِ حدًّا ولا تنسَ لى مكانى.

المـــلك: ستعلم مكانَك بعدَ قليل .

[الى ابن وهب]

أعِد يابن وهبٍ على هـذا الكلبِ ما لهث به حين عرضتَ عليه مال الجزية .

ابن وهب: لقد همَّ يا مولاى برد المـالِ معتلًّا بسـوءِ العيارِ ونُقصانِ الإتاوةِ عن السنةِ المـاضية وقال: بلغ سيدَك أنه لا يحول الحول حتى آتى فآخذَ عينيْه .

ابن شاليب: هذا كذبٌ واختلاق .

المـــلك: بل أنتَ الكذّاب . فمـا أنا بالملك الذى يَكذب عليـه وزراؤه وأعوانه . وما شرفُ الأندلسِ وجلالهُ إلا عدلُ قضاتِه وقلّة شاهدِ الزورِ فيه .

ابن شاليب [يمرّغ خدّيه على البساط و يقول] : ألا تعفو أيها الملك الكريم . فهم يقولون إن العفو شيمتكم معشر العرب .

الملك : إلا ما مسّ الشرفَ والكرامة .

ابن شاليب : أتقتلني أيها الملك من أجل كلمةٍ سبق بها لساني وأعماني الغضبُ فلم أزنها ولم أقدر عواقبَها .

الملك : عجبا يا وزير ألفونس ... أنت تزِن القناطيرَ المقنطرةَ من الذهبِ والفضة فلا يفلتُ من حسابك بُرادةُ مِثقال . ثم لا تحسن أن تزِن كلمةً تخرج من فيك ! ...

ابن شاليب : أعفُ عني واستبقِني أيها الملك وأنا أشترِي منك حياتي بوزنِ جسمي ذهبا .

الملك : لا واللهِ ولا بثقلِه لآلئ ويواقيت وأنا أعلم أن وراءك ملِكا عظيما هو عبد المال . أما أنا يا ابن شاليب فعبد الله .

الملك [للجنديين] : أيها الجنديان خذا هذا المجرم فأمضيا أمرى فيه .

[الجنديان ينقضان على ابن شاليب فيأخذانه الى ما وراء الستر المسدل]

الحاجب [يدخل] : نبلاءُ الأسبان بالباب يا مولاى .

الملك : يدخلون .

كبير النبلاء : التحياتُ للملك .

الملك : مرحبًا بضيوفِنا النبلاء . تفضلوا وخذوا مجلسكم واطرحوا الكلفة .

كبير النبلاء : شكرا يا مولاى ؛ هذه الحفاوةُ بالضيف لا تستغرب من ملكِ العربِ الكريم .

الملك : تعالَ اجلس بجانبي أيها النبيل .

[يجلس كبير الأسبان حيث أشار الملك
يطوف لؤلؤ على القادمين بالشراب و بالنقل]

لؤلؤ : ماذا تَشتَهِى من الشراب ؟

كبيرالأسبان : ما دمنا فى أشبيلية يا فتى الملك فإنى لا أقدم على زبيبها الصافى المعطرِ شيئا .

أحد الحاشية [فى أذن جاره] : انظر السكير ياأخى كيف تجاهل خمر مالِقه وكيف نسِى أنه أنفد ذخيرتى منها فى ثلاث ليالٍ أقامها عنـــدى .

[ضجة وشراب وأحاديث همس]

الملك [الى لؤلؤ] : دلنا يا لؤلؤ على ضيفك الرقّاص .

لؤلؤ [يشير الى أحدهم] : هو هذا النبيل يا مولاى .

الملك [الى الاسبانى] : إن فَتاىَ لؤلؤ أيهـا النبيل مغتبِطٌ بما تعلّم عليك من أصول الرقص .

الأسبانى : وأنا يا مولاى ما رأيتُ أسرعَ خاطراً ولا أرشـقَ حركاتٍ ولا أحسنَ حِفْظا لمـا يلقى عليه فى فنون الرقص من صاحبِى لؤلؤ .

الملك : إن مطربى هـذا ابنَ حزم يحسن الضربَ على القيثارة . وقد تعلّم فى صغَرِه الكثيرَ من ألحانكم ونغَمات رقصكم .

الملك [الى لؤلؤ] : فلْيرقصْ لؤلؤ على إيقاعه .

الملك [الى الاسبانى] : وأنت ترسم له أيها النبيل النغْمة التى تصلح للرقصة .

[لؤلؤ وصاحبه الاسبانى يرقصان و يعزف لهما ابن حزم ... و يصفق لهما الملك والجماعة ثم يجلس الثلاثة بين الاستحسان والاعجاب]

الملك [فى جد الى جليسه الاسبانى] : أيها الضيفُ النبيل . أمر يَشْغَلُ بالى ويهتمّ به أصحابى وينتظرون حكمى فيه . وقد رأيتُ أن أنتهزَ فرصة الأنس بحضوركم لأسيرَ على ضوْءِ رأيك فى تصريفه .

النبيل الأسبانى : ليس أحبَّ الىّ أيها الملك ولا أزيدَ فى شرفى من مشورةٍ خالصةٍ نافعةٍ ألقيها الى جلالتك .

الملك : إذن فاعلم أيها الضيفُ النبيل أن أحدَ جيراننا الملوكِ أوفد الىّ رسولا فى مهمةٍ معلومةٍ فنسى الرسول مكانى حتى سبّنى بمسمع من رجالى وأوعد وتهدّد . فما الذى يقضى به عُرْفُكم على رجل هذا فعله .

النبيل الاسبانى : مثل هذا جزاؤه القتل يا مولاى .

الملك [الى النبلاء] : أسمعتم يا معشرَ النبلاء .

النبلاء : سمعنا أيها الملك وقد أفتى كبيرنا وهو العدل والصواب .

الملك : إذن فانظروا .

الملك [ثم لأحد الجند] : أيها الجندىُّ ارفع هذا الستر .

[يرفع الستر عن جثة ابن شاليب جثة هامدة معلقة على عود]

الجماعة صائحين : ابن شاليب ؟

الملك : هذا صاحبكم ابن شاليب قد رمانى أنا ووزيرى هذا ابن وهبٍ بتزويرِ العيار والغش فى الميزانِ وقال لرجالى وأعوانى : بلِّغوا سيدكم أنى آتٍ فى العام القابل فآخذ عينيهِ من رأسه .

أحد الجماعة مستنكرا : وما ذنبنا نحن أيها الملك حتى عاقبْتنا بهذا المنظر؟

الملك : لقد تردّدتُ بين أن أقتلَه بأعينكم و بين أن أعرِضَه عليكم وهو كما ترون جثة بلا روح ولكنى وجدت فى الرأى الثانى تخفيفا على ضيوفى فعملْت به .

[ثم ينهض الملك علامة الاذن فى الانصراف ويختلط بهم وهو يشيعهم]

الملك : انقلوا أيها النبلاء إلى الملك ألفونس ما سمعتم ، وصِفُوا له ما رأيتم ، وتحدّثوا به فى طولِ بلادِكم وعرضِها ليعلم الناس هناك أن الأسد العربى لا يُشتَم فى عرينِه وأنه لو غلِب على غابتِه حتى لم يبق له منها إلا قاب شبرٍ من الأرض لما استطاعتْ قوى الإنس والجن أن تنفذ إلى كرامتِه من قابِ هذا الشبر .

[ينسل النبلاء الاسبان من المنظره وهم يجرون سيقانهم جرا من الرعب]

الملك [إلى حاشيته] : الآن يا نبلاءَ العرب نطوى هذا البساط ويبقى

هذان الجنديان حتى إذا خلت منا المنظرة رفعا السِتر عن
جثةِ ابن شالِيب ليعلم أهل أشبيلية كيف يحل العقابُ
بمن يجترئ على شرفِ أميرِهم الذى هو شرفهم الرفيع .

المنظر الثالث

« الملك نشوان ، ومعه مضحكه مقلاص يدنو من زورق »
« على الوادى الكبير فيثب فيه و يقول ... ... »

الملك : أنظر يا مقلاص إلى هذا الزورق ما ألطفه ، صدق القول : كلُّ صغيرٍ لطيف .

مقلاص : إلا وظيفتى فى قصرك فإنها لا لطيفة ولا شريفة ، وإن هذا الزورقَ قد ينقلبُ فيأخذ شكل النعشِ ولن يكون النعشُ لطيفا أبدا .

الملك : هبه انقلب يا مقلاص فصار نعشا ، أليس النعشُ مركبَ كل حى وإن طالتْ سلامته ؟

مقلاص : أما أنا فيعفينى الملك .

الملك : لا يا مقلاص — لا أعفيك ولا أحسبك تدعنى أسير فى لُجة النهر وحدى وأنا كما ترانى نشوان .

مقلاص : وإن كان ولا بد أيها الملك فإنى أقترح .

الملك : وما تقترح ؟

مقلاص : أن أكون أنا المجدِّف وحدى .

الملك : ولماذا ؟

مقلاص : الأمر بيّن ! التيار مجنون ، والسكر مجنون ، وأنت سلطان وكل سلطان مجنون ، وهذا الزورق خشبة لاعقل لها فهو أيضا مجنون ؛ وإنى أرَّ بأبحياتى أيها الملك أن أجمع عليها مجانين أربعة .

الملك [مستضحكا] : لا يكون إلا ما اقترحتَ يا مقلاص تعالَ اركبْ وجدِّفْ وحدكَ واتركْ لى أنا الدفةَ .

مقلاص : أما هذا فنعم . وإنى أرجو أن تكون دفةُ هذا المركبِ الصغيرِ أحسنَ مصيرا فى يديْك من دفةِ المملكة .

الملك [مستضحكا] : تعال ثِب ، هاتِ يدَك .

[مقلاص ينزل الى الزورق و يأخذ المجدافين] .

الملك : أنظر يا مقلاص وراءك إنى أرى قاربا يندفع نحونا مسرعا كأنه حوتٌ مطاردٌ مذعور .

مقلاص : هو ذا قد دنا منا يا مولاى فأحسنْ مسك الدفة واجتنب الصدمة وأنا أذوده عنا بمجدافى هذا وأضربه ضربةً تقذفُ به الى الشاطئ الآخرِ من النهرِ .

الملك : إياك أن تفعلَ ، بل أسره فلا بدّ لنا أن نؤدّب هذا الشاب المغرور فإنى أرى الملاّحَ فتى كريمَ الهيئةِ فهو لا شك من أبناء أعيان أشبيلية .

[يصطدم الزورقان و يظهر مقلاص ارتباكا وجبنا فيقبض الملك على الزورق المهاجم بيد قوية و يقول لمقلاص] :

الملك : إقذف الآن به إن استطعتَ الى الشاطئِ الآخرِ من النهرِ
[ثم يلتفت الى الشاب الملاح و يقول] : مكانكَ أيها الغلام الوقّاح ،
ما هذه الجرأة على التيار وعلى شبابك هذا الغض النضير .
وما غرك بالملك حتى قربتَ عودك من عودِه تريد أن
تأخذ عليه الطريق .

الملاح : مولاى . إن الرعيّة يهفون . و إن الملوك يعفون ، وزورق
إنما اندفع بقوة التيار القاهر فوافق مرورَ مركبك المحروس
فكان ما كان مما أعتذر الى الملك منه .

الملك [بصوت منخفض] : ويح أذنى ما ذا تسمع ؟ هذا الصوتُ أعرِفُه !
[ثم يلتفت الى الملاح قائلا] : قد عرّفناك أيها الفتى من نحن
فعرِّفنا بنفسِك .

[يرفع الملاح قناعه]

الملك [صائحا] . بثينة ؟

الأميرة [الملاح] : أجل أيها الملك ابنتك وأَمَتُك بثينة .

الملك : عجبا أأنتِ هنا بين العَبَبِ والتيار وعلى هذا العود الذى
يشفق أبوكِ من ركوبه وأبوكِ من تعلمين أشجعُ العرب
قلباً .

الأميرة : ولِمَ لا تكونُ ابنة الملكِ شجاعةَ القلبِ مثلَه إن الأسد لا يلد
إلا اللّباة .

الملك [يهدأ غضبه] : ومن أين مجيئك الساعةَ يا بثينة ؟

الأمــيرة : من الموضع الذى أحبُّه كما أحبُّ الحجرة التى ولدتُ فيها ، ومن ناحيةِ السرْحةِ التى أحنُّ لها كحنيني للقاصيرِ التى ضمتنِي طِفلة ممهدة ، ومن بُقعةٍ مباركةٍ وقفتِ السعادة بك فى ظلها على أمى الرميكية فرأيتَها فأحببتَها أوّلَ وهلة . ولم تكن إلا غسَّالةً مغمورةً فتزوّجتها فرفعتَها أعلى ذُرى الشرف ومن هذا الزواج الموفّق السعيد ولدتُ أنا لأب قصّر الآباء عن بِرّه ومُلكٍ جل عن النظراء والأمثال . أليس ذلك المكان الذى هو مهد حبكما الأول من حقه أن يُحَنَّ اليه أحيانا بل من حقهِ أن يُحج آنا فآنا .

الملك [متأثرا] : بنفسى وروحى أنتِ يا بثينة . لقد عظّمْتِ المهدَ وقضيتِ الحقّ والآن ألا ترجعين الى القصر بسلامٍ فلا أحسب القصر إلا قائما لغيبتكِ على ساقٍ حتى لكأنى بأمكِ تسأل عن أمركِ و بجدّتك أشغلُ وأشدّ قلقا .

الأمـيرة : لقد كنتُ يا مولاى فى طريقى الى القصر لولا هذا الاتفاق السعيد الذى صدم عودى بعودك والآن إذْ أمرتَ فإنى أنطلق فى سبيلى وأستودعك الله يا مولاى .

المــلك : إذهبى يا بنيتى فى كلاءةِ اللهِ و إياكِ والمجازفةَ فيما تفعلين فإن الحيـاةَ أعزّ وأنفسُ من أن تُعرّض للتهلكة وأنهـاكِ عن

الخروج بعد اليوم إلا مصحوبةً بلؤلؤ أو جوهر فإنهما لا يألوانك خدمة وحراسة .

الأميرة: لا يكون يا مولاى إلا كما أشرت .

[تندفع بثينة بالزورق وتغادر الملك — وقد أطرق مليا إلى أن بدا لمقلاص أن ينبهه من هذه السنة]

مقلاص : مولاى إن الشط قريبٌ وإن الأرضَ أصلحُ مجلسا لمثل ما أنتَ فيه من الهم والتفكير .

الملك : كيف رأيتَ بثينة وكيف وجدتَ جرأتها يا مقلاص ؟

مقلاص : تلك اللّبَاة من هذا الأسد يا مولاى .

الملك : ما كل جرىء فطن ، وهذه الفتاة جمعت الحجا والشجاعة . إنها تعلم أنني رجل رقيق القلب عجيب العاطفةِ وتعلم كذلك أن شيئا من النفورِ قد دخلني نحو أمها منذ حينٍ فانظر كيف تحيَّلَتْ حتى ذكرتني العهدَ القديم . فوالله ما أنا الساعةَ بأقلّ حبا للرميكية ولا عطفا عليها مني منذ عشرين سنة . جدِّفْ يا مقلاص جدف . سبحانك اللهم جعلتَ الولد سفير المودّة والرحمة بين الوالدين .

[يندفع الزورق]

الملك [يتغنى] : الجوزُ اللوزُ يارُبَّ النوز .

مقلاص [يجيب] : الجوزُ اللوزُ بوادى الحوز .

ســـتـــار

الفصل الثانى

« خان التيمى فى أشبيليه حيث صفت الموائد والأرائك وجلس اليها »
« قوم يتحدثون ويحتسون الشراب . ابن حيون منفرد وحده الى مائدة »
« وأبو القاسم قادم عليه من باب الخان . حريز يجلس الى مائدة أخرى »
« وأمام ابن حيون . ورجال هنا وهناك يلعبون النرد والشطرنج »
« أو يطالعون بعض الرسائل ... ... »

أبو القاسم : ابنَ حيون ؟ ما أطيبَ هذا اللقاء .

ابن حيون : سيدى أبو القاسم يامرحبا يامرحبا ها هنا صُفَّةٌ لينة ومجلس كريم فلو جلسنا ساعة نتحدث . أزائرى أنتَ أبا القاسم أم جئتَ الخانَ فى شأنٍ يعنيك .

أبو القاسم : بل إياك قصدتُ يابن حيون . وإن الشوْقَ اليك لشديد .

ابن حيون : شوقٌ بعضُه من بعض يا أبا القاسم ولكنْ من أنباك أنى مقيم بخان التيميّ .

أبو القاسم : لقد عرفناك كالرواد الرحّل . لا تُرى الا فى خانٍ أوعند دوارسِ الأحجار .

ابن حيون : الخانُ والسوقُ يا أبا القاسم مدرستان من مدارسِ الحياة ينتفع بهما الرجلُ الأريب ... ألستُ فى هذا الخانِ كل يومٍ أبدل أهلا بأهلٍ وجيرانا بجيران وأستعرضُ صوراً متحرّكة مِن الخلائق كلما احتجبتْ صورة خلفتها صورة ... وكيف حال أشبيلية يا أبا القاسم وهل من حوادثَ هناك ؟

أبو القاسم : الحالُ إن لم يصلحها الله فمالهـا من صلاح . والحوادثُ يابن حيون نتوالى ولا نتولّى واليومُ مغبر والغدُ مكفَهِر .

ابن حيون : وابنُ عباد فى غوايته مستمر !

أبو القاسم : خل ابنَ عباد يا أخى لاتجرِ ذكره بسوءٍ فانه السيفُ الذى يرجوه العرب . والحصنُ الذى يحتمون غداً فيه .

ابن حيون : لم تُنصِفْ يا أبا القـاسم . طبعتَ للعـربِ مِن الخشب سيفا وبنيتَ لهم من الشفير الهائر حصنا .

أبو القاسم : إتق الله يابن حيون ... بعضَ هـذا البغى ... للمعتمِد من المحاسنِ ما يغطى على مساويه . أجهلتَ إحسانه على أهل العلمِ وعَطْفهُ على أهل الأدب ؟ أجهلتَ كيف يربى أولادَه تربية لم نْعرفها من الأمراء والملوك؟ أجهلتَ كيف يعامل الرميكيةَ زوجته الفاضلة معاملة تحسدها عليها عقائل الأندلس؟

ابن حيون : آه يا أبا القاسم من ههنا دائى وههنا ثارى عند صاحبك ابن عباد .

أبو القاسم : يَاعجبا كل العجب . ما هذا الثأر ما حديثه ؟

ابن حيون : اسمعْ أبا القاسم وأنصفنى .

أبو القاسم : تكلم يا بنَ حيون فكلىّ مسامع .

ابن حيون : كنتُ فى صدر شبابى صيادا شابا مليحا رأسُ مالى شبكة وقِـوام معيشتى سمكة، وكانت تختلف إلى المواضع التى أختلِف اليها من النهرِ للصيدِ وابتغاء الرزق صبية غسّالة حلوةُ الدلالِ بارعةُ الجمالِ كأن حديثها السحرُ الحـلال . فانعقـدتْ بيننا ألفة وكانتْ لنـا مجالس على المـاءِ كأنها أعراسُ النهرِ ولقاءاتٌ على الوادى الكبير كأنها أعيادُ الدهرِ، أحببتُ الصبيّة وأحبّتنى وتكلمنـا فى الزواج وشرعنا نأخذ له أهْبته .

أبو القاسم [مقاطعا] : و بينما أنتما على ذلك طلع عليكما من النهر فُلْكٌ عليه شارة الملك، يحمل ملكا شابا جميلا فنَظَر الصبيّة فراعهُ حسنُها وكلمها فأعجبه أدبها . وارتجلت الشعرَ بين أذنيه فبلغ إعجابه بها الغايةَ فتزوجها من يومِه فملأتْ قصورَه غِبْطة وبهجة وولدتْ له الشموسَ والأقمار . هذا حديث الرميكية يابنَ حيون وهـذا خبرُ زواجِها يعلمه كل مَن فى الأندلس ويتناقلونه بالإعجاب ويتحـدّثون أن بنتَ الشعْب نزلتْ قصورَ الملكِ من أولِ يومٍ نُزولَ الأقمارِ فى هالاتِها، وأنها

من عشرين عاما الى اليوم قدوةُ عقائلِ الأندلس والمثـال الأعلى بين أميراتِه وملِكاته ؟ .

ابن حيون : وما كان ذنبي يا أبا القاسم حين احتقرتْ حُبِّي واستهانتْ بِخطبتِي؟ !وكيف تريد منى بعد ذلك أن أكون لصاحبِك المعتمد من المخلصين .

أبوالقاسم : هبِ الأمرَ كان معكوسا يابنَ حيون، وهب الفلك الذى وقف يومئذٍ بكما كان يحمل ملكةً شابة فاتنـة الجمالِ بيمينها الجاه و فى شمالِها المـال فنظرتْك فأحبتْك ودعتْك لتبنِيَ بها وتشاطرهَا عِزة الملكِ وثراءَ المـالِ — أتُراك كنتَ تُعرِض عن الملكةِ وفاء بعهدِ الغسّالة . لا والله يابنَ حيون ما كنتَ فاعلا ذلك . وهـذا ما فعلتْ الرميكية . رأتْ ملكا كبيرا وشـبابا نضيرا وفضلا وأدبا غزيرا فخلتْ نفسها من ذلك الودادِ وفضلتْ أصيدَ على صياد . عرفتَ يابن حيون أن ذنب الرميكية ليس بالعظيم كما توهمْتَ . بقى المعتمد وأنا لا أجِدُه اقترفَ اليـك ذنباً أو أراد لك ضُرا بل أنا أقسم لو علِم ابنُ عباد يومئذٍ بما كان بينكما من الحب وما صرتُما اليه من الِخطبةِ ووشْكِ الزواج لأخذكما فى كنفه وتكفلتْ لكما نعمتُـه بالزواجِ ونفقتِه، وبالبيتِ وجِهازه و بالضيْعةِ التى تُغِل عليكما وتبقى بعدكما على الأولاد .

[ابن حيون مطرقا] :

أبوالقاسم : ابنَ حيون . مالك مطرقا لا تنبِس . ما بالُ عينيك تمتلئان استرحْ يا أخى للبكاء واسكبْ دموعَ الندم .

ابن حيون : الآن استرحتُ يا أبا القاسم وانطرح عن صدرى أتونٌ من الحقدِ حملتُه عشرين عامًا حتى حنى الظهـرَ وأ كلَ الصدرَ وأدنى من القبر .

أبوالقاسم : مسكينٌ أنتَ ابنَ حيون إن حقـدَ عشرين عاما لو جمـع وقذِف به فى جهنم لكان لها منه وقودٌ لا ينفد .

ابن حيون : لقد شفيتنى أبا القاسم من ضلالى القديم فأرشدنى كيف أعتـذر الى الرميكية عن سوءِ ظننتُ وبغضٍ أسررتُ وأعلنتُ وكيف أُكفِّر عما سلف منى فى ذاتِ المعتمدِ من جهرِ السوءِ وهمسِه .

أبوالقاسم : يغفر الله لك يابن حيون إن الحقـد ما خرج من قلبٍ إلا دخلته الرحمـة وإنى لأرجو أن ستُحبّ صـاحبيك وترحمهما وتحسن اليهما كلما وجدتَ الى الإحسانِ سبيلا .

| يطوف قيم الخان على الجالسين حتى يقف به الطواف |
| على المائدة التى جلس اليها حريز وابن لا طوف |

قيم الخان : لعلّ السيدينْ قد وجدا الراحة فى هذا الخانِ الصغيرِ ببنائِه الكبيرِ بأقدارِ روّادِه ونزلائه ؟

حريز : ومن السيد ؟

ابن لاطون : هذا الأديبُ التميمى صاحبُ الخان وقيّمه .

قيم الخان : لعلى أيها السيدان بحضرةِ الأمير حريز أسد الأندلس وصديقِه ابنِ لاطون نمر الجزيرة .

ابن لاطون : هو ذاك يا أخا تميم . هذا الأميرُ حريز بطلُ الأندلُس وواحده وأنا ابن لاطون خادمُه وكاتبُ ديوانه .

قيم الخان : ياطيبَ هذه الزيارة وما أعظمَ شرفى بها ، لقد مر بنا أيها الأمير منذ ساعةٍ ركبّان حدثونا العجب عن ذلك السباق الذى أقامه ملك الفرنجة ألفونس فى معسكرِه إكرامًا لك وحفاوةً بك وخبرونا كيف احتلْتَ على الطاغيةِ فرقتَ من ذلك الجيش الجرار ناجيا بجوادِك الصاعقة وظافرا بالأميرِ بطرس شقيق الطاغية .

حريز : وكلاهما الساعةَ تحت سقْف خانك هذا . ففى بعض غرَفه بطرس أمير الأسبان يأخذ قسطه من الراحة . وفى الإسطبل الصاعقة أمير الجياد يُعلف ويستجم .

قيم الخان : يافرحا ياشرفا . أخو الطاغية أسيرٌ فى خانى نبأٌ والله عظيم لا تطلع شمس الغد حتى ينتشرَ فى الأندلس فتشتغِل الدنيا بالتميمى ويهتم بخانه الناس .

حريز : والصاعقة أمير الجياد أنسيتَه يارجل؟ إن اسطبلك ليَتيه بهِ على مغانى الفرنجة وقصورِهم فاذهبْ فمر رجالك أن يعتنوا

به وليأتوا بما كان عليه من الأمتعةِ والأسباب فيضعوا ذلك كله فى هذه الزاوية من الخان .

قيم الخان : سيكونُ ما أمرتَ ياسيدى .

[يخرج الأمير بطرس من غرفة الخان]

[فينهض حريز وابن لاطون حفاوة به]

الأمير حريز : الأمير بطرس ؟ لعلك أخذتَ قسطك من الراحة .

الأمير بطرس : أجل قد استرحتُ يا حريز والآن خبرنى ما أنتَ صانع بى لقد أصابت الحُبالة فما أنتَ صانعٌ بالصيد .

حريز : إنها أيها الأمير حُبالةُ كريم . .

بطرس : ولكنى على كل حال أسيرُك ياحريز .

حريز : أجل ولكنك الحاكم فى الأسر .

بطرس : لم تنصف أخى الملِك ياحريز . اطمأنّ إليك فخدعته ووثِقَ بك وخنتَه وأطلق لك جوادَك الصاعقةَ وأسرتَ أخاه .

حريز : نحن فى حربٍ معكم أيها الأمير والحرب لا تُسأل عما تفعل وأنا صاحبُ حصنٍ للعرب يحاصره أخوك وفى الحصن أبطالٌ لا يعرفون الخوفَ ولكنهم بَشرٌ يعرفونَ الجوع . ومنهم المرأة والصغير والشيخ الفانى الكبير، وحصنى يوشك أن يسقط بعد طولِ الحصارِ وضيقه .

بطرس : إذن يهمك أن يخرج النساء والأطفال والشيوخ من الحصن .

حـــريز : أراك فهمتَ أيها الأمير .

بطـرس : إذن فاعلم ياحريز أَنك إن خلَّيتَ الآن سبيلى فرجعتُ الليلةَ إلى معسكرى وقـومى فإنه لا يُصبح الصبحُ حتى يطلق سراحُ كل من فى حصن رباح وينالهم من برأخى وعطفِه ما ينسيهم جراحَهم ولا ينزَع من رجالك سلاحُهم بل تُترك للأسد أظفارُها .

حـريز : هذا ما أبغى أيها الأمير .

بطـرس : وأىّ الأقسامِ تريد أن أعطيك عليه ؟

حـريز : إن الرجلَ الشريفَ كلمتُه قَسَمٌ وإشارته يمين ؛ فأنا أكتفى بما سمعتُ من وعدِك فانطلق الآن محروسا بعناية الله وعد لأخيك الملك فبلغه تحيتى وإجلالى وخبره بأن ربحى من ذلك السـباق كان عظيما فقـد غنمتُ صحبةَ أخيه الأمير النبيل الكريم وغنمتُ أيضا خلاص رجالى فى الحصن . وخرجتُ فوق ذلك من الميدان بكنوز طُلَيْطُلَةَ وجواهرِ ملوكها بنى ذى النون .

الأمير بطرس : كنوز طليطلة؟ خرجتَ بها بين عين الجيش وأذنه ؛ يالك من داهيةٍ عتيد . أكانتْ هذه الكنوز معكَ حين أتيتَ للعسكر ؟

حريز [ضاحكا] : كلا أيها الأمير بل كانتْ فى طليطلة وفى خزائن ملوكها

بنى ذى النون وإنما احتلتُ حتى حملتُ إلىّ مع الصاعقة
إذ أمر أخوك الملك أن يذهب الى المدينة المحصورة من
رجاله ورجالى من يأتى بالصاعقة .

بطرس : عجبا . لقد رأيتُ الصاعقة حين جىء به من طليطلة فلم
أرَ عليه شيئا من الأحمال والأثقال فهل كان يحمل فى بطنه
الكنوز ؟

حريز [ضاحكا] : ولم لا تقول إنها كانتْ على ظهره أيها الأمير ... ...
(مناديا) يا تميمىّ .

التميمى : مولاى .

حريز : إدفع الى الأميرِ جوادَه قيصر وشيِّعه بفارسين من أشد
رجالك يرافقانه حتى يبلغ خطوط الفرنجة .

بطرس : فى حفظ اللهِ يا حريز .

حريز : بذمةِ الله أيها الأمير .

[يخرج حريز مشيعا الأمير بطرس الى باب الخان
ويعود فيجلس على مائدة مع ابن لاطون]

ابن لاطون [يسأل حريز همسا] : لقد ذكرتَ أيها المولى كنوزَ طليطلة
للأمير الأسبانى فأين هى منا الآن ؟

حريز : هى معنا يابن لاطون بين أعيننا وفى خفارةِ سيفينا ولكنك
لا تراها ولا يقع فى وهم واهمٍ بأى موضع هى من الخان .

[يسمع من خارج الخان مناد ينادى متغنيا]

المنادى : أنا ذا طاهٍ أتاكم من شريش بقطائف

من يذق حـلواى يبرز لحـريزٍ غـيرَ خائف

حـريز : لله ما ألذَّ الصوتَ وما أحسنَ الشعر .

ابن لاطون : وإنا نرجو ألا تكونَ القطائف دونَهما لذةً وجودة .

[حريز متجها الى باب الخان]

حـريز : تعـالَ يا صاحبَ القطائف . أتعرف أيها الرجل حُريزًا الذى أشدتَ بذكرِه فيما أنشدت ؟

البائع : أو تجهله أنتَ كائنًا من كنتَ وهو عنترةُ البيد وحيـدرةُ الحمى ونادرة الزمان ؛ أعرفُه بأمسِه و يومِه كما يعرفه سائر النـاس .

حـريز : وكيف صفتُه ؟

البائع : رجل عِملاقٌ أشمُّ طويلُ الساعدينِ عبْلٌ شَمَرْدَل .

حـريز : كفى يا شريشى كفى إكشفْ عن بِضاعتـك لنرى أينَ المنادَى عليه من النداء .

[البائع يعرض الصينية مكشوفة]

صوت من الحاضرين : تعالى الله ما أشهى .

صوت آخر : تعالى الله ما أطيبَ .

حـريز : بكَمْ تبيعُنى هذه الصينيةَ يارجل .

البائع : كل ما أعطيتَ مقبول أيها السيدُ الكريم .

حريز [و يلق اليه صرة دنانير] : خذْ هذه الصرَّةَ مباركًا لك فيها .

البائع : ولكُمْ فى القطائف أيها الطاعِمُ الكريم .

حريز [للحاضرين] : تعالوا أيها الإخوان نتقاسمْ هـذه اللقْمَة الطيبة . تفضلوا . أقبلوا . ذوقوا معنا من هذا اللون الذى ذاعتْ شهرتُه فى البلاد حتى قيل إنّ من دخل الأندلسَ ولم يذقْ من مجبناتِ شريش فما عرف من متاع الأندلس شيئا .

أحد الحاضرين : إن لهذه القطائف لَطيبا يسكِر من بعيد .

[الجميـع يأكلون]

أحـدهم : ما ألذ .

ثانٍ : ما أطيب .

حريز [وهو يأكل ملتفتا الى ابن حيون] : ما بالُ الأديب لا يجيبُ الدعوةَ .

ابن حيون : إنى صائم أيها الأمير .

حـريز : تقبَّل الله منكَ وإن أنتَ لم تَقبلْ منَّا .

أحد الحاضرين [على المائدة وهو يأكل] : هـذه المـائدةُ جمعتْ العلَفَ والشرفَ . فوالله ما كان أحدكم يحلم أن يؤاكل أسدَ الأندلس .

آخـر : حق إن هذا لهو الشرفُ العظيم .

[يفرغون من الأكل]

حـريز : يا ألله ماهذا الدوار ؟ ! ابن لاطو ... .

ابن لاطون : وأنا أيضا كأنى داخل فى غيبو ... ... بة .

رجل [لصاحبه] : كيف تجد الدنيا فى عينك ياضبيّ ؟

الضبي : مظلمةٌ صاعدةٌ نازلةٌ .

الرجـــل : وأنا أيضا أجد الدذ ... ... يا .

أبوالقاسم : لقد رُجِمْتَ بصيامك يابنَ حيون فانى أظنّ القطائف طبِخَتْ بالبِنج وأخذتْ تصرع ... نى .

ابن حيون [مذعورا] : ياويح للجماعة غودروا صرعى وويح لك أباالقاسم سقطتَ سليبَ العقلِ والحرَاك .

[يظهر صاحب القطائف و يصفر فيدخل جماعة من اللصوص] .

ابن حيون [وقد امتلأ المكان باللصوص] : ياألله ! امتلأ المكان باللصوص . الآن تبينت أن القطائف كانت مصيدة لم يعصِمْني منها إلا الصيام .

ثم لنفسه [همسا] : تناومْ يابن حيون "و يتناوم على مقعده".

صاحب القطائف : يا أصحابَ الباز . غدا يتحدّثُ الأندلس أن صاحِبَكم صرعَ الأســد وأخذ الصاعقة من فارِسه الجبار وقد خصصْت نفسى بأميرالخيل الصاعقة فهو حِصتى من غنائم اليوم وما سواه فهو لكم تقتسمونه بينكم فدونكم الجيوب ففتشوها وعليكم بالحقائب فانبشوها وخذوا أثاثَ الخــان وعُروضه،كل ما خفّتْ زِنته وعظُمتْ قيمتُه .

أحد اللصوص : ولكنّ الصاعقة عريان لا سرْج عليه أيها الزعيم .

البــازى : بجياد الأندلس جميعا هو كاسيًا كان أو عريانا .

لص آخر : لقد لمحتُ أيها الزعيم فى زوايا الاسطبل سرجًا محلى بالذهب والفضــــة .

الباز : أو أنتم تاركون لى السَّرْجَ المذهّبَ المفضّضَ أيها الأصحاب ؟
اللصوص : نحن وما نملك للزعيم .
الباز اللص : إذن فاسبقْنى يا شهابُ فضع السرجَ المذهبَ على الصاعقة وانتظرنى هناك .

[يأخذ اللصوص فى السلب والنهب و ينسلون واحدا إثر واحد بمـا حوت أيديهـم و يبقى رجل منهم فينحنى على سرج عاطل يتأمله و يظن ابن حيون المكان قد خلا فيستوى فى مجلســه و يقع نظر اللص عليه فيرمى السرج العاطل عليــه قائلا ...]

أحد اللصوص [لابن حيون و يرمى عليه السرج العاطل] : خذْ يا شـيخَ السوء هـذه الخشبَة لعل فيها العوضَ عمـا أفاتك الصيامُ من القطائف .

[و يخـــرج اللص] :

ابن حيون [لنفسه] : شلّتْ يدُ اللص ، لقـد قذف السَّرج بقوةٍ حتى كسرهُ ولو أصابنى به لتركنى جثةً بلا روح ، يا لله . تُرى أىُّ شىء فى فروج هذا السرج .

[يدنو منه و يمسك به ثم يتأمله و يدس فيه يده]

ربِّ ما هـذا الحصى ؟ أى مجنون يملأ سرجه بهـذه الأحجـار ... !

[ثم يستخرج عددا من الأحجار البارقة
و يقلبها بين يديه مذهولا قائلا] :

لآلئ ! يواقيت ! أبا القاسم قم فانظر إن الذى حشا

رأسَكَ بالعِلْمِ والفِقه قد حشا رُدْنى باللآلئ واليواقيت .

[ثم لنفسه] يا ابن حيون أين يُذهبُ بك ؟ هذا كنزُ ملِك عظيم من أقيال الروم جدّ به الحرصُ وخاف امتدادَ الفِتنة الى كنزه، فاختار له هذا السرج البالى وفى نفسه أن يصونَه أو يموتَ دونه فأخلَفَ الدهرُ ظنونَه .

[يجمع اللآلئ بين الدهشة والاضطراب و يقول] :

ابن حيون [و ينظر الى اللآلئ] : لآلئ! يواقيت! ماس! زمرد! رباه هذا عجل الذهب ، هذا هو معبودُ الناسِ بعدَك هذا هو المـال .

ستـــار

الفصل الثالث

« بستان أمام دار أبي الحسن ، الى يمينه باب الدار ومن ورائه شاطئ »
« الوادى الكبير — أبو الحسن جالس فى هـذه الساحة و بين يديه »
« تابع له هو (سـعيد) وجماعة بالقرب منه من السماسرة يتهامسون »

أبو الحسن : ما هـذا ؟ ما أرى ؟ إنى لا أعرف هذه الوجوه ؛ فمن الرجالُ يا سعيد وما يبتغون ؟

سـعيد : هـذه الوجوه تحومُ على الدارِ منذ حينٍ يا مولاى وتسألُ عن أجزائهـا وتستفهمُ عن مشتملاتها ؛ وتتحـدثُ عن المكتبةِ خاصة وما عسى تضم من نفائسِ الأسفار .

أبو الحسن [رافعا وجهه الى السماء] : لطفكَ اللهم ! لقد لهج الناس بالنكبةِ واشتغلوا بالمنكوب ، وما أولع الناسَ بالناس .

[ثم الى الرجال] : أيها الرجال تعالَوا فان كنتم ضيوفًا فيامرحبًا بكم ، و إن كانتْ لكم حاجاتٌ تريدون قضاءَها فهاتوا آذكروا .

احـدهم : إيذن لى يا سـيدى التاجر أن أصارحك القولَ فليس

مركزك بسرّ ، والدارُ معروضة لا محالة ، فلنبعْها اليوم ، فقد تغبن جدًا فى الغد .

أبوالحسن : أتُشفِق على الدارِ أن يكسد سوقها فى غدٍ ؟ أم تشفِق على نفسِك أن يكون السمسار غيْرَك ؟ ... بكَم قومتمُ الدارَ أيها الوسيط المجتهد ؟ وأىّ ثمنٍ تعطون ؟

أحدهم : عندى المشترى لها بخمسين ألف دينار يا سيدى التاجر . تحمل اليك فى الصباح إن قبلت .

أبو الحسن [الى الثانى] : وأنتَ فماذا عِندك ؟

الثانى من السماسرة : عندى الراغبُ الذى يزيد خمسةَ آلافِ دينار .

أبو الحسن [مشيرا الى الثالث] : وهذا الثالثُ الآخر . ماذا عندَه ؟

الثالث : عندى أيها السيد أن صديقا لك لا أسمِّيه يريد أن يشترى مكتبَتَكَ بالثمن الربيح فهل أنتَ بائع ؟

أبوالحسن [فى غضب] : والمكتبةُ أيضا أخذوا يتحدثون فى شرائِها ! ووسادتى وفرشُ نومى أما لها عندك من طالب أيها الرجل ؟ أُعزُبْ عنى ! أعزُبْ وخذ صاحبيك معك وانطلقوا . إن النكبة لم تبلغ بعدُ تمامَها ولم نَبلغ معها الى اليأس .

[يقترب شيخ غريب الثياب ملتفتا الى الرجال الثلاثة قائلا]

[المغربى الشيخ] : تلك واللهِ وقاحة !

أحد السماسرة : عجلت فيها يا وجهَ النحْس !

[ينصرف السماسرة] .

أبو الحسن [يناجى نفسه] : ظهرَ فيكِ السمسارُ يادار ! اللهم أنتَ أعطيتَ وأنتَ أخذتَ وأنتَ تعلم أنى لستُ التاجرَ اللّص ولا المحتال ، فألطف بى فيما قضيتَ وأعِن ولدى حسوناً على ما يواجِه من فِرار النعمةِ وانتقالِ الأيام [ثم يشعر براحة و يقبل على الشيخ المغربى قائلا] : وأنت يا شيخَ البربر ماوراءَك ؟

المغربى : أنا زائر ياسيدى التاجر . وربما كلمتك فى شأنٍ يكون فيه ارتياحك ورضاك .

أبو الحسن : مرحبا بالزائر . تعالَ يا سيدى نتحدثْ على هذا الفضاء الطلق . وفى ظل هذا الروضِ الكريم [يسيران قليلا ثم يجلسان] .

المغربى : أنا يا سيدى التاجر رجلٌ من أغنياءِ المغرب . حبَّبَ الله إلىَّ السياحةَ فى أرضِه . أجوبُ مذ كنتُ البر وأرفعُ شراعَ البحر . الى أن دفعتنى الأسفارُ منذ أيامٍ الى مدينتِكم هذه أشبيلية الغنّاء وكنتُ سمعتُ عنها وقرأتُ الشيءَ الكثير . فلما نزلتها ودخلتُ فى مواضِعها وخرجتُ ملأتْ نفسى وشغَلتْ خاطرى . فاعتزمتُ أن أجعلَها قَرارى ومُلقى عصاىَ فى رِحلةِ الأيام .

أبو الحسن : ما أسعد أشبيلية يا سيدى بابنِها الجديد البار .

المغربى : مهلا يا سيدى التاجر وخذ الحديثَ الى آخره ، لم يبقَ

فى نفسى من هوى الأسفارِ إلا جولةٌ أجولها فيما وراء هذا الأندلُس من ممالكَ للفرنجة وديار . فاذا كتبَ الله لىَ السلامة، أتيتُ هذه المدينةَ فاتخذتُها وطناً وديارا .

التاجر أبو الحسن : مشيعًا بالسلامةِ والكرامة .

المغربى : ولكنى مزمِعٌ سفَراً شاقا بعيدا . وما يدرِى المسافر ما وراء الغربةِ من الفُجاءاتِ ، وما تدرى نفْسٌ بأى أرضٍ تموت ، ومعى يا سيدى من كريم الجوهرِ ونادرِه ما أخشى عليه السَّرقة أو الضَّياع وأنا منقطعُ الوارثِ لا أهلَ ينتظروننى ولا ولد ، ولقد مررتُ بدارِك هـذه مرارا فكنتُ كلما زدتهـا تأملا زادتْنى بهجةً وروعةً . حتى حدثتنِى النفسُ بشرائهـا .

أبو الحسن [فى غضب] : أأنتَ أيضا ياسيدى أتيتَ تساومُنى فى الدار !

المغربى : دعنى أستَتِمُّ يا أبا الحسن فإنى جاد ! ما أنا بالمساوِم ولا بالرجلِ الذى يلتمس الفوائدَ لنفسِه من مصائبِ الناس ؛ ولكنى جئتُ أخطبُ اليـك الدارَ وأَجعَلُ مهرَها ما أُقـدِّرُ أنا لا ما تقدرُ أنتَ ولا الناس .

أبو الحسن : ماذا تريدُ ياسيدى ؟ بيِّن ! صرِّحْ ! إنى لا أفهمُ ما تقول !

الشيخ المغربى [ويخرج عقد لؤلؤ من كمه] : هذا عقدٌ من كبيرِ اللؤلؤ وخالصه قيمتُه زُهاء المـائةِ ألفِ دينار نقدُه ياسيدى ثمنـا لدارِك

وأبقَ فيها وأحرسها لى حراسة القيِّم الرفيق . فإن لقيتُك سالما بعد ثلاثةِ شهورٍ تمضى من يومنا هذا نزلتُ فى دارى؛ وإن مضتْ هذه المدة ولم أعد ، بقيتْ عليك الدار مباركًا لك فيها ولولَدِك .

أبو الحسن : ولكن يا سيدى هذا الثمنُ كثيرٌ جدا لدار يشتغل بها الآن السمسارُ والدّلّال .

المغربى : بربك أيها السيد لا تُعرِض عن خيرٍ ساقه الله اليك ولا تَقِف لأهلِ المروءات فى سبيلهم ولا تستنكرْ على رجلٍ قد زاد مالُه حتى ما يدرى ما يصنعُ به أن يُعين بفضلةٍ منه كريمًا مثلكَ طالما آسى المجروحَ وأقالَ عثراتِ الكرامِ فأجِز الصفقةَ يا سيدى أجِزْها .

أبو الحسن [ينظر الى العقد قائلا] : أمائةُ ألفِ دينار ؟

المغربى : أجل يا سيدى فى أقل تقدير .

[أبو الحسن يأخذ العقد ويتأمله ويقلبه وفى هـذه اللحظة يرسو شراع فتنزل منه بثينة متنكرة فى ثياب شاب ومعها جوهر ولؤلؤ]

أبو الحسن : ماذا أرى ؟ ماهذا الشراع ؟ مَن الفتْيةُ ياترى ؟ إيذن لى أيها الزائرُ الكريم وأنتظرنى فإنى عائد اليك من فوْرى .

[يتجه أبو الحسن نحو القادمين من الشراع . المغربى يزيل تنكره فاذا هو ابن حيون . حسون يلمح ابن حيون من داخل الكشك فيناديه من وراء مجلسه] .

حسون : تعالَ يابنَ حيون ألاعبْكَ الشطْرنج .

ابن حيون : لبيْك ياسيدى حسون .

[ويدخل ابن حيون الى حسون عند اقتراب أبى الحسن من القادمين يسارع اليه ابن غصين ولؤلؤ وجوهر] .

ابن غصين (بثينة) : السلامُ عليكم ياعمّ .

أبوالحسن : وعليكمُ السلامُ يابنىّ .

ابن غصين : لمن ياعمّ هذا القصرُ المنيفُ وهذه الربوةُ الغناء ؟

أبوالحسن : هذا الكوخُ يابنى لخادمكم أبى الحسن التاجر .

ابن غصين : تسمّى غرفةَ الفِردوْس كوخا ! هذا منتهى التواضع ياسيدى التاجر .

أبوالحسن : ومن السيِّد ؟

ابن غصين : ولدُك ابنُ غُصين من أبناء أعيان قرطبة، وهذان جوهر ولؤلؤ صاحباى ورفيقا سفرى .

أبوالحسن : مرحبا مرحبا بشباب قرطبةَ النابهْ . إنى أرى الدار قد أعجبتكم يابنىّ وإنه ليسرُّنى ويشرِّفُ قدرى أن تدخلوا فتقضوا ساعة مع ولدى حسون فإنى أرى عليكم الفضلَ والأدبَ والمجادَةَ ، وحسون لا يصاحبُ ولا يجالسُ إلا أهلَ الفضلِ والنُّبْلِ ، فتفضلوا أيها الأدباء وشرِّفوا أخاكم بزوْرة وأنتم واجدون عند حسون كل ما يشتهى

النّشْءُ المثقَّفُ ، ففى خزانتِه ما قدُم وما حدُث من آلات
الطربِ حتى عود زرْياب .

جوهر [يصيح] : عودُ زِرْياب ؟

أبوالحسن : أجل يابنى ذلك العودُ الذى على أوتارِه كان عوّاد الأندلُس
يُسمِع الخلفاءَ ما توحِى اليه الجن من روائع الألحان
وتجدون كذلك عند حسون مكتبةً لم يُجمع مثلُها فى البلاد .
قد حوتْ الذخائرَ فى كل علم وفنّ .

ابن غصين : وكيف ولعُ فتاك ياسيدى بعلم الفلكَ ؟

أبوالحسن : أشد الولعِ يابنىّ وقد جمع الكثيرَ من نفائس المخطوطاتِ
فيه وفى أولها رسائل المنجم الضبىّ .

ابن غصين : المنجم الضبى ؟

أبوالحسن : أجل يابنىّ وأذكر أنه من شهرين أو أكثرَ أو أقلّ ،
قد انتهت الى حسون رسالةٌ مما وضع الضبى فدخلَه
من ذلك فرحٌ يشبه الجنون .

ابن غصين [لنفسه] : رسالة للضبى من شهرين أو أكثر أو أقل ؟ ! بشراكِ
ياقلب إنه هو ، وبشراكِ ياعين ستكتحلين به الساعة
[ثم الى أبى الحسن] لقد شُقْتنا الى ولدك الفاضل أيها السيد
فأين من يستأذن لنا عليه ؟ .

أبوالحسن : يامرحبا ! يامرحبا ! ما أعظم حظ حسون . إتبعون
ياسادة اتبعونْ ، فإنى دليلكم الى ناديه ، وإنى أرجو أن

سيُعجبكم ، إن حسون شابٌّ قد ألقى اللهُ عليه محبة للناس .

[أبو الحسن مع ابن غصين ورفاقه يقفون أمام كشك حسون . ابن غصين يلحظ لعبة الشطرنج] .

أبوالحسن [لابن غصين] : هو ذا حسون ياسيدى يلعب الشطْرنجَ مع صديقٍ لنا قديم كريم لاتخلو منه الدارُ ساعة .

[أبو الحسن ينادى ابنه] .

أبوالحسن : حسون يا ولدى .

حسون : لبيْك .

أبوالحسن : هذا ابن غصين من نبلاءِ فتيان قُرطبةَ ومعه صاحباه ورفيقا سفرِه يريدون أن يجتمعوا بك ساعة .

حسون : يامرحبا ! يامرحبا ! أهلا وسهلا بالسادة .

أبوالحسن : لقد جمعتُك بضيفانِك الكرام ياحسون والآن أتركُكُم فى حراسةِ الله لأعود الى زائرِى المغرِبى فإنه بانتظارِى وأخافُ أن يأخذه القلَق .

[أبو الحسن يرجع يفتش عن المغربى فلا يجده] .

أبوالحسن : ياالله . أين الشيخ ؟ أين ذهب [مناديا] سعيد .

الخادم : لبيك يامولاى .

أبوالحسن : ماصنع الله بالشيخ المغرِبى الذى كان ههنا منذ لحظة ؟

سعيد : لا أدرى أين ذهب يامولاى .

أبوالحسن [ينظر فى يده وكان قد نسى فيها عِقدَ اللؤلؤ] .

أبوالحسن [لنفسه] : ويْحِى ما ذا أرى ! هذا عقدُ اللؤلؤ فى يدِى نسيتُه

فيها يانجلا ! ماذا يقولُ الرجلُ عنّي ؟

ابن حيون [من داخل الكشك] : سيدى أبا الحسن لقد لمحتُ زائرك المغربى خارجا من الدارِ يُهَرول فعبثًا تبحثُ عنه .

[حسون مع ابن غصين ورفاقه وابن حيون] .

ابن غصين [لنفسه] : إلهى . صدقنى القلب ما حدث وقلّما تكذب القلوب، هذا هو شاب قرطبة الذى لم يخل منه القلب دقة [ثم الى حسون] الآن صَدَقتنى الذاكرةُ فنحن ياسيدى قد تعارفْنا قبل اليوم .

حسون : وأين كان ذلك ؟ وكيف نلت هذا الشرف ؟

ابن غصين : فى سوق الكتب بقرطبة من نحو شهرين أو أقلَّ أو أكثرَ.

حسون : لله ما أعظمَ حظّى . أنتَ والله ياسيدى ذلك الفتى الملثم الذى نازعتُه رسالةَ الضبيِّ ونازعَنيها حتى غلبتُه عليها . نعم أنتَ هو ، وهذا صوته ، وهذه شمائله ، فكيف اهتديتَ الى كوخى أيها السيد العزيز؟ يامرحبا ! يامرحبا ! جعلها الله بيننا صداقة الدهر .

ابن غصين : ولكن أنتَ ياسيدى تلاعبُ صاحبَك الشِطرنج وأخشى أن أقطعَ عليكما لذّة اللعِب .

حسون : لا ياسيدى هذه لذة نجدها فى كل وقت وأما لقاؤكم والأنس بكم فلذةُ الدهر وخِلسةُ الأيام . تفضلوا ياسادة .

ابن غصين [لجوهر همسا] : إجتهد ياجوهر أن تلاعبَ هذا الشيخَ وتشغَله حتى يخلو لى وجه حسون .

ابن غصين [الى لؤلؤ] : وأنتَ يالؤلؤ إذا أخذا فى اللعِب فقمْ عند رأسيْهِما ولا تدعْهما حتى أهمّ بالانصراف .

جوهر [الى ابن حيون] : أتأذن ياسيدى أن أحلّ محلّ السيد حسون فى ملاعبتِك .

ابن حيون : تفضل ياسيدى خذ مكانَ حَسون وأرجْنى من قُدرته العجيبة على الظفر بالملاعبين ، ومن حظِّه الذى هو أعجبُ من قدرته .

ابن حيون [الى لؤلؤ] : وأنتَ ياسيدى أتحبُّ أن تكونَ من النُّظَّارة ؟

لؤلؤ : ياحبذا لو أذنتَ ياسيدى .

[يتأبط ابن غصين ذراع حسون و يبتعدان ناحية] .

ابن غصين : أحقٌّ أننا التقْينا ياحسون ؟

حسون : أجل ! وكنا نظن ألا نلتقى .

ابن غصين : عنايةٌ ولطفٌ وتوفيقُ أقدارٍ لأقدار .

حسون : وقديما جمع الله الشتيتين ، وطوى الأرض للبعيدينْ [يجلسان] .

ابن غصين : أتذكر يا حسون قرطبةَ وسوقَ الكتُب ؟

حسون : أجل وأذكر رِسالةَ الضبى وكيف كنا نتنافسُ فيها ، وكيف غلبتُك عليها .

ابن غصين [مبتسما] : وأين هى الآن يا أخى ؟

حسون : هى هاهنا يابن غصين بالقرب منك وفى متناول يدك ، إن شئتَ انتقلنا الى المكتبة فأخذتَها .

ابن غصين : لا يا أخى بل دعها فى موضعها من خزانتك فإنها عندك فى الحفظ والصون وكأنها عندى ، ويكفينى نظرة ألقيها على الرسالة من حينٍ لحين كلما جئتُ دارك زائرة .

حسون [فى دهش] : زائرة ؟

ابن غصين [لنفسه] : ويحَ لسانى قد عثر وكشف السرَّ القدر ! .

حسون [مبتسما] : كيف تأنثتَ أخى؟ ما أنتَ الفتى الذكر؟ أما كفاك هـذا الصوتُ الساحر الرنة اللذيذُ النبرة حتى جمعتَ اليه أنوثةَ اللفظ ولينَ الكلام ؟

ابن غصين [فى تلجلج وغضب] : عثرةُ لسانٍ يا شاب فمر عليها مرَّ الكرام .

حسون : وما أثارك يا أخى وليس فيما قلتُ ما يُغضب ؟

ابن غصين : لنطوِ هـذا الحديثَ ولنرجعْ لما كنا فيه ... أما يسرّك يا حسون أن أخلق لزيارتك العِلل والأسبابَ وأن أجعلَ رسالة الضبى سلّمًا الى دارك كلما اشتقتُ اليك ؟

حسون : كلَّ السرور يابن غصين ، أنا واحدُ أبى لم أعرِفْ عاطفةَ الأخوّة ولم أجدْ لها حنانا ولا رقةً ويخيَّلُ إلىّ منذ عرفتُك أن قلبى يفيض منها وأن وجدانى بها مترَع ؛ فهل ترضانى أخا لك شقيقا برّا بك شفيقا ؟

ابن غصين [ويتنهد] : يا مرحبا و إن كنتَ حللتَ من قلبي محل أخى الظافر من أوّل يوم .

حســون : ويح أذنى ما أسمع ؟ وما أنتَ من الظـافرِ يابن غصين ؟ وما الظافرُ منك ؟

ابن غصين [ويتلجلج فى الجواب] : عثرةٌ أخرى ، ويحَ لسانى اختلّ عصبُه واختلط عضَلُه ، إغفر لى هذه أيضا وآنسها يا حسون .

[وكان ابن غصين ينظر الى رباط بذراع
حسون فوثب فى الحـديث وقال :]

ابن غصين : وقى الله ذراعَكَ بيمينه يا أخى ، ما هذا المِنديل؟ ما وراءه؟

حســون ؟ جُرحٌ اندملَ أكثرُه وبقِىَ أثرُه .

ابن غصين : بَعُدَ عنك الشرُّ يا أخى ، من جرحَك ؟

حســون : هذا واحد من جراح لم يكن يُرجى أن أقومَ منها لو لم تُلْقِ عليها العناية يدها الآسية الشافية .

ابن غصين : بالله إلا حدّثتنى حديثك . أطَلَعَ عليك اللصوصُ يا أخى فى مكان خالٍ من النـاس فأبليْتَ فيهـم وأبلوْا فيـك ؟ أفاجأتْكَ عِصابة البـاز بنِ الأشهب فجرحتَ رِجالهـا وجرحوك ؟

حســون : لا يا ســيدى إن القتالَ الذى شهدتُ أعظمُ شأنا وأنبلُ أقرانا مما ذهبتْ اليه ظنونُك .

ابن غصين : وما خبره وأين كان وكيف ؟

حســون : كان ذلك فى قرطبة .

ابن غصين : قبلَ تلاقينا فى سوق الكتب أو بعدَه ؟

حسون : بل بعد ذلك بأسابيعَ وكنتُ نزيلا على بعض خانات المدينة فكان من عجائب القدر أنى اكتشفت مؤامرة تدبر فى الخان لاغتيال الأمير الظافر وإزالة إمارته عن قرطبة وكان شيطان الفتنة ورأسُ أفعاها هو الأمير حريز بطل الأندلس المشهور فما اطلعتُ على سر المؤامرة وخطط أصحابها حتى ثار ثائرى وغضبتُ لوطنى ولقومى فانسللتُ من الخان ليلا وركبتُ جوادا كان معدّا ليركبه بوقُ الثورةِ والفتنةِ فعدوتُ حتى أتيتُ قصرَ السوسان فنبهتُ الأميرَ وحاشيتَه وحرسَه ولم أكن الى تلك الساعة رأيتُ الظافر وجها لوجه ولا حضرتُ له مجلسا وتأهبَ الجميع للقتال وما لَبِثَ الثوارُ أن طلعوا علينا آتين من نواحى المدينة يقودهم بطل الأندلس حريز فتلقيناهم بصدورٍ قد رحَّبَتْ بالموتِ ونفوسٍ قد هشَّت اليه وذكرنا إذ ذاك الوطنَ وحقَّه وأشبيلية ومِنَّتَها فى الأعناق فحملْنا حملةً تحيد عنها الجبال . وكان الظافرُ طيب الله ثراه .

ابن غصين [منزعجا] : حدّثنى يا سيدى عن الظافر، قل لى كيف قاتل ؟ وكيف قتله الغادرون ؟

حسون : تسألنى عن الظافر كيف قاتل ؟ سلْ حريزا عنه فهو ينبئك أنه الأسد .

ابن غصين : وأين كنتَ من الأمير فى ساعة البأس يا سيدى ؟

حسون : كنتُ حوْله أحمى ظهرَه و يشدّ سيفى سيفَه الى أن ناءتْ به جراحاتُه فسقط عن جواده وكنتُ أنا أيضا قد أُثخنْتُ بالجروح فسقطتُ الى جنبه حتى اذا أفقتُ من غشيتى نظرتُ حولى فرأيتُ عند رأس الظافر هذا الصديقَ الذى تراه يلاعب صاحبك الشطرنج الآن .

ابن غصين : وما اسمه يا سيدى ؟

حسون : ابن حيون وهو من رجال العلم والأدب .

ابن غصين : وماذا كان من اهتمامه بالقتيل ؟

حسون : طبَعَ على جبينِه قُبلة و بكاه ورحّم ثم ألقى عليه رداءَه .

[ابن غصين يدخل فى الاغماء]

حسون : ما هــذا ؟ ماذا أرى ؟ ما أصابك يا أخى ؟ ما لعينيْــك تغمضان ؟ وما بال رأسِك يميل ؟ ويحى ماذا جنيتُ على الشاب ؟

قد كان عن حديث الظافر لى غِنىً. ربّ أصاحٍ أنا أم حالم ؟

[وعند ما يميل ابن غصين فى الاغماءة تقع القلنسوة]

حسون : هذه ضفائر فتاة قد هوتْ عنها القلنسوة فانسدلتْ كجنحِ الليل على جبينٍ كغرّةِ الصباح . أيها الملكُ الكريم لقد عبثتَ بى إذ كنت تتنكر وتترجل فاعبث اليوم بقلبى ما بدا لك

فقــد دبَّ لك الهوى فيــه، إن شئتَ فتنكر، و إن شئت
فاظهر فلأكتمنّ حديثَك ولأقدّسنّ سرّ هواك أن يذاع،
و يلاه إن الإغماءَة قد طالتْ . ابن حيون ... ابن حيون .

ابن حيون : لبيك يا سيدى .

حســون : أنا فى حاجةٍ إليْك تعالَ وحدَك أسرِعْ .

[يحضر ابن حيون]

حســون : ابنَ حيون أنظر ما ذا ترى لقد أُغمِى على ابن غصين
فاذا الظبيُ مهاةٌ واذا البَدْر يابنَ حيونَ شمس .

ابن حيون [بعد تأمل عميق] : يا لغرائبِ القدر هذا الوجه عرفته وعشِقته
قبل عشرين عاما من هذه الأيام وقد لقِيتُ بعِشقه الدواهى .

حسون [مندهشا] : قبل عشرين عامًا من هذه الأيام! أهازلٌ أنتَ ياعمّ؟

ابن حيون : بل جادّ كل الجـدّ يابن أخى . اسمع حسون هــذه بنتُ
الرميكية . هذه أختُ الظافر . هذه بنت ابنِ عباد .

ســتــار

الفصل الرابع

« باحدى مقاصير قصر الزاهي »

« العبادية والدة الملك ابن عباد مع بثينة »

العبادية : لقد علمتُ يا بثينةُ ما كان من زيارتك لدار التاجر أبي الحسن وجلوسك ساعة مع ولده حسون، وأنك كنتِ في زي الغلام وكان معك لؤلؤ وجوهر .

بثينة : ومن خبّرك الخبرَ ياجدّة ؟

العبادية : عينٌ من الحب وكلتها بك ترعى خُطاكِ وتحرُس حركاتك وسكناتك وإن كنتُ عظيمةَ الثقة بنفسك الأبيّة العالية وخُلقك الفاضل الشريف .

بثينة : أنتِ إذن يا جدّة كالمنصورِ بنِ أبي عامر لكِ في كل نادٍ عين، وفي كل سامر أذُن .

العبادية : لا بلْ أنا عجوزٌ يا بثينةُ والعجائزُ يتلمسنَ الأخبار ، وأنا أرملُ ملكٍ وأمُّ ملكٍ يتجسس لي من لم أندبْه للتجسيس ويجيئني بالأخبارِ من لم أزوّد . ومهما يكن من الأمرِ

يا بثينة فلا تنسىْ أننا ما أرخينا لكِ الحبلَ إلا ونحن نعلم أنكِ الفرسُ النجيبةُ التى إذا أُرخِىَ لها الرسنْ لم يُخشَ لها جِمَاح ولا شُرود .

بثينـــة : جعلنى الله عنـد ظنكم يا جدّة . وببغاؤكِ "نادر" يا جدّة أنسيتِه ؟

العبادية : كيف أنساه يا بثينة وقد كان لدىّ كريما وكان سيدَ الطير وكان أخفَّها ظلا وأبينَها حكاية ونقلا .

بثينـــة : أتذكرين يا جدّة كيف أشفقتِ عليه فلم ترضَىْ أن يُنْزَع من ريش جناحيه كما يَصنع الناس بالطيرِ الكريم فيأمنون طيرانه وفراره ، وإنما اكتفيتِ بوضع حَلْقةٍ صغيرة من الذهب فى رجلِه اليمنى تمنعه من النهوض وتقيده وإن كان فى الظاهرِ حرا يتنقّل فى نواحِى القصر .

العبادية [مندهشة] : وماذا أخطر ببغائى نادر على بالكِ يا بثينة وماذا تريدين بذكر الحلْقة .

بثينـــة : أريد أن أقولَ لكِ يا جدّة إن حالى كحالِ المرحوم نادر . قيدتمونى بجوهر ولؤلؤ ومقلاص وبالعيون والأرصاد ثم زعمتم أنى حرةٌ طليقةٌ أفعلُ ما أشاء .

العبادية [مبتسمة] : ولكن لا أظن حلقةَ الذهب تُثقل رجْلكِ يا بثينة فانى أرى خدمَ أبيك الملك لا يقصرون فى صحبتِك عن

خدمةٍ ولا طاعة . على أن كل هذا لا يهمُّنى إنما يهمُّنى أن أعلمَ رأيكِ فى الشاب وكيف وجدته . وهل هو على جانبٍ من الفضلِ والعقل يتميز به عن اللِّدَاتِ ويسمو به على الأتراب ؟

بثينـــة : أما هذا ياجدّة فنعم ، حسون فتى جمُّ العلم غزيرُ الأدبِ عظيم الحظ من الفنون جميعا الى ما وهب له الله من الشجاعةِ التى لا يضارعه فيها اليوم إلا أبى الملك وإلا شابٌّ كان زينَ الشباب ، طاح بالأمسِ شهيد الكرامة والواجب .

العبادية : أو أبدًا تذكرين الظافر يا بثينة ، دعيه يا ابنتى فى أعراسِ نعيمه بين شبابِ الجنة ، خبّرينى هل فى شبانِ أمراءِ الديارِ اليوم من هو الكفء لأميرةِ الأندلس وعروسه ؟

بثينة [فى حياء] : هبِى الكفءَ موجودًا حاضرًا يا جدّة . أهذا وقتُ الفكرِ فى زواجى والاهتمامِ بهِ وأنتِ ترينَ الحوادثَ يجدّ جِدّها والأمورَ تسوء مصايرُها . مسكينٌ أبى الملك أصبح لا يدرى من أين يتلقى البلاء : المغاربة وسلطانهم ابن تاشفين يطلعون من البحر ، والأسبان وعاهلهم ألفونس يزحفون من البر ، والملك بينهما كالصيدِ المطارَدِ من جانبيه ، إن تلفَّت عن يمينه قُتِل ، وإن تلفَّتَ عن شمالِه أُكِل ، والأندلس فى هذه الأثناء كالأسدِ الواقعِ فى الحفرة إن سكن

لم ينفعه، وإن تحرك لم يرفعه، وحدةٌ ممزقة، وكلمة متفرقة، وآمال بالعدو معلّقة .

العبادية : إن بناتِ الملوك إذا بلغْنَ الى مثلِ سِنك يابثينة كان الزواج أزكى بسترهن وأليقَ بجلالهن، وأما ما ذكرتِ من إظلام الجو وجَهامةِ الحوادثِ، فتلك حال اختلفتْ علينا بها السنون حتى ألِفناها وقد تصير الى الأردأ الأسوأ . وقد يبعثُ الله برياحِ اللطفِ فتعصِمُ السفينةَ من الصخرةِ وتقيها كارثةَ الاصطدام . بثينة ! بنيتي أنا الجدّة ولدتُك مرتين إستريحى الىّ بسرِّك وبُوحى الىّ بمكنونه فلن تجِدِى أرحبَ بسِرك ولا أرحم لكِ من هذا الصدر . خبريني يا بثينةُ أتعرفين بين أبناء سرَوَاتِ أشبيلية اليوم فتى يُتوسّم فيه الخيرُ ويُرْجى فى أمرِه الصلاح، ويقول الناس عنه : فلان كفء لبناتِ الملوك ؟ بثينة . لقد مررتِ باسم حسون مرا ولم تصِفِيه لى . فما شكله ... وما أوصافه ؟

بثينــة : هو يا جدّةُ شابٌّ فى أواخر العقد الثالث من عمره، رشيقُ القامة فى طولٍ، أسمرُ اللون فاحمُ الشعرِ جَعْدُه، ساحرُ النظْرة، اذا تبَسّم جذبَ، واذا تكلم خلبَ .

العبادية [مبتسمة] : هو إذن فتى جميلٌ يا بثينة ؟

بثينــة : جدا وخفيفُ الظل فوقَ ذلك .

العبادية [بعد إطراق] : ولكن ... ...

[فاْجفلتْ الفتاة ولاحظت الجدّة ذلك] .

العبادية : لا تغضبي يا بثينة فليس وراء « ولكن » شيء أقوله يحط من شأن حسون وينزل به عن مرتبة الفتيان الأمجاد . بل كل ما هناك أن الناس يتحدثون اليوم فى همسهم عن نكبة نزلتْ بالتاجر أبى الحسن فذهبتْ بمعظم مالهِ .

بثينة : وما يَعيبُه من هذا يا جدّة ؟ أليس أبو الحسن تاجرا ، والتجارة جزرٌ ومدّ ، وحِرْمان وجدّ ، ونحس وسعْد ، فكم من تاجرٍ بمنزلةِ أبى الحسن قد نُكب فذهبَ عنه كلُّ شيء الا الخلُق ، ثم لم تمضِ مدّة من الشهورِ أو الأعوام حتى سمِعَ الناسُ وتحدّثوا أن التاجرَ فلانا المنكوبَ تغلبَ بالخلُقِ على نكبتِه فعاد دولابُ تجارتِه كأمسٍ عظيمَ الحركة عميمَ البركة ، ومثلُ أبى الحسن فى خُلُقه وأمانته وشرفِ اسمه فى الأسواقِ لا يبعدُ أن يقومَ من هذهِ السقْطة ورجلاهُ فى عافية .

بثينة [صاغية ثم قائلة] : ... أسمعتِ يا جدّة .

العبادية : أجل ! سمعتُ تنفُّساً .

بثينة : تُرى مِن الطارق ؟

[يدخل عليهما الملك] ..

الملك : صفْحا يا أمّ وعذرا يابثينة اذا كدرتُ عليكما الخلوةَ وقطعتُ

عليكما الحديثَ فوالله ما دفعني اليكما الساعة إلا همٌّ سارٍ وشاغل جليل .

العبادية : لا بأس عليك يا بنيّ ، وعافاك الله أيها الملكُ ، تفضلْ ، اجلِس .

بثينة : خذْ مكانَك بيْننا يا أبتِ واسترِحْ الينا من همومِك ، فهاهنا الرحمةُ قد بسطتْ جناحيْها : هاهنا الأم والبنت .

[الملك يضع جبينه على كتف بثينة باكيا] .

بثينة [باكية] : ... هوّن عليك يا أبتِ وتجملْ أيها الملك فقبْلك لم تَبْكِ الآساد ، ولا اشتكتِ الأطواد ، ولا ضاقَ البحرُ عن الأعاصيرِ الشداد . تحدّثْ الينا يا أبتِ ولا تيأسْ من روْحِ الله . وعليك بهذه الجدّة الشفيقةِ والأم البرّةِ فائتمنْها على سرك .

الملك : الملك ألفونس منذ سقطتْ طُلَيْطُلةُ وقضاها الله له أصبحَ لا يعرفُ لي منزلةً ولا يألوني تحقيرًا و إهانة و يطلب المالَ باستكلابٍ وشرهٍ والبلادَ باستطالةٍ ولؤمٍ؛ ومن عجيب أمرِه أنه يغضبُ من جهة فيصخبُ و يتهدّد ، و يلينُ من أخرى فيلومني على الاستغاثة بيوسفَ بن تاشفين واستنجاد جنوده ، و يدّعي الطاغيةُ أنه أوفى لي منه عهدًا وذمة وأصفى صداقة وموّدة ، وأنني إن حالفت سلطان

المغرب كانت محالفةَ الذئبِ للحَمَل، وأن بربر المغرب اذا دخلوا الأندلس طغَوْا فى البلاد وهدموا بنيان الحضارة فيها، ومن نكد الدنيا أن تَصْدُق فينا نبوءة هذا الناصح الغاشّ فقد طمِع ضيفُنا ابن تاشفين فى ملكنا وسلطاننا وتطلعتْ نفسُه الى خيراتنا وأرزاقنا، واستنصرناه على ألفونس فاذا نحن الآن نخشى منه بطش النصير، واذا أشبيلية قد تضمّنت منى ومنه العجب، النمر فى قصرٍ هناك وراء الضفة يجتمع به أعدائى وأعداء الأندلس من أبنائه الأندلسيين وصغارِ العقول من الفقهاءِ ومن يلتفُّ عليهم، وهؤلاء يحسنون له البقاء فى الأندلس واغتنام الفرصة لضمه الى سلطنته، ويقيمون عنده الحجج على فسادِ ملوكِ الطوائف ويجعلونَنى الهدف الأوَّلَ، وهنا فى هذا القصر أسد مقلّم الأظفار مغلوبٌ على العرين وحيدٌ من الأنصارِ والأعوان .

الحاجب : شيخٌ يُدعى ابنَ حيون بالباب يا مولاى .

بثينة : أدخله يا أبى وبالغ فى إكرامه فقد سلفَ للرجل إحسانٌ إلينا لا ينبغى لنا أن ننساه أبد الدهر .

الملك : أدخله أيها الحاجب ... [يخرج الحاجب من الباب] خبرينى يا بثينة ما إحسان ابن حيون إلينا ؟

بثينــة : لقد حدّثنى من لا أشك فى صدق روايته أن هذا الرجل صلى على أخى الظافر وبكاه وألقى عليه رداءه .

[يدخل ابن حيون فتسدل العبادية وبثينة كلتاهما على وجهها القناع] .

ابن حيون : السلام على الملك ورحمة الله .

الملــك : وعليكم السلام أيها الولىُّ الشفيق الحميم .

ابن حيون : لو أذِن لى الملك فى خلوة [وقد رأى السيدتين] .

الملــك : لاتخْشَ شيئا يا ابن حيون ، فهذه العبادية ، أمى وهذه بثينة بنتى ، فحديثُك لن يساق إلا الىّ ، وسرُّك لن يجاوزَ أذُنىّ .

ابن حيون : أيها الملك . نحن اليوم أخوف ما كنا على هذه الأوطان ، وفى مثـل ما نحن فيـه تجبُ على الأمةِ النصيحةُ للملك ، وقـد انتهى الى أذنىَّ من بعض الفقهـاء والمختلفين الى ضيفِك هذا يوسفَ بنِ تاشفين أنه أصبح يرى نفسَه أحقَّ بهذا الملك منكَ وقد رأيتُ رأياً فان أذِن الملك رفعتُه اليه .

الملــك : وماذا رأيتَ يا أديبَ الأندلس ؟

ابن حيون : إعلم أيهـا الملك أن هـذا الضيفَ الذى نصرتَه ونصرَك وحالفتَه وحالفَك وقاتلتَ معـه قتالا يبقى حديثَ الدهرِ هو أهل لأن يغـدركَ وفى غدرِك ضياعُ الأندلس جميعا ووقوعه فى قبضته البربرية الغاشمة ، وقديمـا كان هـذا سلوكه مع غير واحدٍ من أمراء المغرب فنزعَ منهم ملكَهم

وسلطانَهم وشرَّدهم فى الصحارى والقِفار، فلا تفوتنَّك يا مولاى خُطة الحزْمِ والعزْمِ فى أمرِ هذا النِّمر ذى العِمامةِ والمِسبَحة .

الملك : وماذا تنصح لى أن أصنع ؟

ابن حيون : ألا توطئَ الأرْقم سريرَك ، وأن تقطعَ السيفَ قبل أن يقطعَك، وأن تقبِضَ من فوْرك على ضيفِك هذا فتسجنَه ولا تطلِقَه حتى يأمرَ جنودَه بمغادرةِ الأندلسِ برِّه وبحره، ثم يحرس أسطولُك البحرَ من كل سفينةٍ مغربية تجرى فيه ، فاذا تمَّ لك ذلك أخذتَ على ابن تاشفين الأقسامَ ألا يعودَ الى الأندلس بعدها أبدا . وخذْ منه الرهائنَ فإن نفسَ الرجل أعزُّ عليه من ملك الأندلس والمغرب مجتمعين؛ وله أعداءٌ ببلاده يخشى تحرُّكهم وانتقاضَهم ويخافُ أن ينتهزوا الفرصةَ للاستيلاء على مُلكه ...

العبادية : أيها المتكلمُ المحسنُ والناصح الصادقُ لم يخفَ علىَّ مكانُ مشُورتِك ولكنها خُطة أوّلها لؤمٌ وآخرها شؤم؛ فان الملِك أكرمُ وأعظمُ من أن يغدر ضيفَه أو يخونَ جارَه أو أن يحفرَ الحفْرَة لمن أقالَ عثْرته .

الملك [لابن حيون وقد رآه يضطرب] : لا تُرَعْ أيها الرجلُ الصادقُ فقد كنا حين نُبئْنا بوصولِك نخوضُ فى هذا الحديث وكان رأيى

كرأيك وأما ابنتى بثينة فلم تكن أبدتْ رأيها بعد .

بثينـــة : مولاى . كلا الصوتين نبرةُ حق . ونصــيحةُ صِــدق ، إلا أننى أميل إلى الأخذ برأى الأديب ابن حيون .

المــلك : بورك فيك يا عقيلةَ الأندلس . مثُل هذا السمو فى الرأى وهــذا الحرص على حقيقةِ الملك لا يستغربان من بناتِ الملوك المنشّآت بين أعباءِ الدولة ومهام السلطان .

العبادية [معترضة] : ونحنُ بنات الشعبِ ألا يقام لِرأينا وزْن يامولاى؟

الملك [مبتسما] : أنتنَّ تلِدْنَ الأجسامَ الصــحيحةَ والقــلوبَ الجريئةَ وتُحسِنَّ تدبير البيوتِ ولكن لا تَصلُحْنَ لسياسة الممالك .

الملك [لابن حيون] : لو تيقنتُ يا بنَ حيون أن جمهورَ شبانِ الأندلس يشاطرونكَ أنتَ وبثينةَ الرأىَ لـما تأخرتُ ساعةً عن العملِ بمـا تُشيرانِ به علىّ .

[يدخل مفلاص] .

المــلك : كيف قضيْتَ ليلتك عنــد ضيفِنا أميرِ المسلمينَ يوسفَ ابن تاشفين ؟

مفلاص : كانَتْ ليلتى يا مولاى ونحن، كما تعلم، فى آذار وفى إبانِ القمــر طويلةً مظلمةً باردةً لم أُضحِك فيها الســلطان مرة ولكن بكيتُ مرارًا ولم أجلبْ له السرورَ ولكن جلبتُ لنفسى الغمّ .

الملك [متعجبا] : ما هذا الخبرُ يا مقلاص ؟

مقلاص : وُجِدتُ يا مولاى بحضرةِ أميرِ المسلمين لا يفهمُ كلامَ العربِ وعنــد رأسِه ترجمان من كتّابه يفسرله كل مانقوله معشرَ العــرب فى مجلســه ويشرح لكلٍ منا ما يشرِّفه به السلطان من الخطاب .

المــلك : ثم ما ذا ؟

مقلاص : رأيتُ هنــاك يا مولاى مــلوكَ الأندلسِ وُقــوفاً ببــاب السلطان متنافسين فى إذنه .

الملك [ملتفتا إلى زائره قائلا] : أسمعتَ يا بن حيون ... ؟ أعرفْتَ ... ثم ما ذا يا مقلاص ؟

مقلاص : ورأيتُ ثَمَّ فقــهاءَ الأندلسِ بعمائمهــم المكبَّرة وجُبَبِهــم الموسعةِ يتمسحون بالأعتاب .

المــلك : أسمعتَ يابنَ حيون ! أعرفتَ ؟

المــلك : ثم ما ذا يا مقلاص ؟ قل لنا كيف وجدتَ السلطان .

مقلاص : بُوٌّ عليه طيلسان وبُومَةٌ فى يدها صوبجان .

المــلك : وما ذا قال لك حين وقعتْ عينُه عليك ؟

مقلاص : أدخلتُ اليه يا مولاى فحقَّقنى من رأسى لقدَمى ثم قال لى : أأنتَ الرجلُ الذى عمَــلُه إضحاكُ الملكِ بنِ عباد وتلهيــةُ أسرتِه ؟

الملك : فما كان جوابك ؟

مقلاص : قلتُ له أجل أيها السلطان أنا نديمُ الملكِ وسميرُه .

الملك : فماذا قال لك ؟

مقلاص : قال لى إذاً فاضحكْنا نحن أيضا . عجِّل أضحكْنا .

الملك : فماذا صنعتَ ؟

مقلاص : دخلنى خجلٌ شديد ووقفتُ ساعةً أنظرُ فى ثيابى ولم يفتحِ الله علىَّ بشئٍ يَضحَك منه ضيفُك الكريم . فهمَمْتُ بأن أقبِضَ على السلطانِ بكلتا يدىَّ وأقذِفَ به من النافذة .

الملك : وماذا منعك يا مقلاص ؟

مقلاص : سيفُه المعروضُ على حِجرِه والزبانيةُ القائمون عند رأسِه وبجانبيهِ كأنهم العفاريت ، إلا أن السلطانَ لحظ حرَجَ موقفى فأشارَ بإخراجى فحضرَ من رجاله من صرَفنى فى وقاحةٍ وإذلالٍ فخرجتُ وأنا لا أدرى فيمَ طلبَنِى الرجل . وأحمد الله على أن لم يجعلنى فى خدمةِ سلطانٍ مثلِه له وجْهٌ كوجهِ الأسد لا يعرِفُ التبسمَ ولا البشاشةَ .

[مقلاص يريد أن ينقذ الملك من تأثره] .

مقلاص : لقد وجدتُ ضالتى يا مولاى .

الملك : وما ضالتك التى وجدتَ؟ وهل عدتَ تهذى يا مقلاص؟

مقلاص : لا يا مولاى ... ألا تذكر أنى كنتُ من الإعجاب بجمالِ

الأميرة بثينة وكمالها وسموّ منزلتها بين عقائل الشرق والغرب بحيثُ لا أعتقد أن بين فتيانِ الدنيا من هو أهل لأن يخطبها إليك .

الملك [مبتسما] : والآن هل وجدتهُ يا مقلاص ... ومن تُرى يكون؟

مقلاص : فتى جرئ جميل رأيته يوم الزّلاقةِ يحمى ظهرك هو وحريزُ وابنُ لاطون فظل سحابةَ نهارِه معلناً بالسيف دونك حامياً لحوزتك حتى لقِىَ البطلان حريز وابن لاطون حتفَيْهما وحُمِل هو إلى داره مُثخناً بالجراح .

الملك : ومن الفتى يا مقلاص ؟

مقلاص : هو يا مولاى أجملُ فتيان الأندلس وأشجعُهم وهو الآن طريحُ الفراش ما يزال يشكو من جراحِه .

الملك : ومن يكون ... ؟ وما آسمه ؟

مقلاص : هو حسون ابن التاجر أبى الحسن .

ابن حيون : لقد صدقَ فتاك يا مولاى فإنى كنتُ عند حسون الليلةَ البارحةَ أعودُه وقد أفاقَ من جراحِه وقصّ علىّ حديثَ بلائِه يوم الزّلاقة حين اشتدّ القتالُ بينك وبين الإفرنج فأخبرنى أنه رأى يومئذٍ جوادَك وقد ضعُفَ وخارَ من شدّة الجراح فقدّم لك الصاعقة : أميرَ الجيادِ، فركبتهُ وكانَ تحت البازِ بن الأشهب لِصِّ الأندلسِ فخرّ عنه قتيلا .

الملك [مندهشا] : أوكان البـازُ بن الأشهبِ بجانبى يقاتِلُ معى أعداءَ البـــلاد ؟

ابن حيون : نعم يا مولاى ، و يقول حسون إنه أَبْلى يومئذٍ بلاءً عظيما .

المـــلك : يا لله ، أيكون اللصوصُ أوفى للأندلس من أمرائه وفقهائِه ، وأبذلَ منهم للأرواحِ دونَ لوائه ... وأين حسون الآن ؟

ابن حيون : هو كما ذكرتُ لمولاى مايزال طريحَ الفراشِ ولكن لاخطرَ على حياته .

المـــلك : الآن تذهبُ أنت ومقلاص فتنوبان عنى فى عيادته والسؤالِ عن أمرِه و إبلاغِه تحيتى وَشكرى وما أُعِدُّ له من جَليــل المكافأة .

بثينـــة : وأنا أيضا أبلغ حسونا تحيتى وشكرى يا سيدى ابنَ حيون وأرجو أن يعلم أن أختَ الظافرِ لم تنْســهُ ساعةً وأنها قد جمعتْ له هذه الأزهارَ بيدِها فاحملْها اليه وقل له لوكنتُ الملك لبعثتُ له بالغارِ فى الأزهار و بالصو لجان مع الريحان .

[وفى هذه الأثناء يدخل جوهر]

جـــوهر : مولاى ، لقد وَقَع ما كنا نحاذِرُ وحلّ بأشبيليةَ البلاء .

المعتمـــد : البلاء ! تريد أن الصديقَ قد انقلبَ وأن الحليفَ قد عادَ حرْبا ، هذا ما خِفتُ أن يكون وقد كان .

[يدخل لؤلؤ]

لـؤلـؤ : أغِثْ أيهـا الملك المدينــةَ أدركْها فقــد خلَّفتُها وجنودُ السلطان يتدفَّعون فيها كالسيل بعد ما اشتدّ ضغْطهم على باب الفرج وأقاموا ساعةً يدفعونه حتى ناءت به الكثرةُ فانفتح فنفذوا منــه الى كل مكان فاخرج يا مولاى فقاتِل حتى تَستنقِذَ الوطنَ أو تموتَ دونَه وإلا فالنجاءَ النجاءَ ! !

الملك [مغضبا] : تدعونى يا شابُّ للفِرار . هيهاتَ هيهاتْ . الأسَـدُ لايهربُ ولا يخـافُ الموتَ . [ملتفتا الى جوهر] خبرنى يا جوهر أين كان فتيانُ أشبيلية وأين همُ الآن .

جـوهر : قَبَع الفِتْيانُ فى البيوتِ يا مولاى إلا مائة أو مادونَ المـائة شهِدوا معك يوم الزّلاقة وتعلّموا منك الكرَّ والإقدام واليومَ قد لبِسوا السلاحَ وخرجوا يلاقونَ الموتَ وهم بانتظارِك ليجعلوك اللواء الذى تسيل نفوسُهم عليه .

المـــلك : يا بشراى مائةُ شاب وطّنوا النفسَ على الموتِ ؛ أما والله لو صــدقتَ يا جوهر لكان لى من مائة قلبٍ مجتمعــة مؤتلفةٍ متواصيةٍ بالحق وبالموتِ قوّةٌ أرمى بهـا فى العُبابِ فيمّحى وأقذفُ بهـا على الجبـال فتزول . البـدارَ البدارَ ياجوهر إمضِ لوقتِك فضعْ بيدِك السرْجَ على الصاعقــةِ والقَنِى به على الباب .

جوهر [بصوت عال] : أبشرى أشبيلية هـذا الليث قـد تحرك لنصرة العرين .

المـلك : فى ذمةِ الله وفى حفظهِ يابنات المعتمد .

بثينـة : فى درعٍ من وقايةِ الله يا أبى فإنى أراك أخذتَ سيْفَك ونسيتَ درعَك .

[المعتمد وهو منطلق والسيف مسلول فى يده ولا درع عليه]

المـلك : إن يسلبِ القومُ العِدا مُلْكِى وتُسلِمْنِى الجموع
فالقلبُ بين ضلوعِه لم تُسلمِ القلبَ الضلوع
قد رمتُ يوم نزالِهم ألا تحصِّنَنِى الدروع
وبرزتُ ليس سوى القميـص على الحشا شىء دَفوع
ما سرتُ قط الى القتا لِ وكان من أملى الرجوع
شِيَمُ الألى أنا منهمُ والأصلُ تتبعهُ الفُروع

ستـار

الفصل الخامس

المنظر الأول

« فى دار أبى الحسن ، فى غرفة حسون ، حسون »

« راقد على سريره مريضا وأبوه أبو الحسن داخل عليه »

أبو الحسن : قم يا حسون ، إنهض . إن العِناية بلغتْك مُناك . وشفَتْ بعودِك للحياةِ أباك .

[ينتفض حسون من رقدته جالسا]

أُوشِكُ يا بنى أن أهتدى لموضع بثينة فهل تساعدُنى وهلْ تخِفُّ معِى لعلنا نجدُ الكنْزَ الضائعَ . ونَظفرُ بالأُمْنِيَّـةِ المنشـــودة .

حســون : ماذا حدثَ يا أبى ؟ ماذا رأيتَ أو سمِعتَ حتى امتلأتَ تفاؤلا واستبْشارا ؟

أبو الحسن : أتذكر يا بنىّ خاتَمَ الزُّمرُّد الذى كانتْ تطوف علينـا به فى سوق الجوهر سـيدة كهْلة من وصائِف القصر وهى

تبحث عن توأم للفص وتلتمسه فلا تجده ؟

حسون : نعم يا أبى! وأذكر أنها كانت تنسب الخاتمَ للأميرة بثينةَ وتصفُ رغبةَ الأميرةِ فى الحصولِ على فَص يكون فى حجمهِ وصفاء لونه وسلامتِه من العيب ليكونَ لها مِن الجوهرتين قرطٌ عزيزُ المِثال .

ابوالحسن : فاعلم إذن يابنىّ أننى كنتُ منذ حين فى سوقِ الجوهر فما راعنى إلا رجلٌ قوىٌّ من قوادِ المغاربة قد جعل يطوف على التجارِ يعرِض عليهم حِلْية فأخذتْها عينى فاذا هى خاتمَ الأميرة بفصّه . فتريثتُ الى أن كفَّ المساومون وكان آخر ثمن بُذل فى الخاتم ثلاثَ مائة دينار وكان التجار يقولون للرجلِ : لوجئتنا بصنوِ هذا الحجرِ لنقدناك فيهما الألف أو زدنا . وهناك أومأتُ الى الرجلِ أن يتبعنى فتبعنى . فانتبذتُ به ناحية وقلت له : أنا آخذ الخاتمَ بالثلاثِ مِئة وأزيدُك عليها مِئة إن أنتَ صدَقتنى الخبرَ عن مصدرِه وكيف وصلَ اليك ومن أى المعادنِ التقطته ؟ فانبسط الرجل وتهلل وقال : هذه الحلْية ياسيدى لجاريةٍ من قصرِ ابنِ عباد وقعتْ لى سبيّةً يوم هجومنا على أشبيلية ، فنقلتها إلى دارى فلم أجدْ عليها غير هذه الحلْية وكانت فى يدها فأخذتها ، وأما الجارية فلم أجدْها مغْنَمًا بل مغرَمًا . فإنها سقيمة مُستسلمة للأحزانِ

طعامُها قليـل ، ونومها غِرار ، ودمعها لا يرقأ حزنا على سادتِهـا . ونحن لا نحب من النساءِ إلا القـويّاتِ الصـحيحاتِ الأبدان . ولا أكتمك ياسيدى أنى بأمرِ الجاريةِ تعِبٌ وبِوُدّى لو تخلصتُ منها . فقلتُ له : خذِ الآنَ الأربع مِئـةِ دينار مباركًا لك فيهـا . واْعلمْ أنى طبيبٌ مولَعٌ بالمشاهدَةِ والتجريب ، كثيرُ الاعتناءِ بالمريض البائس فلو مضيتَ بى الى بيتِـك لعلّى أنظرُ الجـاريةَ ، فَأَعرِف علّتَهـا وأصِف لهـا دواءَها أو أخفف آلامَها . فقمْنا فمضـيْنا حتى انتهيْنا الى دارِه . وهنـاك أدخلَنى على الجاريةِ المريضـةِ فدنوتُ منهـا . وقلتُ لها : عوفيتِ يا جارية ولا خوفَ عليك إن شاء الله تعالى .

حسـون : والنُّونَةُ يا أبت ؟

أبوالحسن : رأيتُهـا ياحسون فوجدتُها فوْق ما كنتَ تصِفُ لى لطْفًا وجمالا . والتفتُّ الى القائد البربرى فقلتُ له : أو تعطِينى هـذه الصبيَّةَ أيضًا وأنا أُتمهـا لك خمسَ مِائة . فتهلل الرجل وارتاح وقال : خذها يا سيدى وأرحْنى منها وداوِها أنت فعساها تصِحُّ على يديك فنقدتُه المـائةَ الخامسةَ وحملت الصبيّة فوقَ ذراعى وخرجتُ بها فركبتُ جوادى وأركبتُها خلفى وانطلقتُ حتى بلغتُ الدار .

حسون [صائحا] : وأين هى يا أبتِ ؟ أتُراها هى بنُوّتها . ربى اجعلها هى ... وأين تركتَها يا أبى؟ وفى أى موْضعٍ من الدارِ؟

[يفتح باب غرفة مجاورة فاذا بثينة من وراء الباب . فيندفع اليها حسون صائحا ...] .

حسـون : بثينة ! حبيبتى ! أميرتى .

بثينـة : حسون ! أخى ! صديقى !

أبو الحسن [قاطعا عليهما لذة اللقاء والحديث] : الآن وقـد جمعتُكِ يا أميرةُ بصـديقِك وخادمِك حسون ، أستاذِنُ فى الخروج الى بعض شأنى ساعةً .

بثينـة : لا ياعمّ ، بل ابقَ البثْ ، إن وجودَك معنا يَزيد الموقفَ بهْجة وطيبًا .

أبوالحسن : إن أذنتِ يا أميرة فإن احتجابى عنكما لن يطول .

حسـون : بل ابق معنا يا أبى .

أبوالحسن : سأعود يابنى، سأرجع [ويخرج أبو الحسن] .

حسـون [الى بثينة] : ماذا أقول يا أميرتى ؟ وكيفَ القولُ فى هـذه الساعة التى هى العمر ؟

بثينـة : أنظر حسون كيف جعـل الله هـذا اللقاءَ الذى لم يكن فى الحُسبان عِوضًا لمـا فاتنَا من نعيم الحياةِ ومتاعِها ، حتى كدتُ أنسى ذلك الملْك المنزوعَ والسلطانَ الذاهبَ ، وأسلو القصورَ وضجّتها ، والدولةَ وأعراسها .

حســون : وأنا أيضا يابثينــة غفرتُ هفــواتِ الدهر لهــذه الساعة المحسنةِ الطيبة وإن لم أخلُ ولن أخلو ما عشتُ من تفجُّع للوطَنِ العزيز وتوجّع لرزئه الجليل .

بثينة [متنهدة، مكتئبة بعد انبساط] : آه من الدهر ماذا صنَع . لطف الله بِكِ يا أشبيلية فيما حلَّ عليكِ من قَضائِه، وجعـلَ وطأةَ المغارِبةِ خفيفة عليكِ وعلى جاراتِك من حواضر الأندلس.

حسون [مطرقا متنهدا]: دهرٌ ببنيه يابثينةُ قلّب، ودنيا تَرْتَجِلُ العجائب، وملك فى السماء يفعلُ بعباده على الأرض مايشاء،ولكن ...

بثينــة.حبيبتى أميرتى : أحقٌّ أننا التقيْنا فى يقْظَةٍ أم نحنُ خيالان فى رؤْيا من الأحلام ؟ أتذكرين يا بثينةُ يوم السوق ؟ أتذكرين قُرْطبــةَ ؟ أتذكرين رسالَةَ الضحِّى لله ما كان أحلاكِ يومئذٍ وراءَ اللِّثام .

بثينـــة : وأنتَ يا حسون لله ما كان أجملَك وأكملَك وكأنَّك يومئذٍ ملِك . كنتَ تنتقل فى السوق فتخرُج من مكتبةٍ وتدخلُ غيرها وتدعُ كتابا وتأخذُ كتاباً والكتبُ حلْية الشباب النابهِ وجمال الفتُوةِ النابغَة .

حســون : أتذكرين كلَّ ذلك يابثينة ؟

بثينـــة : أجلْ كلُّ ما كانَ من حركاتِك وسكناتِك يومئذٍ ومن عباراتِك وإشـاراتِك ما يزالُ مُرتَسِماً فى ذهْنى لم تمحُه الشهورُ ولا أحسبُ الموْت يمحوه .

حسون [يمد يده الى ذقنها و يقول] : بحياتى نونة كالدرة المكنونهْ.

بثينة [فى شىء من الغضب] : نحّ يدك يابن أبى الحسن لا تمـدّها الى ما لم تملك بعْد .

حسون [فى انكسار واستحياء] : اغفريها للحب وللشوق يا أميرة . شُلَّتْ يدى إن كنتُ أضمرتُ سوءا أو هممْتُ بريبة .

[يدخل أبو الحسن] .

حسـون : أبى ! أبى لم تُبطئْ يا أبى .

أبوالحسن : كنتُ مشغولا يا بنى بتهيئة طعامِ الأميرة .

بثينـة : جزاكَ الله خيرا ياعمّ ومدّ لنا عمرك .

أبو الحسن [يأخذ مجلسه و يقول] : الحمد لله ياولدىّ على هذا التلاقى الذى هو من توفيق الأقدار، فاليوم جمعكما هذا البيتُ على أثرِ الكارثة وفى أعقاب النكْبة كما يجمع الشاطئُ الغريقيْنِ سالميْنِ بالرمق من انكسارِ الفلْكِ ومن ثوْرة الريح وطغْيانِ الماء، لقد تعارفْتما بالأمس فنشاتْ بينكما الأُلفة وأنست الروحُ بالروح، وانعطفَ القلْبُ على القلْبِ وقديمًا يا أميرةْ صاهرتِ الملوكُ الرعيةَ وأبوكِ ، لطف الله به و بنا جميعا فيما حل علينا من قضائه وقدرِه، أسمحُ مَن سنّ هذه السُّنةَ، فرفعَ على عرش أشـبيلية امرأةً من رعاياه ، هى الرميكية خيرةُ الملِكات، وأمُّ العقائل من البَنين والبناتِ .

بثينـــة : أراكَ ياعمُّ قـد بالغتَ فى مؤاساتى حتى أنكرتَ يدَ الدهر وما نالتْ منـا ، وإلا فأينَ أبى منّى اليوم؟ وأين مِنْ أبى مُلكهُ ؟ وهل نحنُ اليوم إلا سوقةٌ نَتَنصَّفُ .

أبوالحسن : هوّنى عليك يا أمـيرةُ إن أباكِ لم يخلعْه قومُه ، ولكن خلعـه المُغيرون ، فهو فى نفوسـنا معشرَ الأشبيليين حاضرُ الجلالَةِ ماثلُ المهـابَة مرتسِمُ الكرامَة ؛ يومُه كأمسه وغدُه كيومِه وإن اختلفَ به اليوم والغدُ وتصرفتْ به الأيام ؛ وأنتِ أيتها الأميرة فما زلتِ بنتَ الملكِ المعتمد بن عباد ، فهل تَنْزلين الى القبولِ بابنى هذا حسون زوْجا .

حسـون : وخادِما أمينا .

بثينـــة : هـذا كثيرٌ فى المجاملةِ والمواساةِ ياعمُّ ، إن حسونًا كفءٌ ويشهدُ الله أنى أحبُّـه وأجِلُّه ، وكأنى بأبى فى غيابةِ سجْنهِ ينظرُاليه كما أنظرُه . ويشعُر نحوَه بمثل ما أشعُر . ولكنى ، كما علمْتَ ، مفجوعة : بأبٍ منكوبٍ ، ملكٍ معْزولٍ ، أُخذ فغُـلَّ ، ثم سُربل الذلَّ ، وبأمٍ ثكلى وإخوة قتْلَى ، وأخواتٍ أميراتٍ يتعـذبْن من الخلْع و يتكسبن من غَزْلِ أيديهن .

حسـون : قـد قُلتِ حقا يا أمـيرةُ وأنا لا أتخيل الجميـعَ هناك إلا مشـغولين بكِ فوقَ منْفاهم . يفتّشون عن مكانِك بعـيْن

حيّرها الدمعُ، ويد قصّرها العجزُ، وقدمٍ أعجزَها القيْد .

بثينــة : إذًا فأنتَ ترى أنه ليس من الحق ولا من البر، أن أُوجَدَ ولا يعلَمون أنى وُجدتُ ، وأن أتزوّجَ ولا يعلمونَ كيف وَبِمن تزوّجْتُ . وماذا يقولون اذا همْ عَلِمُوا أنى اتخذت من مأتمهم عُرسا ! ؟

ابن حيون [يدخل ويقول بعد أن رأى بثينة ، مندهشا] : سيدتى بثينة هنا ؟ الأميرةُ بخيرٍ ؟ ما أعظمَ منّتَك يارب .

[ويحاول تقبيل يد الأميرة فتمنعها منه] .

بثينــة : لا تفعلْ ياعمّ . أهــلا بك يا بنَ حيون . وما أعظــمَ سروري بِلقائِكَ .

أبوالحسن : أنظر ابن حيون نعمةَ اللهِ علينا بهذا الكنْزِ الغالى الثمين .

حسون : أنظر ابنَ حيون كيف ردّ الله علىّ راحتى ورُوحى، وأعادَ لى الحياةَ والآمال .

ابن حيون : الحمد لله الذى جعلَكِ فى حفْظه وفى ذمّتِــه ، والذى ردّكِ الينا سالمةً ياسيدتى، والذى هو قادرٌ على أن يجمعكِ بأهلِكِ كأمسِ على جاهِ الأمورِ وفى ظلِ شاهقةِ القُصور .

بثينــة : لقد رأينا ياعم كيف تنتقل الأمور، وعرفْنا كيف تُبَــدّلُ أهلَها القصور، وأصبحتُ لا أطمع من دهرى إلا بالعَيْش فى ظل الأمنِ والخمول، وبين قلبٍ يحنو، ونفسٍ تعطف .

ابن حيون : طيبي إذن ياسيدتي نفْسا ، إن الذى تشتهين قد اجتمع لك ، فالأمن والسكون لا تعدمينهما فى جناح من هذه الدار ، أو فى جنّةٍ بعيدةٍ عن النّاس من جنّاتِ هذا الإقليم وإنى أشهد أن هذا الفتى يُحبك وأنكِ ملءُ قلبِه وملءُ نفسِه ، فاقرنى ياسيدتى حياتَك بحياته تجِدى حقيقةَ السعادةِ فى ظل الحبِّ المشتركِ الصحيح .

حسون : كان هذا حديثنا ياعم قبل حضورك ولكنْ لم نكن فرغْنا منه بعدُ . وقد رأتِ الأميرةُ براًّ بوالديْهَا وقضاءً لحقِّهمَا أن يكون زواجُنا بعيْن أبيها وسمْعه ، و بقَبول أمِّها ورِضاها . وكل زواج رَضِيه الأبوَانِ وارتاحا اليه سبَقتْ فيه البَرَكةُ وطافَتْ به الرحمة .

ابن حيون : لقد رأيتم صوابا . واتفقتم على واجبٍ كان لا بدّ من قضائه . ولا أظنُّ هذا المقترَحَ لقى منكَ اعْتراضا يا أبا الحسن .

أبو الحسن : معاذَ الله يابنَ حيون ، ولكن ألا ترَى معى أن حسُّونا والأميرةَ محتاجان الى الراحةِ واستردادِ العافية .

ابن حيون : أما هذا فنعم ، ولِم لا يقْضى حسونٌ والأميرةُ هذا الأسبوعَ فى هذهِ الدار حتى تثوبَ اليهما القوّةُ والعافية .

حسون [مقاطعا] : أتأذنُ لى يا أبى إن رأيتُ غيرَ رأيك ورأىِ ابنِ حيون ؟

أبو الحسن : تكلمْ يا بنىّ فأنتَ حر .

ابن حيون : الكلامُ حر فى الأندلس ياحسونُ فتكلمْ .

حسون : أرى يا أبى أن نُسافِر من ليلتنا بل من ساعتِنا الى أغماتِ مَنفَى الملك .

أبو الحسن : نُسافِر ؟ نسافِر الساعة ؟ وأنتَ والأميرةُ على هـذه الحال من الضعفِ والسقام ؟

حسون : أبى إنى ذكرت الوالدين المنكوبين نخيل إلىّ أنهما على جمرٍ لا يهدأ من اللوعةِ لاحتجابِ الأميرةِ والشك المعذِّب فى مصيرها، وليس ما ذكرتما أنتَ وابنُ حيون من ضَعْفى وضعفِ الأميرة وأثرِ السقمِ والهم فينا إلا حالًا لا يلبثُ الشبابُ أن يتغلّبَ عليه، فالمروءةُ تأمرُنا جميعا ألا نؤخّر الرحيلَ ساعة إذ لا معنى للإسْعافِ اذا هو لم يعجّل ولم يأتِ فى أوانِه .

ابن حيون : هو ذاك .

أبو الحسن : نعم الرأى .

الأميرة : ليكُنْ كما أشارَ حسون .

حسون : إذاً فهلمّ أبى، هـلمّ ابنَ حيون ، هلُمّى يا أميرة . الساعةَ نسافر فنقضِى الواجبَ .

الأميرة : ويقضى اللهُ ما يشاءُ .

[يدخل الغلمان الخدم صائحين]

الغلمان : سيدى أبا الحسن ، سيدى حسون ، سيدى ابن حيون
خُذوا حِذْركم أدرِكوا الدّارَ .

حسون : ما يُزعجكمْ أيها الغلمان . وماذا حوْل الدار . إنى أسمعُ
ضجة . أما تسمعُ يابن حَيون أما تسمعُ ضجةً يا أبى ؟

بثينة : حوْل الدارِ ضجة .

خادم من الغلمان : أولئك جنودُ المغاربة يا سيدى .

الثلاثة [بصوت واحد] : جنودُ المغاربة حول الدار ! ؟

الخادم : أجل أتوا يسالوننَا عن بنتِ الملك هل رأيناهَا وهل
آويناها وهم يقولون إنها دخلتِ الدار منذُ ساعةٍ وإنها
طريدةُ الأمير سيرى بن أبى بكر قائد جيش الفتح .

حسون مغضبا : بل قلْ جيش الفضْح يا غلامُ، فقد باء الغادِرون
بفَضيحةِ الأبد .

بثينة : الآن فهمتُ يا حسون ، الآن أدركتُ ياعم أن سيرى
ابن أبى بكر كان قد خطبَنى الى أبى، وكان رسُوله يومئذ
القاضى ابنَ أدهم، فلا أبى أجابَ، ولا أنا قبِلْت، ولعله
تذكرنى اليوم فهو يريد أن يأخذنى عنْوة .

حسون : لا والله يا بنتَ الملك لا تسقطُ من رأسكِ شعْرةٌ وأنا
حىٌّ ساعدى معى وسيْفى بيَدى مسلول .

[وبعد إطراق يستأنف ويقول]

لا بأس عليك يا أميرة، ولا علينا يا أبي من طلعة البربر
ولا من اجتماعهم بنا في هذه الحجرة أو غيرها من الدار
ولا خوف علينا من فتشهم ونبشهم .

التاجر : وكيف يا حسون ؟ وماذا اعتزمت أن تصنع لتدفع عنا هذا البلاء ؟

حسون [بعد فكرة قصيرة] : إسمع يا أبي ! في هذه الغرفة صندوق مملوء من ثياب المغاربة وأسلحتهم فاتبعوني . أدخلوا من فوركم فاخلعوا ثيابكم هذه وخذوا من الصندوق ما شئتم من ثياب المغاربة وتزيّوا بزي القوم ثم نخرج فنختلط بهم أو ندعهم وسبيلهم ونأخذ سبيلا غيره .

ابن حيون : هو لاشك سبيل الفرار .

حسون [مبتسما] : هو ذاك يابن حيون : السرعة، السرعة [ثم ملتفتا الى الأميرة] أدخلي يا أميرة، أسرعي، أسرعي لا يضيعن الوقت فإن الجنود في طلبنا .

[يدخل الأربعة الحجرة ثم يخرجون في الزي المغربي و يكون الجنود قد دخلوا وهم يقولون]

الجنود [داخل المنزل لبعضهم] : فتشوا ، انبشوا .

الأربعة [خارجين قائلين] : فتّشوا، انبشوا [و يكررون ذلك ثم ينسلون من المكان]

المنظر الثانى

« تحت أسوار السجن فى أغمات حيث ترى بثينة وحسون »

« وأبو الحسن وابن حيون على مقربة من حارس السجن »

ابن حيون : ها نحنُ أولاءِ شارَفْنا أغمات، وهذه أيها الرِّفاق هى القلْعة التى شاءتِ الأقدارُ أن يسجَن فيها الملِك العظيم .

حسون : يا لعجائبِ القدرِ ! قريةٌ ظلّتِ القرونَ الطوالَ مجهولةً مغمورةً أصبحتِ اليومَ تسافرُ اليها الظنونُ من كل مكان وتشتَغلُ ممالكُ العرب بها و بنزيلِها العظيم وتشرف الأسماعُ لمطالعِ قوافيه و ينتظر الرواةُ مايقول فيه الشعراءُ من كلماتِ التوجّعِ ونَفَثاتِ الحنينِ .

بثينة [بعد إطراق واستعبار] : يالقسوةِ القدَر ! أهذا قفصُ الأسَد يابنَ حيون ؟ أههنا منْفى الملائِك من عقائل بَنى عبّاد؟ تبًّا لك يابنَ تاشفين . ماكان أبخلَ جاهَك على الكِرام ، وماكان أكثرَك فى القُيود على الأحرار .

ابن حيون : صهْ أيتها الأميرة فهذا السجّان ينظرُ الينا وقد يُدخِل الريبة

فى نفسِه أن يسمعَ منكِ مثلَ هذا الكلام .

حسون : كفكِفِى الدمعَ يابثينة وأقلِّى الجزعَ ولا تنسىْ أن وراء هذه الجُدران جروحا من الدهرِ لم يبق لها بلسمٌ سواكِ . فكونى المفاجأةَ الشافِية وآطلِعِى عليها بابتسامِك الحُلْو طلوعَ العافية .

السجان : مَنِ الرجال ؟ ما تبتغون ؟ متى كان حرمُ السجن موضعَ وقوف وهمْس ؟

حسون : نحنُ أيها السجان طائفة من آل الملِك السجين وحاشيتِه ، قد هزَّنا الشوقُ إلى زيارته والسؤالِ عن أمرِه ، فادخلْ فاستأذنْ لنا عليه .

السجان : أنسيتَ أيها الفتى أن هذه القلعةَ هي من السُّجونِ التى يُعيرها السلطانُ اهتمامَه فلا يدخُلها داخلٌ إلا بإذنه ولايخرجُ منها خارجٌ إلا بإذنِه ، فهل بأيديكم جوازٌ يبيح لكم زيارةَ السجين ؟

ابن حيون : أنتَ تعلم يا أخى أن مولانا السلطانَ يعطِف على أسيرِه الكريم .

السجان [متهكما] : كلَّ العطف ياسيدى .

ابن حيون : وأنتَ تعلم أن الملِك المُعتمِد قد رُخِّص له من أوّلِ يومِ فى استصحابِ من يشاء من خواصِه وذوى قرباه .

السجان : أعلمُ هذا أيها السيد .

ابن حيون : فكر إذن فى الأمرِ قليلا . فليس يضرُّك أن تُدخلنا إلى الملك وتتْركَنا عنده ساعةً لعلنا نَشفى برؤيته وحديثه الشوقَ والصبابةَ [و يلق للحارس صرة ويقول] ومعَ ذلكَ فإليك هـذه الصرَّة خذْها و بلِّغنا الأرَب .

السجان [وهو يضع الصرة فى كمه] : ما هذا أيها السيد ؟

ابن حيون : هذا . قد لمستَه بيدِك ، هذا قد سمِعْت رنينَه بأذُنِك ، هذا يا أخى هو الذهَبُ مفْتاحُ الأبوابِ كلِّها إلا بابَ الجنـة .

الحارس : هذا كثير يا سيدى .

ابن حيون : بل هو قليلٌ يا أخى . ولكَ مثلُه عنـد خروجِنا من حضرة الملك .

السجان : لقد سألتمونى أمراً صعبْا أيها السـيد ... ومع ذلك ... فما فى دخولكم من بأْس . تفضّلوا يا سادة أُدخلوا .

المنظر الثالث

« فى سجن أغمات حيث يرى ابن عباد بين أمه وزوجه وسائر أولاده »
« وحاشيته ، وقد شاعت آية البؤس والتعاسة فى وجوه الجميع ، اليوم »
« يوم عيد وقد جلس ابن عباد يتلقى تحية العيد وكلهم صامت خاشع ... »

ابن عباد [مناجيا نفسه] :

فيما مضى كنتَ بالأعيادِ مسرورا
فساءكَ العيدُ فى "أغمات" مأسورا
ترى بناتك فى الأطمارِ جائعةً
يَغزِلْنَ للناسِ، ما يملكنَ قِطْميرا
برزْن نحوَك للتسليم خاشعةً
أبصارهُنَّ حسيرات مكاسيرا
يطأْن فى الطين والأقدامُ حافيةٌ
كأنها لم تطأ مِسْكا وكافورا
من عاشَ بعدَكَ فى مُلك يُسَرُّ به
فإنما عاش بالأحلام مَغْرورا

الرميكية[للملك] : الأميراتُ بين يديْك أيها الملِك أتيْن يهنِّئنَك بالعيد .

الملك : يامرْحبًا بهن، ولا مرْحبا بالعيد ولا أهلا بهِ ...

عيـد ! بأيةِ حالٍ عدتَ يا عيـد ؟ إذهبْ فأنتَ على
السجين حرام .

الملك[لنفسه] : لكن لا يابنَ عباد! بعضَ هذا الجزع، وتجلدْ رحمةً بهذه
الحمائم الموثقةِ ورفْقا بهذه الملائكة المسجونة .

الملك [الى بناته] : العيد يا أخواتِ بثينة يوم يجمعُنا بأختِكُن .

إحدى الأميرات : والعيدُ أيضا أيهـا الملك يوم يرُد الله عليـك مُلْكك
فتدخلَ أشبيليةَ عليك التاجُ مُؤتلقا .

أميرةأخرى : بل العيـدُ يا أبي يوم تدخل الأندلسَ فتتنقّلُ فى ربوعه
وممالِكه تنقُّلَ الشمس من دارٍ إلى دار .

الملك : تقبّل الله منكنّ يا عبّاديّات ورحِمنى .

إحدى الأميرات : هوّنْ عليك يا أبى فلم يدمْ فى النّعيم والبؤْس قوْم .

الملك : لقـد هوّن الصبرُ الحوادثَ عندى يابنتاه إلا حادثةً أصبحَ
القلبُ جريحا لا يقْوى على حملِها .

الأميرة : وما تلك يا أبتِى .

الملك : أختُكِ بثينـة واحتجابُها الذى طال . وانقطاعُ الأخبـارِ
عن مصيرِها .

الرميكيـة : لا تيأسْ من رحمةِ الله أيها الملكُ وانتْظر فرَجا يأتى به من

فضله وكرمه فهذا قلبي يحدثني، وقلما كذبت قلوب الأمهات، أن بثينة قد وجدت وأنها بخير وأمان .

الملك [باكيا متضرعا] : اللهم اسمع من أمتك الرميكية وتقبل منها وأدخل علينا السرور ولو ساعة فإن عهدنا به عهد طويل .

[الأميرات يتحسسن]

الرميكية : ضجة ؟

أميرة : حركة !

أخرى : نقل أقدام !

الملك : أنظري يارميكية من الداخلون ؟ فإن عيني أصبحت لا تحقق الأشباح .

الرميكية : سلم الله عينيك يامولاي وأقرهما بلقاء بثينة .

[وفي هذه الأثناء يثب مقلاص إلى الباب ويرجع مع القادمين يقبل ثوب الأميرة مهللا قائلا ...] .

مقلاص : سيدتي بثينة! أميرتي، ياطرباه يافرحا .

الملك : رب ما أرحمك ماذا أرى؟ ماذا أسمع؟ ما هذا الطيب الذكي؟ إني أجد ريح بثينة .

الرميكية : بشراك ياقلب هذه فلذتك ردت إليك [وتلتفت إلى الملك] سيدي مليكي انظر كيف استجاب الله لنا، هذه بثينة مقبلة .

الملك : أجل! أيتها الملكة أقبلت الدنيا وعاد الزمان .

إحدى الأميرات : بثينة ! أختى ! ما أعظمَ إحسانَك يارب .

الملك : بنيتى . بنيتى . تعالَىْ املئى ذراعىَّ كما كنتِ تختبئين فيهما طفلة صغيرة .

[تطرح بثينة على صدر والدها وتقول] .

بثينة : أبى ، سيدى ، ملكى ، لا بأس عليك يا ملكَ العرب .

الملك : ولا عليكِ يا ابنتى ، ثِقى بالله وأمِّلى وجهَه الكريم .

بثينة : الصبرُ منكَ تعلمناهُ يا ملكَ الصابرين .

الملك : والجدّةُ يا بثينة أنسيتها ؟ أما بِكِ اليها شوْق ؟ أما لها مِنْك قُبْلة ؟

بثينة [وتقوم لجدتها] : جدتى ، سيدتى ، ملكتى : شهد اللهُ ماخلا القلبُ منك ساعة وما وجدتُ فى مَضيقٍ فذكرتُك إلا انقلبَ فضاءً ولا أظن الله سبحانه وتعالى أنقذنى من البلاء وردّنى الى أسرتى ورد أسرتى الىّ إلا ببركة رِضاكِ أطال الله عمرَكِ يا جدة .

[ثم ترتمى بثينة فى أحضان العبادية جدتها وهى محاطة بأخواتها الأميرات تقبلهن و يقبلنها حتى اسْتَبرَدت اللوعة وأخذها أبواها بينهما وانتظمت من الأسرة الملكية حلقة . وهنالك أقبل الملك على ابنته بالحديث فقال] .

الملك : خبريني كيف اختُطفتِ يا بثينة وما حديث اختفائك ؟ حدِّثينيه ليطمئنّ قلبى فقد كان احتجابُك فى غليانِ الفتنةِ ،

وعند احتدام الفتن يُذال المصونُ ويهون العزيز وتقعُ الفُجاءات .

بثينة : ولكن الله سلّم يا أكرمَ الآباء .

الملك : حدثينا إذن حديثك يا بثينة .

بثينة : حديثى يا أبتِ عجيبٌ ، محزنٌ ، سارٌّ ، مبكٍ ، مضحكٌ ، حافلٌ بعجائب القدرِ ومدهشاتِ القضاء .

الأميرات : حدّثينا إياهُ يا أختُ أسرعى .

الرميكية : قُصّى علينا يا بنتاه قِصّتك .

الملك : خبرينى الخبرَ يا بثينة .

بثينة : نظرتُ اليك يا أبى يومَ هجوم المغاربة على أشبيلية فرأيتُك تقاتِلُ وحيداً قليلَ العونِ والمساعد وكأن أشبيليةَ تحتكَ العرينُ وكأنك الأسدُ يحمى عرينَه شبرًا شبرًا ، فقلتُ فى نفسى : علامَ تعلّمتُ الضربَ بالسيف وعلامَ كنت أركضُ جيادَ الخيلِ فى سهولِ الأندلس وحُزونِه إذا أنا لم أقضِ حقّ وطنى ولم أحمِ ظهرَ أبى فى هذا اليوم العصيب ، ثم جعلتُ على وجهى لِثاما وتقلدتُ سيفاً وامتطيتُ جوادا وخرجتُ من القصر فلحقتُ بك ، فلم أزل أقاتل بجانبك وأحامى عنك حتى امتدّتْ الىّ يد من حديدٍ فاقتلعتنى من سرجى فأُغمى علىّ ثم انتبهتُ فاذا أنا فى دارِ رجل من قوّاد المغرب .

الملك [مغضبا] : وماذا لقِيتِ من المغربى الخشِن ؟

بثينـــة : لم ألقَ إلا خيرا يا أبى فقـد كان الرجل ديِّنا وتقيّا ، أخذَ ما علىّ من الحُلىّ .

المـــلك : يا له من دينٍّ تقىّ .

بثينـــة : ... وتركنى فلبثتُ فى دارِه أياما طريحةَ الفِـراشِ لا أذوق طعاماً ولا أطعمُ رُقادا ، إلا ما كان من سَـكراتِ الحُمّى ، الى أن سخَّرت لى العناية هذا الشيخَ الجليل [وتشير الى أبى الحسن] فلم أدرِ كيف نُقلتُ الى دارِه وهى لا تقِلُّ رِفْعة عن قديم دُورِنا ولا تقصر بَشاشة نعْمةٍ عن زائل قصورنا .

الملك [فى قلق وغضب ، مشيرا الى حسون] : وهذا الشابُّ من يكونُ يابثينة؟

بثينـــة : هــذا حسون ابنُ هذا الشـيخِ الجليلِ التاجرِ أبى الحسن ، وله عنْـدنا أيادٍ يذكرُها مِثلُك فى الكرام فقـد قاتلَ الثوارَ فى قُرطبة مع أخى الظـافر رحمةُ الله عليه ، وأبلى فى وقْعـة الزَّلاقة بلاءً كان له خطره وأثرُه فى ذلك الفتح المبين .

ابن حيون [متدخلا فى الحديث] : وقد جُرِحَ حسون يومئذٍ جُرحا بليغًا فحُملَ الى دارِه فما بلَغها حتى بعثَ اليك أيها الملك بالصاعقة ذلك الجواد الأشقر فركبْتَه والوطيسُ حامٍ والحربُ مجنونة فكان ميمونَ الناصية ، من صوتِه نصرتَ ، وفى ركابه غَلَبتَ وظهـــرتَ .

الملك [مفكرا مهتما] : الصاعقة؟ فرس الباز بن الأشهب لِصِّ الأندلس؟

ابن حيون : أجل أيها الملك، وقد كان تحتك في وقعة الدهر بين الفرنجة والمسلمين وكان رابع فرسٍ قُدّم لك يومئذٍ وأنت كلما هلك تحتك فرس ركبتَ غيره .

العبادية : أعرفتَ محدِّثكَ هذا يا مولاي ؟

الملك : كيف أجهلُه أو أنساه؟ هذا ابنُ حيون الذي زارَنا في أشبيلية ونصحَ لنا فلم نَسمعْ منه، فالحمد لله الذي جمعنا به حتى نَستأنفَ شكر إحسانِه .

ابن حيون : أطال الله بقاءك يا مولاي وأعانَك على هذه الشدّة وردّك الى ديارِك وردّ ديارَك اليك .

الملك : وأنتَ ياحسون فقد ذُكر لي بلاؤك ووصفتَ عندي كثيرا بمحاسن الصفاتِ ومكارِم الأخلاق .

حسون : مدّ الله حياتَك يا مولاي وظلّلك برعايتِه وأمانِه .

بثينة : إيذن لي يا أبي أن أعترفَ في مجلسك بأني كنتُ في بعض أيام تنكّري أجتمعُ بهذا الشاب النبيل فلا أجدُ إلا أدبًا حسنا، وعلما جمًّا ، وخلُقا فاضلا ، وشمائلَ قد لا توجد في أبناءِ الملوك .

الملك : أتذكرين يا بثينة كيف كنتُ معكِ ضدّ القاضي ابنِ أدهم حين جاءني يخطُبكِ للأمير، سيرى بنِ أبي بكر .

بثينـــة : أذكر ذلك يا أبي ولا أنسى لك فضْلك ما حييتُ .

المـــلك : إعلمى إذن يا بنية أن الأوان قد آن وأن الإسلام لا دَيْر فيه ولا رهبانية، وأن السجْن قد يحتَملُه الطفلُ وقد يُطيقه الكهل ولكنه يرهقُ الشبابَ ويُزهقه فلن نرضى لك أن تشاطرينا هذا المنزل الخَشِن وهذه العِيشة الجافيةَ و إن قلْبى ليحدِّثُنى بأن ألفةً روحيّة قد انعقدَتْ بينـكِ و بين هـذا الشاب النبيل .

حسون [متدخلا] : أيأذن لى الملك إن عرضتُ أن قوْله الكريم إنما يُعرِبُ عما أكن لسيدتى الأميرةِ من الحبِّ والإجلال و إنى أجدُ أقصى التّشريف وغايةَ السـعادة أن يأذَن لى الملك فى أن أخطبَ سيدتى بثينةَ اليه .

الملك [ملتفتا الى بثينة] : وأنتِ ماذا تقولين يا بثينة ؟

«الأميرة تغضى حياءً وتسكت»

المـــلك : منَ الصمْتِ كلام .

الملك [الى أبو الحسن] : وأنتَ يا أبا الحسن ماذا ترَى ؟

ابوالحسن : ما يرى الملك أفضلُ . فبما شئتَ فمرْنا يا مولاى ؟

الملك [الى الرميكية] : والمِلكةُ ما رأْيها ؟

المـــلكة : قد أمرتَ يامولاى بما فيــه الخيرُ جعله الله زَواجا مَقْروناً بالسعادةِ واليُمْن .

ابن حيون : أيأذنُ الملك لى أنا الآخر بالكلام ؟

الملك : تكلمْ يابن حيون فقد عرفتُ مودّتك وإخلاصك، وتبينتُ نُصحَك واهتمامَك، ولو لم يكن من احسانِك إلىّ والى أسرتى إلا تجشمُ هـذه الرحلة من أشبيلية الى أغمات لكفى فى باب المروءةِ والوفاء .

بن حيون : لا شكرَ على واجبٍ يا مولاى . وقد طوّقتنى الساعةَ منّـةً لا يَنزِعُها من عُنق الموتُ بما رسمتَ من بناءِ هـذا الفتى الماجدِ الباسلِ بهذه الأميرة التى لم يلدِ الملوكُ أجملَ ولا أكملَ منها : والآن بقى لى ملتمسٌ أرجو أن يُجيبَنى الملكُ اليه .

الملك : اقترحْ يابن حيون تجِد ملبّيا مجيبا فيماتبلغه قدرةُ ملكٍ مخلوع .

[يخرج ابن حيون جرابا كان قد شدّه على وسطه ثم يفتحه وينثره عند قدمى الملك فتنتثر اللآلىء واليواقيت] .

الملكة : جواهر !

الأميرات : لآلئ ! يواقيت !

مقلاص : يالك من كنزٍ ثمينٍ غالٍ .

الملك [وهو ينحنى على الكنز] : ومن أينَ لك يا بنَ حيون كلُّ هـذا المالِ؟ فمثلُ هـذا الكنز لا يكون إلا ذخيرةَ ملِكٍ وابنِ مُلوك .

ابن حيون : هو كما تقول يا مولاى، فهـذا الكنزُ كان لملكٍ ووارثِ

ملوك ، فساقته العناية إلىّ ، واليوم قد هلك أصحابه و بادُوا فأصبح لى وحدي أتصرَّف به كيف أشاءُ ، وبالأمس قوّمتُ هذه الجواهر بما يقربُ من ألفِ ألف دينار وأنا مقسّمٌ هذا المال ثلاثة أقسام : ثُلُثٌ تأخذه أنتَ يامولاى فتستعينُ بهِ على ما أنتَ فيه من الشدّة ، وثلثٌ يأخذه حسون وزوجتُـه فيعيشانِ به رغدا ، والثُلُثُ الشالثُ يكون لى ولأبى الحسن التاجر هـذا [مشيرا إلى أبى الحسن] نؤسسُ به تجارةً ونعقـدُ بيننا شركة نتحدّى بهـا تجاراتِ الفرنجـة فى الأندلس .

أبو الحسن : ... الله أكبرُ أنتَ واللهِ هو المغربى الذى دخل علىّ دارى وما كنت يومئـذٍ إلا متنكرا مُحسِـنًا للتنكُّر فاسوتَ جُرْحى وحفظتَ علىّ دارى واستنقذتنى من عوادى البؤس والفاقة ، والآن تردُّ علىّ تجـارتى وتشاطِرُنى كرائم مالِك ، فبأى لسانٍ أؤدّى شكرَ إحسانِك .

ابن حيون : بل ٱشكُرِ الله يا أخى فإنى لم أعِنك بمالى ولكن أعنتُك بماله ولا أجِدُنى صنعتُ يومئذٍ إلا واجبا ولا قضيتُ إلا ديناً علىّ للصداقة القديمة وللوّد الصحيح .

المـلك : لكن ما عساى أصنعُ يابن حيون بهذه الثّروة وأنا كما ترانى صيْد فى قيْد ، وأسدٌ فى صفَد ، وحىٌّ فى قبْر ، ودنيا فى شِبْر إنها لهِبة مشكورةٌ وان كانتْ والحِرمانُ سواء .

ابن حيون : لقد أراحَ الله بالكَ من هــذه الناحيةِ يا مولاى وأذهَبَ عنْك الحزْن ... أما يسُرك يا مولاى أن تَنتقلَ من هــذه القلْعةِ المظلمةِ الرطبة الى منزلٍ بظاهِرِ المدينةِ جديدِ البناءِ حسنِ الأثاثِ تُحيــطُ به الأشجارُ من كل جانب ، فتنزِلَه وقد طرحتَ هذه القيود فتستقبل الرّاحة والحرّية وتَتمتعَ بالعُزلةِ التى هامَ بها العقلاءُ فى كل زمان .

المـــلك : ومن لى بهذا الذى تصفُ يابنَ حيون ؟

ابن حيون : بل هو أمرٌ قــد تمَّ يا مولاى فقدْ فُرِغ من شرائه وتأثيثه وتهيئتِه لنزولِك به فى أهلِك وعيالِك ، وأما النُّقْلة فغــدًا أو بعدَه إن شاءَ الله .

المـــلك : وابنُ تاشفين ... ؟

ابن حيون : هو الذى أمر أن يكون كلُّ ذلك وقد تذكر كلمتكَ المشهورةَ التى سارتْ مثلا فى قِمَ الأندلس : إذ سئلت أىّ المفزعيْن أحبُّ اليك : ملك الأسبان أم سـلطان المغرب فأجبتَ (رعْىُ الجمال ولا رعْىُ الخنازير) فأمر أن يحمل اليك فى المنْزلِ الجديدِ بعيران من نجائبِ إبلِه لترعاهما له فى خميــلةِ الدارِ الجــديدة .

الملك [فى اطراق] : الآن تذكرتُ . لقد سئلتُ مرة فى مجلس الحكم إن كان لابدّ لى أن أخضعَ لسلطان أو أدينَ لملكٍ بالطاعة

فأى الملكين أفضل وأى السلطانين أختار : سلطان المغرب أم ملك الأسبان؟ فأجبتُ: (أرعى الجمال عند أمير المسلمين ولا أرعى الخنازير لملك الأسبان) وأظن أن عبارتى هذه نُقلتْ يومذاك إلى ابن تاشفين فأعجبْته ووجدَها شريفة.

بثينة : ولكن المكافأة كانت غيرَ شريفة يا أبى .

الملك : تريدين يا بثينة أن تقولى إنّ مروءة السلطان لم تزد على أن جعلَنى راعيًا لجماله بعد ما سلبَ نعْمتى واغتصبَ مُلْكى ونفانى أنا وأسرَتى فى أغمات .

الرميكية : هذا جهدُ الرجُلِ فى المروءة يا مولاى وهذه غايةُ كَرَمه فلا تكلفه فوقَ قدْرةِ باعه ولا تسألْه ما ليسَ فى طِباعه .

الملك [لابن حيون] : ولكن قل لى يابنَ حيون من أخذ لنا هذا التافهَ القليلَ من ذلك السلطان الشحِيح ؟ ومن ذا الذى اجتهد لنا وصَنع كلّ هذا حتى غيّر رأىَ السلطان وصرَفه عن العُنْف إلى اللُّطْف ؟

بثينة : هو لاشك ابنُ حيون يا مولاى .

ابن حيون : ما اجتهدتُ ولا صنعتُ شيئا ولكن المالَ صنَع .
[ويشير الى الجواهر] .

الملك : سنذكر لك هذه الهمّة الكبرى يابنَ حيون .

بثينة : وتلك الهمّةُ الصغرى أتذكرها للسلطانِ يا مولاى، فقد تسمّحَ فنقَلكَ من هذه القَلْعة إلى دار غيرها فى أغمات .

المـــلك : [ويبتسم ابتسامة تهكم] : أعيشُ فيهـا حرًّا طليقا بيْن أربعـةِ جدران وأرعى لَه فيها الجمال .

بثينـــة : أنتَ الذى رعيتَ لله فى أشبيليه قوما شيَّدوا حضارَة الإسلام وشعْبا عزيزا كريمًـا طالمـا ناضلَ دونَ عرينه وصَبَرَ على عَداوةِ الفرنجة وتألُّبهم عليهِ القرونَ الطوال .

ستار الختام

تمهيد

تمهيد

زمن الرواية : القرن السادس قبل الميلاد

مكان الرواية : مصر [منفيس : عاصمة مصر .
صا الحجر : مقرّ البلاط .

فارس/سوس : عاصمة الفرس .

أشخاص الرواية :

أمازيس : فرعون مصر .

بسامتيك : ابنُ أمازيس وولى العهد .

نفريت : ابنة أمازيس .

نتيتاس : ابنة فرعون أبرياس المقتول .

قمبيز : ملك الفرس .

تاسو : حارس فرعون .

تتى : وصيفة الملكة نتيتاس .

فانيس : كان قائداً فى الجيش المصرى ثم التحق بالجيش الفارسى .

رجال الوفد الفارسى .

رجال البلاط الفرعونى .

قواد ـ جند : من الفرس .

ساحر ـ راقصات ـ أقزام ،
نوب ـ حجاب ـ خدم] مصريون .

الفصل الأول

المنظر الأول

« بالقرب من غرفة فرعون أمازيس الخاصة — »
« تاسو حارس فرعون — الأميرة نفريت ابنة الملك »

تاسو : نفريت ؟

نفريت : تاسو ها هنا ؟

تاسو : وهل أرى إلا هنا ؟

أحومُ حول صنمى وحول هذى القَدَمِ

نفريت [وتنظر إلى رجلها] :

حول رجلى أنا ؟

تاسو : أجل حول هذا الشُّهْدِ والزُّبْدِ والنميرِ الصافى

ما بكِ يا نفريتُ ما هذا الأسى ؟

ما بالُ عينيكِ تريدانِ البكا ؟

نفريت : تسألنى ما بى ألم تعلم بما

جرى ويجرى من بخائع القضا

تاسو : ماذا جرى ؟ ماذا لقيتِ ملكتي
من القضاء؟ مُهْجتي لكِ الفِدا
نفريت : كيف لقد كان حسابي أننا بخِطْبَة الفُرْسِ تحطّمنا معا
تاسو : إذن فهذا الغمّ من جرّائها
وأنتِ تخشَيْنَ الرحيلَ والنوى
نفريت : وأنتَ يا تاسو ألم تحزنْ ؟
تاسو : أنا ! أحزنُ يا سلطانةَ الفُرْس أنا؟
لقد وددْتُ لو ملَكتِ كلَّ ما
دبَّ على الأرض وطار في السما
نفريت : وفُرْقتي تاسو ألم تحزنْ لها ؟
تاسو : ولِمْ وفي الفرس يكون الملتقى
نفريت : في فارسٍ ! في قصر زوجي نلتقي !
يا عجبا ماذا تقولُ يا فتى؟
تاسو : لِمَ لا أليسَ في القصور سَعَة ؟ نحن هناكَ مثلُ ما نحن هنا
نفريت : هذا الغَباءُ منكَ تاسو عجبٌ ليس المكانانِ على حدٍ سَوا
هنا أبي إذا بكَيْتُ رقّ لي وإن شفعتُ لكَ عنده عفا
تاسو : وثَمَّ ؟
نفريت : وحشٌ في إهاب بَشَرٍ يَقْتُلُ من يلْقى
تاسو : أمون نجّنا !
وماذا اعتزمت ؟
نفريت : اعتزمت البقاء بمصرَ وفي ظلّ هذي الحُجَرْ

و بالقُرْب منكَ ومن والدىَّ ومن إخوتى وذوىَّ الأُخر
و بين وصيفاتىَ المُشْفِقاتِ ومن لاذ بى من بنات الأُسر
تاسو : ولكن تُرى كيف تجرى الأمورُ اذا علمتْ فارسٌ بالخبر
وقيل لقمبيزَ فرعونُ خالف وابنةُ فرعونَ لم تأتمر
نفريت : ليجر بما شاء تاسو القضاء ليجر بما شاء تاسو القَدَر
لتُخْسَفْ بقوم عليها البلادُ ليستأخرِ النيلُ أو ينفَجِرْ!
فأما أنا فسأبقى هنا و إن غَضبَتْ فارسٌ والتمرْ
فما الفرسُ لى بالصحاب الكرام
ولا لىَ فى مُلْكهم من وَطَرْ

[تدخل الأميرة نتيتاس]

نفريت : من المُفاجِى (نتيتا) ؟
نتيتاس : نفريتُ، تاسو سلامُ
نفريتُ أصغى لقولى فلى إليك كلامُ
نفريت : تكلمى واقتصدى
نتيتاس : ولم أزل مقتصده
نفريت : أتيتنى شامتةً
نتيتاس : لا بل أتيتُ مُسْعِدَه
آمون قد مدّ إليك والى الوادى يده
وقد كفى مصرَ البلا ء والخطوبَ المُرْعِده
وكفّ عن ربوعنا نارَ المجوس الموقَده

نفريت : وكيف بنتيناس ماذا ما الخبرْ ؟

كيف جرى غيرَ مجاريه القدرْ ؟

تاسو : ما الأمر يا سيدتي !

نتيناس : وأيُّ شأنٍ فيه لكْ

إن الذي عندي لا يُقال إلا للملكْ

نفريت : عجِّلي إذن . قابلي أبي . أسرعي الخطى . اذهبي اذهبي

واسأليه ما . شئتِ واطلبي

نتيناس : ما ذاك ما ذا تقولين فكِّري يا نفرتْ

ما جئتُ أطلبُ مالاً ولا لهذا حضرتُ

ولا بشأنك يا بنتَ آمزيس افتكرتُ

نفريت : ففيمَ إذن جئتِ يا نتيتاسُ وفي أي شأن نقلتِ القدمْ ؟

نتيناس : أتيتُ لمصلحة الآخرين وجئتُ لشأنٍ جليل العظمْ

أتيتُ لأفدي بنفسي البلادَ وأدفعَ عن مصرَ شرَّ العجمْ

فإنك إن ترفضي يزحفوا كزحفِ الذئاب ونحن الغنمْ

فأين أبوك ؟

نفريت : تُلاقينَهُ هنالك في حجرات الصنمْ

نتيناس : سأمضي إليه

نفريت [بتهكم] اذهبي أفدي البلادَ

نتيناس : نعم أنا أفدي بلادي نعم

[تخرج]

نفريت : يا ويحها قد ذهبتْ دعنيَ تاسو واذهبِ

[يخرج تاسو] :

« يدخل فرعون الى غرفته الخاصة وهي حجرة صغيرة أرضيتها من الخشب »
« الملون وفيها بضعة كراسي خفيفة الوزن لطيفة الصنع وفي زواياها الأربع »
« تماثيل للآلهة المصرية ، فرعون أمازيس وابنته نفريت مقبلة عليه »

نفريت : سلامٌ ياضُحى الشمس ويا غُــرّةَ آبيس
ويا حاميَ سايس ويا حارسَ منفيس

فرعون : سلامٌ شبهَ هاتور سلامٌ شبهَ إيزيس

نفريت : أبي بل نادني يا بنتَ فرعونَ أمازيس

فرعون : تعالَىْ أقبلى يا بنتَ فرعونَ أمازيس
وفي أيّ جليل أو صغيرٍ يا تُرَى جئْتِ
تعالَىْ ياابْنَتي قولي سَلي فرعون ما شئْتِ

نفريت : أبي كُنْ لى فقد أظلمت الدنيا بعينيَّا

فرعون : سأجْلُو ظُلمةَ الدنيا وأمحوها بكفيَّا

[تغرورق عيناها بالدموع]

بِنْتَاه

نفريت : ربَّاهُ أبِي

فرعون : ما للأميرة باكيه ؟

هَلّا ٱدّخرتِ لمصْرِعي هذي الدموع الغاليَه

نفريت : لا بل تعيشُ أبي وتبْقَى في ظلالِ العافيه
أبتِ تهيّأ كلُّ شيءٍ للنَّوَى المُتَرَاميَه
فغَدًا تضُمنيَ القصورُ بل القبورُ الجافيه

فى ألفِ جاريـةٍ لقمـــبيزٍ هنـاكَ وجاريـــه
من كل مُرسَـلةٍ هنـا لكَ كالبهيمـةِ ساليَـه
فبـأىِّ قلـبٍ يـا مليـــكُ تَزُفُّـنى للطاغيَـهْ
أدرِكْ فتاتَك قد ضعُفـــتُ عن احتمالِ الداهيَه

[تدخل نتيتاس على فرعون أمازيس فتخرج نفريت]

فرعون : مَن أرى؟ إنه لحظٌّ عظيمٌ نتتاسُ بنت الفراعين عندى

نتيتاس : التحايَا لعرش مصرَ المُفدّى من أبى ساكنِ السماءِ وجدّى

فرعون : وسلامُ الذى على عرش مِصرٍ لا تؤدينه ؟

نتيتاس : وكيف أؤدّى؟
ليس بينَ ابنـةٍ وساقى أبيها غصة الموتِ من سلامٍ وردِّ
إن حقدى عليك دَيْنٌ وبِرٌّ ربِّ لا يَذهبِ العقوقُ بحقدى

فرعون : احملى الحقدَ لى أو اطّرحيه وتمـنَّىْ علىّ جاهى ورِفدى
اسألى تسألى أباك

نتيتاس : معـــاذ الــــد مِ فرعونُ ليس دنياكَ قصدى

فرعون : فيمَ قد جئتنِى إذن ؟

نتيتاس : فى حقـــوقٍ لديارى وواجبٍ نحو مَهدى
كلَّ عامٍ صبيةٌ من بنات الـــشـــعبِ
تُختارُ للفداء فتفدى
تنزِلُ النيــلَ غيرَ عائفــةٍ ما فيه للموتِ من حياضٍ ووِرْد

سمحتْ بالحياةِ فى غير سأمِ
وسَخَتْ بالشباب فى غيرِ زُهدِ
تبتغى الخصْبَ والرخاءَ وتحتا ... لُ لعيشٍ بنعمةِ النيلِ رَغدِ
سقتِ الناسَ بعدَها لم تقُلْ قو ... لَ الأنانىّ: يهلكُ الناسُ بعدى
فرعون : قد عرفنا فهل تريدينَ منا ... أن تكونى التى نُزَف ونُهدى
نتيتاس : تلك مدفوعةٌ يقدِّمُها الكُهَّانُ
لكننى تقدَّمتُ وحدِى
[مستمرة] : جئتُ أفدى وطنى من ... سيفِ قمبيزَ ونارِه
جئتُ أفدى وطنى من ... دَنَس الفتحِ وعارِه
فرعون : ما ذا تقولين فيمَ جئتِ ؟ ... قمبيزٌ؟ الفتحُ؟ مصر؟ فارسْ؟
نتيتاس : نفريتُ تأبى المسيرَ هبْ لى ... مكانَها منك يا أمازسْ
فرعون : أنتِ التى تذهبين ؟
نتيتاس : لم لا ؟
فرعون : هذا هو النُّبلُ يا نتاتِسْ
بخٍ بخٍ ، بنتَ أخى
نتيتاس [فى استنكار] : أنتَ يا قاتِلُ، عمّى ؟ ؟
لا ... أبِى يا أبى وأمّى
فرعون : لا تدفعى نتيتَ بى ... ولا تَهيجى غَضَبى
نتيتاس [كالمستهزئة] : تقتُلُنى مثلَ أبى!
[تظهر نفريت بالباب]

فرعون : من ذا أنت؟ نفريت ، هيا ادخلي — لا تقف الأقمارُ بالبابِ

نفريت : تحيةُ الشمسِ لسارعِ أبي — تحيةُ المعبودِ آمونِ

فرعون : أتيت لِوَفْق الأمر نفرتُ أقبلي

تعالَيْ أُنَبِّئْكِ الجليلَ تعالي

نفريت : أبي لا جليلَ اليوم إلا مُصيبتي

فرعون : ولكنها قد آذنتْ بزوالِ

نفريت : وكيف وأنَّى ؟

فرعون : أنظري مَنْ بمجلسي — وأيُّ رسولٍ للسماءِ حِيالي

إلهٌ لَعَمري في قميص أميرةٍ — سعى لك يحبو عونَه وسعى لي

نفريت : نتيتاسُ أختي ؟

نتيتاس [لنفسها] أختُها ما أصنُّها — متى كان بيتي مجرمينَ وآلي

نفريت [لأبيها بعد أن سمعت جوابها] :

أبي ألهذا تجمعُ اليومَ بيننا — وما لابنةِ المَلْكِ القديمِ ومالي

فرعون : لقد بعثتْها الشمسُ من عرشِ مجدها

شعاعَ هدى من حَيْرةٍ وضلالِ

تُزَفُّ إلى قمبيزَ في موضعِ ابنتي

وفي موكبٍ من وفدِه ورجالي

نفريت : نتيتاس

فـرعون : قولى بنتَ فرعون

نتيتاس : أعْفِهـا

نفريت : ولِـمْ

نتيتاس : ذاك عهدٌ يا أمـيرةُ خالى

فـلا يستوِى المُـلْكُ القشيبُ جـلالُه

وآخـرُ مخـلوعُ الجـلالةِ بالى

نفريت : أحقٌّ نتيتا ما رَوَى المَلِكُ

نتيتاس : ما رَوَى أبوك صدَى صوتى ورجْعُ مقالى

نفريت : رويدًا نتـيتاَ راجعى الرشـدَ إنّمـا

تُضحّين يا أخـتِى بأنفس غالى

تُضحِّين بالدنيا الجميلةِ والصِّبا وهذا الفضاءِ السافرِ المُتَلالى

أحقٌّ عقدتِ العزمَ ؟

نتيتاس : بعد رويّةٍ وأقنعتُ نفسى بعدَ طول نضال

وَمالى لا أعطِى الحَياةَ إذا دعتْ بلادى . حياتى للبلادِ ومالى

ســتـــار

المنظر الثانى

«حجرة عظيمة فى قصر فرعون — وفد من الفرس ينتظر رسول»
«الملك أمازيس ، هنا وهناك فى الحجرة نفر من حاشية فرعون»

رئيس الوفد : لقــد جُلتمُ فى بلدةِ العجلِ جَوْلةً
وما بَرِحتْ بالزائرينَ تُجابُ
فكيف وجدتم قــوم فرعون ؟
قباذ : أمــةٌ
إذا هىَ قيستْ بالشعوبِ عُجــابُ
لهم مثلُ ما للأُسْــدِ بالجنسِ عِــزَّةٌ
ضوارى الفلا عندَ الأسودِ كلابُ
هُم الشهْبُ والناسُ الجنادلُ والحصى
وتِبرُ الــثَّرَى والعــالَمُون تُــرابُ
وكلُّ الذى صاغوا مِنَ الفنِّ آيةٌ
وكلُّ الذى قالوا هُدًى وصَوابُ

الرئيس : خطبْنا اليهـم أَميس بنتَ مليكهِم
فمـا كان إلا الاحتقارَ جـوابُ
وأشـفق أهـلوها وقالـوا حمـامةٌ
دعاها الى الوَكْرِ السحيقِ عُقابُ
[ثم يعرض ببصره رجال القصر من المصريين]
تأمّل (قباذُ) القومَ وانظر وجوهَهم
وجـوهٌ عليهـا للهموم سَحـابُ
ألستَ تراهُم كلّمـا نقّـلوا الخُطى
لهم جيئةٌ من ريبةٍ وذهابُ

قبـاذ : ولكنهم ما قصّروا عن ضيافة
طعـامٌ ونُزُلٌ طيِّبٌ وشـرابُ
وخمرٌ فنيقٌ بأيدى سُقاتِها لها نفحةٌ مِسكيّةٌ وحبابُ
وماذا علينـا أن تضيقَ وجوهُهم
إذا لم تَضِـق ساحٌ لهم و رحابُ

«وعلى أثر ذلك يخاطب رجل آخر من الوفد صديقا له»
«فى ناحية أخرى من الحجرة وكان عائدا هو أيضا من المدينة»

الرجل : زفيروس ، من أينَ ؟

زفيروس : من جولة بمنفيس

الأول : كيف وجدت البلدْ ؟

وكيف احتقارهمُ للغريب إذا قام فى شأنه أو قعد
وكيف عيونهمُ حولَه إذا حملته احتمالَ الرمد
زفيروس : وجدتُ وجوهًا عليها النعيمُ ودُنيا على جانبيها الرَّغَدْ
وسوقًا تُفض وسوقا تُقامُ وخلقًا يروح وخلقًا يفد
وشعبًا على خُطةٍ فى الحياة ونَظْمٍ به فى الشعوب انفرد
ولم أرَ مثلَ صناعاتِهم سُمُوًّا وبُعدًا على المنتقد
ولا مثلَ أخلاقهم مبلغًا من الفضل أو من خلال الرَّشَد
إذا مرَّ يافعهم فى الطريق بشيخٍ تنحّى له أو سجَدْ
الأول : تباركت النارُ ، كلت المديحَ لمصرَ جُزافًا ولم تقتصدْ
زفيروس : أخى ما الذى أنت ناعٍ علىَّ وما قلتُ إلا الذى أعتقد

الأول [مبتسما] :
لقد سحرتْ مِصرُ الفارسىَّ ويا طالما نفثتْ فى العُقَد
ولكنْ زفيروس كيف الجنودُ
وكيف الحديدُ وكيف الزَّرَدْ
وهل كنتَ تلقاهُمُ فى الطريق
وتنظُرُ أظفارَهم واللِّبَدْ

زفيروس : أخى ما رأيتُ بمصرَ الجنودَ ولم يأخذِ العينَ منهم أحد
سوى فتيةٍ من جنود القصور وضباطِها فى الثياب الجُدُدْ

يروحون في الخُوَذِ اللامعات
ويغدون في الذهب المتّقد

الأول : إذن هو مُلكٌ بلا حائطٍ رقيقِ الأواسي ضعيفِ العَمَد
خلا الوكرُ من صرخات العُقاب
ونامت عن الغاب عين الأسد
أولئك لا في حماةِ الديارِ ولا في العديد ولا في العُدَدْ
طواويسُ في عرصاتِ القصورِ
تروقُ تهاويلُها من شَهِد
ولا يُعجبنْك سلمٌ يرفُّ وخيرٌ يفيضُ ومالٌ لُبَدْ
وآثارُ فنٍّ تروعُ العقولَ وأجسادُ موتى تعيشُ الأبد
فما أنتَ راءٍ سوى جَنَّةٍ هي الخُلْدُ أو طيفُه في الخَلَد
يهبُّ عليها غدًا عاصفٌ من الفرسِ أنّى تمشّى حَصَدْ

ثالث منهم : صدقتَ أخا الفُرسِ قلتَ الصواب
غدًا يعصفُ الفُرسُ أو بعد غَدْ

أحدهم لآخر : أعلمتُم ماذا يُرَدَّدُ في القصــــــرِ وماذا يقالُ همسًا ووحيا

الثاني : ما يقولون هاتِ قلْ
آخر : كيف صدتَ الســـرُّ في القصر كيف صدتَ النَّجِيّا
هاتِ قل ما بأرض مصرَ عجيبُ
مصرُ دنيا وسائرُ الأرض دُنيا

الأوَّل : هم يقولون إن بنتَ أمازِ يـ
سَ عروسَ المليك تأبى المُضيَّا

الثانى : هازلٌ أنتَ ؟

الأوَّل : بل سمعتُ حديثًا إن يكُن مُفترًى فماذا عليَّا؟

آخر : إنه يَهْذِى دعوهُ كاذبٌ لا تسمعوه
ما الذى زخرف

الثالث : ألقى كِذبةَ الأجيال فوهُ
يزعم المَلْكةَ نفريت ابنةَ الملكِ أمازس
ترفُضُ السيرَ مع الوفدِ إلى أقطارِ فارس

آخر : ما خطبُه ما يدَّعى إمض بنا لا تسمع
يقول فرعونُ مِصرا لم يرض قمبيز صِهْرا

الثانى : مَنْ أمازيس ما الأميرةُ ما مصـ
ـرُ أفى الأرض من بقمبيزَ يهزا

آخر : أهذا خبرٌ يُروى غبيٌّ أنتَ واللّه
أتحتَ القُبةِ الزرقا ءِ من يسخَرُ بالشاه

الأوَّل : اعزبوا ما لكم ولى قلِّلوا الشتمَ والسَّخَرْ
ما الذى قد أتيتُه؟ ناقلُ الكفرِ ما كفر!
خبرٌ قيلَ قد يصحُّ وقد يكذب الخبرْ

أحدهم : يا صحبُ كيف تُرى تقضون ليلكمُ
وكيف نومُكمُ فى هذه الدار

آخر : أمّا أنا فإذا استلقيتُ طوّف بى
شتّى الخيالاتِ من سحرٍ وسحّارِ
وأنت ؟

الأول : يغشى الكرى عينى فيصرفُهُ
عنها خيالُ تماسيحٍ وأثوار
من التّوابيتِ حولى كلُّ منتقلٍ
بغير رجلٍ ولا ساقينِ دوّار
يُجيلُ من خلفِها الأمواتُ أعينَهم
كأنها فى الدُّجى أحداقُ أنمارِ
ولا تزال بىَ الأرواحُ طائفةً مناجياتٍ بألغازٍ وأسرارِ

آخر : أمّا أنا فإذا ما جئتُ مُضطجعى
عوّذتُ نفسىَ قبلَ النوم بالنارِ
فلا يطوفُ من الأرواح بى شَبَحٌ
من خَيِّرِينَ وإن جلّوا وأشرار

آخر : هيّا اسمعوا ماذا رأيتُ أمسِ

آخر : ما ذاك ؟

الأول : صَــهْ تكلّموا بهمسِ

رأيتُ عصفوراً برأس إنسِ أقبلَ حتى صار عند رأسى
فما ملكتُ عندَ ذاك حسّى

آخـر : ثُمَّ ؟

الأول : صحـوتُ فوجدتُ نفسى منطرحا أغطّ فوق كرسى

آخـر : وأنا

ثان : أنتَ ما رأيتَ ؟

الأول : أعجَبا مما رأى صاحبكُم وأغرَبا
رأيتُ آبيسَ أتى مضاجعى فهـزّها بقـرنِه وقلّبا
ثم رأيتُ

الثانى : ما رأيتَ ؟

الأول : حـدقا تقلّبَتْ فى الليل تحكى اللّهبا

آخـر : ثُمَّ ؟

الأول : وقال العجل أنتم فارسٌ ؟ قلتُ نعم فقال لى لا مرحباً

آخر فى دهشة : يا عجبا. العجلُ قـد كلّمـه يـا عجبـا

[يدخل تاسو حارس فرعون] :

تاسـو : أيّها الوفـدُ سـلامٌ لكُمُ بنتُ فرعونَ ستأتى بعدَ حينْ
نتلقّاكم بما يَزْكُو بكم من تحايا وتجيبُ الخاطبينْ

رئيس الوفد : أيها السّـيد تاسـو أدْنُ منا مرحبا بِكْ
غِبـتَ عنا زمنًا حتـى اغتَمَمْنـا لغيابِكْ

لم تَسَلْ عنا ولم تبْعثْ رسولًا من صِحابِكْ

تاسو : يا كبير الوفد هذا العطفُ قد أثّر فيّا
أنتَ لا تجهلُ من أنظمةِ الدّيوانِ شيّا
شرَفُ الخدمةِ لا يجعلُ وفتى بيديّا

فارسى [لآخر بصوت منخفض] :
تاسُو ؟ ! ومن تاسُو ؟

الآخر : فتًى في القصرِ مرموقٌ جميلْ
نَدْمان فرعونٍ وصاحبُه وحارسُه النبيلْ
ويَميلُ فرعونٌ إليْه وبنتُه أيضًا تميلْ

[حارسان يدخلان فيصيح أحدهما] :

الأول : الملكُ فرعونُ سارعْ
الثانى يردّد : الملكُ فرعونُ سارعْ

« يدخل الملك والأميرة نتيتاس وكبار الكهنة »
« المصريين فيجلس الملك والأميرة ويقف تاسو »
« وراء الملك » فينهض رئيس الوفد ويقول »

رئيس الوفد [إلى فرعون] :

بركاتُ السماءِ فرعونَ مصرَا
وسلامٌ من عاهلِ الأرضِ كبرى
رُسلُ قمبيزَ نحن لم نألُ إحسا
نكَ يومًا ولا اهتمامَك شكرَا

قَد خطبْنَا إليكَ زنبقَةَ الوا
دِى وأعْلَى عقائِلِ النيلِ قدرَا
نحمِلُ الشامَ إن أردتَ صداقًا
ونسوقُ العراقَ إن شئت مَهْرَا
ونُزَجِّى الكنُوزَ من قيِّمِ اليا
قوتِ والدُّرِّ والزُّمُرّدِ تَترَى
إنها فارسٌ وإنا لنرجو
أن سترْضَى بها حليفًا وصِهْرًا

فرعون أمازيس [الى تاسو] :

قُمْ أجِبْ عنِّىَ الدهاقينَ تاسُو

تاســو : سيدى من أكونُ! مولاىَ ، عُذْرا

نتيتاس : أبَتِ أعْفِـهِ

ثم الى تاسو: مكانكَ تاسُو أنا بالفصل فى مصيرىَ أحْرَى

نتيتاس [الى الوفد الفارسى] :

مرحبًا وفدَ فارسٍ رسُلَ قمبيزَ مرحبَا
قد تأخرتُ عنكم وأطلتُ التحجُّبَا
ونَهانى مُطَبِّبِى فسمعت المطبِّبَا
خبَّأونى لوَعْكَةٍ ومن البردِ يُخْتَبَا
لم يرَ الناسُ صاحبًا كالعَوافى مُحَبَّبَا

رئيس الوفد: اشكرى الله يا ابنتى | واذكرى فضلَ ماحبا
كم سألنا بجاهنا | بالذى طمأن النبا

أمازيس [إلى تاسو بصوت منخفض]:

مالها تاسُ أطنبتْ | ولذا الشيخ أطنبَا
تركا خِطبةَ الزوا | ج وقاما ليخطُبَا

نتيتاس [بصوت منخفض وقد سمعت ما دار بينهما]:

ما الذى ساء والدِى | من كلامى وأغضبَا
ما لِفرعونَ ساخطًا | ولِتاسُو مُقطِّبَا

فرعون [بصوت منخفض]:

اجْعلِي القصد يا ابنتى | لكِ فى القولِ مذهبَا

نتيتاس للوفد: قد دعوتم أبى لِما | يرفعُ البنتَ والأبا
إن فرعونَ كوكبٌ | صاهرَ اليومَ كوكبَا
اذكروا لى مُقامَكم | أتُرى كان طيِّبَا
أيها الوفدُ قلَّما | صاهرتْ مِصرُ أجنبَا
مرحبًا وفدَ فارسٍ

الملك [بصوت منخفض]: | شَبِعَ الوفدُ مرحبَا

نتيتاس: أنا إن عشتُ شِدتُ للنـارِ بيتًا مطنَّبا
فى عيونِ الوهادِ مِنْ | فارسٍ أو على الرُّبَا
كلما لاحَ ضوؤه | هزَّتِ الأرضُ منكِبَا

رئيس الوفد: هَلُمِّى يا ركبى يا نارُ | على بنتِ الفراعين

وَيا فارسُ هاتوا الغارْ — وجيئوا بالرياحين
وحيُّوا زوجةَ الجبَّارْ — على كلِّ السلاطين

[ويثر الفرس الرياحين على الأميرة نتيتاس وهم يتغنون]

الكهنة المصريون يتغنون :

آمونُ قم شاركْ — فرعونَ في العُرس
تعالَ طُفْ باركْ — في مملكةِ الفُرس

* * *

نحِّ الشياطينَ — وانفِ العفاريتَ
واحرسْ بعينيْك — موكبَ نفريتَ

* * *

آمونُ هيّ اشتركْ — في عُرسِ بنتِ الملكْ
وقُم اليها كلِّلِ — براحتيْكَ راسَها
واشهد بمصرَ واحتفلِ — بفارسٍ أعراسَها

ستار

المنظر الثالث

« بهوٌ عظيم من القصر زين بالمصابيح البديعة الألوان المصنوعة من ورق »
« البردى وأغصان الزيتـون ، وصففت الأزهار ... والرياحين هنا »
« وهناك . وفى ناحية من البهو جوقة العزف من حاملات القيثارة ، »
« والعود ، والناى ، والدف . يموج المكان بأعضاء الوفد الفارسى »
« فى ملابسهم الفارسـية الفاخرة و برجال الحاشـية وخدم القصر من »
« الحرس والكهنة كبارهم وصغارهم وفتيان النوبيين ، وقد وقف قهرمان »
« القصر يصرف الوصفاء والنـدل و يسخرهم فى شؤون الوليمة . وقد »
« مدّت الموائد الفخمة وجعلت عليها ألوان الطعام المختلفة من خراف »
« مشوية و بادرة وبط صيد ، ومن سمك النيل ، ومن الحلوى بأنواعها ، »
« وسلال الفاكهة . و وضعت هنا وهناك أباريق الذهب والفضـة »
« المملوءة من عتيق الخمر . يجلس على المـائدة فرعون أمازيس و بجانبيه »
« وأمامه كبار رجال الوفد الفارسى وعظماء رجال الكهنوت والدولة . »
« و ينتشر الآخرون على جنبات المـائدة يتحادثون جماعات جمـاعات »

فارسى [لصاحبه] :

فيروزُ . أنظر ترى الخِرافا   حُمْرًا لطافًا على الخوان
ذا سمكُ النيل فى الأوانِى   كأنه مِعصَمُ الغـوانى
وأعينٌ تلك فى جُفـونٍ   أم ذلك البطُّ فى الجفانِ

فيروز : ذكرتَ كلّا ولم تُرحِّبْ بخمر ساموسَ في الدِّنانِ

وخمرِ فينيقيا المصفَّى كأنه ريقةُ الحسانِ

فيروز : وخمرِ مصرٍ في قصرِ فرعو ن

ثالث : تلك مجهولةُ المكانِ

الأول : فيروزُ ، دَعْني خلّني الخمرُ ليستْ دَيْدَني

من خمرِ آتينا وسا موسٍ ومصرَ أعْفِني

الأكلُ يا فيروزُ شغـ ـلي وبه تفنُّني

تشربُ والبطنُ خلٍ! يا لكَ من مُغفَّلِ!

كُلْ هنيئاً فيروزُ كُلِ

هذا الحوانُ قد كَمَلْ من كل جانبٍ حَمَلْ

هذا شِوى هذا قُلِي

والبطُ في الأطباقِ يطبَطُ في الرقاقِ

من رأسهِ للأرجلِ

ثالث : وهذه الإوزُّ رجْراجَةٌ تهتزُّ

قد طُيِّبت بالتابِلِ

فيروز [للأول] :

أخي كلانا قد صدَقْ فما لنا لا نتَّفِقْ

آكلُ ما تأكلُ من طعامِ ونحتسي معًا من المُدام

الثالث : هذا لعمري مُحكَمُ الكلامِ

فرعون [الى رئيس الوفد] :

سيدى لو تقولُ لى   كيفَ قمبيزُ والقدحْ

الرئيس : إن قمبيزَ سيدى   ملِكٌ كله مَرَحْ

ليس تخلو قصورُه   من سرورٍ ومن فرَحْ

فارسى آخر : لكن له شُغُلٌ عن الـ   ـخمرِ بطُولِ غزوتهْ

فرعون : أينَ تُرى يشربُها

الفارسى : يشربها فى خوذته

كعبده ابنِ أمَتِه

« ويخلع الفارسى خوذته ويصب فيها خمرا ويشرب »

« بعض صغار رجال الوفد الفارسى يتحادثون فيما بينهم »

أحدهم :

ليتَ شعرى فلستُ أدرى الى أىّ . بلاءٍ قمبيزُ يدفعُ فارسْ

قد فتحنا الفضاء شرقاً وغرباً   وملكناه من عُبابٍ ويابسْ

اتسعنا من الفتوح

آخر : يقيناً   غيرَ أنّا لم نفتكر بالحارسْ

خَلِّ «مانى» عنك السياسة دَعْها

خَلِّ عنك الفضولَ خَلِّ الوساوسْ

إن شرقَ البلاد ضيعةُ قمبيـ   ـزَ وغربَ البلادِ حقلُ أمازسْ

سائسُ العالمين أسعدُ منه   رجلٌ للحمار والبغل سائسْ

ثالث : انظر الحَفلَ « بهارٌ »   استخفَّته الكؤوسْ

رابع : وفــدُ قمبيزَ وهــذا   مـلْكُ مصــرٍ آمزيسْ
ذهبُ الأرضِ عليهــم   غَرِقَتْ فيــه الطقــوسْ
ساسَــةُ الدنيا وكــلٌّ   غــيرَهم فيها مَســوسْ

الثانى : خَلِّنَــا باللهِ من سا   سَ ودعْنا مِن يسـوس
لِمْ نَظـلُّ الدهـرَ مَـرْءو   سينَ والغــيرُ الرئيس
لِـمَ « مانى » لا أنا رذْ   لٌ ولا أنتَ خســيس

الأوّل : كلُّ ما أعجبَ كسرى   فهــو فى الفُــرسِ نفيسْ
كلَّ حينٍ حاكمٌ يمــشى علينا ويدوس
هكذا يختــلفُ الحــظُّ سعودٌ ونحوس
إنَّ بعضَ الناسِ أذنا   بٌ لبعضٍ هُمْ رؤوس
منزلُ الأُسدِ الصحارَى   وعلى المرْعى التيوس

الأوّل : لِمَ يا « مانى » يسُودُو   نَ ونبقى لا نسـود
ونُقادُ الدهرَ والآخــرُ يا « مانى » يقـود

آخـر : يا أخى نحنُ كلانا   عاجزُ الـرأيِ بليـد
هــذه الدنيـا لِمَن   يُقـدِمُ فيها أو يُريد
ســنّةُ الكـونِ وما   عن سنّةِ الكونِ محيد

آخـر : أنا يا « مانى » طموحٌ   أنا لا أكتمُ عنكَا
أنا فى الدنيا وفى زينــتها أرغبُ منكَا
أنا أهـوَى سعةَ العيـش ولا أرضاهُ ضَنْكَا

الأوّل : إرضَ بمـا كان وما يكونُ أو فانْفَــلِق
وهيَّ نشـربْ قَـدَحَيْـــــنِ أو فَـهيَّ انطـلِق
أحدهم : ألقــدَحَا . ألقــدَحا الخمـرُ تَـنفى التَّرَحَا

قصــرًا أرى أم فَلَكًا وشجــرًا أم قُــزحا (١)
وغادةً تَسْــقِى أمِ الـظـبْيةَ أم شمس الضحى
وخــوذا عـلى رؤو س فارسٍ أم الـرَّحَى
ألقــدَحَا . القــدَحا هاتوا الشعاعَ المُفرِحا
هاتِ السّنا هاتِ القَبَسْ هاتِ الشّذا هاتِ النَّفَس
هاتِ سراجَ المهـرجا ن هاتِ شمعةَ العُرُسْ
هاتِ ابنةَ الشعاعِ والـظـلِّ ابنةَ العَذْبِ السّلِسْ

أحدهم [رئيس الوفد] :

مــولاى ألقِ السمـــعَ وابعـث النَّظَـرْ
ما ذا تــرى ؟

الرئيس : أرى « بهـارًا » قد سَكِرْ
الأوّل : فتــاكَ غــنّى وفتــاىَ قــد شَــعَرْ

الرئيس : وما الــذى ضَــرّ ؟
الأوّل : صــدقتَ لا ضَــرَرْ

---

(١) قوس قزح

الرئيس : ونحنُ ما نصنعُ ؟

الأول : شُربٌ وسَمَرْ

الرئيس : ونحنُ أيضًا بَشَرٌ وهُمْ بشَرْ
فليشربوا من ها هنا إلى السَّحَرْ

أحد الشبان : رئيسَ الوفدِ لا زلتَ لما يَرفَعُ تختارُ
ولا ساواكَ دهقانٌ ولا داناكَ أسوارُ
وغالَى بكَ قبيزٌ وحلّت جسمَك النَّارُ

« يدخل وصيف من وصفاء القصر و بيده مومياء من الذهب »
« يعرضها على الضيفان . ووراءه رجل يقول و يكرر ... »

المُوميا طُوفُوا بها واتّعظوا بخَطْبها
لا تسألوا ما هي مَنْ ؟ نكرَها طولُ الزَّمَنْ
هَيَّا كلوا هَيَّا اشربوا . هَيَّا اسمعوا هَيَّا اطربُوا
تمتَّعُوا بالفانيَهْ قبلَ الحياة الثانيَهْ
خُذوا المُدامَ الصَّافيَهْ . قبلَ انكسارِ الآنيَهْ

فارسي لآخر : خورشيدُ هذا هو البلاءُ كلُّ أحاديثِهم فناء

خورشيد : روايةُ الموت حيث راحوا وقصةُ الموت حيث جاءُوا

[يقترب تاسو من نتيتاس فى ناحية أخرى من البهو و يقول]

تاسو : نتيتاسُ ألا كاسٌ ألا شكوى ألا عتْبُ
أيُنْسَى فى سُويعاتٍ ويُطوَى ذلكَ الحُبُّ

نتيتاس : دع الحبَّ فلم يُخلق له من لا له قلبُ

تاسو : وما ذنبي ؟

نتيتاس : لقد أحسنتَ لكن لى أنا الذنبُ

أنا أحبَبْتُ عابثًا سادِرَ القلبِ جافِيَا
يَعشَقُ الجاهَ والغِنَى لا يحبُّ الغوانِيَا

[مستمرّة] :

أنتَ كالنعمةِ من قصرٍ لقصرِ
أنت كالنحلةِ من زَهرٍ لزَهرِ

[مستمرّة] :

باعَدَت الأخلاقُ ما بيننا أينَ أخُو العهدِ من الناكثِ
لعِبتَ بى فيما مَضَى عابثًا
فالعبْ بغيرى اليومَ كالعابثِ
أقسمْتَ لى فاذهب فأقسم لها
فأنتَ أهلُ القسمِ الحانثِ
أحببْتَ بنتَ الحىِّ حتى قضَى واليومَ أحببْتَ ابنةَ الوارثِ
كم مجلسٍ كان لنا ثالثٌ فيه وقد تَعْمَى عن الثالثِ

تاسو : ما هو مَنْ ؟

نتيتاس : الحبُّ يا مدّعِى والحبُّ حربُ الظالمِ العائثِ

[يعرض عنها تاسو ويبتعد]

نتيتاس [لنفسها] :

مضى الغادرُ لم يَشْعُرْ بما حمّلنى الغدرُ
ولا رَقّ له نابٌ على جُرحى ولا ظفرُ
تكلمتُ فلم يسمع وأنّى يسمعُ الصخرُ

لقد غامرتُ فى تاسو وتاسو فى الهوى غمرُ
كم استشفيت بالسِّحْر فما عافانِىَ السِّحرُ
وكم ناديْتُ آبائى فما لبَّانِىَ النَّصرُ
وكم جئتُ إلى الصَّبرِ فما آوانِىَ الصَّبرُ
جزاءُ المُعرِضِ التَّيَّا ه منك الصدُّ والكِبرُ
هبيه نَبأت الدارُ به أو نزَحَ القبرُ
هبى معرفَةَ الغادِ رِ لم يأْت بها الدهرُ
أقلِّى شُغُلَ الفكرِ فقد أتعبَك الفكرُ
هَبيهِ جرّت السِّنُّ عليه ومَشَى العُمرُ
فلم يَبْقَ له نَهْىٌ على الغِيدِ ولا أمْرُ
ولم يبق له فى البا لِ تمثالٌ ولا ذِكْرُ

« مدعو من المصريين يشير إلى نفريت وهى متنكرة فى زى »
« يونانى و يقول لرجل بجانبه ... ... »

المدعو : مَن المرأة ؟
الآخر : مَنْ ؟
الأول : تلكَ تَرَاها مثلَ طاوُس
تَراها مع كاليَاس
الثانى : ومَنْ ؟
الأول : وارِث فانيس
أميرالجيشِ فى مَنْف وأسوانَ وسايِيس

الثانى : أجلْ تلكَ التى تظهـــرُ فى أغربِ ملبوسِ
فهــذا الوجــهُ مصرىٌّ وهــذا الــزِّى سامُوسى

[رجل فارسى لآخر يدعى قباذ] :

الرجل : انظـر قبـاذُ ما ترَى ؟

قباذ : أحسنَ شىءٍ منظـرا
حمامــةٌ تُطـارِحُ الـشــجوَ حماماً ذَكرا
يا ليـتَ أذْنى سمِـعَتْ مِن الحديث ما جرَى

الأوّل : دعنىَ من ذِكرِ الهوَى إنّنى مُذْكنتُ لم أعشقْ ولم أُعشَقِ

قباذ [فى تهكم] :

وأنتَ كالناسِ امرؤٌ عائِشٌ تلك لعَمرِى عيشَةُ الأحمَقِ

الأوّل : قبــاذ قــد عرفتُــه ذلك تاســو الحـارسُ

قباذ : الحمـــد لله عــلى أن لم تحـزهُ فارِسُ
إذن لهـامَتْ كاعِبٌ بحبِّـــــه وعانِسُ

[تاسو يقترب من نفريت] :

نفريت : تاسو هنا ؟ هاتِ اسقنا

تاسو : لبيْـــكِ يا ذاتَ البهاءْ لبيْـكِ يا بنـتَ السـماءْ
يا ليتـنى كنتُ الرّحيـــق وليتنى كنتُ الإناءْ

[ويناولها قدحا] :

نفريت : تاسُ ، مِنْ أينَ ومَنْ كنتَ من الغيد تُحدِّثْ؟

تاسو : كنتُ أُجامِلُ الضيوف وأُلَبِّي الملِكا

فعارضتني نيتاسُ في خلالٍ ذَلِكا

نفريت : وما الذى قلتَ لها تاسُ وما قالت لكا

تاسو : عادَت لذكرِ حبِّنا القديم وعَطفَتْ على الهوى الذَّميم

وطالَ العتابُ

نفريت : وطالَ السِّبابُ

تاسو : بحقِ الحبِّ نفريتُ أقِلِّى الشُّغلَ بالأُخرَى

ولا تُلقِى لناتيتاس لا بالاً ولا فكرا

غدًا تخلُو لنا مِصرُ غدًا يصفُو لنا القصرُ

غدًا ترحلُ لا أرجعُها البرُّ ولا البحرُ

نفريت : مالكَ تاسُو ولها خَلِّ الفتاةَ خَلِّهَا

للهِ ما أعظَمها عِندى وما أجَلَّها

قد أظهرَتْ أمسِ أمامى فضلَهَا ونُبْلَهَا

تاسو : ما فعلَتْ ؟

نفريت : ما أنتَ مَنْ؟ يَقدُرُ تاسُ فعلَها

ألم تصبِر عن الوطنِ المُفَدَّى وتسمحْ بالدِّيارِ وبالشبابِ

وترضَ بأن تُزَفَّ غدًا مكانِى إلى النمِرِ الأميرِ على الذئابِ

تاسو : صهٍ نفريتُ صهْ لا يسمعونا فتلقَى مِصرُ أنواعَ العذابِ

« فى ضجة الوليمة يقف صاحبان هما : منا ، وأحامس ، ويتحادثان »
« صديقهما خوفو يقبل عليهما ثم القائد كالياس ... ... »

منا : أنظر أحامسُ

أحامس : ماذا؟

منا : فرعونَ بينَ صحابِهْ

أحامس : وما تـرى من عجيبٍ؟ ماذا بفرعونَ ما به

منا : أنظر تجده إلهًا فى عبقرىّ ثيابِهْ

أحامس : لا تُلْقِ بالًا إليه ولا إلى أذنابِه

غدًا يَصبُّ عليهم قمبيزُ سَوْطَ عذابِه

منا : أحامس ، استغفر لما قلته فالُ الشياطين ولا فالُكْ

أحامس : قد كنتَ مثلى يامنا ساخطا تلعنُ فرعون فما بالُكْ

[ثم مستمرًا] :

تأمّلْ القصرَ منَا وانظره أرضًا وسَمَا

أنظر ترى الإغريقَ فيه هُمْ لفيفُ العُظَما

أنظر تجدهم كُلّهُمْ يملّقونَ العجما

منا : ماذا على فرعونَ إنْ رعاهمُ وقدّما

أليس للضيفِ على ضائفه أن يُكرَمَا

أحامس : وصاحبُ الدارِ إذنْ يموتُ جوعاً وظَمَا

وصاحبُ الدار إذنْ لا يتعدّى السُّلمَا

خوفو : ماذا أثار الصاحبيْن لِمْ وفيمَ اختصَما

أحامس : كنْ مُنْصفًا إنْ رُمتَ يا خـوفـو تكون الحَـكَما
تأمّـلْ القصـرَ خـوفو أفيـهِ من مصـرَ شيٌّ
أليسَ فرعونُ فيـه كأنّـه أجنـبيٌّ
فأينَ حفـارُ مصـرٍ وفنّـه العبـقـرىُّ
والجيشُ خوفو

خوفو : خـذ الحِذْ رَ يامِنَا يا أحامِسْ
كاليـاسُ آتٍ إلينـا

منا : ومَنْ ؟

خوفو : خليفة فانِسْ

أحامس : اليـومَ كالياسُ وأمسِ فانِسُ
احتكَرَ القيـادةَ الأبالِسُ

[ويقبل عليهم كاليـاس]

فرعون أمازيس [لتاسو] :
أينَ أقزامىَ ؟ امضِ جِىءْ بأقـزامِىَ تاسُ

[يدخل الأقزام فى أزياء المهرجين ، فيقولون] :
تحيّـاتٌ لفـرعونَ سلامُ الشمسِ للملكِ
سلامٌ قائدَ الخيْلِ سـلامٌ حامِىَ الفُلْكِ

قهرمان القصر [للأقزام] :
هلمُّوا رقصـةَ الحورِ إذا طُفْن بهـاتورِ
سمـاءِ العـزِّ والنّـورِ

أحد الأقزام : نحنُ القُزُم أنصافُ ناسْ
ناسٌ وبالشِّبْرِ تُقَاسْ

ثان : نحنُ الدمَى واللُّعَبْ بنا يتمُّ الطَّرَبْ

ثالث : هلُمُّوا رقصةَ الموتَى من الكهفِ إلى الكهْفِ
ودُورُوا كالتماثيل من الرَّفِّ إلى الرَّفِّ

آخر : ثِبِي جُثث على الجَدث ثِبِي ثِبِي
حَبْوَ الصِّغارْ على اليدِ والرُّكبِ
هيَا قِفِى هيَا ازحَفِى هيَا العبِى
هنا الطعامْ هيَّا كُلِى هنا الشَّرابْ هيَّا اشرَبِى

آخر : تعالَ يا دهقانْ أرْقُصْ مَعِى
وأنتَ يا «أسوار» قُمْ اطلعِ
واقتبسا الأنوار من سارَعِ

الجميع : عِشْ يا ملك مع الزَّمَنْ
مُطَوِّقًا مِصرَ المِنَنْ
وذائدًا عن الوطَنْ

[ثم يكررون عش يا ملك وينصرفون]

فرعون أمازيس [إلى وجهاء الفرس] :

ياوُجهاءَ الفرس قالوا لكم مصرُ بلادُ السّحرِ والسّاحرِ
فرُبّما سرّكُم أنّنِي أجيئُكم بالساحرِ القادرِ

ويُنادى : حوتيب

حوتيب : لبيكَ سارعْ

فرعون : تعالَ لَـهُ الضُّيوفَا

حوتيب : سادتى إنِّى فى الكفِّ وفى الجبهةِ أقرا

أنا أقرَا لكَ حظًّا أنا أقرَا لكَ عُمرَا

أنا الذى بسحرىَ المبينِ أستطلعُ المكتوبَ فى الجبين

فرعون [إلى تاسو] :

تاسُو اقتربْ

تاسو : لبيّكَ يا سارِاعِ

فرعون : لِمْ أجلبُوا ما خَطْبُهم ما الدّاعى

[ضجة وهمس]

فرعون [مستمرًا] :

وفيمَ هذا الهَمْسُ والتّداعى

تاسو : مولاىَ إن الوفْدَ فى ارتياعِ

تاسو [فى أذن الملك] :

انقلبتْ عصيُّهم أفاعِى

فرعون : يا حُتيْبُ من فتًى صناعِ

رئيس الوفد :

للّه درُّ السّاحرِ هذا من العباقرِ

حوتيب : أناةً وفدَ فارسَ لا تُرَاعُوا ولا تُحصُوا دُعاباتِى عليًّا

خُذُوا قضبانَكم وتأمَّلُوها لقد عادتْ كما كانتْ عِصيًّا

فرعون : حوتيبُ قد سرَّ ضيو فى أن يروْا و يسمعوا

فـزدهُـمُ فعنـدك الـسـحرُ الغـريبُ الممتـعُ

حوتيب : فـرعون هـذا شـرفٌ يطـيرُ بى ويرفَـعُ
أصنعُ ما كان دَدَا السـاحرُ قبـلى يصـنَعُ

فـرعون : وما الـذى تصـنَعُ؟

حوتيب : جيـئونى بـرأسٍ يقطـعُ
فـإننى أردُّه بجسمِه وأُرجِـعُ
فمَنْ من الوفد برأ سـه إلىّ يَدفـعُ

رئيس الوفد [لرجاله] :

هـل منكمُ يا معشرَ الفـرسِ بَطَلْ
عن رأسِـه لسـاحرِ النيـلِ نَزَلْ

حوتيب : هاتوا الرءوس لا يخافنَّ أحـدْ
فـكلُّ رأسٍ سـيُرَدُّ للجسـدْ

أحدهم : رأسىَ غـيرُ هـيِّنِ

ثانٍ : رأسى عمـودُ بـدنى

ثالث : رأسى لـدىَّ غـالى رأسىَ كلُّ مـالى

فـرعون : حوتيبُ ما من أحـدِ هان عليـه رأسُـهُ
أنظـر إليهم . كلهـم عزّتْ عليـهِ نفسُـه .
خلِّ حُـتيْبُ الناسَ واخـترْ غـيرَهـم للتجـربه

حوتيب : مُرْهمْ إذن أن يُحضروا إوَزَّةً أو أرنبـه

فرعون [لتاسو] :

امض تاسو جىء حُتَيْـبًـا بإوزٍّ وأرَانب

«يخرج تاسو ثم يعود ببضع من الأوز والأرانب . فيقطع حوتيب رأس إوزة»
«ويقول : شال هبد شال هبد لايعجز السحر أحد يا رأس عد الى الجسد»

الفرس : تعالتْ قدرةُ النارِ

المصريون : تعالَ الربُّ آمونُ

فرعون : هيّ حتيبُ امش مابينَ الصُّفُوف

وطالِع الجبْهاتِ واقرأ الكُفوف

حوتيب : برأسِ مَنْ أبدأُ مُرْنِيَ يا سارِعْ

فرعون [مبتسما وملتفتا لتاسو] :

برأسِ تاسُو إقرَا في جبينِه
وبيِّن المحجوبَ من شئُونِه

حوتيب [وهو يتأمل جبين تاسو] :

هـذا فتًى باطنُـه جمادُ
ليس وراءَ رأسِه فؤادُ
رأسٌ عليه وقف الجلّادُ

تاسو : إخسَأ كذبتَ وضلّ سحْرُك

فرعون : ورأسي ياحُتيب ألا تراهُ؟

حوتيب : جَبينُكَ أعفني مولايَ منه

فرعون: تعالَ حُتيب

حوتيب: لا . هذا شديدٌ جبينُ الشمسِ تنبو العينُ عنه

يا عجبا ماذا أرى؟

فرعون: ماذا ترَى

حوتيب: دمٌ جَرَى

فرعون: دَمِي أنا ؟

حوتيب: لا سيدى عُوفيتَ بل دَمُ الورَى

تاسو: إذن ليجر كالمطر ما هَمَّنا دَمُ البَشَر

إذا سلِمْتَ يا ملِكْ فليَهْلكَنَّ مَن هلَكْ

كاهن لآخر [بصوت منخفض] :

إنّ هذا الغلامَ فيه قساوهْ

الآخر: قلتَ حقًّا وفيه أيضًا غباوَه

فرعون: وبعدُ ماذا ؟

حوتيب: حربٌ عوانُ يَشيبُ من هَوْلِها الزمانُ

فرعون: وهل أكونُ يا حُتيْبُ فيها

حوتيب: سِواك يا مولاى يَصْطَليها

فرعون: وابْنِي بسامًا يا حُتيبُ ما ترَى ؟

هل يَشهَدُ الحربَ وهل يراها

حوتيب : سيدى ليتَ الأميرَ حاضرٌ   أنا لا أقرأُ إلا فى الجبين

[قهرمانة القصر تطيف بالعازفات والحسان وتقول] :

القهرمانة : قُمْنَ إلى اللهو يا عَذَارَى   وخُذْنَ صَنْجًا وخُذنَ دُفَّا

واهتِفْنَ بالشِّعرِ والأغانى   واقطعْنَ ليلَ الشبابِ قصفَا

\+ + +

وأنشِدْنَ مع القومِ   نشيدَ المَلِكِ العالى

[ينشد الجميع نشيد فرعون مع الرقص وآلات الطرب]

النشيد : فرعونُ أنتَ الرفيعُ   أنتَ العظيمُ الشَّانِ

وأنتَ سدٌّ منيعُ   من جارفِ الفيضانِ

\+ + +

وأنتَ كالصَّخرِ تحمِى   من نكباتِ العواصفْ

مِن قاطع الطرق يأوِى   إلى حِماكَ الخائفْ

\+ + +

وأنتَ من صخرِ طيبه   حِصنٌ مشيدُ الجدارِ

يُؤْوَى إليكَ ويُلْجَا   إلى طلوع النهارِ

\+ + +

أنت اخضرارُ الرِّيفِ   وأنتَ حُسنُ الرَّفيفِ

تَرُدُّ بطشَ القوىِّ   وفتكَهُ بالضعيفِ

« فرعون يغادر مكان الوليمة فينطلق »

« المدعون على إثره ولا يبق إلا نتيتاس »

نتيتاس [لنفسها] :

أفيقِى بنتَ فرعونٍ   فما يَزْكُو بكِ السُّكْرُ

غـدًا تَذْرُو رياحُ الفر ... سِ من موتاكِ ما تذرُو
غدًا يُصبَغُ من شَطٍّ ... لشـطٍّ بالـدَّمِ النّهـرُ
غـدًا يُهْتَـكُ عن أربا ... بِكِ المحـرابُ والسـتْرُ
فما تاسو وفتيانٌ ... كتاسُـو فى الحمى كثر
هـم النّحلُ وإن هابُوا ... لقـائى وأنا الـزهرُ
يموجون بساحاتى ... ويزْهو بهـمُ القصـرُ
ولكن بينَ جنبيَّ ... هوًى أولى به مِصـرُ

ســتــار

الفصل الثانى

فى مدينة سوس الفارسية

« فى حجرة فارسية فخمة مفروشة بثمين الطنافس ومملوءة بالوسائد »
« من الحرير المختلف الألوان ، وقد زينت زواياها بالرياحين »
« الكريمة ، الملكة ووصيفتها تتى فى الحجرة المذكورة ... ... »

الوصيفة تتى [وهى تصلح رأس الملكة وتمشط شعرها] :

تبـاركَ الذى خـلقْ　　　أقـولهُـا ولا مـلقْ
ذوائبٌ أمِ الدُّجَـى　　　ومفـرِقٌ أم الفَـلق ؟
غـدائرٌ فى الكـتفيـن أُسْدِلتْ وفى العنُقُ
كأنها من الحـريـر الأسود الخيط شُقَق
لم يَخـلُ جـوُّ فارسٍ　　　مُذ ضمَّها من العبـق

الملكة : ما تصنعين ياتِـتِي

تـتى : أُصلحُ مولاتى

الملكة : لمَنْ ؟

تـتى : للـزوج يا سـيدتى

الملكة : لنِمر الفُرس الخَشِنْ

تتى : هَبيهِ ذئبًا مَلْكتى أو نِمرًا أو كَرْكَدن

أليسَ للأزواج تلبَسُ النساءُ ما حَسُنْ

الملكة [ملتفتة إلى وصيفتها تتى] :

قلتِ حقا تتى فإن على المرأة للزوج أن تكون أمينه

وعليها ألا تُقَصِّرَ بشرًا حيث تلقاه أو تُقَصِّرَ زينه

تتى الوصيفة : بل تحلَّىْ مليكتى والبَسِى حُلَّةَ البهاءْ

وافتنِى مَن بفارسٍ من رجالٍ ومن نساءْ

إن كسرَى وقومَه كلّهم فى الهوى سواءْ

أنتِ كالشمس فى الضحى فانشرى الحُسنَ والضياءْ

لا على القصرِ وحدَه بل على الأرضِ والسماءْ

الملكة : يا لكِ من وصيفةٍ مُمَلِّقَهْ

عارفةٍ بالجُملِ المُنمَّقَهْ

الوصيفة : لقد وضعتُ ذهبًا فى البوتقَه

ولم أصف بالطيب إلا زَنبقَه

وقلتُ عن شمس النهارِ

الملكة : مُشرِقَه

« و يظهر على الملكة التفكير واشتغال البال بغتة »

« ثم تتغنى فى نفسها وهى مقبلة على المرآة تنظر فيها »

الملكة [فى نفسها] :

يا ظالمًا أحبُّه جهد الهوى و إن غدرْ
ومن هجرتُ وطني لأجله حينَ هجَرْ
قلبُكَ لحمٌ ودمٌ مثلُ القلوب أم حجَرْ
لم يتنصّلْ مرةً مما جنى ولا اعتذَر
جسمٌ كسلسالِ الصّفا على فؤادٍ كالصّخرْ
وزَهَرٌ أنتَ وتلك النفسُ أفعى فى الزّهَرْ
لم تجنِ يا تاسُو علىَّ إنما جنَى القَدَرْ
ذنبك لا يُغفَر إلا أن قلبي قد غفَرْ
إن غبتَ عن عيني فأنتَ فى سوانح الفِكَرْ
أراك كلما رأيتُ طائرَيْنِ فى الشجَرْ
وكلما بدَتْ لىَ الشمسُ ولاح لى القمرْ
وكلما جئتُ الرياضَ ووقفتُ بالغُدُرْ
وكلما ترنَّم الشّادى وحرّكَ الوتَرْ
وكلما دبَّتْ وراءَ الليل نسمةُ السَّحَرْ
ياليتَ شعرى كيفَ أنتَ ما تجىءُ ما تذَرْ
وكيف حبك الجديدُ هل خبا وهل كبِرْ
وهل وَفيتَ أم غدرتَ بالعشيقات الأُخَرْ

الوصيفة : دَعِى النـاسىَ مولاتى وخلِّيك من السَّالِى
ولا يخطُـرْ لكِ النّـاكـــثُ للعهــد عـلى بالِ

نتيتاس : هبيــهِ ياتتَـا خانَــ فمـالى لا أفى مـالِى
لــه خُلُقٌ ولى خُلُقٌ ولكنْــ خُلُقِىَ العالى

تـــتى : هــوَ يا ملْكتى مِثـا لٌ ولكنْ مِنَــ الوَحَــلْ
كان يـكفى لبُغضِهِ بعضُ ذاك الذى فعَــلْ

نتيتاس : أنا أفــديهِ يا تِتَـا بحيـاتى وإنــ قتَــلْ

تـــتى : لـوكان معشوقِى أنـا
نتيتـاس : ما الذى كان يُـلاقِى ؟
تـــتى : آه لا أدرى

بالصَّفعِ أجزيهِ وبالرَّكْلِ أو
كنتُ أُريهِ النَّجمَ فى الظُّهر

نتيتاس : الحــبُّ فى ناحيــةْ وأنتِ ذى فى ناحيــةْ
ما هكذا الحبُّ تِتَـاّ ما الحــبُّ إلا التضــحيه

[تسمع ضجة وصياح وحركة جنود وراء القصر وصوت استغاثة] :

يقول المستغيث : .
العفــوَ يا كسرَى الصــفحَ يا سـلطانْ
أخـــــوكَ والنـارِ ومجــدِهـا ما خانْ

الملكة : إسمعى ياتِتَا ألم يأتِك الصو ت ؟

تــتى [وتطل من نافذة] : أجَلْ ثَمّ ضجّـةٌ وعَـويلُ

ثَمّ خيلٌ وشُرطةٌ وسلاحٌ

الملكة : ليتَ شِعرِى مَن البرىء القتيلُ

تــتى: أقتيــلٌ يا بنتَ فرعونَ ؟

الملكة : لِــمْ لا ليس فى أرض فارسٍ مستحيلُ

ياتِتَـا نحنُ فى بــلدْ كلُّ قلب بــه جمَــدْ

الحىُّ فيــه رخيــصٌ والميْــتُ أرخَــصُ منــه

هنا الميْتُ تُنفضُ منه الأكف وتنهىَ الشــرائعُ عن دفْنِــهِ
ويُطرَحُ ناحيــةً فى الفضاءِ على سَهْـلِهِ أو عـلى حَزنــهِ
تروحُ الحــداءُ على رأســه وتغــدُو الذئابُ على بطنــهِ

تــتى: ويْحَهُــــمْ ويْحَهُـــــمْ أمَا مِن النـاسِ هُــمُ؟
ذلَّتْ وهــانَتْ أُمَّــةٌ ميْتُهــــــمُ لايُكرَمُ

الملكة [وهى مطلة] :
تِتَـا هــذا هــو الحــارسْ وهـــذا مَنْ تُحبينــا

كذوقِك ياتِتَا لم يَعْلُ ذوقٌ أتمثــالٌ حبيبــك أم إلـهُ
تــتى: ولو فوق الإله يُحَبُّ شىءٌ ويُكرَمُ لم يكُنْ أحدًا ســواهُ

تأمَّلي كَتِفَيْــه تأمَّلي مَنْكِبَيْه كأن صقرَيْن حطَّا فظلَّا شاربيْه

الملكة : انتظرى لابُدَّ لى أن أسأله

نتـتى : لا تفعلِى مالَكِ مولاتى ولَهْ

الملكة : يأيُّها الحارِسُ

الحارس : لبَّيْــك

الملكة : مَنْ يقتلون اليومَ فى السَّاحَةْ؟

الحارس : أختُ المَلِكْ: أتوسيا

الملكة : أختُ المَلِكْ ؟

الحارس : أجَــل هيَّا

اتُّهِمت ببُرديا

نتـتى : مَن بردِيا؟

الملكة : أخو الملكْ! يقطع فى الســاحــة رأس بُرديــا

يا أسفا عاوده جنونُه

نتى الوصيفة [وقد أطرقت الملكة لحظة مفكرة مغتمة] :

ما بِكِ مولاتىَ ما . غمّــكِ ما هــذا الأسى؟

الملكة : لا شىءَ بى لقدْ وهمــتِ يا نِتَا لا شــىءَ لا

الوصيفة : بل أنتِ تكتمينَ غــمًّــا طافَ أو همًّا ســرى

هلا ذكرتِ أننا غريبتان ها هنا

أنت لىَ الأهل ولــكنى أنا لكِ الحِمَى

وما على الغريب إن جاءَ الغريبَ فاشتكى

الملكة : صدقت يا تتا أنا وأنت فى الكرب سوا
قد اجتمعنا بعد قر ب الدار فى دار النوى
تتى : أين إذن تبسم كالصبح من فيك يرى
الملكة : لقد رأيت الهول والـ ـزول وما هد القوى
تتى : أضغاث أحلام وزو ر من تهاويل الكرى
الملكة : رأيت رؤيا يا تتا هل لك علم بالرؤى؟

الوصيفة [بعد تفكير] :

أجل تذكرت أجل عندى من ذاك شذا
قد كنت فى الصبا على أبى أقص ما أرى

الملكة : رأيتنى كأننى فى قصر آبائى بصا
الوصيفة : فى القصر من صا الحجر قصر الجلال والبها

الملكة : رميت عينى من الـ ـقصر إلى أقصى مدى
رأيت واديا كطو ل البيد أو عرض الفلا
أصفر من شعابه بنفسجى المنحنى
إحمر مثل قزح هناك واخضر هنا
رأيت ليثا أحمر الـ ـجلدة خشنا كالصفا
فاغرفيه عن نيو ب مثل مشروع القنا
انقض كالصخر على الـ ـوادى فأقعى قسرنا
ونظر النيل وقد عب وماج وطغى

وخرجت منه التمـا   سيحُ فُـرادى وثُنَى
وأعْوَلت حتى لقـد   سـدّ عويلُها الفضا
فعُقِـرَ الليثُ فـلا   رِجْلًا رمى ولا يَـدا
وقـرَّ فى مكانِه   كأنه بعـضُ الدُّمَى

الوصيفة : ثمَّ ؟

الملكة : رأيتُ حنشًـا   ليسَ له مِصـرُ ثَرَى
لم تـرَ منفُ مثْـلَه   ولا الصعيدُ قد رأى
كأنـه صاعقـةٌ   تحـدرتْ من السما
مشى إليـه كلُّ ذى   قوسٍ وكلُّ ذى عصا

وخرج الكهانُ يتـلونَ الصـلاة والـرُّقَى

الوصيفة : وما الذى حـلَّ بـه؟

الملكة : لم يُصبْ الوحشَ أذى

الوصيفة : حقّقْـتِيهِ سـيدتى؟

الملكة : حقّقْتُـه على الضُّحى

الوصيفة : فكيف كان ؟

الملكة : صـورة   تُشيبُ أرْؤُسَ النَّشَـا
كأنه فانيسُ عيـنَيْنِ ووجهًـا وقفَـا
حـتى تعـوَّذتُ بإيـزيسَ وآبائى العُـلى

الوصيفة : فانيسُ مَنْ ؟

الملكة : نسيتِيه ؟ كيف نَسيتِ يا تِتَا
الخائنُ الذى إلى فارسَ من حينٍ أتى
يَشِى بمصرَ وأخا فُ أن يكونَ بى وشَى

الوصيفة : ما صنعَ الثعبانُ مو لاتى

الملكة : من النهرِ دنا

وفَحَّ ثُمَّ دَسَّ فى النهر لساناً كاللَّظَى
فاحتجبَ النيلُ وعا دَ يَبَسًا ما كانَ ما
واحترقتْ مدائنٌ بالضفتينِ وقُرَى

الوصيفة : والليثُ يا سيدتى؟

الملكة : بعد التهيبِ اجْترا

مشى على الوادى فهلْ رأيتِ عاصفًا جَرى؟
يقتلِعُ اليابس والـرَّطبَ ويفرِى ويَطَا
وكرحتى غادرَ الـوادىَ قاعًا صفصفا
هو ذا الحُلْمُ فما تفسيرُه نبئينى ياتِتَا

الوصيفة [لنفسها مضطربة] : ماذا أقولُ؟

الوصيفة [للملكة] :

مَلْكتى لا تفزعى

الملكة : كيف تِتَا كيف لا أفزعُ والحُلْمُ مَهولُ

ينفدُ النيلُ ويذوى شَطُّهُ
وتَغولُ الأهلَ والأوطانَ غُولْ

الوصيفة : رؤياك ياسيدتى من نفسها مؤوَّلَه
نالتكِ من عَشاءِ أمسِ ثِقلَةٌ ووبَلَه

الملكة : ماذا أكلتُ مع قمبيزَ وما قُدّم له؟

الوصيفة : كان العشاءُ ملكيّ مائدةً محمَّلَه
أكلتِ ياسيدتى من أرنبٍ متبَّلَه
ثم أكلتِ من حَمَلْ وحَمَلُ الفُرسِ جَمَلْ

الملكة : ثمَّ ؟

الوصيفة : جاءوا بالطيرِ فى الأطباقِ

الملكة : طيرُ مَنْ ؟

الوصيفة : طيرُ فارسٍ والعراقِ

الملكة : ثمَّ ماذا ؟

الوصيفة : ثم جاءوا بالسمكْ
فرأيتُ الملْكَ فى الأكل انهمَكْ

الملكة : ثم ماذا ؟

الوصيفة : لا أُعدُّ ماحضَرْ من لحومٍ وبقولٍ وخُضَرْ
ثم بالحلْوَى أتَوْا والفاكهه

الملكة : كيف كانت ؟

الوصيفة : تشتهيها الآلهه

الملكة : خلَّطتِ تخليطَ العجوز يا تِتَا   فما علاقةُ الطعام بالكرَى

الوصيفة : الأكلُ قبلَ النومِ ثِقلٌ وأذى   وربَّما جاء بأضغاث الرُّؤَى

الملكة [لنفسها] :

عرفتُ الآن رؤيایَ   وما خلَّطَ أحلامى

وقد يُغريك بالأكلِ   طُهاةُ الفُرس والشام

[ثم الى تتا] : تِتَا أينَ كنتِ ؟

الوصيفة :   وراءَ الخَدمْ

الملكة :   وكيف عددتِ علىّ اللُّقَمْ

الوصيفة : لبِذتُ هناكَ فما من يدٍ   تفوتُ علىّ ولا مِن قَدَمْ

ولم يخفَ عنِّىَ كيدٌ يطوفُ   ولا وحىُ لحظٍ ولا همسُ فَمْ

أخافُ القصورَ وأخشَى السمومَ   وما منزلُ السُّمِّ إلا الدَّسَم

الملكة : يا لَكِ من رفيقه   محسنةٍ شفيقهْ

مَرْحَى تِتَا كذا تِتَا   فلتكنْ الصديقه

الوصيفة : سيدتى أخجلْتِني   ليس بما جئتُ عَجَبْ

ما قُمتُ يا سيدتى   إلا ببعضِ ما وَجَبْ

الملكة : ولكن يا تِتَا ما أخطَرَ السُّم على بالِكْ

ولى فى فارس عامٌ   فما فكَّرتُ فى ذلكْ

الوصيفة : أرى قمبيزَ والفرسَ   بمولاتىَ قد جُنُّوا

ولولا ذاكَ لم يخْلُ من الشّيمِ لها ذهنُ

الملكة : ولِمْ لا نحذرُ الشَّمَّ أما في فارسٍ نحنُ

هنا الجلادُ والسيفُ هنا السَّجَّانُ والسِّجْنُ

الوصيفة : وماذا ضَرَّ ما قلتِ إذا لم يَجنِ الجِنُّ

الملكة [بعد برهة تفكير] :

أرى قمبيزَ ذَلَّ ورَقّ طبعا بربِّك هل رأيتِ عليه حُبَّا

الوصيفة : أجلْ هو يقصرُ الخطوات مهلًا وكانَ يَمُدُّها خَطْفًا ووَثْبَا

[ثم في تلعثم وتردد] :

سأسألُ فاحلمى عنى فإنى أموتُ ولا أراكِ على غضَبِ

سؤالٌ ملكتى هل من جوابِ

الملكة : أدونَكِ يا نتَا شيءٌ يُخَبَّا

الوصيفة : زعمْنَا أن قمبيزًا مُحِبٌّ فهل تجزينَه بالحبِّ حبَّا

الملكة : أحبُّ أنا؟ ضَلَّ ماقدظنَنْتِ وإن خلت ظنّك لم يكذبِ

الوصيفة : ولِمْ لا ؟ وقمبيزُ لا بالقبيح ولا بالدميم ولا بالغبى

ولا هو بالملكِ البربرىّ ولا الوحشِ ذى النَّابِ والمِخلَبِ

ولكن فَتًى خيِّرٌ كالسحابِ وضىءُ البشاشةِ كالكوكبِ

يزينُ السريرَ إذا احتلّه وإن سار كان حُلَى الموكبِ

الملكة : صدقتِ تتا هو زين الشباب ... إلـهُ القنا قمرُ الغيهبِ
إذا غُلبتْ فى القتال الملوكُ ... وفى السِّلم عزٌّ فلم يُغلَبِ
يُسيطِرُ كالشمس سلطانُه ... على مشرق الأرض والمغربِ
ولكن متى يا تتا دُلِّهتْ ... بناتُ الفراعين بالأجنبِ

وما نلتقِى فى جلال الجدودِ ... ولا فى العقيدة والمذهبِ
بَخٍ بَخٍ تتا ألفَ مرحَى تتا

الوصيفة : حنانَيْك عفواً ولا تغضبى
لقد قلتُ حقًّا وماذا علىَّ ... إذا قولةُ الحقِّ لم تُعجِبِ

« تنسحب الملكة إلى غرفة مجاورة ويدخل قمبيز .... »

قمبيز [يدخل وعليه أمارات الغضب] :
ماأرى من تتا؟ تتا أين مولا ... تُكِ فيمَ احتجابُها أين سارتْ
تتى [لنفسها]: ربِّ ماذا به وما هاج قمبيـــز وما بالُ نفسهِ اليوم ثارت
تتى [لقمبيز]: هى فى حجرة الملابس
قمبيز : لا بل ... هى قد جاءها النَّبا فتوارت
خبِّرينى من أبوها ... أيرياسٌ أم أمازسْ
وبنفريتَ تُسمَّى ... أم تُسمَّى بنتاتس
إحذرى أن تكذبينى ... إحذرى سلطانَ فارس
تتى : سيدى ما هذه الأخبار كسرى من رواها
سيدى كيف اتهمتم ... ملكة الفرس النبيله

قمبيز : سأريها كيف تقا ـ دُ وتأتى لى ضئيله
في غدٍ تدخلُ مصراً ـ بنتُ فرعونَ ذليله
وترى السيفَ مخُوفًا ـ وترى النارَ مهوله
وتَرى النيلَ دمًا واا ـ لأرضَ جرْداءَ محُولَه
لا أناسٌ لا مواشٍ ـ لا بناءٌ لا نخيلَه

الوصيفة : سيدى صبراً تجدْ عا ـ قبةَ الصبرِ جميلَه
سيدى لا تُصْغِ إلا ـ لسَجَاياك النبيلَه

قمبيز : أنا لم أخلَق لبسطِ الـ ـكَفِّ أستجدى بخيلَه
أنا للسّيفِ وللرُّمـ ـحِ وإخضاعِ القَبيلَه
لا نِتَا . لا . إنّ بالملـ ـكةِ كبراً ومخيلَه

[ثم بسخرية] :
أنا من تُرْبٍ خَسيسٍ ـ وهى من أرضٍ جليلَه
أنا للطِّينِ سليلٌ ـ وهى للشمسِ سليلَه

الملكة [وهى راجعة] :
ما الصوتُ مَنْ تُكلّمينَ يا نِتَا ؟

الوصيفة : سيدتى . سيدىَ الملْكُ أتى

الملكة [ملتفتة] : الملْكُ جاء حجرتى ؟ كيفَ متَى ؟ ؟

[ثم ناهضة ومقبلة على الملك] :
الملْكُ فى مقصورتى يا مرحبا يا مرحبا

الملك [ويقبل على الملكة] :

سلامٌ ملكَة الفُرسِ ... وبنتَ العِليَةِ الصِّيدِ

الملكة : سلامٌ سيدَ الأرضِ ... سلامٌ حيدَر البِيدِ

ومن دانَتْ له الدنيا ... وألقَتْ بالمقاليدِ

[ثم مستمرة] : لم أتعوَّدْ أن أرَى ... مولايَ عندى فى الضُّحَى

قمبيز : خالفتُ نظمَ عادتى ... وجئتُ فى شأنٍ دعَا

الملكة : مالَكَ كِسرَى عابِسًا ... مالى أراكَ مُغْضبا

الملك [ويصفق] :

أجل جِدُّ غضبانَ

الملكة : مِمَّ الغضَبْ ؟

الملك : رُوَيْدَكِ نفريتُ تدرى السَّبَبْ

الملكة [لنفسها] :

دعانِىَ باسمِىَ لم يَدْعُنِى ... كمألوفِ عادتِه باللَّقَبْ

تُرَى لم يزَلْ جاهلاً أننى ... أتيتُ لفارسَ باسمٍ كَذِبْ

قمبيز [ملتفتا وراءه خارج الباب وينادى] :

فانيسُ . أقبِلْ أُدنُ جِئْ

الملكة [لنفسها] : ... فانيسُ ؟ لا . لا يدخُلِ

فانيسُ لا أجهلُهُ ... ليس لمصرَ بالولِى

عدوُّ قومِى وبلا ... دى كيف يُصفى الودَّ لِى

[ثم إلى قمبيز]: مولاى إنى ما فـــرغـــــتُ بعدُ من تجمّلِي
فكيف أستقبل فى هـذا اللبَاسِ المهمَلِ

[لنفسها] : يا ويلتـــاه ما أرا دَ باصطحاب الرجلِ
إيـــزيسُ ما بالىَ أحـــــسستُ بشرٍّ مقبلِ

الملك : مالَكِ يا مليكةُ لم تُــرَحّبِي وتَحفِلِي؟
مالَكِ أجفلت ؟

الملكة [مضطربة] : أنا ؟ لا سيدى لم أجفلِ

الملك : إذَنْ هبِي الإذنَ لفا نيسَ دَعِيه يدخلِ

الملكة : لا بأسَ فى أن أراه عندى إن كنتَ يا سيدى مُصِرًّا
لكن أأُنسيتَ أن فانيــسَ خانَ بالأمسِ عهدَ مصرَا
وفرَّ منها ولستُ أدرى ماذا دَعَاه لأن يفرَّا
وكان فى الجيش ذا مكانٍ وقادَ بَرًّا وقادَ بحرَا

قمبيز : لكنه اليومَ فى بلادى أجَلُّ مما ذكرتِ قدرَا

الملكة : وسوفَ يجزيكمُ جحودا كما جزى أهلَ مصرَ كُفرا

قمبيز : لقد أتانى بكلِّ سرٍّ عن مُلْكِ مصرٍ لم يُخفِ سِرًّا
حتى الذى تكتُمين عَنِّى

[ثم ينادى] : فانيس

فانيس : مَلِكِى لبيْكَ عشرَا

[ثم هو يدخل] :
سلامُ الشمسِ من مصرَ سلامُ النارِ من فارسْ
على المَلْكَةِ نفريتَ أو المَلْكةِ نيتايْسْ

الملكة [لنفسها] :

رماني النّذلُ بالسّهم

[ثم لفانيس] :

سلامٌ لكَ يا فانِسْ

ويا مَن هو في الفُرسِ ومصرَ القائدُ الفارسْ

وفي القصرين من سوسٍ وسايِيس هو الحارسْ

فانيس : وماذا ضرّ يا بنتَ الموالي وإن تأبَى فيابنتَ الأعادي

أجلْ مولايَ الإغريقُ قومي أحبّهمُ ويونانٌ بلادي

هجرتُهما إلى مصرٍ صبيًّا لكَسْبِ معيشةٍ وطِلابِ زادِ

فصِدْتُ الرزقَ حتى صارَ عندي وجاوزَه إلى المجدِ اصطيادي

سهِرْتُ على اللواءِ بمصرَ جَهدي وفرعونٌ وقومُكِ في رقادِ

الملكة : كذبتَ فلم تكن إلا مسودًا

فانيس : فسوّدَني ذكائِيَ واجتهادي

الملكة : أجيرًا كنت عند أبي وقومي

فانيس : فولّني نشاطي واقتصادي

جعلتُ الأرضَ كالصحراءِ تحتي وكنتُ الليثَ من وادٍ لوادي

الملكة : أراكَ عليّ يا فانيسُ تجْرو أَجَرَّأَكَ المليكُ على عنادي؟

ككلبٍ خَلْفَ سيّده تجرَّا فواثَبَ رائحًا وسَطا بغادي

فانيس : بدأتِ أميرةَ الوادي بشتْمي وما أنا يا ابْنَةَ المقتولِ بادِي

لقد عيّرتِني أني غريبٌ ولوعٌ بالسفار وبالرِّيادِ

الملكة : لقد هجم الوقاحُ على مكانى — وأخشى أن يصير إلى التمادى

[ثم للملك] : مولاىَ قِف فانيسَ عند حدِّه — أو ردّه لا تُلجِنى لردِّه

علمتَ حقده على قومى فلا — تدعه ينفثُ فىَّ سُمَّ حقدِه

الملك : علامَ أُقصيه

الملكة : لأنه أتى — يَشى بنا ويفترى كعهدِه

الملك : فانيسُ جاءَ ناقلاً مُبلِّغا — وليس ما جاءَ به من عندِه

[ثم مستمرًا] :

أراكِ نفريتُ غيرَ منصفة — رُوَيْدَ لاشىءَ يوجبُ الغضبَا

كونى مكانى! ؟ماكنتِ فاعلةً؟ — إذن قلبتِ الزمانَ فانقلبَا

الملكة : لا سيدى إن للزمان يدًا — قدضربتْ كفَّ كلِّ من ضربَا

الملك : نفريتُ ثُرتِ على فنيس وما حفظتِ ولاءَهُ

ونسيتِ خدمتَه بمصرَ وما ذكرتِ بلاءَهُ

الملكة : لا سيدى لا . نحِّه — أنا لا أطيقُ لقاءَهُ

[ثم مستمرة] :

ما بكَ مولاىَ ما أثارَك ما — أذكاك إنى أراك ملتهبَا

قمبيز : أثارنى منكِ أن كذبتِ وذا — فانيسُ قدجاءيفضحُ الكذبَا

[ثم مستمرًا] :

هلمّى الآن نفريتُ — هلمّى يا نتيتاسُ

بأىِّ اسميكِ أدعوكِ

الملكة : — بهذا أو ذاكَ لا باسُ

فيا قمبيزُ لو دانَتْ لكَ الأيامُ والناسُ
فلنْ تستطيعَ أن تقهرَ نفساً حلّها اليأسُ

قمبيز : أنتِ مملوءةٌ من اليأسِ منى

الملكة : أجلِ اليأسُ منكَ مِلءُ ثيابِي

فليكن

الملك : إننى سألت سؤالًا لم إذن هبْتِنى وهبْتِ جوابى
كيف أدعوكِ يا عروسُ؟

الملكة : بما شئتَ بشرِّ الأسماءِ والألقابِ
بالذى أنتَ أهلُه من بَذاءٍ والذى أنتَ أهلُه من سِبابِ

الملك : أنتِ لم تُذنبِي بل الذنبُ ذنْبي
أنا قد شئتُ أن تكونى ركابى

الملكة : ليس ماشئتَ أو أتيتَ غريباً
قد تكونُ المَها ركابَ الذّئاب

الملك : احْذَرِى أيها الفتاةُ انفجارِى

الملكة : انفجرْ مابِي انفجارُكَ مابِي

الملك : جئتِ ذنبا تُعاقبينَ عليه كلُّ ذنبٍ رهينةٌ بالعقابِ

الوصيفة [بصوت منخفض] :

اكظمِى الغيظَ يا أميرةُ

الملكة [وتشير الى قمبيز] :

بل يخرجُ من مجرتى ومن محرابِي

الملك [لفانيس والوصيفة] :

انظُرَا واسمعَا تُحاوِلُ أن أبْــــرحَ قصرى وأن أُفارِقَ بابِي

الوصيفة [للملكة بصوت منخفض] :

راجعِي الحلمَ ملْكتِي سايريهِ لاطفيهِ لِيني له فى الخطابِ
لا تهيجى به الجنونَ فيطغى إنّــه آدمٌ بظُفــرٍ ونابِ

فانيس [همسا] :

أَحْسِنِي الرّدَ ملْكتِي واحفظِينا
إننــا ها هنـا ثلاثُ رقابِ

الملكة : خِفتَ فانيسُ من عذابِ نهارٍ
كيفَ عرّضتَ أنفُسًا للعذابِ
عجَبٌ من خرابِ عمرِكَ تخشى
أنتَ من ساقَ أمّةً للخرابِ

الملك : بنتُ مَنْ أنتِ يا نتيتاسُ

الملكة : بنتُ الـشــمسِ بنتُ العواهِلِ الأربابِ
والِدى فى السماءِ فهو إلهٌ

الملك : فلماذا مَرّغْتِــهِ فى الترابِ
قد نَبذتِ اسمَكِ الذى كان سَمّا كِ وجُبْتِ البلادَ بِاسمٍ كِذابِ

[ثم مستمرا] : نتيتـاسُ تَمَــرَّدْتِ فما أبقيْتِ لى صبرَا
وكلّمْتُــكِ فى الذنبِ فما أبديْتِ لى عُذرَا
وما أجـرأَ ما كنتِ عـلى شيْئٍ ما أجرَا

فما غرَّك بالبأسِ ... وبالسلطانِ ما غرَّا

الوصيفة [بصوت منخفض] :

خُذى فى اللِّينِ مولاتِى

فانيس [همسا] : خُذى سيدتى الحذرَا

فقد تأخذُه النوبةُ حتى يَحْرقَ القصرَا

قبيز : دَعِى العِزَّةَ بالجنس ... نتيتاسُ دَعِى الكبرَا

ولا تُلقِى على إحسا ... نِىَ النسيانَ والكُفرَا

أما أحْبَبْتُك الحُب الـ ... ـذى أنتِ به أدرَى

وفضَّلتُك فى القصرِ ... على البيضاءِ والسمرَا

وقدَّمتكِ فى الأزوا ... ج قبلَ الأختِ من كسرَى

الملكة : لقد كنتَ وراءَ الحُبِّ تُخفِى النابَ والظفرَا

وما أفرحنى أنى ... تقدَّمتُ على الأسرَى

ولا أنكَ ترْعانِى ... وتنْسى النعجةَ الأخرَى

الملك : ملكةَ الفرسِ أمسِ

الملكة : واليوم

الملك : كلا ... لستِ أهلاً لصحبةِ المالكينَا

الملكة : أنا بنتُ الملوكِ أصلُح للمُلْـ ... ـك جدودى تملَّكوا العالمينَا

الملك : قد خُدعتُ الشهورَ ياابْنةَ فرعو ... نَ ولولا فنسٌّ خدعتُ السنينَا

فانيس [لنفسه] :

أحمَدُ الله قد نجوتُ برأسى ... وأمنتُ المُهَوَّسَ المجنونَا

الملكة: ليس فانيسُ للأمانة أهلًا إنّ من خانَ لم يخفْ أن يخونَا

الملك: ستَرَين العقابَ

الملكة: إنى تأهّبـــــتُ فهات العذابَ هات الْمَنُونَا

الملك: لا. فما ها هنا العقابُ ولكن

الملكة: أيْنَ ؟

الملك: فى حيثُ شئتُ لم تسألينَا
مصرُ أوْلى بأن أحاسِبَ فيها وأُحلَّ العقابَ بالخادعينَا
فى غد تدخلينَ مصرَ مع الجيـــش

الملكة: أنا ؟ لا أرافقُ الغاصبينا

الملك: بل تسيرينَ تحت راية فانيـــسَ
وما تصحبينَ إلا أمينَا

الملكة: سيدى

الوصيفة: مليكتى دَعى العُنفَ

الملك: ماذا ؟

الملكة: كيفَ لقّبْتَ بالأمين الخؤونَا

فانيس [همسا] :
صانعى أيُّها الأميرة

الملكة: دَعْنى

فانيس: اهْدَئى حاسنى عسى أن يلينَا

الوصيفة : مَلِكتي قال سيدى الملكُ الحـقَّ
الملكة : صَـهٍ أنت يا تتـا تكذبينا
فانيس : ستريْنَ النعيمَ تحتَ لوائى
الملكة : بل أرى البُؤسَ تحته والهُونا
الملك : وكأن الوجهين بانا من الوا دى
وزالا سهولةً وحُـزونا
أرسلُ السيلَ تارةً وأجيلُ السـيفَ آناً وأشعلُ النارَ حينا
الملكة : عُدْ إلى الرُّشد ما جنتْ مصرُ يا قمـ
بيزُ ما ذنبُ أهلها الآمنينا
[ثم مستمرة] :
أميرَ الفُرس قلنا كلَّ شيء
ولم تَقُـل الحقيقـةَ والصـوابا
الملك : أعندكِ منهما شيءٌ ؟
الملكة : ولم لا
الملك : إذَنْ قوليهما وزِنِى الخطابا
ذكرتِ الحربَ هل تخشينَ منها
الملكة : ولم لا وهى أجدرُ أن تُهابا
الملك : ولكنا ملوكَ الفرس نغشى مخاوفَها ونجعلُها لعابا
أراكِ هدأتِ نانيتاسُ روعًا
فانيس : وكان الرّشدُ فارقها فثابا

الملكة : ذكرتَ مليكَ فارسَ حربَ مصرٍ وأنسيتَ العوائقَ والصِّعابا
سيَطْوى الجيشُ نحوَ حياضِ مصرٍ
بحارَ الملحِ والِلجَجَ العِذابا
وأغْبى الناسِ منشمرٌ لحربٍ توقَّعَ أن يُصيبَ ولا يُصابا
ودونَ النيلِ
الملك : ماذا دونَ مصرٍ؟
الملكة : يجوبُ الجيشُ صحراءً يَبابا
ترى تِيهًا تَجُرُّ الخيلُ فيه قوائمَها وتنسحِبُ انسحابا
يَضِلُّ الجيشُ هديتَه عليه ويُظمئُه ويورِدُه السَّرابا
ترى جَلَدَ الجمالِ عليه يَفْنَى وتحسَبُها من اللَّهثِ الكلابا
الملك : لا تُراعي فما على الجيشِ بأسٌ كلُّ شيءٍ على الحدود تهيّا
قد وجدنا الجِرارَ في مصرَ والما ءَ ولم نَعدَمِ الرجالَ السُّقِيّا
فانيس : واشترينا الخفيرَ بالمالِ والحا رسَ والحاميَ الأمينَ القويّا
الملكة [لفانيس] :
كلُّ هذا فعلتَه أنتَ يا نَذْ لُ
فانيس : أجلْ ما أتيتُ أمرًا فريّا
إن قمبيزَ بي حفيٌّ وفرعو نُ أمازيس لم يكن بي حَفِيّا
الملكة : وابنُه ماجنَى عليك ومصرٌ؟
فانيس : جَنَيا الطردَ والجحودَ عليّا

أنا كالسيف لم يَصُنِّىَ كَبِىٌّ قد رمانى فاعتضتُ عنه كَبِيًّا

الملكة : وجحدتَ الذى طعمتَ من النعمة

فانيس : لا . ماطعمتُ من ذاك شيًّا

كنت كالسيف كلما كافئونى جعلوا السُّمَّ لى طعامًا ورِيًّا

الملكة [إلى قبيز] :

وهبكَ بلغتَ يامولاىَ مصرًا

الملك : وماذا عندَ مصرَ

الملكة : تجىءُ غاباً

ترى أُسدَ القتالِ عليه شتَّى تقلَّدت الصوارمَ والحِراباَ

وثَمَّ ترى الفَيالِقَ من رُماةٍ تكادُ قسيُّهم تَرِدُ السحاباَ

إذا نظروا على زادٍ غراباً أصابُوا بينَ عيْنَيْهِ الغراباَ

الملك [يبتسم مستهزئاً] :

رُماةٌ ؟

[ثم إلى فانيس والوصيفة] :

حدِّثوها كيفَ أرمى

وكيفَ أصيبُ فى السُّحبِ العُقاباَ

الملكة : أأنتَ بجمعهم نقَّاسُ كسرَى

وأنتَ الموتُ حيثُ رَمى أصاباَ

الملك : إذَنْ ماذا ؟

الملكة : أخافُ عليك جيشًا

كمركومِ الحصى يُخْطى الحساباَ

وأخشى أن يقولَ النـاسُ زوجى
غــداةَ ذهابِــه نسِىَ الإيابا

الملك [لفانيس] :

فانيسُ صَفِّق و ناد ... يامعشــرَ القُــوّاد

[يدخل الحرّاس والقوّاد]

قمبيز [للقائد ميجا صاحب الأخبار] :

ميجا تعالَ

ميـجا : لبّيْــكَ رَبِّى ... لك التحيات والسجودُ

الملك [للملكة] :

يامَلْكَةَ الفرسِ ذاكَ ميجا ... يعـلمُ ما يحشُـدُ الوجـودُ
خريطــةُ الأرضِ فى يديه ... السفْنُ والخيـلُ والجنودُ

الملك [لميجا] : ميـجا تكلَّم ما حالُ مصرٍ ... ما الجيشُ فى مصرَ ما الحدود

الملـكة : هاتِ ميجا قل تكلَّم

ميجا [فى اضطراب] : ملكَتِى

الملـكة : ما الذى تدرى عن الجيش المجيدْ

ميـجا : جيشُ مولاتىَ كالعهـدِ به ... كاملُ العُدَّةِ موفورُ العديدْ

الملك [فى غضب] :

هاتِ ما عندكَ من أخبـارِهِ
واخْشَ أن تَنقُص واحْذَرْ أن تَزِيدْ

ميجا [مضطربا] :

يا إلهَ الفرسِ لا تبرحْ فمى
وأعِنّى . كيف أبدى وأعيد

[ثم للملكة] :

إن وردَ السلم من كثرتهِ نسيتْ أظفارَها فيه الأسود
واختلافُ الجُند فيما بينَهُمْ أخذَ البأسَ و إن أبقى الحديد
أصبح الجيش
[و يسكت قليلا]

الملك [لميجا] : تكلَّم

الملكة : قل أينْ

ميجا : كالقطيع اختلفتْ فيه الجلود

حُشِرَ اليونانُ فى رايتهِ وتراغى الزنجُ واندسَّ العبيد
وغدا كلُّ طريدٍ لم يجدْ سببَ الرزقِ أتى الجيشَ يصيد

الملكة [لنفسها] : والخيلُ يا ميجا هناك ؟

ميجا : قليلةٌ فى جَيشِ مصرَ قليلةُ الفرسانِ

الملكة : أسفًا على الفتيانِ أينَ حماسُهم قتَلَ النعيمُ حميَّةَ الفتيانِ

الملك [ملتفتا الى ميجا] :

مليكةُ الفرس ميجا قد اكتفتْ ببيانِك
فخذ مرازبةَ الفرسِ وامضِ ميجا لشانِك

نتيتاس : قمبيزُ ما شئتَ فاصنع إنى أراك مُصرًّا
تُغيرُ أنتَ وتغزو ويحفظ الله مصرا

قمبيز : وفارسٌ يا ابنةَ النــــــيل ما لِفارسَ ذِكرُ

نتيتاس : لا أيها الملك مالي في غيرِ مهدِيَ فكرُ

قمبيز : نتيتاسُ اسمعي أنتِ تُسيئين إلى مصرَا
غدًا يهلِكُ أهلُوها وتُمسى تحتَهم قبرا

نتيتاس : وقاها منكَ آمونُ ولا اسطعتَ لها ضرّا

قمبيز : هذا التَّجنِّي كثيرُ هذا لعمري الغرورُ
لقد تحمَّلَ صدري ما لا تُطيقُ الصُّدورُ

[ثم مستمرا] : كفا عَبَثًا بسلطاني وبأسي كفى ما كان نا تيتاسُ منكِ
غدًا يتحدّثُ الرُّكبانُ عني ويروي الناسُ ما يروون عنك
كذبْتِ عليّ يا ابْنَةَ أبرياسٍ حذارِ حذارِ من بطشي وفتكي

أنا قمبيز بنُ كسرى أنا جبار الوجودِ
وأنا النارُ أصولي وبنو النار جدودي
ويل فرعونَ ومصر من جنودي وبنودي

قمبيز [لنفسه] : رباهُ ويحي ويحَ لي رباهُ ما لي لا أعي

رباهُ ناراهُ ما الذي أجدُ
كأنما النارُ فيّ تتقدُ

يا نارُ كوني لي أو رمادًا كُنْ عوني

[ثم إلى نتيتاس] : انتظري البطش يا بنتَ فرعون

أنا قمبيز بنُ كسرى أنا وحشٌ أنا غولْ
لستُ بالعجل أبالى وعلى النار أبولْ

قمبيز [لنفسه]: قد رجع الصفيرُ لى يا ليته لم يرجع
ما بالُ عينى أظلمتْ ما بالُ ساقى جمدتْ
أين الطبيبُ أزْدَشِرْ؟

[ويغشاه الصرع]

الملكة [بعد أن يأتى الطبيب]:

هذا الطبيبُ قد حضرْ

[يدخل الطبيب و يطلب نقله]

الملكة [تدنو منه فى حنو وعطف وتقول]:

يا ويحَ زوجى ويحَه هاجَ وعاده الصَّرَعْ
يا نارُ كونى حوله أدركْهُ يا آمونُ رَع

[يخرجون به]

فانيس: ألان نتيتاسُ تعالَىْ إلى الهُدَى
تعالَىْ إلى الرأى الصوابِ تعالِى
نتيتاسُ أنتِ اليومَ ملكةُ فارِس
بلغتِ الذُّرَا من سُؤْدَدٍ وجلالِ

الملكة: ولكنْ أبِى فانيسُ لاتنسَ ما أبى
وجَدِّى وأنى بنتُ أصيدَ عالِى

فانيس : ولكن ألم يخلعْ أباكِ أمازسٌ
ويفتِكْ به فى ثورةٍ وقتالِ
ويجلسْ على كرسىّ مصرَ مكانَه
ويخلُفُه فى جاهِ أفادَ ومالِ
الملكة : أجلْ قد خُلِعنا مُلكنَا وتصرَّفَتْ
بنا سوقةٌ من جُندنا وموالِى
فانيس : إذَنْ فدَعى قمبيزَ يثأرْ لزوجه
ويضربْ بيُمْنَى أو يُصِبْ بشِمال

دعيه يعاقب سارقَ التاج مثلما
يُعاقَبُ فى منفيسَ لصُّ لآلِى

الملكة : تأمّلْ وحقِّق من تخاطبُ يافتى
فانيس : أخاطِبُ عقلًا من وراء جَمالِ
لقد قلتُ قولًا ليسَ يأباهُ عاقِلٌ
فلا تنظرينى واسمعى لمقَالِى
الملكة : ولكن أمامِى صورةٌ من خيانةٍ
فانيس : وما لَكِ يا بنتَ الملوكِ وما لِى
الملكة : وأنتِ بِتَا ماذا تَرَيْنَ ؟
الوصيفة : خيانةٌ وأطماعُ قُوَّادٍ ولؤمَ رجال

الملكة : فديتُك من مصريّةٍ

الوصيفة : بل أنا الفِدَى لسيدتي من قدوةٍ ومثالِ

الملكة [لفانيس] :

أتسمعُ كلبَ الصيد؟

فانيس : حمقاءُ غِرّةٌ وما ليَ ألْقى للحماقةِ بالي

الملكة : عمّى لك يا فانيسُ وامشِ بلا عصًا
ودونَ دليلٍ في رءوسِ جبالِ

فانيس : لكِ الشكرُ مولاتي

الملكة : لكَ الويلُ من فتًى فإنكَ من معنَى المُروءة خالي

أأُوطِئُ خيلَ الفرسِ مهدي وملعبي
وتربةَ آبائي ومنزلَ آلي
وأشعِلُ نارَ الفُرسِ في أيكةِ الصِّبا
وما بوّأتْني من رُبًى وظِلالِ
وأغمدُ سيفَ الفُرسِ في صدرِ أمةٍ
نمتْني وتَنْمي أُسْرتي وعيالي

إذَنْ لا أوى جَدّي السماء ولا أبي
ولا جَلَّ عَمّي أو تبارَكَ خالي
وأفضلُ مني كلُّ ذاتِ مُلاءَةٍ
وراء حُقولٍ أو وراءَ تلالِ

تَهُشُّ على شاةٍ وتحمِلُ جَرَّةً
وتمشى على الوادى بغيرِ نِعالِ

[يدخل قمبيز ثم الحاجب و يقول] :

إله الفُرس

الملك : ماذا ؟

الحاجب : ثَمَّ رُسُلٌ أتَوْا من مِصرَ بالنَّبَأ العظيم

الملك : وما يقولون ؟

الحاجب : يقولون أمازيسُ هَلَكْ

الملك : ثُمَّ ؟

الحاجب : يقولون ابنُهُ بسامتيك قد مَلَكْ

الملكة [لنفسها] :

مِصرُ ... ... رُسُلٌ ؟ ليتَ شعرى ما الخَبَرْ
وطَني يا رَبِّ لا مَسَّ بشَرْ

قمبيز الملك [ملتفتا للملكة والوصيفة] :

يا مَلْكَةَ الفُرسِ أصْغِى ويا نِتَا هل سمعتِ
قد ماتَ فرعونُ مصر

الملكة والوصيفة [بصوت واحد] :

تعيشُ مِصرُ وتَبْقَى

ســتــار

الفصل الثالث

المنظر الأول

«الأميرة تفريت على ضفاف النيل تشكو إليه وتنتحر بأن تلق بنفسها فيه»

ويحى لقد أودَتْ بىَ الأنانيه
عِشتُ فما أحببْتُ إلا ذاتيَه
ولا افتكرتُ بسوَى لذَّاتيه
حتى قَذفتُ وطنى فى الهاويه
ألنيل . ألنيلُ بجنبى هاهيَه
أمواجُه تهتِفُ بى مناديه

\+ + +

يا نيلُ يا قوامَ كلِّ شئ
ومانحَ الحياةِ كلَّ حىّ
هىِّ اغسلِ الذنبَ العظيم هىّ

ثم تلق نفسها

المنظر الثانى

فى منفيس

« جماعة من المصريين والمصريات يتحادثون ويتذاكرون »
« بغى قمبيز وجنوده وبعض ما أصاب الناس من المصائب »
« من جراء الفتح الفارسى — فى ساحة من ساحات منفيس »

أحد الرجال [لزميل له] :

تعال يا (باطا) قل لى بالله
كيف ترى الحكما كيف ترى الظلما

باطا : اصغ اصغ يا داد اسمع وكن عونى
قمبيز فى الظلم بألف فرعون

[ثم لمجار]: وأنت يا مجار ماذا تقولينا

مجار : آمون ذو المنّ يبقى الفراعينا
الفرس فى مصر طغيانهم قد زاد
هم صلبوا التمساح على ضفاف الواد
وكلّفوا العصفور يمشى مع الصيّاد

[تقبل امرأة مصرية عجوز]

فيقول أحدهم: وهــذه دوبــاره

آحــر : الشــيخةُ الـثرثاره

الأوّل : هلمّــى يا دوبـارا هاتى اذكرى الأخبارا

دوباره : لا تسألونى ما الخـبر مِصرُ ترى اليومَ العِبَر

لكن صَـهٍ حذارِ لا يـدرينّ دارِى

عارضَنى الساعةَ فى طـريق

فتىً مليـحُ الحسنِ والـبريق

يسألها سائل : مِن الجنــود ؟

العجوز : لا ! من القوّادِ

عـالى المكان ظاهِــرُ الميــلاد

آخــر : ومـا أتى ما فعــلا ؟

العجوز : عانَقــنِى وقبّــلا

الأوّل : وأينَ ؟ فـوق فِمـك الدّرِّىِّ

آخــر : أو من على جبينِك البــدرىّ

آخــر : أو فوق خدٍّ مثلِ روثِ البغلِ

الأوّل : أو فوق ذقنٍ مثلِ كعبِ النّعلِ

العجوز : أهــذه نجــدتُكُم يا فتيَــهْ

أهــكذا تُحمَى بمصرَ النِّســوَه

يا أسفًا على القرونِ الخاليــه

يا أسفا على النفوسِ العاليَــه

[وتنصرف مغضبة مهرولة]

أحدهم [ويرى شخصا مقبلا]:

هذا أها، من أينَ جئــــــتَ؟

ثانى: كيف أنتَ يا أهـا؟

أهـا: من ضيعتى

الأول: وكيف هِى؟

أهـا: قـد لَقِيَتْ ما ساءَها

إوَزِّى كلّــه طــاحَ وبَطِّــى كلُّــه طــارا
وأخــتى خُطِفت مِــنِى وزوجى جُــلِّلَتْ عارا

الجماعة: إذن لقــد آن أن نثُــور نَطْــرُد قمبيزَ والجنــودا
الغابُ فى شِقوةٍ وبُؤسٍ فمــا الذى يُمسِك الأسودا

أحدالجماعة: خذوا حِذركم أقبل الطاغِيَه مع الوزراء وفى الحاشِيَه
وذا السيفُ فى يدِ جلّادِه يُسَلُّ على الأَرْؤُس العاليَه

آخــر: تــلك مصائبٌ وقَــدْ صُبَّتْ على هــذا البــلَدْ
امضُوا بِنَــا امضوا بِنــا لَا يسمَعنّا أحَــــدْ

« ينصرف المصريون ويدخل قمبيز فى وزرائه وقواده»
« ثم يقبــل جنود يسوقون أسرى من النــوب ... »

قمبــيز: ماذا يَسُــوقُ الجنــودُ مِنَ الوجــوهُ الســودُ؟

هــذى عفـاريتُ

وزير : لا . بل مـولاى هـذى قـرودُ

قبـيز : لكنّهم حيثُ دارتْ رَحَى القتـال أُسـودُ

بـلَوْتُهـم فى القتـالِ لمـا حـوَتنـا الحـدودُ

قائـد : النـوبُ جُنـدُ بِسَامَا

قائد آخر: بل هـم أشَـدُّ جنـوده

وأثبتُ الجيش يـومَ الـقتـالِ تحـتَ بنـودِه

قبـيز : ياجُنْدُ حُلّوا عن الأسرى وثاقَهـمُ

خَلُّوا عن السُّودِ قد أعتقتُ أقرانى

ويابنى النُوبِ مُلكى لن يضيقَ بكم

من شاءَ فليبقَ فى مُلكى وسلطانى

والجيشُ داركُمُ إن كان يُعجبكُمُ

أن تَلحَقوا بمُشاتِى أو بفـرْسانى

الأسرى النوب :

يا بنِي النـوب هَـلُمّ رقصةَ الحربِ لكسرَى

سـيّدُ الأرضِ عفَـا عـنّـا فما نحنُ بأسرَى

« ثم يفك وثاقهم فيرقصون رقصة الحرب و ينشدون »

النّـوبُ جيـلْ ، حُـرٌّ أصيـلْ ، يقضِى الديـونْ

نحنُ الأسـوَدْ ، حُمْـر الجـلودْ ، حُمْـر العيـونْ

لنـا لِبَـدْ ، من الـزَّرَدْ ، هى الحصـونْ
نغشَى القتـالْ ، ولا نُبـالْ ، طعمَ المنـونْ

نحن شعوبٌ وشِيَعْ وراءَ أسـوانَ نَقَـعْ
عروشُنا من الجـريدْ تيجانُنَـا من الوَدَعْ

نحن قبيـلَ الشُّـلُكِ فى العنجريبِ نَتَّـكِى
والصيدَ نَهْوَى والقَنَص ونَطَّـلِى بالـوَدَكِ

للحربِ نمشِى الهـرولَه نبعثُ فيهـا الجلجـلَه
ممزوجـةً بالـولـولَه

[و بعد الفروغ من الرقص يقبل عليهم قمبيز و يقول] :

قمبيز : زِه يا جُنودْ زِه يا أسودْ

[كبير النوب لخازن الملك] :

زِه زِه هاتِ النقودْ

[يدفع الخـازن اليهم مالا فيأخذونه و ينصرفون]
[يتراءى فرسان ثلاثة] :

قمبيز : مَن الغُبـار ؟
وزير : رُسُـلُ
قمبيز : ما ذا إلينـا حَمَـلُوا
قائد : وها هـمُـو ترَجَّـلُوا

[يقف الفرسان بحضرة الملك]

قمبيز : ماذا وراء الرُّسُلِ

أحدهم : الدعوات للملك

قمبيز : ماذا لديكم ما الخبرْ؟

أحدهم : حوادثٌ ذاتُ خطَرْ

قمبيز : حوادثٌ؟ قل أخا الهيجا تكلَّم

الرسول : بسامَتيكُ يا مولاىَ خانَا

الوزير الأكبر :
بَسامتيك خان ؟

الرسول : أجل أميرى

قمبيز : وكيف؟ وما أتى؟

الرسول : بنقض الأمانا

قمبيز : وما برهانُكم

الرسول : كُتُبٌ ورُسْل يُشيرُ بها القُرَى آناً فآنا

قمبيز : وهل وجدتْ دعايتُه سميعا وهل حلّتْ من الوادى مكانا

الرسول : أجابت دعوةَ المخلوعِ مُدُنٌ ومدنٌ ما جعلنَ لذاكَ شانَا

قمبيز : وأين فرعونُ ابْنتَمَا

الرسول : فى منف يغدو ويروح

حُرٌّ كما شئتَ له بين القصور والصُّروح

من معبد لمعبد ومن ضريح لضريح

وحولَه كهّانُ منفيس يحُثُّونَ المسُوح

وكلُّهم مُشيرُه

الوزير الأكبر : بئسَ المُشيرُ والنَّصوحْ

آخــر : من لم يكن كاهنًا فى مِصرَ أو مِلِكَا
ولا تراه لهــذا أو لِذَا تَبَعَا
فلا تقيسَنَّ فى هــذى البــلاد به
إلّا المــواشىَ والأحجــارَ والسَّلَمَا

قمبيز : وزرائى ودَهَاقِينِى انظروا انظروا ذلك فرعون «ابْسَمَا»

الوزير الأكبر :
يدفعُ القــوّادُ والجنــدُ به وهو فى القيدِ يَجُرُّ الأدْهَمَا

قائــد : كادَ فرعونُ من استكباره أنفُهُ يدفَعُ فى أنف السما

[فرعون يقف بين يدى قمبيز فى عظمة و إباء واستكبار]

قمبيز : بسامتيـــك

فرعون : قمبـــيز

قمبيز : أتدعــو باسمـه المَــلِكا

فرعون : غدًا تَفقِدُكَ الفُرسُ ويخلُو عرشُها منكا
ومُلْكٌ قد مضى عنّى سيمضى فى غدٍ عنكا

[قمبيز يدخل فى الغضب شيئا فشيئا] :

قمبيز : وهذا الفتح يا فرعو ن ؟

فرعون : عدوان و إجــرامُ
أما عنــدَك يا قمبيـــزُ للنكبةِ إكرام

قمبيز : عفوتُ عنكَ أمسِ يـــا ابْسَاما فلم ترْعَ الوفَا

فرعون : يا عجبَــا يا عجبَــا عبدٌ عن الربّ عفَــا

قمبيز [هائجا] : خــذُوه بالخنــاجِر سُلُّوا لسانَ الفــاجِر

فرعون [فى عظمة وصبر وثبات] :

هاتوا سيوفَ الفُرس هاتُوا القَنا

هاتوا المُدَى هاتوا حبَالَ الحديـــد

لا تَحْسَبُونى بشرًا بائدًا فرعونُ حىٌّ خالدٌ لا يبيدْ

قمبيز : إذن خذوه بعيــدًا صُبُّوا عليــه الحــديدَا

« يأخذه الجند ويخرجون به »

[يدنو وزير شيخ من قمبيز ويقول له] :

القائد : مولاىَ تلكَ غضبةُ المقهورِ ونزوةُ الضرغامةِ المأســورِ

مولاىَ بالنارِ بقُدْس النورِ اغفرلهذا الصارِمِ المكسور

فإنه ضحيـــةُ الأمـــور

قمبيز [صائحا بالجند وهم ذاهبون بفرعون بسبا] :

إذن رُدّوا الأسيرَ إلىَّ رُدّوا فإنَّا ما انتهينــا منــه بعــدُ

« يرجع الجند بفرعون ويقفونه أمام قمبيز »

قمبيز : تعــال فــرعونُ ابْتَسِما تعــالَ مـــنى ناحيـــه

لقــد عفــوتُ مـــرةً وقـــد تكونُ الثانيـــه

فرعون : لا مرحبًا أمس ولا الـــــيـــومَ بعفـــوِ الطاغيـــه

قمبيز : تأمل هلْ لبستَ اليومَ ذلًّا وكنتَ تجرُّ أمسِ الذيلَ تِيها

فرعون : كذا الدنيا تُغَيِّرُيا ابنَ كسرَى نخفِّفْها إنهـــا لا خيرَ فيهـــا

وهبك قهرتنى أقهرتَ مصرًا

قمبيز : أجلْ ووضعتُ سيفى فى بنيها

وبعدَ غدٍ أطوّقها بنارٍ تطوفُ على البلادِ وما يليها
وتجعل من هياكِلها رَمادًا وتُنزلُ فى الأزقةِ مُتْرَفيها
وتدعَكُ فى ترابِ الذل أنفًا
يطولُ على النجومِ ويزدريها

فرعون: رويدَك يابنَ كسرَى قف تمهّلْ
فعادةُ مصرَ تقهرُ قاهريها

قبيز: رويدَك أنت يا فرعونُ إنى
إذا حطّمتُ مصرَ فمن يَقيها

أليستْ فارسٌ والأرضُ تحتى
وأمرى فى الجَنوبِ وفى الشّمالِ
وقد غطّتْ فضاءَ الأرضِ خيلى
وهبّتْ فى السهولِ وفى الجبالِ

فرعون: شمختَ بخيلك يا فارسىُّ فماذا صنعتَ بخيلِ القدرْ
تأمل مكانى وما حلّ بى ألم تتّعظ بى ألم تزدجرْ

قبيز: ما أنت يا مخدوع
فرعون: فرعونُ ابنُما
قبيز: بل أنت مأسورٌ عليك قيودُ

وغدًا ينوبُ عن القصورِ ورحْبِها
سجنٌ يضيقُ ومنزلٌ مسدودُ
وتُدَسُّ فى الأجداثِ غيرَ محنّطٍ
يلهو بهيكلِك البِلى والدُّودُ

فرعون : قمبيز

قمبيز : فرعونُ إنْسَما صلِّ ابتهل
واهتف لعلَّ العجل عنك يذودُ
أنظر إلى أينَ انحططتَ

فرعون : كذبتَ لَمْ
ينحطَّ للشرفِ الرفيعِ عمودُ
إن الجواهرَ فى التراب جواهرٌ
والأسد فى قفص الحديد أسودُ

قمبيز : سترى هلّموا يا جنودُ أسيرَكم
عودُوا به من حيثُ جئتُم عودوا

قمبيز [مستمرا] :
وأينَ نفريتُ ابنةُ الكذّابِ قد آن أن ينالها عقابي

الوزير الأكبر :
نفريتُ من مَخافة الحسابِ ألقتْ بنفسِها إلى العُبابِ
وذهبتْ

قمبيز [ويضحك ضحكة جنونية] :
لكن بلا إياب

[تحضر نتيتاس وتقول] :

نتيتاس : قمبيزُ؟

قمبيز : نيتيتَاسُ ؟

نتيتاس : أجَلْ

قمبيز : وماذا أتَى بِكْ ؟

نتيتاس : أتيتُ أنقذُ قومى ومَوطنى من عذَابِكْ

قمبيز : والزوجُ يا نتتاسُ ؟

نتيتاس : وأنقِذُ الزوجَ أيضا

قمبيز [ساخرا] : ومِمَّ ؟

نتيتاس : من شدةِ البلاء وغضبِ الأرض والسماءِ

قمبيز [فى غضب] :

إذهبى يابنتَ فرعونَ اذهبى

اعزُبى يا حيَّةَ النيل اعزُبى

فانيس : تأخرى سيدتى لا تعرِضى لغضَبه

قمبيز : فانيسُ أنت ها هنا

فانيس : مولاىَ لِى لم ينتبه

نتيتاس [متهكمة] : مولاكَ كم تخدعُهُ

مولاكَ كم تسخَرُبه

قمبيز [الى قواده] : أحقٌّ هوَ بى يهزا
[ثم الى فانيس] : أحقٌّ أنتَ بى تسخَرْ
وفى الأحلام تبدو لى وهذا الوجه لى يظهرْ
وقد يصفرُّ كالليمو نِ أو يحمرُّ كالبنجر

[ويهجم عليه بالخنجر]

فانيس : أميرى سيّدى مليكى
قمبيز [ويطعنه بالخنجر] : أغِثْهُ أيها الخنجَرْ

[ضجة فى صفوف المصريين]

أحدهم : قد هلك الواشى
آخر : قد هلك الخائنْ
كافاه قمبيز شرَّ المكافاةِ

فانيس [بعد أن يضربه قمبيز بالخنجر] :

آهِ من الخنجرِ ما أحرّهُ آهِ من الحِمام ما أمرَّهُ
[لقمبيز]: قمبيزُ شلّتْ يمينُكْ ولا أفاقَ جُنونُكْ
[لنفسه]: ويحى أرى عينىَ تغيمُ وساعتى
تدنو وأشعرُ بانقطاعِ فؤادى
الذنبُ لِى أنا قد نحرجتُ لفارس
ومنحتُ مجنونًا هناك وِدادى

فانيسُ أنت نشأت جُنديا فمُتْ
كالجند والق مصارعَ القــوّادِ
سيانِ حينَ تُحطُّ فى جوف الثرى
مــوتُ الفِراش وموتةُ الجــلادِ
يا نفسُ لم أحمــلْ عليــكِ دنيّــةً
لاقِى المنيّــةَ بالضــمير الهــادى
يونانُ تغفــرُ لى وآلهــتى بهــا
سَهِــرتْ عيونُهــم على أولادى
قدخُنتُ مصرَ وخُنتُ ساداتى بها
لكننى ما خنتُ قــط بــلادى

أصوات [من جانب المصريين] :

فانيسُ لا عــلم لَهُ بمــا جَــرَى
قــد قتلــوا أولاده وما درى

[تظهر الجنه يدفعون فتى فيقول قمبيز]

قمــبيز : وهذاالفتى مَنْ ولِمْ سُقتموه إلىّ
جندى : فتًى فى النّواحى يَرُودْ
قمبيز : وما كان يأتى ؟
الجندى : يُثــيرُ البــلاد
ويُغْــرِى القُوَى باغتيالِ الجُنودْ
قمبيز : تنحّوْا به فاقطعوا رأسَه عساهُ لأمثالِها لا يعــودْ

نتيتاس [تسمع وهي متراجعة فجأة فتنظر فيستوقفها المنظر فتقول] :

مـا ذا رأيتُ ومـا ذا سمعتُ ؟ مَن يدفعـونا
مَن ذا إلى النار ساقوا مَن أوردُوه الأتونا
تاسُو؟ أجلْ هـو تاسُو أتـوْا بـه المجنـونا
قسَـا الجنـودُ عليـه والجُنْـدُ لا يرحمـونَا

ما بالُه عـرف الـوفاء وكيف ثابَ إلى الرَّشاد
ربيّ . أأشفُعُ فيه؟ لا لا كيف أمنعُهُ الجهادْ
لا . لن تحولَ شفاعتي بين الضَّحيـةِ والبـلادْ

هـذه ميتـةُ عِـزٍّ إمـضِ تاسُو بسـلامِ
قد صفحنا لك عن ذا ك التَّجـنِّي والأثـامِ
لا تمُت بالكاسِ والطّا سِ ولكن بالحُسَـامِ
سـرَّني أنـك تقضي للحِمَـى حـقَّ الذِّمامِ

وشـفاني أنك الـذّا ئدُ عن مِصرَ الحـامِي
زُلْ لتبـقَ كودادي مُتْ لتحيـا كغرامِي

[ثم تتراجع وتقول] :

والآن إلى طيبةٍ والصعيدْ لحشرِ الدُّعاة وحشْدِ الجُنود
وقهْـرِ العـدوِّ و إرغامِه وقذْفِ المُغيرِ وراءَ الحدودْ

[وتخرج]

[يستجمع تاسو و يقول ، وكأنما سمع ما قالت نتيتاس] :

عفت نتتاس فيا مرحبا بك اليوم يا موت من زائرِ

قمبيز [إلى وزرائه] :

ما الــرأى يا وزرائى — فإننى لســتُ أدرى
ماذا بأبنـاءِ مصـرٍ — من اختيـالٍ وكِبْرِ

قائـد : نحن بنـو الشيطان — وهـم بنـو الإنسـان
ثانٍ : والناسُ من طينِ السَّكَكْ — وهـم سُـلالةُ المَـلَكْ
قمبـيز : أبىٌّ لعمرىَ فرعونُ مِصر — ويُشبِهـهُ قـومُه فى إباه
سأَدْعَكُ فى التربْ آنافَهم — وأُلْصِقُ بالأرضِ تلك الجباه
قائـد : سـيِّدى لا تُبـد رِفقـا — وامض فى الأعنـاق دقَّا
ثانٍ : واهـدِم الأبْراجَ هَـدْمًا — واحرق الأجْرانَ حَرْقَا
ثالث : ودَعِ الــوادىَ قاعًا — واحلق الشَّطَّيْنِ حَلْقـا

قائد رابع [عالى السن] :

سـيدى بـل تترفَّـق — فهــو بالقـادر أليَــق

قمبيز [يضحك ضحكة جنونية] :

خُـذُوا يا قادةَ الفُـرسِ — أخاكُـم إنّـه جُنَّـا
قائـد : أميرى خَـرِفَ الشـيخ — فلُمْـه أوْ لُـمِ السِّـنَّا

قمبيز [يغمد خنجره فى القائد الشيخ و يقول] :

خُذْ طعنـةً فيهـا الشِّفا — تَصرِفُ عنـكَ الخـرَفَا

القائد [وهو يتلقى الطعنة] :

يا ويحَه قد عادَه الجُنون — بل أنا حين هِجْتَهُ المجنون

قمبـير : وآبيسُ معبودُهم أين هُو؟
قائـد : هو العجلُ
ثانٍ : وهو الذى ألَّهُوا

وزير : ثَوَى العجلُ فى حُجراتِ الجلالِ

قائد : وقَد نعمُوه وقد رَفّهُوا

الثانى : وليس إلهًا ولكنّما على الشّعب كهّانُهُ موّهُوا

أحد القائدين [لزميل له] :

هُمْ يعبدُونَ العجلَ يا أزْدشِر

أزدشر : يالك من أحمقَ ثرثارِ

ونحن ؟

الأول : ألنّارُ إلهٌ لنا

أزدشر : ما الفرقُ بينَ العجلِ والنّارِ

الأول : أفيلسوفٌ أنتَ ؟

أزدشر : بل ملحدٌ

الأول : أنت ؟ إذن عِشْ وامضِ بالعارِ

ما كانت النارُ بمحتاجةٍ إلى قليل الدّينِ كفّارِ

قمبيز : وأين هو العجل ؟

قائد : فى قُبّةٍ تليق لكسرى وآبائِه

قمبيز [مغضبا مشيرا] :

أمسِكُوا الكلبَ خذُوه ، أدِّبُوه

ما أبِي العجلُ ، بل العجلُ أبوه

القائد : الـويل لى جُنَّ

صديق له فى أذنه : ما جُنَّ إلّا كا
فأنتَ ساوَيْتَ بالعجـل مولاكا

آخر له : أهكذا يا أحمقُ السلوكُ أهكذا يُخاطَبُ الملوكُ

[يؤتى بالعجل، فيثور لرؤيته جنون قبيز]

قبـيز : والآن ماذا رأيتُمُ وما الذى تُفتُـونا
وما الذى نحنُ بالعجـل يا تُرَى صانعونا

قائد : يَصُبُّ كسرى عليه من البـلاءِ فُنُونا

آخر : عَلِّقْهُ بين الأرض والسماءِ واترُكْهُ للغرْبان والحِداءِ

آخر : إدْفِنْه فى الأرضِ حيًّا وهِلْ عليه الـتُّرابَا

الأول : إذبحْـه ذبْحَ الخـرُوفِ

الثانى : أخنُقْـه خَنـقَ الدَّجاجَة

آخر[يتهكم]: إصْلِبه فـوقَ عُمـودِ من هيكلِ المعبـودِ

وزير : إحرِقْـهُ يامولاىَ بالنـارِ

قبيـز : إخْسَأ فهذا أعظَمُ العـارِ
ماذا يقولُ الناسُ عنا غدًا ألقوْا إلى النيرانِ بالفـارِ
قد دنَّسُوها وهى معبودُهم من جُثّـةِ العجلِ بأقـذارِ

[ويظهر الغضب على قبيز فيقول له قائل منهم] :

قائد : مـولاىَ مـا ذاك فـارٌ بل ألفُ نارٍ وفـارِ

آخـر : يا سـيّد الأرضِ أبشِرْ رأىُ الـوزيرِ أصابَا
غـدًا يقـولونَ بمَنفيس تغـدت النارُ بآبيس

قمبيز [مقتنعا ومقهقها] :

أجل غدًا يُقالُ فى الأخبارِ العِجْلُ قد باتَ طعامَ النّارِ

[ثم يقبل على أبيس ويخاطبه] :

إلهَ النيـلِ لِـمْ تغضَبُ لِـمْ تَكْسِرُ جفنَيْـكَا
تأمـلْ شَـبَحَ المـوتِ ألـمْ يبـدُ لعينيْـكَا
وهـذا خنجرى المـاضِى نخُـذه بيـن قرنيْـكَا

[ويطعنه ثم يتراجع خطوة ويقول] :

إلهـى ما تَـرَى عينِي خيـالاتٌ وأشـباحُ
وقتلَى قـد غدوْا حـولِى وقتـلَى غـيرُهم راحُـوا
وجَـرْحَى جـذَبوا ثوْبِى وجـرحَى غيرُهم صـاحُوا

هـذى عـواقبُ بغـيٍ هـذا القصاصُ المُتَـاحُ
لا بُدَّ من عدلِ يوم يـرتَـدُّ فيـه السلاحُ

قائـد : ويـحٌ لقمـبيـز

آخـر : ويـحَ لـه جُنَّـا

الأول : مَن يُقتـلُ اليـومَ مَن الشّـقِى مِنَّـا

قمبيز [مستمرا] :

هـذا أخـى يصيـحُ بى وتـلك أختـى تَنتَحِبْ

وآخـــرٌ يســـألُـــنى أينَ دَمِى ؟ أينَ ؟ أجِبْ

قائد آخر : هـــذا ضَمِـــيرُه صَحَـــا هـــذا ضَمِيرُه انتَبَـــهْ

حـــتى رأى آثـامَـــه ولـــم يكُن لهـا أبَـــهْ

آخر لنفسه : ثــارَ بـــه ضَمِـــيرُه

[ثم لزميل له همسا] :

وما الضـــميرُ حيـــدَرُ؟

حيدر [للزميل] :

ســـريـرةٌ تنـــدَمُ أحـــيانًـا وحينًـا تـزجُـرُ

ويـرجِـعُ النـاسُ لهـا إلا آمـرؤٌ لا يشـــعُرُ

الأول [رستم لحيدر] :

وأينَ مـــنزِلُ الضـــمـــير ؟

حيـدر : موضِـعٌ من الجسَـدْ

أنظُـرْ . هنا يا رستُمُ الـــقلبُ وها هنـا الكبِـدْ

[ويشير إلى أعلى الصدر وأسفله و إلى ما بينهما (المعدة)]

[ثم مستمرا] :

وها هنـا الضمـــيرُ بيــــن القلب والكِبْدِ قعـدْ

رستم : هنـا الـدَّجـاجُ والحمــــامُ هـا هنا بـلا عَـدَدْ

حيدر : والبَـطُّ أيضًـا والإوَزُّ والحمـارُ والـوتَـدْ

وكـلُّ ما تَسرِقُ أو تخطَفُ من هـذا البـلدْ

رستم : حيـدَرُ هـل يُخْـتَرَعُ الـضمـيرُ أو هـل يُـزْدَرَدْ

وهـــل لـــه حوصلَةٌ وهـل له رِجـلٌ ويَـدْ

حيدر : يا أخى إنّ الضميرَ الـنّـفسُ أو بيتُ الشُّعورْ

وهو فيلٌ فى صدورٍ وهو فأرٌ فى صدورْ
وجبالٌ من حديدٍ أو حبالٌ من حريرْ
وسعيدُ الناسِ من لم يَشْكُ من وخزِ الضميرْ

قمبيز [يقوم هائجا وكأنما يفرّ من شبح شقيقه الذى قتله] :

ماذا بيَا ؟ ماذا بيَا هذا شقيق بُرديا
هذا شقيق بردِيا وخنجرى فى صدره
جئتَ أخى تجزِى أخا كَ عن قبيح غدره

[ثم يزداد هياجا و يفرّ من شبح أخته التى قتلها] :

أتوسةُ أختى ألا تصفحين أتوسةُ زوجى ألا تغفرين

[ثم ينظر يمينا و يسارا وهو كالمجنون و يقول] :

آهٍ لِيَهْ آهٍ لِيَهْ ما هذه الزّبانيَهْ
كَتيبةٌ بموضعٍ وعسكرٌ فى ناحيَهْ
وأرؤُسٌ بوَهْدةٍ وأرجلٌ برابيَهْ
كلٌّ يصيحُ رُدَّ رو حى رُدَّ لى دمائيَهْ

قمبيز [مع الأشباح] :

ويلى من الماضى ومن أشباحه
هذى خيالاتُ الزمانِ الخالى
عجبُ العجائبِ ويحَ لى ماذا أرى
شبحٌ . أجَلْ شَبحٌ وطَيفُ خيال

شبحٌ كالمَلاكِ الـوا فى لعينىَّ يـلوحْ
شبحٌ كالزنبقِ النا عِـمِ يَغْـدو ويروحْ
ظَهـرَ الحسنُ عليـه وسرى الطيبُ يفـوحْ

تمثالُ نيتيتاسَ حول مذاهبي أحببْ بنيتيتاسَ والتمثـالِ
ما بالُه ألقى عـلىَّ سـكينةً وأراحَ وجدانى وأنعمَ بالى

زوجاه نيتيتـاسُ ملِكةَ فارس
مالِى حُرِمْتُ حنـانَ قلبـك مالِى
يا ليتـنى لم أسمـع الـواشى ولم
أخرج حِيالَك من قـديم ضَلالى
قد ساءَ حالِى فى غيابِك فارجعى
هيهاتَ بعـدَك من يرقُّ لحـالى

أأراك عنـدى والأمورُ رخيَّـةٌ
وأراكِ عنـد شـدائد الأهـوال
باللهِ يا طيفَ الحبيبةِ قلْ لها خلقتُ قمبيزاً بأسوأ حال

صِفنى لهـا تعِساً كما شاهـدتنِى
قـد عادنى صَرعى وجدَّ خَبـالى
يا بنتَ مِصرَ ويا يتيمـةَ تاجِها
عـودى فِداؤكِ دُولـتى ورجالى

[ثم مستمرا] : طابَ وِردُ الحِمامِ يا نفسُ هيَّا
خنجرى خنجرى إلىّ إليّا

[و يطعن نفسه بالخنجر و يقع]

جماعة من الفرس :

يا فُرسُ يا قومَ كسرى النّازلينَ السّحابا
كسرى مضى للنارِ شُقّوا عليه الثيابا
وحَطّمُوا فى ثَـراهُ سيوفَكُم والحِرابا

[كبراء الفرس يتشاقون الثياب]

أحدهم لآخر :

هاتِ ثيابَكْ خُذ ثيابِى
تعالَ خُذ قميصِى وأعْطِنى قميصَكْ

[يمزق كلاهما قميص الآخر]

مصرى من الحاضرين [لآخر همسا] :

أنظر أخى الفُرسَ وماناَبَهُمْ شَقّوا على المجنون أثوابَهُمْ

الكهان [لجماعة المصريين] :

يأيّها المرضَى اسجدُوا على دماءِ «آبس»
ويا أصحّاء انْهَلُوا من دَمِهِ المقَدّسِ
بالشقاءِ جَسَدٍ فى دمِهِ لم يغْمَسِ

المصريون يتشاقون الثياب :

فارسى إلى آخر :

أنظُـرْ إلى أبنـاءِ مصــــــرَ فإنّ أمرَهُـمُ عُجابْ
أنظـر ألستَ تراهُــمُ شقُّوا على العجلِ الثيابْ

وزير فارسى [يخطب المصريين] :

أيّهـا الكُهّان من شتّى الرُّتَبْ
عَظُمَ الخطْبُ فمـا تُغْنِي الخُطَبْ
إن كسرى تغفرُ النـارُ له
كان فى مَصرعِ آبيس السَّببْ

أيّهـا الشّعبُ

مصرى لرفاقه : أميــلوا إسمعُــوا

كيف يُنْشِى المسـتبدّونَ الخُطَبْ

الوزير [مستمرا] :

قـد أتى قمبيزُ كسرَى ما أتَى
وهـو مدفوعٌ بسـلطانِ الغَضَبْ

مصرى [لأخيه بصوت منخفض] :

ليتَــه بالَ عـلى نيرانِكم بَوْلَةً تُطفِي لظَاهَا واللَّهَبْ

الخطيب الوزير :

نحن لا نُسـألُ عـن فَعْلتِـه
قـد جَنَى الرأسُ فمـا ذَنْبُ الذَّنَبْ

أيّها الكُهّانُ قد حَلَّ على ربِّكم آبيسَ مقدورٌ غَلَبْ

[ثم ملتفتا للشعب قائلا] :

مالي أرى من جانب الشَّعْبِ
بــوادِرَ الفتنــةَ والشــغبِ

قائد فارسي : ما أغْضَبَ الشّاة من الجــزّارِ
حَــذارِ حــلمَ فارسٍ حَــذارِ
لا تقِفُوا لسيْفِها والنّارِ

[تتفرق الجماعة هنا وهناك ويقف جماعة من المصريين فيقول أحدهم]

أحدهم [لزميل له] :
ماذا جَرَى ؟

زميـله : أما تَـرَى؟ عـلى الـثَّرَى هذا الـدَّمَا
آخـر : آبِسُ عُقِــرْ آبِسُ نُحِــرْ سَـاءَ الخَـبَرُ ما أَشـأَمَا
الثـاني : حَامِي الحِمَـى ما اَسْتَسْلَمَا لكن سَمَـا إلى السَّمَا
آخـر : لقــد وهمتَ يا أخِـى أَفِـقْ وراجِـعِ الرّشَـدْ
أبِيسُ فـارق الـوتَـدْ وسـارَ رحـلةَ الأبَـدْ
الأول : ألعمَـى يا أخِـى العمَـى اتـرِكِ الأرضَ والـدّمَا
وتأمَّـلْ مـعى السّـمَا اتَّخــذَ الحَــقَ سُلَّمَـا
هــو هــذا تبَسَّــمَا وعـلى الجَمْـعِ سَـلّمَـا
وإلى الخُـلْدِ قـد سَمَـا
الثـانى : عجـيبٌ شأنُ آبيس لآبيـسَ جنـاحانِ
وهــذا الـرّيشُ من دُرٍّ وياقُــوتٍ ومَــرجانِ

وهـذا هـو يرعاك بعينيه ويرعانى

آخر [لزميلين له] :

أنظر «أنى» إسمع «فتَّا» أبيس بالفرس سَحَر
جَنَّن قمبيزَ ولم يزَلْ به حتى انتحَرْ

شيوخ الكهان :

بُورِكْتَ يا آبيس يا صاحبَ المجد
يا موضعَ التقديس ومنزِلَ الحمد
سِرُّكَ فى منفيس وأنتَ فى الخُلْد

شبان الكهان :

أبيسُ سِرْ للسماء وانزل مع الخالدينْ
وخَلِّ تلكَ الدِّماء تُحاسِب المعتدينْ
أنتَ سماءُ الجلال حِمى الديارِ الأمينْ
القَرْنُ كالشمسِ طالْ وعَزٌّ فى العالَمينْ
يا صورَةً من فُتاحْ ومن سناه المُبينْ
هذا شعاعُ الصباحْ أَمْ غُرَّةٌ فى الجبينْ

ستار الختام

مصرع كليوباترا

تمهيد

زمن الرواية : الأيام الأخيرة فى حياة كليوباترا حوالى سنة ٣٠ قبل الميلاد بين وقعة «أكتيوم» البحرية وانتحار كليوباترا .

مكانها : فى الإسكندرية وأرباضها .

أشخاصها :

(ا) الأشخاص التاريخية :

كليوباترا .

مارك أنطونيوس .

أكتافيوس قيصر .

قيصرون : ابن كليوباترا من يوليوس قيصر .

(ب) الأشخاص الموضوعة :

أنوبيس : الكاهن الأكبر .

زينون : أمين مكتبة قصر كليوباترا .

حابى .. }
ديون .. } مساعدو زينون .
ليسياس }

هيلانة : وصيفة كليوباترا وبينها وبين حابي غرام

شرميون : وصيفة أخرى .

أوروس : روماني في معية أنطونيوس وهو عبده وتابعه وصفيه .

أولمبوس : طبيب روماني في بلاط كليوباترا .

أنشو : مضحك الملكة .

غانميز : ساقيها .

حبرا : عرافها .

أياس : شاديها .

أخيل : قائد الأسطول المصري وربان أنطونياد سفينة كليوباترا .

بولا : شاعر .

أغا القصر

(ح) النكرات المسرحية : جنود وقوّاد مصريون ورومانيون . راقصات . عزاف .

الفصل الأول

المنظر الأول

« فى مكتبة قصر كليوباترا — حابى وديون وليسياس جلوس إلى »
« عملهم . يسمع جماعة من العامة خارج القصر ينشدون هذا النشيد »

يومُنا فى أكتيُوما ذكرُه فى الأرض سارْ
إسألوا أسطولَ روما هل أذقناه الدَّمار !

* * *

أحرزَ الأسطولُ نصرا هزَّ أعطافَ الدِّيار
شرفاً أسطولَ مصرا حُزْتَ غايات الفَخار

* * *

صارت الإسكندريه هى فى البحر المنار
ولهـا تاج البريه ولهـا عرش البحار

* * *

حابى : إسمع الشعبَ (دُيونُ) كيف يُوحون إليه
مـلأ الجوَّ هُتـافاً بحيـاتىْ قاتليْـه

أثَّر البهتانُ فيه وانطلى الزور عليه
يا له من بَبَّغاء عقله فى أذنيه

ديون :

حابى ، سمعتُ كما سمعتَ وراعنى أن الرَّمِيَّة تحتفى بالرامى
هتفوا بمن شرب الطِّلا فى تاجهم وأصار عرشَهُم فراشَ غرام
ومشى على تاريخهم مستهزئاً ولو استطاع مشى على الأهرام

حابى :

أتذكر يا ديون إذ انطلقنا إلى الميناء نلتمس الهواء
وكان البحرُ كالميْت المُسَجَّى وكان الليلُ للبيت الرداء

ديون :

نعم وهناك آنسنا سحابا وراء الليل جللت السماء
فقلت انظر ديونُ تَرَ الجوارى يَطأنَ الماء همساً والفضاء
وأقبلت البوارج بعد حين سوائبَ لا دليلَ ولا حُداء
رَجَعْنَ رجوعَ فُرصان أصابوا من الغزو الهزيمةَ والبلاء
فلم نسمعْ لملاَّح هُتافاً يُبشرُ بالقدوم ولا نداء
ولم نَرَ فوق سارية سراجا ولا من ثَقْب نافذة ضياء

حابى : فماذا قلت ؟

ديون :

قلت ديونُ إنى أرى الأسطولَ بالويْلات جاء
دخولُ الظافرين يكونُ صبحاً ولا تُرجّى مواكبُهم مَساء
فلما أصبح الصبحُ انتبهنا نَرى الأسطولَ أزْيَنَ ما تَراءى
تبرَّجَت البوارجُ بعد عُطْل وهَزَّتْ فى ذوائبها اللواء
ورَدَّدَ فى المدينة أن روما عفا أسطولُها ومضى هَباء
فضجّ الناسُ بالبُشْرَى وكدّوا حناجرَهم هُتافاً أو دُعاء
هداك اللهُ من شَعب برىء يُصَرِّفه المُضَلِّلُ كيف شاء

ليسياس [هامساً لحابى] : [تدخل هيلانة]

حابى ، صهٍ قد ظهرتْ هيلانهْ وأقبلت بالطلعة الفتّانهْ
تَنفَحُ كالزَّنبقة الغَيْسانهْ

حابى :

ليسياسُ ، أنهاك عن المجانهْ هيلانةٌ فى القصر قَهْرمانهْ
لها وقارٌ ولها مكانهْ

هيلانه : سلام لك يا حابى

حابى : سلام لك هيلانه

هيلانه : أمرْتُ أن أقول للأمين ستحضرُ المَلْكةُ بعد حين
فبلّغ الأمرَ إلى زينون

حابي : سيدتيَّ سأفعلُ أمرَكما ممتثلُ
هيلانه : تَقسرنني بربَّتي ! ذلك ما لا أقبَل
حابي : هيلان ، أنت مَلْكتي وأنت وحدَك المَلَكْ
هيلانه : بل كيلبترا وحدَها لم يَمْحُ شمسَها الفَلَكْ
إن أنت لم تُؤمنْ بها فلستَ لي ولستُ لك

[تخرج هيلانة ويدخل زينون من باب آخر في هيئة تفكير واضطراب]

حابي : ذاتُ الجلالة سيدي قد آذنَتْنا بالزياره
زينون : هذه حجرتُها لا عدمَتْ طيبَ ريّاها ولا ضوءَ حلاها
كل يوم تتجلى ساعة هاهنا كالشمس في عز ضحاها
تدخلُ الدارَ فتنسى مُلكها بلقاء الكُتْب أو تنسى هواها
[محدثاً نفسه في ركن قصي من أركان المكتبة] :
أما الشبابُ فقد بَعُد ذهب الشباب فلم يَعُد
ويحي أمن بعد السنين وقد مررن بلا عدد
أو بعد طول تجاربي ومكان علمي في البلد
تَجْني الحسانُ عليَّ ما لم تَجْنِ قبلُ على أحد ؟

ديون [هامساً إلى زميله] :
حاب ، ليسياس ، أقسمُ أن زينونَ مغرَمُ

فضـــح الشيخَ حبُّـــه   والهـــوى ليس يُكتم

ليسياس: بمَن الشيـــخُ مولَعٌ   ليت شعـــرى متيّم ؟

ديون : وبمَن جُـــنَّ يا تُرى ؟

حابى [ضاحكا] :   كلٌّ خاف سيُعلم

زينون [مستمراً فى حديث نفسه] :

مالى جننتُ فصرتُ أتَّـــهم الشبابَ وأضطهـــدْ

لم ألقَ رأساً فاحمـــا   إلا حَملتُ له الحســـد

ووجدتُ لاعجَ غيرة   بين الجوانح يتقَّـــد

فكأن ظلمةَ شَعـــره   فى مُقلتىّ هى الرّمـــد

وكأنمـــا سرَقت ذوا   ئبهُ شبابى المفتقَـــد

ولو ان لى ولداً فمـا   ت لما بكيت على الولد

حــذَراً وخوفاً أن يكو   نَ بها تعلُّق أو وجَد

شكٌّ يعـــذِّب مهجتى   إن المشكِّكَ فى كَبَد

[يلتفت إلى حابى ويطيل إليه النظر ثم يناديه] :

حابى ، بُـــنىّ

[يأتى إليه حابى]

قل ولا تُخْفِ علىّ ، هل تُحبْ ؟

حابى : أحب ! من قال ؟

زينون: سمعتُ

حابى : من روى لك الكذب ؟

زينون: بُنىّ ، ليسَ بالفتى إذا أحبَّ من عَجَب
مَن لم يُحبَّ لم يُؤ دِّ للشباب ما وجب

حابى [متهكما] :

لكن أأدعى الهوى وليس لى منهُ سببْ ؟

زينون: حابى ، بُنىّ لا تَرُغْ منَ السؤال بل أجب
لولا الهوى لم تَكُ فى ظل الشباب تكتئب
ما بال بشْرك امحّى ولونك الغضّ شحب ؟
وللدموع من مآ قيك تكاد تنسكب ؟

حابى [ساخراً] :

أفقْ زينونُ واصحُ من الغوانى أبعد الشيب تخدعُك النساء ؟

زينون [غاضباً] :

أتعلم يا غلام علىّ عشقاً ؟

حابى : دع الإنكار قد برح الخفاء

زينون: ومن أنباك ؟

حابى : أنت !

زينون : وكيف ؟

حابى : تَهْــذِى … فتفضحك الوساوسُ والهُذَاء

كمحموم يبوح وليس يدرى … تكشَّف عن سرائره الغطاء

أبَعدَ العطف والإشفاق يشقى … بصحبتك الشباب الأبرياء؟

فكلُّ فتى رَأيت زعمت صبًّا … يُخامِرُه من الرُّقطاء داء ؟

وما كعَمَى الشيوخ إذا أحبُّوا … وليس وراء غَيْرتهم بلاء

زينون [لنفسه] :

إلهى قد فُضِحتُ وضَلَّ شيبى … وضاعت حكمتى وخبا الذكاء

[لحابى] :

صدقتَ بُنىّ بى داءٌ دخيلٌ … وليس إلى الدواء لىَ اهتداء

علىّ تلوَّت الأفعى ، فهلْ لى … من الأفعى ونَكْزَتها نَجاء؟

أرى ولَهاً وأحسبهُ جنوناً … كسانيه على الكِبَر القضاء

حابى : وتُعطَى حين تلقاها ابتساماً … وأنطنيوسُ يُعْطَى ما يشاء

صباحُهما مُغازلةٌ وصيدٌ … وللأقداح والقُبَل المساء

أترضى أن يكون سريرُ مصر … قوائمهُ الدعارةُ والبَغاء ؟

أتهدمُ أمةً لتَشيدَ فرداً … على أنقاضها ؟ بئس البناء!

أبى ، شيخى ، اجترأت عليك فاصفح
فلم أك أجترى لولا الوفاء

لقد آن التكاشفُ والتواصى بما توحى الكرامةُ والإباء
تعالَ إلى جماعتنا ، فإنّا جنود الحق يجمعنا لواء
شبابٌ نحن يُعوِزُنا شيوخ بهم فى المدلهمَّة يُستضاء

زينون: كفى ، إنى نفضتُ يدىّ منها ومزّقَ عن بصيرتىَ الغشاء
حابى : أبى زينونُ قد بُحتُ من السر بمكنونى
وما غيرُك زينون على السر بمأمون
[يشير إلى ديون وليسياس] :
أخى ، هذا أثينىٌّ وخِلِّى ذاك مَقْدونى
كِلا الخِلَّين للحق كما أدْعوه يدعونى
كلا الخلَّين ذو جَدٍّ بأرض النيل مدفون
فليْسا فى هوى مصر وفى طاعتها دونى
فدينا الوطنَ الغالىَ بالجنس وبالدين
ولم نصبر على حكم لروميَّةَ ملعون
ولسنا حزبَ أكتافٍ ولسنا حزب أَنطُون
ولا نَخْضَعُ للبأس ولا نُخْدع باللين

ولم يَبْقَ على الوُدِّ … لروما غيرُ زينون

زينون: معاذ الله ، عُدُّونى … من العصبة عُدُّونى

كساكِ اللهُ يا روما … لباسَ الذلّ والهُون

حابى : أبى ، أنت الطبيبُ وكُلُّ داء … له فى صَيْدليّتك الدواء

فَهِيِّ لها ابنَ ساعته وعجِّلْ … يُعَجَّلْ فى السماء لك الجزاء

لعل سمومَكَ الزُّعْفَ المواضى … من الأفعى وفتنتها شفاء

[يدخل جندى من حرس الملكة معلنا قدومها]

الحارس : الملكة !

زينون [كأنما يفيق من حلم] :

الملكةْ ! لا بَرِحَتْ مُمَلَّكَهْ !

ودام مجدُ المملكةْ !

[تدخل كليوباترا ومن ورائها ابنها قيصرون بين وصيفتيها شرميون وهيلانة ومن ورائهن أنشو مضحك الملكة وأغا القيصر]

الملكة: تحيَّتى لأُمناء المكتبه … وشيخهم أعلى الشيوخ مرتبه

زينون : سلام السَّموات فى مجدها … على رَبَّة التاج ذات الجلالْ

تمنيتُ رأسين لا واحداً … إذا مَسَّت الأرضَ هامُ الرجالْ

أطأطئُ رأساً لمجد النبوغ … وأَخْفِضُ رأساً لمجد الجمال

حابى . ديون . ليسياس [يتلفت بعضهم إلى بعض أسفا] :

أنشو [للوصيفتين وقيصرون] :

أما يُغْنيهِ عن رأسيـ … ـن رأسٌ فيه وجهان ؟

فحينًا هو مصرىٌّ وحينًا هو يُونَانى
وفى مجلس يوليوسَ وأنطونيوس رُومانى
وإن لاقى أغا القصر فنوبىٌّ وسودانى

[يدخل الكاهن أنوبيس من باب مقابل]

الملكة: كاهنَ المُلْكِ سلامٌ لا عَدِمنا بركاتِكْ
صلِّ من أجلى ولا تنـ ـسَ صغارى فى صلاتك

أنوبيس: رَبَّةَ النيل التَّحيا تُ الزَّكيَّاتُ لذاتِك
حَرَسَتْ تاجَكِ إيزيـ ـسُ ومدّتْ فى حياتك

الملكة: هُوَ ذا ابنى قيصرونُ يَتَلقَّ نفحاتِك

الكاهن [لنفسه] :

إيزيسُ كيف أُصلى على ابن يوليوسَ قيصرْ ؟
أبوه عال ولكنْ فرعونُ أعلى وأكبر

[يسمع هتاف من خارج القصر وجماعة ترتل نشيد النصر السالف فى أكتيوم]

الملكة [عابسة] :

كاهنَ المُلْك، سادتى، هل سمعتمْ رَنَّةَ الصوتِ فى جوانب قصرى؟

أنوبيس: هم رعايا مليكتى

الملكة: ليت شعرى

ألخيرٍ تجمَّعوا أم لشرٍّ ؟

شرميون:

الجماهيرُ يا مليكةُ بالشّـطِّ يموجون في حُبـورٍ و بِشْرِ

سَرَّهم ما لقيت في أكتيومٍ من ظهور على العدو ونصر

لا يقولون أو يُعيدون إلا نبأً بات في المدينة يسري

الملكة:

بالإفك الرجال ! ماذا أذاعوا كذبٌ ماروَوْا صُراحٌ لعَمري

أيَّ نصر لقيتُ حتى أقاموا ألسُنَ الناس في مديحي وشكري؟

ظَفَـر في فم الأمانيّ حـلو ليت منه لنـا قُلامةَ ظُفْـر

وغداً يعلمُ الحقيقـة قومي ليس شيءٌ على الشعوب بسرّ

شرميون:

ربّةَ التاج ذلك الصُّنع صُنعي أنا وحدي وذلك المكرُ مَكري

كثرتْ أمس في الإياب الأقاويـ لُ وظَنَّ الظنونَ من ليس يدري

فأذعتُ الذي أذعتُ عن النصـ ـرِ وأسمعتُ كلَّ كوخ وقصر

خفتُ في خاطري عليك الجماهيـ ـر وأشفقتُ من عدًى لك كُثْر

فاغفري جُرْأتي ، فيارُبَّ ذنب يتعب العذر فيه مهّدتِ عذري

الملكة:

شرميونُ ، اهدئي فما أنت إلا مَلَكٌ صيغ من حنان وبرّ

أنت لي خادمٌ ولكن كأنا في المُلمّات أهلُ قُرْبى وصهر

إنما الخادمُ الوفيُّ من الأهـ ـل وأدنى في حال عسر ويسر

إسمعى الآن كيف كانَ بلائى   وانظرى كيف فى الشدائد صبرى
أيها السادةُ اسمعوا خبَرَ الحر   ب وأمرَ القتال فيها وأمرى
واقتحامى العُبابَ والبحرُ يَطغى   والجوارى به على الدم تجرى
بين أنطونيو وأكتافَ يومٌ   عبقرىٌّ يسيرُ فى كل عصر
أخذتْ فيه كلُّ ذات شراع   أُهبةَ الحرب واستعدّتْ لشر
لاترى فى المجال غيرَ سَبُوح   مقبل مدبر مكَر مفرّ
وترى الفُلك فى مُطاردة الفُلـ   ـك كنَسر أراد شرًّا بنسر
وتخال الدُّخانَ فى جَنَبات الـ   ـجو جُنحاً من ظلمة الليل يسرى
ودَوِىَّ الرياح فى كل لُجّ   هزَجَ الرَّعْد أو صياحَ الهزَبْر
وترى الماء . منه عودُ سرير   لغريق ، ومنهُ أحْناءُ قبر
يغسلُ الجُرحَ شرَّ مَن غسَل الجر   حَ ويأسو من الحياة ويبْرى
كنت فى مركبى وبين جنودى   أَزِنُ الحربَ والأمور بفكرى
قلت روما تصدّعت فترى شَطـ   ـراً من القوم فى عداوة شطر
بَطَلاها تقاسَمَا الفُلكَ والجيـ   ـشَ وشبّا الوغى ببحر وبرّ
وإذا فرّقَ الرُّعاة اختلافٌ   علّموا هاربَ الذئاب التَّجرّى
فتأملتُ حالتىَّ مليّـا   وتدبرت أمر صحوى وسكرى
وتبينتُ أن روما إذا زا   لت عن البحر لم يَسُدْ فيه غيرى

كنت فى عاصف، سللتُ شراعى ... منه فانسلَّت البوارجُ إثرى
خلصت من رَحى القتال وممّا ... يلحق السُّفْن من دمارٍ وأسْر
فنسيتُ الهوى ونُصرة أنطو ... نيوسَ حتى غدرتُه شرَّ غدر
علِمَ الله قد خذلتُ حبيبى ... وأبا صبيتى وعونى وذُخرى
والذى ضيَّع العروشَ وضحّى ... فى سبيلى بألف قُطْر وقطر
موقفٌ يُعجب العلا كنتُ فيه ... بنتَ مصرٍ وكنتُ مَلكة مصر

[ملتفتة إلى زينون] :

زينونُ . فصّلتُ الخبرْ ... عن القتال والسفرْ
وقلتُ عن إيابى ... وخُطة انسحابى
ماليس يعلمُ البلدْ ... ولا درى به أحدْ
فهل لديك الآنا ... مايَجلبُ السُّلوانا
من الأمالى المُسْليهْ ... والصحُف المُلهِّيهْ

زينون: عندىَ يا مولاتى ... روائعُ الآيات
تسعون ألف سِفْر ... قد كُتبتْ بالتبر
من كل رَقٍّ عجبِ ... فى العلم أو فى الأدبِ
قيصرُ أنطونيو وهب ... لنا مناجمَ الذهبْ
وكلٌّ غالٍ مدّخرْ ... من الجواهر الأُخَرْ

أسلابه من حربه وطَعنــهِ وضربه
هـديةٌ من قيصر لبَـلدة الإسكندر

أنتو : إذا كانت الكتْبُ فى شرعكم نظيرَ الجواهر كُفْءَ النُّضارْ
فإنى الغنىُّ بدُرِّ القـواقـ ـع حين يُرصِّعُ تبر العُقار
وما الكتْبُ قوتى ولا منزلى فما أنا سوسٌ ولا أنا فار

الملكة : حكيمٌ لعمرى على جهله ظريفُ الحديث لطيفُ الحوار

زينون [منيظا] :

ولكنها حكمةُ السائمات وفلسفةٌ غيرُ بنت اختبار
وكلتاهما لا تَعَدَّى الشعورَ بحُبِّ البقاء وخوف الدمار

أنتو : رويدك مولاىَ بعضَ السِّباب فليس السِّبابُ سبيلَ الكبار
هَبِ الليلَ طال فقطّعته بدَرْسٍ وأصبحتَ تفْنى النهار
وأقبلت بالكتب تطوى الطِّوالَ وتَنشرُ فى إثرهنَّ القصار
وَزِدْتَ على الأرض علمَ السماء كبارَ كواكبها والصغار
إذا ما نَفقتَ ومات الحمارُ أبينك فرقٌ وبين الحمار ؟

زينون [غاضباً] :

ماذا تقول السيده ؟

الملكة [ضاحكة] : واحـدةٌ بواحـده

أبى أُنوبيسُ ، أرجو

أنوبيس : بـل تَأمُرينَ مُطاعـهْ

الملكة [مشيرة إلى باب محراب مفتوح ومتجهة إليه] :

هـذا مُقـامُ صلاتى وهيكلى المضـراعهْ

ولى خطايا كثـيره لا تَبرَحُ البـالَ ساعه

فادخلْ وصـلِّ لأجلى فمنك تُرجَى الشَّفاعه

[يدخلان المحراب ويتبعهم الحاضرون ما عدا حابى وديون وليبـياس]

ديون [متهكما] :

إسكندريةُ صرت رَفرَفَ معبد من كلِّ ناحيـة عليـه سـتارُ

اختَصَّ آلهـةُ الجلال بسرّه وتفرَّدَ الكُهَّان والأحْبـار

ما خَطبُهم حابى ، وماذا بَيَّتوا

ليبـياس : ما هذه الألغاز والأسرار ؟

حابى :

أرأيتَ وقعةَ أُكتيوم وماجرى فيـها وكيف تصرَّفَ المقدار!

ليبياس،إنك قد سمعت حديثَها كالسحر فى الآذان حين يُدار

تبدو الخيانةُ فيه وهى أمانةٌ ويُرى الثباتُ عليه وهو فرار

وعلمت كيف نجت وكيف انفض عن أنطونيُو أسطولهُـا الغـدَّار

ليسياس :

واليوم حابى، أين أنطونيو وما ... فعلت بفَلّ جيوشه الأقدار ؟
قل لى : أحيٌّ فى البلاد مشرَّدٌ ... هو أم له قــبرٌ بمصر يُزار ؟

حابى :

ليسياس ، تسألنى تجاهلَ عارف

ليسياس :

بل جاهلٍ لم تأته الأخبار

حابى :

لم تأت حتى جاء فى آثارها ... للحبِّ أجنحــةٌ بهن يُطار
ويقال بل أخذتهُ تحت شراعها ... ونجا به فُلْكٌ لها محصار
تجرى الرياحُ بما تشاءُ قلوعُه ... ويســيرُ فى طاعاته التيار
ويُقالُ غضبانٌ عليها عاتبٌ ... ويُقالُ بل حَنِقُ الفؤادِ مُثار
وعلى صفاء العاشقينِ سحابة ... وعلى سلام الصاحبْين غُبار
آلَى وأقسم لا يُرى فى قصرها ... حتى يُقوَّمَ مجدُه المنْهار
إن البلاء أجلُّ من ألّا يُرَى

ديون :

عجبٌ أتخفَى فى الهشيم النار ؟

حابى :

أنطونيو منا بأقرب ثُكنة ... يدعو من الرومان من يختار
ويُعدُّ أُهبتَه ليوم حاسم ... فى البر يَغْسلُ عنه فيه العار
ويكون ميدانَ الرحى ومَدارَها ... تلك التلالُ وهذه الأسوار

فهناك خاتمةُ الصِّراع وموقف إما الـذِّمارُ به وإما العـار

[يسمع صوت أنوبيس من داخل المحراب مرتلا هذا النشيد] :

إيزيسُ ذاتَ الحجابْ مالــكةَ العالمــينْ
شعبُكِ لاقَى العـذابْ من عَبث الظالمــينْ

***

يا من خفضنا الجباه لعـــزِّها ساجـدينْ
صُغنا إليك الصلاهْ من أدمع النـادمينْ

ســتــار

المنظر الثانى

«فى إحدى غرف القصر الملكى ورحى الحرب دائرة بين أكتافيوس وأنطنيوس على أسوار الإسكندرية — حابى فى الغرفة حيث تدخل عليه هيلانة»

هيلانة : أتدْخُل حابى مَقاصيرَها ؟ بلغتَ من الْجُرْأة المنتَهى
ستعلَمُ أمرَكَ ذاتُ الجلالـ ـة

حابى : بل أمرت أن ترانى هنـا

هيلانة : عجبت لهـا ولتدبيرها كذلك قد أمرتنى أنا
إذن هى تجمعنا يا جُحُودُ وتجزيكَ عن سَخَطٍ بالرضى

حابى : هِيلانةُ خَلِّيك من ذكرها حديثُ الأفاعى طويلُ المدَى

هيلانة : رُويدَك حابى لقد أحسنَتْ فمالى أراكَ أسأتَ الجزَا ؟

حابى : هيلانةُ ، يا طيبَها خَلْوةً وإن قَلَّ فى ظلِّها المُلتقَى
تعالىْ هلانةُ نُعطِ الغرامَ عنانَ الحديث ونَشْكُ الجوَى
أنيلى يدىَّ يدَيْك اللتَين نعيمىَ بينهما والشقا
هَلُمَّ هلانةُ

هيلانة: حابى أراكَ بِكُنْهِ الأمور قليلَ الهُدَى
من القصر لا تَلتمسْ خَلْوةً وإن هو من كلّ حسّ خلا
سماء القصور لها أُذُنانِ وأرضُ القصور بعينْ تَرى

حابى: هلانةُ لا تقطعى نَشْوَتى بقُرْبك أو حُلُمى باللّقا
أمهما تَخَيَّلْتُ صَفوَ الحياة خلقتِ على جانبيْه القَذَى؟

هيلانه: حنانَكَ حابىَّ لا تتهمْ ولا تَرمنى بعُقوق الهوى
ولُذْ بالأناة فإن الأناةَ صَديقُ الصّوابِ عدوُّ الخطا
فلو كنت وحدكَ شُغلَ الفؤاد لهان البلاء وقلَّ العنا
ولكن حقوقُ كلوباترة

حابى: وأىُّ حُقوق لها تُدَّعى

[تدخل كليوباترة]

كليوباترا: حُقوقُ الولاية ياذا الغلامُ حُقوقُ الرِّعاية ياذا الفتى
وصبرى عليك لأجل الفتاة

حابى [مأخوذاً]: إلهى لقد سمعتْ ما جرى

الملكة: وسدِّى المسامعَ حُباً بها وأنت تُعينُ علىَّ العدا
وتُرسلُ فى العَرش هُجْرَ الكلام وتُخْفى الحفيظةَ لى والقِلى
ولكنْ لتَنسَ الذى قدمضى فشلُكَ تاب ومثلى عَفا

دع النَّود عن مصرَ لى إننى أنا السيفُ والآخرون العصا
ولا تُطع الفتْيةَ العابثين أُسودَ الكلام نَعامَ الوَغى
[يدخل أنوبيس]
[إلى أنوبيس]
أبى : قد أتيت

أنوبيس: سلامٌ عليْكِ شُعاعَ المدائن نورَ القرى
الملكة : أبى قد تَلاَقَى هنا العاشقان وكان بتدبيرىَ الملتقى
فباركْ فتاتى وباركْ فتاكَ وكفكفْ هواه إذا ماغلا
أنوبيس: حياتك حابى كنيسيَّةٌ يشاكلُ أوَّلُها المنتهى
مقيَّدة باليقين القَنوع وما أمرَ القلبُ أو ما نهى
الملكة : كزَهر المقاصير لم ينتفحْ بطول الأديم وعرض الثرى
أنوبيس : وتحسبُ فى الكتب علم الحياة وما منهُ فى الكتب إلاّ شَذَا

حابى : لعلّ كذى الشك فى حرصه يَقيس الطريقَ ويُحصى الخُطا
أرى راكبَ الشك ملءَ المجال طويل العنان بعيد المدَى
ولو شكّكتْ فى السراج الفَراشُ لكان سلاماً عليها السَّنا
أنوبيس: ولكن تَمرُّ على ما تراه تُجاوزُه نحو ما لا يُرى
وهذا الملاكُ [مشيراً إلى هيلانة]
كموْلاته طليق الإرادة حُرُّ الحجَى

تمشّى على جَنَبات الحياة ... كما يتمشى شُعاع الضُّحى
تخوض الوحول ويغشى الحُلَى ... ويأوى الحضيضَ ويعلو الذُّرا
ويخترقُ العَرَصات الفساح ... وينفُذ من ضَيِّقات الكُوَى
ويرتعُ بين أنوف الأسود ... ويلعب بين عيون الظِّبا .

الملكة: ولكنهُ طاهرٌ حيث طافَ ... نقيُّ الذُّيول عفيف الُخطا
أبى قد نسينا حديث القتال ... فمنذ الصباح تدور الرحى
وجيش الحليف وجيش العدو ... بظهر المدينة رهن الوغى
هنالك يُقضى مصيرُ البلاد ... فإما البقاء وإما الفنا
ومن عجب كاد يمضى النهارُ ... وما من رسول ولا من نَبا

[يدخل جندى من جنود أنطونيو منهوكا يعلوه الغبار]

الجندى: سيدتى جئتُك بالأخبار ... لقد جرت بسعدك الجوارى
انتصرت جنودُنا الضَّوارى ... تحت لواء البطل المغْوار
قيصرُ أنطونيو على آثارى

الملكة: يا فرحًا ما أعْظمَ البشاره ! ... حلَّت على أُكتافيو الخَساره
«وأكتيومُ» قد أخذنا ثاره ... خُذ يا رسولُ هذه البُشارهْ

[تمنحه بدرة من الذهب فيخرج من باب وتدخل شرميون من باب]

شرميون: سيدتى يا طربا ... سيدتى يا فرحا !
دارتْ على أكتافيُو ... وجيش أكتافيُو الرحى

هيلانه : مَلْكَتِى هل تسمعين

[يسمع صوت بوق وهتاف من بعيد]

الملكة: [منصتة] صوت بوق وهتاف

[تقوم الملكة إلى النافذة وترهف أذنيها وعينيها]

هو والله نشيدى والمغنُّون جنودى
والخواريقُ التى تخـ ـفُقُ من بُعْد بنُودى
ولديْها فارسٌ مُلـ ـتثم شاكى الحديد
يَتراءى فى عنان الـ ـجَوِّ كالبُرْج المَشيد
هو أنطنيوسُ ذُخْرى وطَريفى وتَليدى

[إلى شرميون وهيلانه]

أيها البنتان هذى ليلةُ العيد السعيد
صَلِّيا مثلَ صَلاتى واسجُدا مثلَ سجُودى

[يسجد الثلاثة لحظة . ثم تنهض الملكة أولا وتتجه نحو النافذة]

هو ذا أنطونيو من جانب الميناء أقْبَلْ
هيكَلٌ يحمله من صافنات الخيل هيكل
الرِّداءُ الأرْجُوانىُّ على عطفيْه مُسبل
مَبْسَمٌ يضحكُ من تحـ ـت جبين يتهلَّل
هو ذا يدنو

شرميون : أتى والله

هيلانة : مـــولاتى تـــرجَّـــل

الملكة [تبتدر الباب]

أيها البنتان هـــذى ليـــلةُ العيـد السعيـد

[أنوبيس هامساً لحابى] :

حابى، أحيط القصرُ بالذئاب وبى من السُّخط عليهم ما بى

[للملكة] :

سيدتى تأذنُ فى انسحابى ؟ وتأذنين مَلْكتى لحابى

الملكة [ضاحكة] :

إلى الأفاعى ؟

أنوبيس : لا إلى المحراب

الملكة : رَأيكما فى المُكْث والذهاب

[يخرجان و يدخل أنطونيو وحاشيته وقواده وتابعه أوروس . أنطونيو يقبل على الملكة ماداً يديه]

أنطونيو : إلهتى !

الملكة : قيصرى !

أنطونيو : سلطانتى !

الملكة : ملكى !

أنطونيو: عندى لك اليومَ يا دُنياى أخبارُ

الملكة : عَجِّلْ فديتُكَ

أنطونيو : لا ، لا بدَّ من ثمن

الملكة : كرائمُ المال ؟

أنطونيو : ما للمال مقدارُ

[يمد إليها جبينه فى ضراعة]

رُدِّى على هامتى الغارَ الذى سُلبتْ فقُبلةٌ منك تَعلوها هى الغارُ

[تقبله]

كليوباترا:

اليومَ تَعلمُ رُوما أن ضَرَّتَها تُقَلِّدُ الغارَ مَن تَهوَى وتختار

واليومَ تعلمُ روما أن فارسَها جيش بمفرده فى الرَّوْع جَرَّار

أنطونيوس سيدى. هل نحن فى حُلُمٍ؟ أسالمٌ أنت ؟ لا أسرٌ ولا عار ؟

أنطونيو :

أَسْرٌ؟ وَهِمت كليوباترا أتَظْفَرُ بى أيدى الكماة وفى كَفِّى أظفار

لو قلت قتلٌ لكان القولُ أشبهَ بى كأسُ المنايا على الأبطال دَوَّار

الحربُ تَعلمُ والأيامُ تشهدُ لى أنى شديدٌ على الأقران جبّار

لو كنت شاهدتنى والحربُ جارفةٌ والصفُّ تحتى بعد الصفِّ ينهار

قد جُنَّ تحتى جوادى فهو عاصفةٌ وجُنَّ نَصْلى بكفى فهو إعصار

رأيت حملة صدق غيرَ كاذبة لا السَّيلُ يحملُها يوماً ولا النار

لما صَدمتُ جناحيهم وقلبهمُ عن الخيام ومن أوكارهم طاروا

وما وجَدتُ لأكتافيو وقادته ريحاً ، ولم أتبيّنْ أيةً ساروا

ومالت الشمسُ أو كادتْ فراجَعَنى   شوقٌ إليك قديمُ الداء سَوَّار
حتى رَجَعتُ ولو أنى طَردتُهمُ   لبات أكتافُ عندى وانقضى الثار

كليوباترا :

تركتَهم لغد ! هذى مجازفةٌ   غدٌ غيوبٌ وأسرارٌ وأقدار

[مخاطبة أوروس]

أوروسُ ، أنت بفنّ الـ   ـقتال أعـلَمُ منّى
الحربُ فَنُّك أورو   سُ والسياسةُ فنى
إن كان «مَرْكُ» إلها   فأنت فى الحرب جنّى
فكنْ بحقّك عَونى   وقلْ لقيصرَ عنى
إن المنى لم تُقصّرْ   بل قَصَّرَ المتمنى
فلو صَبرتم قليلا   وسرتُم فى تأنى
أرحتُمونى وروما   من الخصام المعنّى

أوروس: سيدتى لم تقصدى   لمَّا عذلت سيدى
عَجَّلت فى الحُكم على   ما لم تَرَى وتَشهدى
لقد حَملنا حملة   كمثلها لم يُعهَد
استنفدتْ بأسَ القنا   وقُوَّةَ المُهنَّد
فكان لا بد لنا   نُرجى القتال للغد

أنطونيو : كلوباترا دعينا من تجنّيك كلوباترا
أتبكين على الصبر وقوم حُرموا الصبرا ؟
وبى من صبرك الواهى جراح الأمس لم تبرا
لقد مَنَّيْتُ أسطولى لدى أسطولك النصرا
حليفٌ كنت أرجو أن سأشتدُّ به أَزْرا
فَعبَّا تحت أعلامـ ـك حتى زَحما البحرا
وقد كانا الجناحيْن وقد كنتُ أنا النَّسرا
وأجرَى الفُلْكَ أكتافيو فأجريتُ كما أجرى
صَففْناها وأرسلْنا بها تَقتحمُ الجمرا
كلانا مارَس الحربَ وعانى الكرَّ والفرَّا
فلما آذنَتْنا الحر ب بالمعركة الكبرى
تَسلَّلتِ بأسطولـك من غمرتها الحرّى
فقلتُ انسحبتْ ضعفاً وقال الناسُ بل غدرا
ولو كان لهم قلب كقلبى التمسوا العذرا

كليوباترا: أنطونيوسُ مَلكى أنطونيوسُ سيِّدى
ليس العُبوسُ سُنَّةً لوجهك الطَّلْق النَّدى
ولستَ من يغضبُ فى ليل الشّراب والدَّد

ولست للكأس على شاربها بالمفسد
قلبُك كنزُ الحب والـ ـرحمة والتودُّد
وكم حَقَدتَ ثم أصـ ـبحتَ كأن لم تحقد
ألستَ بالأمس وأمـ ـس لفتة لم تبعُد
وَهبتَ لى جريرتى والصفحُ نصف السُّؤدد
فاطْوِ معى حوادث الـ ـأمس ولا تُجَدِّد
وامض معى فى لَذَّة الـ ـيوم ودَعْ هَمَّ الغد

أنطونيو : كلوباترا بحبِّك من التأنيب خَلِّينا
لقد سُقتُ وقُوَّادى إليك النَّصْر فاجزينا
مُرِى بالكاس والطاس وبالنَّدمان يَسقينا
وبالقَصف وبالعزف وحُذّاق المُغنِّينا
وما طُيِّب ألواناً وما طاب رياحينا
وقولى الشعر عُلْويًّا كما كنت تقولينا
وأوحيه إلى شاديـ ـك يُلقيه فيُشجينا
غداً نستأنُف الحرب ونطويها ميادينا

أنشو : ونَغشاها مَخامِيرَ ونلقاها مجانينا

كليوباترا: مُرْ بما شئتَ قيصرُ وأشِر كيف تأمرُ

لكَ قصري وما حوى الـ ـقصـــرُ كلٌّ مُسخَّر
ليس شيءٌ وإن غـلا عن حبيب يُؤخَّــر
لَتكونَنَّ ليـــلةً آخرَ الدهر تُذكرُ
لا نُبـالى إذا صَفتْ بعـــدها ما يُكدِّر
تحلُمُ الحُلْمَ لستَ تَـد ري بماذا يُفسَّــر

[لوصفائها ووصيفاتها] :

البـدارَ البـدارَ يا وُصفائى ووصيفاتىَ البدارَ البدارا
قيصرٌ قيصرٌ هو الآمرُ النـا هى على القـصر فليكنْ ما أشارا
هو يبغى وليمـةً فاصنعوها وانسقوها كما اشتهى واختارا
أطلعوا هذه الشموعَ شُموساً تَـذَرُ الليـلَ بالعَشىِّ نهارا
وأعدُّوا الخوانَ قد حُمِّل الألـ ـوان شَـتَّى وجُلِّلَ الأزهـارا
واجمعوا بالمُدام شَمْل النَّدامَى وأديروا الكؤوس والأوتارا
واجعـلوها وليمـة وبسـاطاً يتبـارى خلاعـــةً ووقارا
مصرُ إن أوْلمتْ سَمتْ بالأغانى درجات وأسمت الأشـعارا
لا تَسيروا على ولائم روما سَرَفاً فى الفُسـوق واستهتارا
كلما أولمتْ أساءتْ إلى العقـ ـل وجَرَّتْ على الحضارة عارا
ولقـــد تجعـلُ النِّمارَ نَداما ها وأسْـد العَرينـةِ السُّمَّارا

قائد روماني [لزميله غاضباً] :

أتسمعُ ما تقول عَدوٌّ روما قد اجترأَتْ على روما البَغيُّ

أَتحت لوائها وبجانبيْها يخوضُ الحربَ من روما كَميٌّ ؟

الآخر :

غداً تَلقى وإن غداً قريبٌ عقاباً في البلاد له دَويُّ

الأول [لأنطونيوس في عتب وغضب] :

أَميرىَ أَنطونيو أَفي الحق أَننا نَبيتُ سكارَى والعدو مُبيِّتُ ؟

[ينظر اليه أنطونيو نظرة طويلة ثم ينصرف عنه إلى كليوباترا فيهمس القائد] :

أَلا إنه ليسَ لهُ ما وراءَه غرامُك حيٌّ فيه والمجدُ ميِّت

ستار

الفصل الثانى

«فى حجرة الولائم بالقصر الملكى ، حيث ترى كليوباترا ووصيفتاها هيلانة»
«وشرميون ،وأنطنيوس،وأوروس،وبضعة من القواد الرومان،وأولمبوس»
«طبيب الملكة، وأنشو مضحكها، وغانميز ساقيها،وحاجب يعلن أسماء القادمين»

أنطونيو: قياماً نَشرب الخمرا   على حُبِّ كليوباترا
كليوباترا: على حُبك أنطونيو   على الجيش على مصرا
قائد رومانى : على روما
كليوباترا: دَعــوا روما   ولا تُجروا لها ذِكْرا
فما أنطونيو منها   وإن كان ابنَها البِكْرا
ولكنْ تحت أعلامى   يَقودُ البرَّ والبحرا
القـائد : أحقٌّ ماركُ أنطونيو   س من روميَّة تَبرا ؟
[تنظر اليه كليوباترا فيقرأ فى عينيها ما تريد]
أنطونيو : أجلْ أَتبعُ مولاتى   ولا أعصِى لها أمرا
كليوباترا: على حُبكَ أنطونيو
أنطونيو : ثلاثاً أربعاً عَشرا

أنشو : وإن شئتَ فعشرينَ إلى ما فوقها سُكْرا
وإن شئتَ من الدنيا وصَلْنا السُّكْرَ للأخرى

قائد رومانى [لزملائه همساً] :

دَعُوا أنطونيو إنى أرى السُّكْرَ به أزرَى
لقد كان الفتى الفَطْنَ فصار الحَدَثَ الغِرّ

قائد آخر [همساً] :

سنلبثُ ساعةً نحتالُ حتى إذا سُلَّتْ عُقولُهمُ انسللْنَا
فما المُتَدَلِّهِ السِّكِّيرُ أهلا لِتنصرَهُ السيوفُ إذا استُلِلْنا

الحاجب :

أيــاسٌ المُغنّى وجَوْقَةُ العُزّافِ
وراقصاتُ القصرِ

[يدخلون]

كليوباترا: أهلاً بوفدِ الآلهةْ أهلِ الفنونِ النابِههْ

الحاجب : الشيخُ زَيْنون

رُبّانُ أنطونْياد [يدخلان]

أنطونيو: ماذا عن الأُسطول منـ ـكَ يا أخيلُ نَعلمُ؟
هل خَمَدتْ فتنُه أو لم تزَلْ تَضرَّمُ ؟

أخيل : مولاىَ إن البحرَ يُخ في سِرّه ويكتُمُ
وما نواه في غد مثلُ غدٍ مُسْتَبْهِم
فلا أقولُ مُقدِمٌ ولا أقولُ مُحجِم
ولا أقول ينبرى للحرب أو يستسلم

كليوباترا: أخيلُ ، دَعْنا من غد إن غداً توَهُّمٌ
أخيلُ ، ما العيشُ سوى ساعةِ صفوٍ تُغنَم
فلا تَكنْ كداخلٍ على الندامَى يلطم
أتيْتَهم مُنادماً لم تأتِهم لينَدموا
اليوم شُربٌ

زينون : وغداً حربٌ

غاغيز : كلامٌ مُحكَمَ !

الحاجب : بُولا الشاعرْ حَبْرا الساحرْ

كليوباترا [ضاحكة] :
حَبْرا ، أعندكَ سِحرٌ يَشُل طاغوتَ رُوما ؟
ويجْعَلُ الناسَ فيها حِجارةً ورُسوما ؟

[القواد الرومانيون يدمدمون]

أنطونيو : سيدتي لا تجرحي فُؤادي ولا تَنالي بالأذى أجنادي
وقلِّلي السُّخط على بلادي

كليوباترا : أنطونيو ما أنت رومانيٌّ ألم تقل إنك لي جنديٌّ ؟

أنطونيو : بلى ، وددت أنني مصريٌّ وأنني تابعُك الوفيُّ

ما في سوى رضاك لي مُضِيُّ

أنشو : تلك والله قضيّهْ أصبح الراعي رَعيّهْ

حَكَم الحبُّ على قيــصرَ والحبُّ بليّهْ

صار كالشعب وساوَى هَمَجَ الإسكندريّهْ !

أنطونيو : حبرا ، تَكلّمْ ألا عجيبهْ ؟ من سحر منْفٍ أو سحر طيبهْ

حبرا : إلهَ الحرب سامحني فإني غُلِبتُ على أبالستي الغِضابِ

همُ لا يَجلِسون على غناءٍ ولا يتحدثون على شراب !

كليوباترا : ولكنْ قيصرٌ يدعوك حبرا وقيصرُ لا يُردُّ بلا جواب

وأنت الكاهنُ العرافُ فانظر أغيرُ السحر شيءٌ في الجراب

حبرا : إذا ما شئت مولاتي فإني أطالع في الكفوف وفي الكتاب

كليوباترا : أُدْنُ من قيصرَ حبرا وانظُرِ الكفّين واقرا

أنطونيو : تعالَ حبرا وقلِّبْ يَديَّ يُمنَى ليُسرى

لعلَّ أسرارَ كفي كواشفٌ لك سِرا

[يتقدم حبرا ويمعن في كف أنطونيوس]

ألا ترَى لي بقاء ؟ ألا ترَى ليَ عمرا ؟

حبرا : يا عَجَبَ الفال ! مولا ى أعجبُ الناس أمرا
حياتُه بيديْه والناسُ يَحيَوْن قَسْرا
إن شئتَ عشتَ نهارا أو شئتَ عُمِّرْتَ دهرا

[قائد روماني إلى زملائه همساً] :

لو كنتُ منه قريباً لقلتُ فى أُذْن حبرا
حياتُه فى يَدَيْه أم فى يَدَىْ كيلوباترا !

كليوباترا : تعالَ الآنَ سَلْ كَفِّى وبَيِّن ما الذى تُخفى

[يتقدم حبرا إليها ويمسك يدها بعناية وشغف] .

حبرا : يا لك كفّاً كنقِّ العاج ناعمةٍ كَخَمَلِ الدّيباجِ
لامِسُها من الجحيم ناجى !

[ضحك]

تفدى الأكُفُّ كلُّها يمينا بيضاءَ حمراءَ ترَفُّ لِينا
كما أظلَّ الشَّفقُ النَّسْرينا

أنطونيو [ضاحكا] :

سمعتِ حبرا مَلِكَتى كيف ابتكرْ كلَّف أن يَصنعَ سِحراً فشعَرْ

بولا الشاعر : السحرُ والشعرُ سواءٌ فى الأثرْ

كليوباترا : لقد أعجبكَ الشعرُ وراقتْكَ معانيهِ
وما سَرَّكَ أنطونيو سُرورى كلُّه فيه
فما تأمر فى حبرا بأى البر أجزيه ؟

حبرا [لأنطونيو] :

جائزتى يا سيّدى تقبيلُ هذه اليد !

أنطونيو [ضاحكا] :

قبِّل ولاتَتردَّدِ

[يقبل يديها بين إقدام وإحجام] :

حبرا : عَجَبٌ عينىَ لا تَقْوَى على هذا الضياء
هذه كفٌّ إلهٍ جاء فى زِىِّ النساء

كليوباترا : خَلِّنى من زُخرُف المدح ومن زور الثناء
ما وراءَ اليد يا عرّافُ من غَيْب القضاء ؟
أحضيضٌ يومىَ الآخِرُ — قل لى — أم سماء؟
خاتَمُ الأيام أوْلَى باهتمام العظماء

حبرا : ملْكتى يومُك فى الأيّام منشور اللواء
نَابِهُ الصبح كيوم الشمس عُلْوىُّ المساء
خطَرَ العز عليه ومشى فيه الإباء
ثم يَتلوه بقاء لم يُطاوِلْه بقاء

أنشو [لزينون] :

رأيتَ الشعرَ قد أجدَى فماذا قلتَ يا فار ؟

زينون : إلهتى ومَلاكى كُفِّى المُهرِّجَ عنى

قد نال منى ولولا ناديك ما نال منى

أنشو : سيدتى عبدُك أنشو قد صدقْ
الفارُ فى مَكتبة القصر نطق
يقول إن أسرقْ فزينونُ سَرق !
هَمِّىَ فى الجلدِ وهَمُّه الورق
يَسطو على آثار كلٍّ من سبق !

أنطونيو : إنى أرى أنشو وأمثالَه زادوا على زينونَ فى الجُرْأهْ
يا وَيْحَ للشيخ على فضله أصبح فى مجلسهم هُزْأهْ

أنشو : هَبوه فى الدرس بحراً هبوه فى العلم أُمّه
لا يَخلُقُ العلمُ نفساً ولا يُنَبِّه همّه
كم عالم فى يد الجا هلين مُلقَى الأزمّه

كليوباترا : أقِلِّ المَزحَ يا أنشو وأرسلْه بمقدار
فلولا الجهلُ ما رُحتَ تَقيسُ اللَّيثَ بالفار

زينون : يا سماء احفظى ويا أرض صونى
أظهرتْ عَطفَها على زينون !

كليوباترا : يا غانمين هات النبيذ
هات اسقنى واسق الحبيب
واسق الملا

بولا الشاعر : بنتُ الدِّنانْ أمُّ الزمانْ
خبَّــــأها في قَبْــوه
ساقى «مِنَا»

لونُ الفَرَحْ حنَّا القَدَحْ
سِرُّ السرورْ صَفوُ الحياهْ
قُــــوتُ المُنى

كليوباترا: قيصرُ ، ذى سُلافةُ الفيوم
تُنْمَى إلى عَقائل الكروم
مخبوءة من عهد مصرائيم
قد عُمِّرت كعُمُر النجوم
دِنانُ مصرٍ لا دِنانُ الروم

القواد الروم [يدمدمون ويتهامسون] :

قائــد : قولوا يا رومانيّونا تحيا روما

آخر : تحيــا

ثالث : تحيــا

أنشو [ضاحكا] : تحيا الخمــر يحيــا السُّكْرُ

القواد : تحيــا روما

جماعة من المصريين : تحيــا مصرُ

أنطونيو : أيها الشادى أياسْ بلغ السُّكْرُ مَداهْ
غَنِّنى شعرَ مَلاكى غننى شعرَ الإله
أنا لا أطرَبُ حتى أسمعَ «الحبُّ الحياه»

أياس [مغنيا] :

أنا أنطونيو وأنطونيو أنا ما لرُوحيْنا عن الحب غنىَ
غَنِّنا فى الشوق أو غَنِّ بنا نحن فى الحب حديثٌ بعدنا

رَجَّعتْ عن شَجوِنا الريحُ الحنونْ وبعينَيْنا بكَى المُزْنُ الهَتونْ
وبعثنا من نُفاثاتِ الشُّجونْ فى حواشى الليل برقاً وسَنىَ

خَبِّرى يا كأْسُ واشهدْ يا وترْ وارْوِ يا ليلُ وحدِّثْ ياسحرْ
هل جَنيْنا من رُبا الأنس الثَّمَرْ ورشفنا من دَواليها المُنىَ

الحيـاةُ الحبُّ والحبُّ الحيـاهْ هو من سَرْحتها سرُّ النّواه
وعلى صحْرائها مَرَّتْ يداهْ فجرتْ ماءً وظلًّا وجَـنىَ

نحن شعرٌ وأغانٍّ غدا بهوانا راكبُ البيد حدا

وبنا الملاحُ في اليمّ شدا وبكَى الطيرُ وغَنَّ مَوْهنا

من يكن في الحب ضحى بالكرَى أو بمسفوح من الدمع جرَى
نحن قرّبنا له مُلْكَ الثرى ولقينا الموتَ فيه هيّنا

في الهوى لم نألُ جُهدَ المؤثر وذهبنا مَثَلاً في الأعصُر
هو أعطى الحبَّ تاجيْ قيصر لم لا أعطى الهوى تاجيْ مِنَا

* * *

صوت : مرحى مرحى يحيا الفنُّ
آخر : يحيا الشعرُ
ثالث : يحيا اللحنُ

[تقوم كليوباترا الى شرفة فيتبعها أنطونيوس]

قائد روماني [لزميل من زملائه هامساً] :

هلّا نظرتَ إلى الأميرة ؟ إنها سكْرى تعثّرُ في خليع عذارها

آخر : وتأمّل المفتونَ كيف جرى على آثارها وانجرَّ في تيارها

آخر [لزملائه حيث يسمعه أوروس وألبوس] :

وانظرْ إلى أوروسَ في تردّده يأبى الْمُتافَ معنا لمولده

أولبوس [ساخراً] :

أوروسُ ملءُ يومه ملءُ غده فتى تَضجُّ الحربُ من مُهنَّده
ويشتهي الأبطالُ فضلَ سُؤدده قد راعني فَناؤه في سيده

بنفســـه وقومه ومولده يَغلو غُلوَّ الـكلب فى تودده
يُقَيَّدُ الـكلب وراء مرصَده فيحرسُ الدارَ على مُقَيِّده

أورروس :

تلك الدُّعابةُ يا طبيبُ ثقيلة لحذار ثم حَذارِ من تَـكرارها
لولا الوليمةُ والشَّرابُ وحُرْمة لأميرة الوادى السعيد ودارها
لنَزعتُ من أقصى لَهاتك مُضْغَة كثُرَتْ على الأبطال فى استهتارها

أولمبوس :

أورروس !

أورروس :

أولمبوسُ صَهْ بَرِحَ الخفا ورأيتَ نفسكَ فى مَفاضح عارها
ماذا خبأتَ من السُّموم للملكة غفلَت عن الأفعى ولؤم جوارها ؟
إلّا تكنْ علمتْ فإنك عندنا جاسوسُ أكتافيو على أسرارها
مازلتَ منذ وفدتَ تُطلعه على أخبار قيصر أو على أخبارها
إنا رجالَ الحرب ليس يفوتُنا لحظُ العيون ولا خَفِىُّ حوارها

[أولمبوس يحاول أن يتكلم فيمسك به قائد رومانى ويهمس اليه] :

أقْصرْ أخى إن الجماعةَ عَربدت فإذا لَججْتَ لَفتَّ من أنظارها
إسلمْ بنفسك فى الظلام ولا تُثرْ ريباً أخافُ عليك غِبَّ مَثارها
إنى لأخشى الـكأس أن تجرى دَماً فتُصيبَ شيئاً من رَشاش عُقارها

أولمبوس [لنفسه وهو ينسل إلى الخارج] :

أوروسُ أنطونيو احسابُكما غداً   روما الأبيَّةُ لم تنَمْ عن ثارها

[يخرج]

أنطونيو [من أقصى البهو] :

أما للرقص هيـــلا   نةُ فى ليلتنا حصّهْ ؟

ألا نَجْمَعُ بين الـكا   س والنغْمةوالرقصه؟

فهذى فرصة الأنس   وقد لاترجع الفرصه

هيلانة : الراقصاتُ يَقمْنا   الراقصاتُ يَثبنا

ولا يدعن افتنانا   ولا يقصِّرن فنا

[تقوم الراقصات ، برقصة مصرية]

أنطونيو [قادماً] :

مرحى مرحى   يحيا الفن

صوت : يحيا الرقصُ

آخـــر : يحيا الحسنُ

أنطونيو :

قد انتصف الليلُ أو فوقَ ذاك   وآذنَنَـــا بالمُضِىّ الدُّجى

ودونَ الخيــام سُرى ساعة   وعند الصباح تَدورُ الرحى

فهل تأذنين لنا يا مَلاكُ   فلا بد من سِنةٍ من كرى

ولستُ أقولُ مَلاكى الوداعَ   ولكن أقول إلى الملتقى

كليوباترا :

مكانَك قيصــرُ لا تذهبنّ   ولا تبرحِ القصرَ أهلكْ أسى

أنطونيو :

ذَرِينى أُعبِّىء للقتال كتائبى فلى فى غد شأنان فى البر والبحر

ذرينى أهيِّىء للأحاديث فى غد فإن غداً يومٌ سيبقى على الدهر

ذرينى أزِدْ تاجيكِ غارَ وقائعى وأقرن بشعبانَىْ جلالهما نَسرى

ولستُ أخافُ الدارعينَ وإنما أخافُ فُجاءات الخيانة والغدر

وليس كمِينَ الحرب ما أنا هائبٌ ولكن كمِينَ الغدر فى ظُلمة الصدر

[لأخيل] :

فياقائدَ الأسطول هل من مَكيدة تُدبر لى خَلفَ الشِّراع وما أدرى؟

كليوباترا :

إمض إلى الهيجاء أنـ ـطونيو كما يَمضى الأسدْ

إن الأسود فى اللبَدْ دونك فى هذا الزَّرَدْ

إمض إلى المجد ولا يُقعدْك شُغلٌ فى البلد

المجدُ لا يسألُ عن صاحبة ولا وَلَد

أنت لروما فى غد وقيصرونُ بعد غد

والشرقُ سلطانى الذى إكليلهُ لىَ انعقَد

ياليْثُ سرْ، ياَنسرُ طِرْ عُدْ ظافراً أو لا تَعُد

ستار

الفصل الثالث

« معبد فى الاسكندرية ، يقسم جداره المسرح الى قسمين»
« القسم الأصغر خارج المعبد وتنهض فيه شجرة باسقة ،»
« والقسم الأكبر داخله وتظهر فيه حجرة الكاهن الأكبر »
« أنوبيس وعلى جدرانها رفوف نسقت عليها حقاق »
« وقوارير ؛ وهنا وهناك صرر وصناديق يشف بعضها عما »
« فيه من أفاع وحيات — باب خلفى يؤدى إلى المعبد »
« ونافذة جانبية تطل على الفضاء » .

[فى حجرة الكاهن أنوبيس]

أنوبيس [يناجى نفسه] :

يقولون أنوبيسُ وَلوعٌ بأفاعيهِ
ومشغوفٌ بثعبان من الوادى يُربّيه
وفى ناديه حيّات من الجن تُناجيه
ولو ذاقوا هوى العلم كما ذقتُ فَنوا فيه
ألا يا رُب خدّاع من الناس تُلاقيه

يَعيبُ السُّمَّ في الأفعى وكلُّ السم في فيه !

[يخرج من الباب الخلفي]

* * *

[خارج الهيكل — تحت الشجرة — أنطونيوس وأوروس]

أنطونيوس: أوروس إني جَهدتُ مَشيا ومَسّني الضرُّ والكَلالُ

فمل بنا نسترحْ قليلا ، من قبل أن يَدهَمَ الرجال

[يجلس أنطونيوس منهوكا على حجر فتأخذه الذكرى] :

أوروسُ، ماذا دهاني؟ حتى نَسيتُ مكاني

أتيتُ ما هدّ مجدي وحطَّ رفعةَ شاني

جللتُ نفسي بعار يبقى بقاء الزمان

لما حملتُ جوادي على الفرار ازدراني

وضجَّ مني سيفي وضجَّ مني سناني

ووَدّت الأرض تحتي لو طُهِّرَتْ من عياني

أنا الذي كان أمضى من الحديد جنانى

الشرقُ يدري نزالي والغربُ يدري طعاني

كانَ الملوكُ عبيدي فصرتُ عبدَ الحسان

ولستُ أولَ حُرٍّ استعبدته الغواني

[يسكت لحظة ثم يستمر] :

ولم أرَ كالحرب استراح قتيلُها وأفضى إلى القَيْد الأسيرُ المُقَيَّد

ولكن شقيُّ الحرب والمُصطلى بها

إذا انفضّت الحربُ الطريدُ المُشرّد

ولولا اختلافُ الحرب بالناس لم يَهُنْ

عزيزٌ ولم ينزلْ على القيدْ سيّد

أوروس :

وقارَكَ قيصرُ لا تجزعنَّ وخلِّ المقاديرَ تجرى المدَى

تلَقَّ الهزيمةَ ثَبْتَ الجنَان كما كنتَ تلقى الفُتوحَ العُلا

فما أنتَ أوَّلُ نجم أضاء ولا أنت آخرُ نجم خبا

وقد ينزلُ الشمسُ بعد الصعود وتَسقَمُ بعد اعتدال الضُّحى

ويا رُبَّ غار عَراه الجُفوفُ على هامةٍ قد علاها البلى

أمالك أنطونيو أُسْوة بيوليوسَ قيصرَ أين انتهى؟

رأيتك والحربُ تَبلو الكُماةَ فأشهدُ كُنتَ إلهَ الوغَى

وقد كانَ سيفُكَ غُولَ السيوف وكانت قَنَاتُكَ غولَ القنا

وكنتَ إذا الموتُ أفضَى إليك تحدَّيْتَه فانثنى القَهْقَرى

وكان جُنودُكَ شَرَّ الجنود عليكَ وخيْرُهمُ للعدا

فخانت أساطيلُ أمَّلْتَها وجيشٌ عَقَدْتَ عليه الرجا

وخُلِّفتَ في عسكرٍ كالنِّعاج كثير الثُّغاء قليل الغَنا

فمن يائس مات قبل القتال ومن خائن فرَّ قبل اللقا

أنطونيو :

إذنْ لم أكن في الوغى بالجبان ولا خُنتُ أوروسُ عَهدَ الهوى ؟

وتشهدُ أنّيَ أنطونيوس وأني ابنُ روما وأني الفتى ؟

فإن عشتُ عشتُ نَقيَّ الجبين وإن متُّ متُّ كريم الثنا

[يرى أنطونيو شبحاً فيسأل أوروس مبهوتاً]

أنطونيو : أوروسُ !

أوروس: مولايَ

أنطونيو: تأمل من ترى ؟

أوروس: هذا أولمبوسُ وقد حَثَّ الخُطا

أنطونيو : تُرَى إلى أين ؟ ومن أين أتى ؟

أوروس: ها هو سارٍ نحونا ها قد دَنا

[يظهر أولمبوس]

أولمبوس: تحيةٌ قيصرُ

أنطونيو : بل أنطونيو لا غير بل قُلِ الشّريدَ المُقتَنَى

لا تخدعوني قادراً أو عاجزاً كفى غروراً بالولايات كفى

أولمبوس: مولاي

أنطونيو :

لستُ اليومَ مَوْلَى أحدٍ أكتافيو السِّيدُ والعبدُ أنا

مررت بالقصر فكيف ناسُه؟ هل عن كلـوباترا أولمبوسُ نَبا؟

صرِّحْ أَبِنْ، قُل غَدرتْ، قل جَدّدتْ بقيصر الثالث دُولةَ الهوى

قد صَنعتْ بي عند حاجة الوغى ما لم يكنْ يصنعهُ بيَ العدا

أسطولُها إلى مراسيه أوَى وجيشُها ألقى السلاحَ ونجا

أولمبوس : مولاى أعْفنى

أنطونيو: تـكلمْ لا تخفْ إنى أرى عليك رَوْعَةَ الأسى

أولمبوس:

مولاى مهلاً فى الظنون واتَّئد إن من الظن اتهاماً وأذى

أنت على مالكَ من مُروءة رميْتَ بالغدر أحب مَن وفى

أنطونيو : ماذا تقول ؟

أولمبوس : كيلوباترا انتحرت بطعنة الخنجر فى صدر الضحى

أنطونيو :

يا للسماء ! انتحرتْ ! أين؟أَبِنْ ولمْ ؟ وكيف كانذاك ؟ ومتى؟

أولمبوس :

مَرَرْتُ بالقصر ضُحَى اليوم فلم أجدْ له نَظْما ولا حُسناً يُرى

بَدا لعينىَّ خَلاءً موحشا غيرَ عويل ها هنا ، وها هنا

أنطونيو :

انتحرتْ ! يا للخبرْ ! ويا لقسوة القدر !

إن الأمورَ انتقلتْ من خَطر إلى خَطر
ما غَدرتْ وإنما أنا الذى بها غدر
واخَجْلتَا من قولهم انتحرتْ وما انتحر !
إذهب أولمبوسُ ودعـــنى والهمومَ والكدر
ما بجراحات القـلو ب للأطبّـاء بَصَـر

[يذهب أولمبوس]

[لروما] :

روما حنانَك واغفرى لِفتاك — أوّاه منك وآه ما أقساك !
روما سلامٌ من طريد شارد — فى الأرض وَطّنَ نفسَه لهلاك
اليومَ يَلْقى الموتَ لم يهتفْ به — ناعٍ ولا ضَجّتْ عليه بواكى
إن الذى أعطاكِ سُلطانَ الثرى — لم تنعمى لِرُفاته بـثَراك
إن الذى بالأمس زِنتِ جَبينَه — بالغار عَقّك جُهدَه وعصاك
يارُبَّ تاج فى جبينك زاهر — عَطّلتُ منه مَفارقَ الأملاك
الأمّهاتُ قلوبُهنّ رقيقـةٌ — ما بالُ قلبك لم يَلِنْ لفتاك !
أعْرَضْتِ غَضْبى فى الحياة فرحمةً — لا تحرمينى فى المات رضاك
إنْ كان موتى كلَّ ما تَبغينـه — فَهناك ! ها أنذا أموتُ ، هَناك !
يا أمُّ ، عُذرُك فى اتهام بُنُوّتى — بادٍ وعُذرىَ فى العُقوق كذاك
لولا الجمالُ وفتنة من سحره — ما حَلَّ فى قلبى هوى لسواك

صفحاً كلوباترا فُرُبَّتَ زَلَّةٍ قد كنت تغتفرين حين أراكِ
لما لَقيتُك فى الجمال وعزِّه قَهرتْ قُوای الظافراتِ قُواك
فنسيتُ فى ناديك ذكْرَ وَقائعى وسَلوْتُ أيامى بيوم لقاك
سجدَتْ لأعلامى الصَّوارمُ والقَنا وأبَى مُهَنَّدُ لحظك الفتَّاك
قدتُ الجحافلَ والبوارجَ قادراً مالى ضَعُفتُ فقادنى جَفناك ؟
أخرجتُ أمرىَ واختيارىَ من يدى وتَركتنى نفساً بغير مِلاك
خلتُ السلامةَ فى نَواك فذُقتُها فإذا الكوارثُ كُلهنّ نَواك
عاديتُ قومى فى هواكِ وأضرمتْ روما علىَّ الحربَ من جَرّاك
وشَرَدْتُ فى شرق البلاد وجَدَّنى طلبى عِداىَ بغربها وعِداك
أغدو على سيف العدوِّ وناره وأروحُ بين مكامن وشباك
وتَلمَّستْ نفسى السيوفَ ورامنى فى البر والبحر الكمىُّ الشاكى
كانت حياتى للرجال أليَّةً واليومَ هُنْت فأقسموا بهلاكى
ولقد ذهبتُ من الظنون مذاهباً فذَمَمْتُ عهدك واتّهمتُ وفاك
حتى إذا حُمَّ القضاءُ وراعنى عُطْلُ المقاصر من بهاء حُلاك
ضَحَّيتُ بالدنيا وقُلت رخيصةٌ وبَذلتُ أيامى وقلتُ فداك

* * *

أماناً إلهَ الحرب ما أنت صانعٌ بهذا الحُطام المُستباح المُبعثر؟
لقد ذلّ من بعد امتناع كأنه بقيةُ نَصْل أو رُفاتُ غَضَنْفَر
صَدعتَ أكاليلى وحطّمت صارمى وجرّدتنى من أرجوانى المُظفّر
ولم تألُنى هدماً وكنتَ بَنيتَنى بناء الصنّاع القادر المُتجبّر
ملأت سبيلى بالهوى وصروفه ومن يمش فى أرض الهوى يتعثّر
تنكّرتَ حتى اخترتَ لى معوَلَ الهوى فليتَك لم تَغضبْ ولم تتخيّر

أروسُ غلامى، إن فى النفس حاجةً

أوروس: وعندىَ أقصى طاعة العبد فأمُر

أنطونيو:

أوروسُ أرى الدنيا بعينىّ أظلمتْ وكانت قديماً كالصباح المنوّر
وضاقت بىَ الأرضُ الفضاء فكلُّها سبيلُ طريدٍ ضائع الدّم مُهدَر
غَويتُ وأوفَى بى على الحُفرة الهوى فخفتُ، ومن يركبْ شَفا الجُرْف يُذعَر
قُشَعريرةُ الخوف اعترتنى ولم تكنْ إذا ما اقشعرّتْ تحتى الأرضُ تعترى
مُلئتُ من الأحداث رُعباً فضُمّنى إليك وقرِّبْ من إزارك مئزرى
أرى الموتَ ممدودَ اليدين كمُنقذ لمثلىَ من غَرْقَى الحياة مُسخَّر
دعانى، ولو أنى على النفس مُشفِقٌ مَدَدتُ إليه الكفَّ لم أتأخّر
أروسُ، أرى الماضى يطيفُ خيالُه وتَعرِضُ لى أحلامُه فى التذكّر

ذكرتُ روما أربُعى وملاعبى وأين ضِفافُ النيل من شَطّ تيبْر؟
وأيامَ يدْعوننى الهوى فأُجيبُه وينفخُ فى البُوق المنادى فأنبَرى
فتنْتُ الغــوانى بُرْهةً وفتنَّنى ولكننى عنْ سُؤددٍ لم أقصِّر
فهمَّةُ قلبى فى شرابٍ وصَبْوةٍ وهمَّـةُ نفسى فى عَـلاء ومَفْخَر
أروسُ تواقفْنا على كلّ غمْرة وكل مجال ثائر النَّقْع أكْدَر
وفى مِهْرجان الفاتحين وعُرسِهم وتحت لواء أو على عُود منْبر
فمالتْ بنا الدنيا فصرْنا بموْقف شديدٍ على الأبطال بالذل مُشعر
نرى الأرضَ فيه والسماء تناهتا إلى فلكٍ نحْسِ الجهات مُسمَّر
فكيف مُقامى يا أروسُ على الأذى وصبرى على العيش الذليل المكدَّر!

أروس :
أجلْ قيصرُ اعتضْنا من العزّ ذلّةً ومن حلْيةِ الأعلام عُطْلَ التنكُّر
فهُنَّا كأنقاض الحصون على الثرى وَضِعنا عليه كالقنا المتكسِّر
نَهيمُ كأبناء السبيل وطالمــا أخَفْنا سبيلَ العاهل المتكبِّر
وما منْزلُ الأبطال إلا رَحَى الوَغَى إذا هى دارتْ أو رواقُ المُعسكَر

أنطونيو : فماذا ترى أوروس ؟

أروس : رأيُكَ أوّلٌ وعندكَ تُرجَى نظْرةُ الصدق فانظر

لقد عشتُ ظلاًّ لا أرى غيرَ ما ترَى ولا خيرَ فى الرأى التَّبيع الُمسَيَّرِ

أنطونيو :

أروس، أنا الأعمى وأنت هى العصا فخُذْ بزمام العاجز المُتحيِّرِ

أروس :

أرى ما يراه العاجزون إذا جرى على النفس مَحتوم القضاء المُقدَّرِ

أنطونيو :

وماذا يقولُ العاجزون إذا ابتُلُوا؟

أروس : يقولون حُكمُ الله يا نفسُ فاصبرى

أنطونيو :

أروسُ ، يقومُ العاثرون وقلَّما يُقالُ عِثارُ الكوكب المُتغوِّرِ

أروسُ، ألم تفهمْ؟ هو الذلُّ فاشفنِى بضربَةِ سَيْفٍ أو بطعنَةِ خنجَرِ

فإنك حرٌّ إن فعلتَ وفائز بسيفى وأثوابى ودرْعى ومِغْفَرى

أوروس :

مَعاذ خلال البرِّ مولاى! أعْفِنى فليس يدى تَقْوَى ولا السيفُ يجترى

وأنت الذى لو بيعَ بالروح وُدُّه ومالى سوى روحى تقدَّمت أشترى

لآلهة الرومان أشكوكَ قيصرى ظَلمتَ فلم تُنصفْ ولائى وتَقْدُرِ

أتجعلُ فى الميزان حُبِّى وطاعتى وشتَّى عروضٍ من ثيابٍ وجَوْهرِ؟

لقد جادلى بالسيف والدِّرع قيصرُ

[يطعن نفسه بخنجره]

وجُدتُ بأيام الحيـاة لقيصر

أنطونيو :

أوروسُ عفواً قد ذهبتَ ضحيةً وجَنَى عليك تَردّدى المقوتُ
فعلمتَ منى كيف يجبُنُ قيصرٌ وعلمتُ منك العبدُ كيف يموتُ

[يطعن أنطونيو نفسه فيخر على الأرض جريحا]
[ينتقل المشهد إلى داخل المعبد حيث يدخل أنوبيس إلى حجرته ويناجى أفاعيه]

أنوبيس :

هلمَّ لـكنَّ بنــات التلال وجنَّ الخرائب من صالحجَرْ
تبدَّلَ من حولـكنَّ المـكانُ وأين القفـارُ وأين الحُجَرْ
يدُ العـلم وهى حـديديةٌ حَوَتـكن من جَنَبات الحُفَرْ
وجاءت بـكنَّ إلى حُجرتى أسارَى القوارير رَهْنَ الصُّرَر
أرابىَ النـاس فى أمركنّ وصرتُ حـديثَهمُ والسَّمَر
وقيـل أنوبيسُ حاوٍ تسيلُ إليـه الأفاعى إذا ما صَفَر
وما فتنتى بجُـلودٍ لَكُنّ مُرَقَّشَـةٍ كإهاب النمِـر
ولا بهيــاكلَ مثل العصىّ من اللحم لا من فروع الشجر
ولا برءوس كَدَقِّ الحصا ولا بعيون كوَقْد الشَّرَر

ولكن أزاولُ علم السموم وعلمُ السموم جليلُ الخطر
لقد كان لى فى مُعاناته تجاريبُ أنفقتُ فيها العمُر
إلى أن نجحتُ ، نعم قد نجحتُ وعاقبة الصابرين الظَّفَر
فكم قد شَفيتُ بطبِّ اللديــغَ وأيقظتُ من نَزْعِه المُحتَضر
فقيل إلهٌ أعاد الحيــاةَ إلى الميت أو خدْنُ جنٍّ سَحر
صَنعتُ من السم ترياقَه وقد يختفى النفعُ تحت الضرر
وأنتُنَّ والناسُ قد تلتقون ففيكُنّ شرٌّ وفى الناس شر

[يدخل حابى خلسة]

أنوبيس [مستمراً] :

وتقتلَ عُمْىَ عيونِ السلاح ويقتــلُ قاتلهُم عن بصر
لسانُ ابن آدمَ أو نابكنّ كلا السائليْن لعابُ القدر

حابى : سلامٌ أبت

أنوبيس: حابى ؟ سلامٌ لكَ يا حابى

حابى : أمشغولٌ أبى اليومَ بذات القَرْن والناب
وأنطونيوس مهزومٌ وأكتافيو على الباب ؟

أنوبيس[باستخفاف وهو يشير إلى أفعى] :

حابى ، تقهقر ناحيةْ تلك الخبيثةُ داهيةْ

[يتقهقر حابى قليلا بينما يلهو الكاهن أنوبيس بالحقاق والقوارير]

تلك القوارير وذي الحقاق غوثٌ إلى مستنجدٍ يُساق
لكل سمٍّ عندها ترياق

حابى : أبتي ، من للرّعيّهْ من لأوطاني الشقيهْ ؟
خلِّ حيّاتك في الأسفاط واشعُرْ بالرزيّه
بعد حين تملأ الوادي الأفاعي البشريّه
أبتي نحن من اليوم عبيدُ القيصريه
أدْنِ أذنيك على قدْ سهما من أذنيه
واسمع البوقَ تجدْ من أحرُفِ الرقِّ دويّه

أنوبيس : حابى ، تقبَّلْ هذه القنينهْ واقبضْ عليها بيد ضنينهْ
فإنها ذخيرةٌ ثمينهْ !

حابى [لنفسه] :

يا للسماء لأبي ! تُراه يستهزئُ بي ؟
ويحَ له ، عساه جُنَّ أو لعله نبي
أوحتْ له السماء علم غيبها المحجَّب
يعلمُ من يُلدغُ من رقطاء أو من عقرب
لأحملنَّ حُقَّه مثلَ تميمة الصبي
يا لكَ شيخاً طيِّباً يأتي بكل طيب !

[مخاطباً أنوبيس الكاهن] :

ريعَ الحمَى أبى فكيـ ف للحمى لم تغضَب ؟
دع الأفاعى واشتغلْ بالأفعُوان الأجنب
الوطنُ الملدوغُ أو لَى اليومَ بالمُطبِّب

أنوبيس : وأين كنت يا فتى وأين فتيان الحمَى ؟
وأين فُرسانُ المَقَا ل هل مَضَوْا إلى الوغى ؟
أدرتمُ وجوهَكم ساعةَ دارت الرحى
تركتم أنطونيو سَ وحدَه يَلْقى العدا
من أجلكم سلَّ الحُسا مَ وإلى الحرب مشى
ما كان ضرَّكم لو الـ تففتم على اللوا ؟
أبعد أن حلَّ على النـ يـل وواديه القضا
ولم يجدْ من شِيبه ولا شبابه فِدا
أتيتَ تدعونى كما تدعو العجائز السَّما
الرأىُ ليس نافعاً إذا أوانُه مضى

[يدخل جند من حرس الملكة] :

الجندى : مولاى ، ذاتُ الجلالة

أنوبيس : الملكةُ الآن عندى ؟

[تدخل كليوباترا فى حاشيتها]

كليوباترا : تحيـــةً يا أبت

أنوبيس : سيـــدتى فى حُجْرتى

مُرى بما شــئت يكنْ وإن تحــدَّى قدْرتى

كليوباترا :

أبى ، أعلمتَ أن الجيشَ ولَّى وأن بوارجى أبَت المضيَّا

أنوبيس :

علمتُ وكان ذلك فى حسابى وذا حابى به أفضى إليّا

كليوباترا :

وهل نبّاك عن أنطونيوسٍ وكيف جرتْ هزيمتُه عليّا

وما أدرى أأردوْه قتيلا صباحَ اليوم أو أخذوه حيًّا؟

أبى ذهب الحليفُ فكنْ حليفى فقد أصبحت لا أجدُ الوليّا

أبى خفتُ الحوادثَ

أنوبيس : لا تُراعى لَباةُ النيل ليس تخافُ شيّاً

كليوباترا :

أبى لا العزلَ خفتُ ولا المنايا ولكن أن يَسيروا بى سَبيّا

أيوطأ بالمناسم تاجُ مصرٍ وتمّتَ شعرةٌ فى مَفْرقيّا ؟

أنوبيس [باستخفاف] :

لتأت المقاديرُ أو فلْتذَرْ   تعالىْ كلوبترا ألقِى النظرْ

كليوباترا :

أفاعٍ ؟ أبِى ، نَحِّها ، أخْفها ؟   أعوذُ بإيزيسَ من كلِّ شرّْ

فماذا تريدُ بإحرازهنَّ   وهل يقْتنى عاقلٌ ما يضرّْ ؟

أنوبيس :

أتيتُ بهنّ لدرس السُّموم   ولم أخْلُ فى علمها من نظر

أداوى بها أو بترياقها   محبَّ الحياة أو المنتحر

كليوباترا [كأنما تحدث نفسها] :

محب الحياة أو المنتحر !

كفى أيها الشيخُ ! بل هات زدْ   فما بىَ خوفٌ ولا بى خَوَرْ

وإن تكُ بى خشيةٌ فى النساء   فلى جُرْأةُ المَلكات الكُبر

تكلّمْ فليست سمومُ الأراقم فى الخُبث دون سمُوم البشر

فيارُبَّ صفوٍ سَقَيْتُ الرجالَ   فلما تَرَوَّوْا سقوْنى الكدر

أنوبيس :

قصارٌ وهُن سهامُ المنون   وليس يَعيب السهامَ القِصَرْ

تَمَسُّ الفريسةَ مسّ السنان   وتمضى مَضاءَ الحسام الذَّكَر

وكلُّ الذى لَمستْ مَقتَلٌ   ولو أنشبت نابَها فى ظُفُر

إذا جَرحَتْ لم تَقُمْ عن دم   كذلك يجرحُ سهمُ القدر

وماتتُهـــا لا يُحسُّ المنونَ		كمَن مات في النوم لا يُحتضَر

كليوباترا [مرددة قوله فى صوت خافت] :

وماتتُها لا يُحسُّ المنون		كمن مات فى النوم لا يُحتضر!

ولكن أبِن هل يُصانُ الجمال؟

أنوبيس :		نعم لا يَحولُ ولا يَنـدثر

كليوباترا: وهل يَطفَأُ اللون ؟

أنوبيس :		لا بل يُضىء		كما رفَّ بعد القطاف الزَّهَر

كليوباترا :

وهل يُبطلُ الموتُ سحرَ الجفون		ويبلى الفُتورَ ويُفنى الحَوَرْ

أنوبيس :

كعهد العيون بطَيْف الكرى		إذا الجفنُ ناء به فانكسر

كليوباترا : أبِن ، والشفاهُ ؟

أنوبيس :		لواقى الذُّبول		كما احتُضر الأقحوانُ النَّضر

وما الموت أقسى عليها فما		ولا قُبْلةٌ من عوادى الكبَر

كليوباترا: وما عضَّةُ الناب ؟

أنوبيس :		وَخْزٌ أخفُّ		وأهونُ من وَخَزات الإبر

كليوباترا: وما شَبَحُ الموت ؟

أنوبيس :		ماذا أقولُ ؟

كليوباترا:
تُمثِّلُه لي كأنْ قد حَضَر

أنوبيس:
زَعَمتِ ابنتي الموتَ شخصاً يُحَسُّ   وعَظَّمت من خَطْبه ما صَغُر
وما هو إلا انطفاءُ الحياة   وعَصْفُ الردَى بسراج العُمُر
وليس له صُورةٌ في العيون   على قُبْح صُورته في الفكر
إذا جاء كان بَغيضَ الوجوه   وإن جِيءَ كان حبيبَ الصُوَر

كليوباترا:
إذن هذه الرُّقْطُ في ذمتي   فصُنْها وأحسنْ عليها السهر
وأقسِمْ لَتأتي إليّ بهنّ   ولو أن دوني الظُّبا والسُّمُر

أنوبيس:
يميناً بإيزيسَ أحملُهن   إليك ولو في سلال الخُضَر
إذا بات في خطر تاجُ مصـ   ـرَ سبقتُ إليك بهنّ الخطر

كليوباترا:
أتجعلُ لي يا أبي آيةً   أميزُ الرسولَ بها إن حضر؟

أنوبيس:
هو التين أبعثُ حابي به   وبالرُّقط بين غصون الثمر

* * *

ابنتي ذلك محرا   بي ادخليه للصَّلاهْ
واسكُبي الدمعَ عسى أن   يَقْبَل الدمعَ الإله
هو ذو المُلْك الذي يبـ   ـقى ويفنى ما سواه

[خارج الهيكل — ثلاثة جنود رومانية]

الجندى الأول : تحيا روما يحيا قيصرْ

الجندى الثاني : روما العُظمى أبداً تنصَرْ

الجندى الثالث : ما ذاك ؟ ما فوق الطريق ؟ما أرى؟

جيء تعال رفيقّ معى لننظرا

الأول : هناك مقتولان ضَرَّجا الثرى

الثاني : نعم أرى ثَمَّ دما وخنجرا

وهيكلينْ من حياة أقفـرا

الثالث : جُبَّارُ يا مُصَرِّفَ الحروب بارِكْ لنا فى هذه الجيوب!

وابعث لنا بالذهب المحبوب

الأول : يا عَجَبَ الأقدار ! أنطونيوسُ ؟

الثاني : أنطونيو ! أجل وذا أوروس!

وأحسب السيدَ مات بيدهْ ثم حذا العبدُ مثالَ سيِّده

لهفى على أنطونيو فى مرقِدهْ

[يئن انطونيو ثم يحرك رأسه ويتبين الجنود]

أنطونيو :

ويحى أحيٌّ أنا جريحٌ ؟ ماذا يُريدُ القضاءِ ماذا

جنودُ أكتاف أدركونى يا ليتنى متُّ قبل هذا

جندي :

لا بل جنودُك لكن خانوك حُبّاً لروما

آخر : وما نَسُوك عليهم تحت اللواء زعيما

ترمى بهم مَطلعَ الشمس أو تَؤُمُّ النجوما

أنطونيو : يا جندي يا صحابي ليس ذا وقتَ العتاب

اتركوني وعذابي

[يغمى عليه]

جندي : لَهفي عليه دهاه الإغماء وأوشكتْ تَنْزِفُه الدماء

وليس إسعافٌ وليس ماءُ

آخر : هَلُمّا احملاه هَلُمّا احملا وجيئا بمولاكما الهيكلا

وأمضي فأُبلغُ أكتافيو الحديثَ أعرِّفُه المنزلا

[في حجرة الكاهن — كليوباترا والكاهن والحاشية عائدين من المحراب]

كليوباترا: أبي دخلتُ ونفسي حَيْرَى الزِّمام حزينهْ

وقد تركتُ المُصَلَّى وملءُ قلبي سكينه

إن الصَّلاةَ على شدّ ة الزمان مُعينـه

[يسمع صوت الجند من الخارج]

كليوباترا: ما تسمعون أصيخوا شرٌّ وهذا بَريدُهُ

كان الضجيجُ بعيداً والآن يدنو بعيدُهُ

حابى : أسمعتم ا ضجةٌ صاخبةٌ وجريحٌ وجُنودٌ فى الطريقْ
ها همُ قد دخلوا الدار به

أنوبيس : دارُنا الشاطئ لا يأبى الغريق

حابى : ها همُ قد حضروا

أنوبيس : يا مرْحباً أعدُوٌّ أكان أم كان الصديق

[يدخل الجنديان اللذان يحملان أنطونيوس]

كليوباترا :
ويْحَ عيني ماذا ترى ؟ ومن المحـ ـمولُ كالسيف فى الأكفّ خضيبا ؟
أيها الجندُ ما بأيديكمُ اليو م ؟

جندى : جـريحٌ على الطريق أصيبـا

كليوباترا :
أفتدرون مَن حَمَلْتم ؟

جندى : حَمَلنا هَيكلا عَزّ فى الرجال ضريبا
قد عرفناه خَيِرَ من هزّ رُمْحاً ونضا صارماً ولاقى الحُروبا

[تتأمل كليوباترا فى وجه الجريح]

كليوباترا :
آه أنطونيــو حبيبى أدركونى بطبيب
ما تَرَوْن الأرضَ تَرْوَى من دَم الليث الصّبيب
أبتى ، أين قـوى طـبّـكَ والسحرِ العجيب

هو فى إغماءة الجـــرح فنبّهْــهُ بطيب
هو ذا يفتــحُ عينيْــــه ويُصــغى لنحيبى

أنوبيس [محاولا إسعاف الجريح] :

تلك أنفاسه تَوالَى وهذا جسمه لا يزال غضاً رطيبا
هو دا قد تخلّجت شفتاه وتهيّــا لسانُه ليثوبا
أيها المَلكة ارفُقى بجريح بات تحت الرداء جُرحاً صبيبا
لا تناديه بالدموع مرارا ربما ضَرَّ جرحَه أن يُجيبا

أنطونيو :

كيلُبترا ! عَجَبٌ ! أنت هنا ! لم تموتى .. هم إذنْ قد كَذَبونْ

كليوباترا :

سيّدى روحى حياتى قيصرى أنت حىٌّ ؟

أنطونيو : بعد حين لا أكون

كليوباترا :

من نعانى كَذِباً ! من قالها لك !

أنطونيو : أولمبوسُّ النذلُ الخَؤون
مَــرَّ فاستوقفتُــه أسألُه قال ماتتْ فتجرَّعتُ المَنونْ

كليوباترا زوّدينى قُبلةً من ثناياك العذاب الشَّنباتْ
وأضيئى بسَناها مُقلةً يُسْدلُ الموتُ عليها الظُّلُماتْ

سيقولُ النـاسُ عنى فى غد — من أولى الرحمة أو أهل الشَّمات:
بَطـلٌ لم تَظفَـر الحـربُ به — فى الهوى تحت لواء الحب مات

[يسلم الروح]

كليوباترا :

قد تداعى محورُ الأر — ض وميزانُ الشعوبِ
مـال كالشمس جمـالاً — وَجـلالا فى الغـروبِ
أيهـا المجـروحُ لو تـد — رى جُروحى ونُدوبى
أيهـا الذاهب قـد آ — ن عن الدنيـا ذهوبى
أيهـا الخـالصُ وُدّاً — ليس وُدّى بالمَشـوب
أيهـا الصـادق وعـداً — ليس وعدى بالكذوب
عن قريب يَنطوى القبـ — ـرُ علينـا عن قريب
كَلّلوه بالـرياحيـ — ـن وبالغار الرطيب
واهتفـوا فى أذنيـه — بأناشيـد الحروب

* * *

واحبيباه، جاءه الموت فاستسـ — ـلم لا يستطيع إلا ذهوبا
كان ما خفتُ أن يكون وحَلّتْ — نَكبة لم تفاجىء المنكوبا

[تستوى قائمة]

أيها الجندُ مات قيصرُ فابكوا — معىَ السيدَ الجسورَ الوَهوبا
شَبِّكوا ساعديْه من فوق صدر — كان فى الرَّوع بالمنايا رحيبا

واعرضوا سيفَه على راحتيْه   واركزوا الرمحَ من يديْه قريبا
لا بل امضوا لشأنكم جُندَروما   ودَعونى وسيفَ روما السَّليبا
أنا وحدى له ديارٌ وأهلٌ   إن دعا دارَه ونادى النَّسيبا

[ينسحب الجنود]

ويحَ لى قد طلبتُ عند طباع الـ   ـناس ما عَزّ عندهم مطلوبا
خَلَق الناسُ للقوىِّ المزايا   وتجنَّوْا على الضعيف الذنوبا
واحتفوْا فى الحياة والموت بالغا   لب فانظرْ هل عَظَّموا مغلوبا
شيّعوا الشاةَ جيفةً بُمداهم   واتّقوْا وهْو فى الرِّمام الذِّيبا

أنوبيس : الوقارَ الوقارَ يا لَبْأة النيـ   ـل ولا تجعلى الزئيرَ النحيبا
وقِفى للخُطوب فى عزّة المـلـ   ـك وفى كِبْره تُذلِّ الخطوبا

[يدخل جندى من جنود أكتافيوس]

الجندى : قيصر أكتافيوسُ آتٍ   يعودُ أنطونيوسَ قيصرْ
كليوباترا : قيصر ! فرَّ الأسير منه   مَنْ فى حمى الموت ليس يُؤسَر

[يدخل أكتافيوس ومعه جنود]

أكتافيوس :

سلامٌ مَلْكةَ الوادى   سلامٌ كاهنَ المُلْك
يقولُ الناسُ أنطونيو   هنا لم يَبتعدْ عنك
كليوباترا : نعم لم نَفترقْ بعد   وإن أمعن فى ترك

وهـذا الجسـد الفانى　　جَلاءُ الرَّيب والشك

أكتافيوس :

إذن قد قُضِىَ الأمرُ　　وصار الليثُ للهُـلْك

كلوباترةُ لا تَخْشَىْ　　فلن آخذَه منكِ !

كليوباترا : أبى تهزأُ أم بالمَيْـ　　ـت أم بالموقف الضَّنك

إن اسطَعتَ على مالـ　　ـك من بَطش ومن فَتَك

وما حَوْلك من خيـل　　وما تحتك من فُلْك

فخُذْه من يد الموت　　ومن عاجـزةٍ تبـكى !

[يدنو جندى من جنود اكتافيوس ليتحقق موت أنطونيوس]

كليوباترا :

مكانَك يا عبدُ لا تَهتِكَنَّ　　على سيد الهالكين القناع

تُريد لتكشفَ عنه الغطاء　　عسى تحته حيلةٌ أو خداع

عَبِثْتَ به وهو تحت الظُّبا　　لِبَـس مُلقَى السلاح قليـلُ الدفاع

ولم تَحتشِمْ بُقعاً من دم　　عليهنَّ تحسُدُ مصرَ البقاع

رُوَيْدَك ، ما الموتُ مُستبعَدٌ　　ولا هو مستغرَبٌ من شجاع

وإن التماوتَ فعلُ الثعالـ　　ـب ليس التماوتُ فعلَ السباع

أكتافيو :

أناتَك　سيدتى　إنـه　　فتى طاهرُ القلب حرُّ الطباع

أراد ليحتاطَ لى جُهدَه ويُخلصَ فى خدمتى ما استطاع
تنحَّ أخا الجند ما أنت والميـــتَ الا يَقرَبُ الشمسَ إلَّا شُعاع!
أتأذنُ سيدتى أن أطيـــفَ بخدن الصدام رفيق الصِّراع؟
ومن كنتُ تحت القنا ظلَّه ومن كان ظلِّىَ تحت الشِّراع
وكنا نَشيد لروما الفَخارَ ونجنْى لها الغارَ من كل قاع
ونأتى القلاعَ فنحتلها وإن بعُدَتْ كالنجوم القلاع
ونَركزُ فى السهل أرْماحَ روما ونُطلعُ أعلامَها فى اليَفاع ؟
بإذنكِ ؟

كليو باترا :

قيصرُ لا إذنَ لى أينهى ويأمر من لا يطاع ؟
تصرَّف بجُثمانه كيف شئـــتَ فليس له اليومَ منك امتناع
وما جُثَّةُ الليث إلا لَقىً إذا النابُ طاحت أو الظُّفْرُ ضاع

[يتقدم أكتافيوس فيرفع القناع عن وجه أنطونيو]

أكتافيوس :

لقد حسَم الموتُ ما بيننا وفَضَّ اللَّجاجَ وفَضَّ النزاع
فمن حَقِّه اليومَ بل واجبٌ على أُقَدِّسُهُ أن يُضاع
أُقبِّلُ ما قَبَّل الغارُ منـــك وأهتفُ: أنطونيوسُ الوَداع

ســـتـــار

الفصل الرابع

« فى القصر الملكى ، فى غرفة العرش ، غرفة مطلة على »
« البحر . كليوباترا متكئة على حافة الشرفة ، شرميون »
« وهيلانة فى أقصى الحجرة تنهمر من عينيها الدموع »

كليوباترا [كأنما تناجى نفسها] :

نام « مَرْكُو » ولم أَنَمْ ... وَتفــرَّدتُ بالألـم
ليت جُرحى كجُرحه ... لَقِىَ المـوتَ فالتـأم
قاتلَ اللهُ ماضـياً ... قَتـل المُفـرَدَ العَلَمَ
أنطوانُ انفُض الكرى ... سـاعةً وانقُل القَـدم
قم كأمس اغنَم الهوى ... واشرب الراحَ بالنَّغم
وتَخَـيَّرْ على المُنَى ... وتَمَتَّع من النِّعم
واغمرِ الأرضَ بالقنـا ... وتَغَلَّبْ على الأمـم
وقُد الخيلَ فى الوِهـا ... دِ ووثباً إلى القمَم
أيهـا العـين أبصرى ... إنمـا كنت فى حُلُمُ !

[ملتفتة إلى شرميون] :

ياشرميون بلغنا موْقفاً حَرجا لا الرأىُ ينفعنا فيه ولاالباسُ

لم يبقَ ثَقبُ رجاءٍ كنت ألمحُه إلاّ تَعرّضَ حتى سدّه الياسُ

[تلقى نظرة على الاسكندرية من الشرفة]

نجمى يُحدّثنى بوشْك أُفوله إسكندريةُ ، هل أقولُ وداعا ؟

وَشَّيْتُ بَرّكِ جدولاً ونَخيلةً وكسوْتُ بحرَكِ عُدّةً وشراعا

وأنا اللّبُاةُ وقد ملأتُك غابةً وأنا المَهاةُ وقد ملأتُك قاعا

قدخفتُ من بَعدى عليكِ ممالكا يُطلقْن فيكِ الفاتحين سباعا

يأتين زرعَكِ بالرّياح عواصفاً ويَجِئْنَ ضَرعَكِ بالذئاب جياعا

فإذا الحضارةُ بعد طول بنائها قد دُكَّ رُكنُ بنائها وتداعى

شرميون :

يا إيزيسَ سيدتى بالوَلاءِ بطول التعاشُرِ والمُصطحَبْ

بمالى بيسابكِ من خدمة ومن صُحبة تُشبهان النَّسب

على أى وجهٍ أدرْتِ المصيرَ وَقلّبت رأيكِ فى المُنقلب ؟

فهذا السكونُ يُثيرُ الشكوكَ وهذا الهدوءُ يثيرُ الرِّيَب

وماذا اعتزمتِ؟ وماذا كتمتِ؟ أبِينى فما بيننا من حُجُب

ولى فى حياتكِ رأىٌ يُساقُ وليس علىّ إذا لم يُصبْ

كليوباترا :

إذن فاذكرى أن خصمى العتيد يخاف انتحارى ويخشى الهرب
وليس الذى يشتهى لى الحياة ولكن له فى حياتى أرب
له فى غد موكبُ الفاتحين إذا أقبلوا فى جلال الغلب
يجرون فى رومة الأرجوان وقد برزت فى الثياب القُشُب
وتزدان بالغار هاماتهم إذا ارتفعت فى الخميس اللجب
يحاول قيصرُ منى المحال ويذهب فى غير وجه الطلب
يريد ليعرضنى فى غد على شعب روما كأنى سلب
ويفضح مصر وسلطانها وتاج العصور وعرش الحقب
لقد ساء تدبير أكتافيوس ولم يلق من خدعتى ما أحب!

[تسمع وطء أقدام]

ماذا وراء الباب ؟

شرميون :

حسٌّ قادم

هيلانة :

أجل دبيبُ حارس أو خادم

كليوباترا :

بل حارسٌ جاف من حرس القصر
معربدُ الخطو من نشوة النصر
لا تسعُ الأرض رجليه من كبر

شرميون :

مَلْكتي دَعي هـذه الفِكَرْ
جندُ رومةٍ يَعْبُدُ البدَرْ
في سبيلها يركَبُ الغَرَرْ

كليوباترا :

شرميون صَهْ إنه حضَرْ

[يدخل حارس]

الملكة : ماذا وراء الجندي؟

الحارس : رسالة من عبد
هل تأذنين ؟

الملكة : أذِّ

الحارس : أيها المَلْكَةُ قد جا ء إلى القصر غلامْ
في ثياب الحقل حلو الشكل ممشوق القوام
جادل الحُرَّاسَ في حذ قٍ ورفق بالكلام
يَدَّعي أن أباه كان عبداً للنَّقام
ناله بستانُ تين من أياديك الجسام
فهْوَ يُهدي لك باكو رتَه في كل عام

الملكة [هامسة] :

شرميونُ ذاك حابي وبَجَنـاه في يمينهْ

جاءَ في الميقات يُهدى   لىَ باكورةَ تينه

[للحارس]

ألا تَقْبلُ يا حار   س منى هذه البَدْره ؟

الحارس : بشكران وهيهات   على الشكران لى قُدْرَه

الملكة : والآن لو تُحْضرُ لى الفلاحا   لعله يُحدث لى انشراحا

إنى نسيتُ البَسطَ والمزاحا

الحارس :

علىّ السمع والطاعه   سآتيك به الساعه

[يخرج الحارس]

الملكة :

يا شرميونُ تعلّمِى الدنيا ويا   هيلانةُ اختبرى الزمانَ القاسى

إن التى حُرستْ بأبطال الوغى   باتت تُصانعُ سفْلَةَ الحراس

[يدخل حابي فى ثياب فلاح ومعه الحارس]

هيلانة [همسا] :

حابى ، نعم حابى وتلك نظرتُهْ   وهذه مشيَتُه وخَطرتُهْ

يا ليت شعرى ما تكونَ سَلّتُهْ ؟

حابى : تحيــةٌ للَملكهْ   ونعمَةٌ وبَركهْ

ونفسُ عبدِها لها   وكلُّ ماقد ملكه

سيدتى جئت إلى   بحرك أُهدى سمكه

أحملُ تينا ولو اســـــــطعتُ حملت بملكه

حابى : سيدتى

الملكة:

أُدنُ فإنــــه ابتعــدْ وقُلْ فما يسمعُ غيرنا أحدْ

حابى : سيدتى

الملكة:

حـابى ، أنوبيسُ اجتَهَـدْ لنا وأنجز الغداة ما وعدْ !

يُريدُ أن يَشفيَنى مما أجد وأن يَقى بملكتى عارَ الأبد

جئتَ كما يأتى لوقته المَدد

وَفَيْتَ لى حابى ولم تـكُنْ تَـفِى ضعِ السِّلالَ وانصرفْ لا بل قفِ

حتى ترى كيف يكونُ مَوقفى

[تلقى نظرة على السلال]

ما لى مُلئتُ من المنيَّــة رهبةً إن المنيةَ فى رقاب الناس

آسى الجراح جَزعتُ عند لقائه والنفسُ تجزعُ من لقاء الآسى

إنى طويتُ بساطَ كل مُدامة لم يبقَ إلا شربُ هذى الكاس

يا خادمىّ بل ابنتىّ تلطفـا فى البحث حتى تأتيا بأياس

فعسى يُغنّينى نشيدَ الموت أو نغما أجود عليـه بالأنفاس

شرميون :

مَلْكتى نادى أياسا إنه بالقُرب منك
هوفى المقصورة الأخرى مع الباكين يبكى
فكُره فيك ولا يَجسُر أن يَسألَ عنك

الملكة :

ياوَيحَ صَحبى بَعد طول سرورهم قعدوا إلى أحزانهم يبكونا
جيئى بهم ياشرميونُ لينظروا جَلَدى فيَهدأ بعضُ ما يَجدونا

[تخرج شرميون]

كليوباترا [تنحنى على زنبقة فى أصيص] :

زَنبقةٌ فى الآنيهْ ضحيّةُ الأنانيهْ
جَنَتْ عليها غُرْبَةَ الأسرالأكُفُّ الجانيهْ
وبُدِّلتْ من سَعة الـرَّبْوَة ضيقَ الباطيه
يَسقونها من جَرَّة بعد العيون الجاريه
يا جارتا شأنك لا يُشبهُ إلا شانيَه
لم يبق من مُلكى العريـض غيرُ دار خاويه
وكلُّنا ذابلةٌ عما قليل ذاويه
زال النعيم وفرغنا من حياة فانيه

[ترجع شرميون ومعها أياس وأنشو وغيرهم]

الملكة [إلى أنشو] :

أنشو يَعزُّ علىّ أنك ساهمٌ   يبدو عليك الهمُّ والتفكيرُ
أنشو ألا قولٌ يَسُرُّ وضحكةٌ   إن السعيدَ الضاحكُ المسرورُ
قد كان أيسرُ ما صنعتَ يسرنى   أعَلَى سرورى اليوم أنت قدير؟

أنشو : سيدتى جرى بما   فيه سرورُك القدرْ
من لا تسرُّه السما   ءُ لا يسره البشرْ

الملكة: أياسُ، هل من صوت؟   غَنِّ نشيدَ الموت

[أياس يغنى هذا النشيد]

يا طيبَ وادى العدَمْ   من منزلٍ من منزل
لم تمش فيه قدمْ   للعُذَّل وادٍ خَلِ
أنا فيه لحبيبى   وحبيبى فيه لى

* * *

يا موتُ مِلْ بالشِّراعْ   واحملْ جَريحَ الحياهْ
سِرْ بالقلوع السِّراع   إلى شُطوط النجاه

* * *

شراعُك الفضّى   فى لُجِّه التِّبْرى
كالحُلْم فى الغَمض   يجرى ولا يجرى

* * *

في ظل ليل ساجْ أقسم لا يَسري
مُغـلَّل الديباجْ مُطيَّب السِّتر

* * *

في يقظةٍ يَظهرْ لي أم أرى حُلُمَا
فُلْك من الجوهر يَخترقُ الظُّلما

* * *

على الدجى لَمَّاح تَحسَبُهُ نجما
ليس به ملّاح يسلُكه اليمّا

* * *

أضوَى من الفجر في ظُلمة الأسداف
من نفسه يجري لم يُجره مجداف

* * *

مَدّ شراعَ النورْ يا حُسنَ ما مدّا
كاللؤْلؤ المنثور لو يَنفَح النّدّا

* * *

يا لكَ من زورقْ مَلّاحُه الأقدارْ
ينجو به المُغرَقْ من لُجة الأكدار

[يدخل الحارس]

الملكة: ما وراء الحارس ؟

الحارس: الطاعة يا ذاتَ الجلالهْ

قائد يحملُ من قيصرَ أكتافو رسالهْ

الملكة: أدخله ، أدخلْ رسولَ قيصرْ

[يخرج الحارس ويدخل القائد]

القائد : قيصرُ العالى إلى سيدتى يُهدى التحيهْ

هو فى الشُّكنة بالقرب من الدار السنيه

يُظهرُ العطفَ عليها وهى بالعطف حَرِيّه

ويقولُ الأمرُ ما تأمُر فى الإسكندريه

ولها الوادى وما يحملُ مُلْكا ورعيّه

وبنوها يرثون الـمُلكَ من روما الوصيه

وإذا حَلّت بروما وجدت روما حَفيّه

تتلقّاها كأعلى درة فى القيصريه

ما الذى تقترحُ الملكة ما تُملى عليّه

لتقلْ سيدتى حاجتَها تُقْضَ العشيّه

كليوباترا [كأنما تناجى نفسها] :

وإذا حلت بروما وجدت روما حفيه!

تتلقاها كأعلى درة فى القيصريه !

[تضحك فى تهكم وألم]

أيها القائدُ أدّيْـ ـتَ فأحسنتَ الأداءْ
بَلّغنْ قيصر عنى كلَّ شكر ودُعاء
ثم زدْ أمنيةً قد بَقِيتْ لى ورجاء
أنا لا أكتُمُهُ ما سَرَّ من أمرى وساء
لىَ سرٌّ كاد عن نفـ ـسىَ يَزويه الخفَاء
صُنته عن صاحباتى وصحابى الأمناء
حبذا لو زارنى قيـ ـصرُ فى هذا المساء
وله الشكرُ إذا لم يأت أو إن هو جاء

القائد :

سأذكرُ مولاتى لمولاىَ قيصرٍ وأنقُلُ ما أبديتِ من رَغَبَات
ولمْ لا يُلبِّى دعوةَ الحسن طائعاً ويسعى لهُ مستعجلَ الخطوات؟
وقد كان يوليوسٌ يقومُ ببابه ويَمْثُلُ أنطونيوسُ فى العَتَبَات!

كليوباترا [بعظمة] :

أسأتَ أخا الرومان فهم إشارتى

القائد : إذن فَهِى لى تلك من هفَواتى

[يخرج القائد]

كليوباترا :

أراني لم يُحسنْ إليّ مُعاصري ولم أجد الإنصافَ عند لداتي
فكيف إذا ما غيّبَ الموتُ ذادتي وبدّد أنصاري وفضّ حُماتي !
كأنيَ بعدي بالأحاديث سُلِّطت على سيرتي أو وُكِّلتْ بحياتي
وبالجيل بعد الجيل يَروي زخارفاً فمن زور أخبار وإفك رُواة
يقولون أُنثى أفنت العمرَ بالهوى بهيميّةُ اللـذات والشهوات
فدىً لغرامي بالرجال وحُسنهم غرامُ الغواني أو هوى الملَكات
فليس الغلامُ البارعُ الحسن فتنتي ولا الرائعُ الأجلادِ والعضَلات
ولم يَستثرْ وَجدي من الروم فتيةٌ جُنونُ العذارى فتنةُ الخَفرات
ولا كلُّ غصن من بني مصرَ مائل يَطير إليه قلبُ كل فتـاة
يموتون بي عشقاً ويَشقَون بالهوى فكم من حياة في يدي وممات
ولكن عشقتُ العبقريَّةَ طفلةً وفي الغافلات البُلْه من سنواتي
كلفتُ بكهل أحرز الأرضَ سيفُه وحيزتْ له الدنيا من الجنَبات
إذا هبّ من غرب البلاد تلفّتتْ بلادٌ بأقصى الشرق مُذعرات
تعثّرَ حظي بعد طول سلامة وأقلع نجمي بعد طول ثبات
ومن يمش في وَرْد الأمور وشَوكها يَعُدّ الخُطا أو يحسب العثرات

[تنظر إلى السلال]

يا مرحباً بالسَّلَّهْ والرُّقُبِ المُطِلَّهْ

الكافياتِ الذِّلَّهْ

[ينسحب الجميع مطرقين ما عدا الملكة ووصيفتها وحابي]

كليوباترا :

أدخلى بى يا شرميون على طفـلى أُودِّعْهُمُ الوداع الرهيبا
فعساهم إذا تحجّب صدرى وجدوا صَدركِ الحَفِيَّ الرحيبا

[لحابي وهيلانة]

ولدىَّ اهجرا القصورَ فإنى قد وجدتُ النعيمَ فيها غريبا
ولها ضجـةٌ وفيها فُضولٌ يُرهقُ الحبّ واشياً ورقيبا
خلِّيـا عنكما المدائنَ يا ابـنىّ فضوْضاؤها تُميت القلوبا
إن لى فى سهول طيبَةَ حقلًا طيِّبَ الماء والهواء خصيبا
غَرستْه يد الشبـاب فأضحى وارفا كالشباب حُسناً وطيبا
ألِّف الحبُّ من نواحيه أيْكا جمع الطيرَ هاتفا ومُجيبا
يُسمعُ البُلْبُلُ العشيقةَ فيه وتُغنِّى الأليفـةُ العَنْدليبا
أفقُهُ لا يُظلُّ إلا مُحبًّا وثـرى لا يُقلُّ إلا حبيبا
إشربا من كرومه واسقياها صافىَ الحب والهوى المسكوبا
والعبـا عند كلّ ماء غدير تريا المـاءَ للحَباب لعيبا

وسلا الوردَ هل تَنفَّسَ في الور د وهل ناسم البعيدُ القريبا
أدرِكا لذةَ الشروق ولمَّا تبلغ الشمسُ بالحياة الغروبا

[تخرج كليوباترا وشرميون]

حابي :

هيلانُ، هذا مقالُ النصح من مَلك فما تَريْن وما تَنْوين هيلانا
هَلُمَّ طيبةَ ننزلْ في خمائلها ونَبْنِ مثلَ بناء الطير دُنيانا
كطائريْن على بحر وعاصفة قد آنسا من وراء الشَّط بستانا
تداركتْنا أبرُّ المالكات به وأشرفُ الناس إحساساً ووجدانا

هيلانة :

حابي ، عرفتَ الخلال الطيِّبات لها وكنتَ أمس أقلَّ الناس عرفانا

حابي :

خلِّ الجفاءَ حياتي إن ساعَته مضتْ وهذا أوانُ السِّلم قد آنا
اللهُ يشهدُ أني قد سدلتُ على ما كان من نَزَعات الرأي نسيانا
وأنني اليوم أبكيها وأندُبُها ولا أقيسُ بها في الطهر إنسانا
اليوم ضحَّتْ وزكَّاها الفداءُ كما زكى المُقرِّبُ باسم الله قُربانا

هيلانة :

إن التي شب في نَعمائها صغَري ونبَّهتْ لي في سُلطانها شانا
إن لم أمُتْ دونها أو لم أمت معها فما جَزَيْتُ عن الإحسان إحسانا

حابي :

والحبُّ هيلانَ؟ ماذا تصنعين به

هيلانة : إن الصداقة فوق الحب أحيانا

حابي أراها أزْمعتْ وأرى الفجيعةَ واقعهْ

فاذهبْ فجئْ بأنوبسٍ فعسى يردُّ الفاجعه

حابي :

وسواءٌ أردَّها أم أبى ذلك القدر

فى غد أيها الملاَ كُ إلى طيبةَ السفر

[يخرج حابى]

هيلانة :

ويح حابى اعتقادُهُ أن سأحيا فنلتقى

ليتنى نلت قُبلةً منه قبل التفرُّق

[تدخل كليوباترا وفى أثرها شرميون]

كليوباترا :

بروحى وإن لم تَبْقَ منى بقيَّةٌ صغارٌ وورائى ذُوَّقُ اليُتم نُوَّحُ

أذوبُ لبلواهم وأعلمُ أننى حَمَلتُ عليهم ما يَجِلُّ ويَفْدَح

وقد أشتهى عيشَ الذليل لأجلهم فلا المجد يَرضى لى ولا النُّبل يَسمَح

فصفحاً صغارى إن شَقيتُم بمصرعى وإني لأرجو أن تَنضوا وتصفحوا

وَداعا صغاري صَيَّرَ الله يُتمكم إلى خير ما يكفي اليتامى ويُصلح
أطفتُ بكم والنومُ تسري سناتُه على صفحات كالأهلَّة تَلمَحُ
وما منكُم في الخزِّ إلا حمامةٌ عليها طليلٌ ناعمُ الفرع أفيَح
تنامُ وما تدري الكرى ماوراءه ولا الصبحُ في ظلِّ الرُّبا كيف يُصبح
أتغدو على الدنيا كأمس طليقةً ضُحى اليوم أم يُغدَى عليها فتُذْبَحُ ؟

[ملتفتة إلى هيلانة وشرميون] :

فيم هيلانةُ تبكيـــن وأنت شرميون
كفكفا الدمعَ فلا شـدَّ ة إلا وتهـــون
واعلما بنتيَّ أن الـ بؤسَ والنعمى دُيون

[تركع أمام تمثال إيزيس]

اليومَ أقصرَ باطلي وضلالي وخلت كأحلام الكرى آمالي
وصحوتُ من لَعب الحياة ولهوها فوجدتُ للدنيا خُمارَ زوال
وتلفَّتتْ عيني فلا بمواكبي بصُرتْ ولا بكتائبي ورجالي
وطئتْ بساطي الحادثاتُ وأهرقتْ كأسي وفضَّتْ سامري ونقالي
إيزيسُ ينبوع الحنان تعطفي وتلقَّي لضراعتي وسؤالي
أنت التي بكت الأحبَّةَ واشتكت قبل الأرامل لوعة الإرمال
إني وقفتُ على رحابك فارحمي ذلَّ الملوك لمجدك المُتعالي
هل تأذنين بأن أعجِّل نُقْلتي وأحُثَّ عن دار الشقاء رحالي

وعُلاكِ ما أدعُ الحيـاةَ جبانةً ... أو ضيقَ ذَرْعٍ أو قطيعةَ قالى
إنى انتفعتُ بعبقرىٍّ جمالها ... وتمتعتْ من عبقرىٍّ جمـالى
وجمعتُ بين شعورها وعواطفى ... وقَرَنتُ رَحْبَ خيالها بخيالى
ووجدتُها قد خلّدت أبطالها ... فبسطْتُ سلطانى على الأبطال
بنتُ الحياة أنا وتَشهدُ سيرتى ... ما كنتُ من أمى سوى تمثـال
منها تناولتُ الرياءَ وراثةً ... وأخذتُ كلَّ خديعة ومحال
وقسوْتُ قسوتَها ولنتُ كلينها ... واقتستُ فى صَدّى بها ووصالى
ولربما رَشَدتْ فسرتُ برُشدها ... وغَوَتْ فأغوتْنى وضل ضلالى
ووجدتُها حباً يفيضُ ولذةً ... فجعلتُ لذَّات الهوى أشغالى
يومى بأيام لكثرة ما مشت ... فيه الحيـــاة وليلتى بليالى
ولقد لقيت من الحياة صَبيَّةً ... ما جل من بؤس ورقة حال
خلِعتْ ملكى طفلةً وشردتُ فى ... صدر الصبا ورأى المكارهَ آلى
شرعتْ علىَّ السوْطَ فى كُتَّابها ... واليومَ تضربُنى بدرس غالى
ياموتُ هل حَرَجٌ على مُستنجد ... بك أن يُسابقَ واقعَ الآجال
يومى أعجّــلهُ ولو لم أنتحرْ ... للقيتُ يوماً ما له من تالى

ياموتُ أنت أحبُّ أسراً فاسبقى ... لا تُعط روما والشيوخ عقالى
ياموتُ لا تُطفِ بشاشة هيكلى ... واحفظْ ظواهرَ محتى وجلالى

ياموتُ طُفْ بالروح واسرقْها كما
سرق الكرى عينَ الخلىّ السالى
حتى أموتَ كما حَييتُ كأننى
بيتُ الخيال ودُميةُ المثّال
وكأن إغماضَ الجفون تناعسٌ
وكأن رقدتىَ اضطجاعُ دلال
سرْ بى إلى أنطونيو فى نَضرتى
ورُواء جلبابى وزينة حالى

[تقوم إلى إحدى السلال فتكشف التين عن أفعى] :

هَلُمِّى الآن مُنقذتى هَلُمِّى
وأهلا بالخلاص وقد سعى لى
شرِبتُ السم من فيك المُفدَّى
بسلطانى وزدتُ عليه مالى
على نابيْك من زُرق المنايا
شفاءُ النفس من سُود الليالى
وبعضُ السم ترْياقٌ لبعض
وقد يَشفى العُضالُ من العُضال
دعوْتُ الراحةَ الكبرى فلبتْ
فبُعداً للحيــاة وللنِّضال
هَلُمِّى عانقى أفعى قصور
بها شوقٌ إلى أفعى التلال
سَطتْ روما على مُلكى ولَصّتْ
جواهرَ أسرتى وحُلىّ آلى
فرُمتُ الموتَ لم أجبُنْ ولكن
لعل جلالهَ يَحمى جلالى
فلا تمشى على تاجى ولكن
على جسد ببطن الأرض بالى
وقد علم البريّةُ أن تاجى
نمته الشمسُ والأسرُ العوالى
يُطالبُنى به وطنٌ عزيزٌ
وآباءٌ ودائعهم غوالى
أأدخلُ فى ثياب الذل روما
وأُعرَضُ كالسبىِّ على الرجال ؟

وأُحدَج بالشماتة عن يمينى ويَعرض لى التهكمُ عن شمالى ؟
وألقَى فى النّـدىِّ شيوخَ روما مكانُ التـاج من فَرْقَىَّ خالى ؟
وأغشى السجن تاركةً ورائى قصورَ العزّ والغُرَفَ الحوالى ؟
وتحـكمُ فىّ روما وهى خصمى وتُسرفُ فى العقوبة والنّـكال
يَرانى فى الحبـــائل مُترَفوها وقد كان القيـاصرُ فى حبـالى
إذن غـيرُ الملوك أبى وجَدِّى وغَـيرُ طرازهم عَمِّى وخالى
سأنزلُ غــيرَ هائبة إذا ما تلمَّظت المنيَّةُ للـــنزال
أموتُ كما حَييتُ لعرش مصر وأبذُلُ دُونه عرشَ الجمال
حيـاةُ الذلِّ تُدفَعُ بالمنـــايا تَعالَىْ حَيَّــةَ الوادى تعالى

[تتناول الأفعى وتمهد لها من صدرها فتلدغها ثم ترميها الى السلة]

يا ابنتَىْ وُدِّى ... هَلُمَّا ... زيِّنـانى ... ... للمنيـهْ
غسِّلانى ... طَيِّبانى ... بالأفاويهِ ... الزكيه
ألبسانى حُــلَّةً ... ثُمْ جبُ أنطونيو ... سنيه
من ثيـاب ... كنتُ فيهـا أتلقاه ... ... صبيـه
ناولانى التاج ... تاجَ الشمـ س ... فى مُلْك ... البريه
وانـثرا بين يدىْ عـر شى ... الرياحين الهيه

[تموت بين وصيفتيها]

شرميون [تتناول من إحدى السلال أفعى] :

كلوبـترا ويالهـفى عليـك يا كلوبترا

وصيفاتُك فى الدنيـا وصيفاتُك فى الأخرى

[وتهوى لها من صدرها فتلدغها وتموت]

هيلانة [تفعل ما فعلته شرميون] :

كلوبترا ذهبت اليـو مَ بالدنيا كلوبترا

تعالىْ أيهـا الأفعى أريحينى أنا الأخرى

[يدخل أنوبيس وحابي]

أنوبيس :

انسلّت المُهرةُ من قَيْدها وأفلتالطيرُ من الصائد !

حابي : هيلانَ ، يالهفا على الحبيبهْ على الجمال وعلى الشبيبهْ

على الفتـاة الحُـرّة النجيبه

[يتحسس جسمها]

يا للحيـاة ما تنى دبيبـا أبى، تأمّلْ جسمَها الرطيبا

واسمـعْ تجـدْ لقلبهـا وجيبـا

أنوبيس : حابى ، نسيتَ حُقّةَ النجاة

حابي : هيهات أعصيك أبى هيهات

إن أنسَ أشياءك أنسَ ذاتى !

[يخرج الحقة من جيبه]

خُـذْها

أنوبيس : بل اسكبْ فى فم الفتـاة لعلها تصحو من السُّبات

[يشتغل حابي بإيقاظ هيلانة]

أنوبيس [على جثة كليوباترا] :

بنتى رجوتُك للضحية والفدا فوجدتُ عندك فوق ما أنا راجى
إن تُصبحى جسداً فنفسُكِ حرةٌ وعُلاك سالمةٌ و عرضُك ناجى
سيقولُ بعدكِ كلُّ جيلٍ مُنصف ذهبتْ ولكن فى سبيل التاج

[ثم يلتفت الى جثة شرميون] :

وأنت أيضاً شرميونُ جيفهْ مُتِّ ولكنْ ميتــةً شريفهْ
ما أعظمَ الملكةَ والوصيفهْ !

حابي : أدنُ أبى ألق النظرْ يا العجائب القــدرْ !
أنوبيس: أحدث ترياق الأثرْ ؟
حابي : أنظرْ أبى ترياقك الــــــمحسن ماذا منحا ؟

أنظرْ فهذا مَلَــكى من رقدة الموت صحا
قد فتحَ العينــيْن بعـ ـد اليأس من أن تُفتَحا
وهـــذه أنفاسُه رَيْحانُها قد نَفَحا
مولاى قد قَرَّبْتَ من سعادتى ما نَزَحا
أنت الذى رَددتَها رُوحاً وكانت شَبَحا
يا قلبُ كيف لم تَطرْ عن الضلوعِ فرحا

هيلانة : يا ويحَ لى ! ويحَ ليهْ هل صَدَقَتْنى عَينيهْ ؟
حابى أفى الدنيا أنا ؟

حابي : بل أنت دنيــاى هنا

هيلانة : منذا جنى عليّه حتى بُعثتُ حيّه ؟

حابي : أبي الذي شفاك يامَلاكي

أنوبيس: لا بل مَلاكُ الحب قد شفاك

وأدمُعُ الإخلاص من فتاك

هيلانة : أبي لقد مَرّ عليّ الموتُ وكنتُ من عذابه نَجَوْتُ

علامَ حُلْتَ بينه وبيني ؟ الموتُ لا يُذاقُ مَرّتَيْنْ

[ترى جثة الملكة وهي تتلفت]

رحماك آلهةَ الوادي ذهلتُ فلم أذكرْ مَلاكاً وراء العرش مُضطجعا

بالأمس، لا، لا بل اليوم ألتحقتُ به صُرعتُ بالناقع الساري كما صُرعا

لقد رَحلنا عن الدنيا الغَرورِ معاً مالي رَجعتُ إلى الدنيا وما رَجَعا

ليت الطبيبَ الذي داوى فأخرجني إلى الحياة على الدنيا به طَلَعا

مليكتي، ربّتي، صفحاً ومغفرةً . إن المروءةَ كانت أن نموتَ معا

الكاهن: بُنيّتي . . .

هيلانة : صَهْ أبي ،

الكاهن: لا أنت واهمةٌ

فلستُما في مُلاقاة الرّدَى شَرَعا

وقفتُما موقفاً فى الخطْب مختلفاً لوجَرَّبتْ فيه غيرَ الموت ما نفعا

حابي : تعالىْ نَحْىَ فى الحقْل مع الطير كما تحيـا
هَلُمِّى الحبَّ هيلا نُةُ فالحبُّ هو الدنيا
أبى دونك باركْنا وإن شئتَ فشاركْنا

أنوبيس : إذا فارقتُ محرابى فمن يبكى على مصرا ؟
سأبقى ها هنا ابْنَىَّ إلى أن أقضىَ العُمرا
هَلُمَّا ابنىَّ باسم اللّـ ـهسيرا وابنيا الوكْرا
هلما جنةَ الوادى هلما طيبةَ الغـرَّا
لئن فرقنا الدهرُ فقدتجمعُنا الذكرى

[يخرجان]

[يسمع صوت بوق]

أنوبيس : البوق دَوَّى قيصرُ أقبلْ

[يدخل حارس]

الحارس : مـولاى قيصر

[يتنحى عن الباب ويدخل قيصر وفى معيته الطبيب أولمبوس] :

أنوبيس :

ما يَبتغى قيصرُ من أسيرتهْ ؟ إن التى أعـدَّها لزينتـهْ
يَدخل روما وهى فى كتيبتهْ تَزيدُ فى مَوكبه وقيمته
ماتتْ ولم تنزلْ على مشيئتهْ بُوركَ فى النيل وَفى عقيلتهْ

قيصر :

آلهةَ الرومان ، ماذا أرى ؟ امرأةٌ تَسخَرُ من قائدِ
قد أبطلَتْ كيْدى على ضعفها ولم تزلْ تَسْخَرُ بالكائد
فى الجسد الحىّ تمنّيتُها لم أبغها فى الجسد البائد

[يركع قيصر عند جثة كليوباترا]

أنوبيس [لنفسه] :

الحادثُ العجيبُ قيصرُ والطبيبُ
يَغدُرُها وعهدُه ببابها قريبُ

أكتافيو :

عجيبٌ يا طبيبُ أرى قتيلاً ولكن لا أرى أثرَ الجراح !
أليست فى الفناء أرفَّ لوناً وأندَى من رياحين الصباح
فهل تدنو فتكشف كيف ماتتْ أبالسم الزُّعاف أم السلاح ؟

[يقترب أولمبوس وينحنى على صدر الملكة من الناحية التى رميت فيها الأفعى]

أولمبوس :

جبين مُشرقُ الغُرّهْ ووجهٌ ضاحكٌ نَضْرَهْ
وعينان كأنّ المو ت فى جَفنَيْهما كَسْرَه
وهذا فُمها تبدو الـ ـمنايا عنه مُفتَرّه
ولكن قيصرُ ادنُ انظرْ هنا السرُّ هنا العِبره

فبين السَّحر والنحر كمثل الخَدش من إبره
مكانُ الناب من صلٍّ شديد البأس والشِّرَّه

[تلدغه الأفعى]

إلهى ، قيصرى ، آه لقد مَسّتْ يدى جَمَرَهْ
سرى السمُّ بأعضائى وعَمّتْ جسدى فَتْره
وجاءت سَكرَةُ الموت فلاصَحو... من السَّكْره

[ثم يسقط ميتاً]

أكتافيوس :

ويل النفوس منْ فُجاءات القدرْ !
وويحَ ألبيوس بالأفعى عَثر

أنوبيس [لنفسه] :

قد وقع الحافرُ فيما قد حَفر

قيصر :

وَداعاً كلوبَترا إلى يوم نلتقى وَتنفُضُ عنها الهامدين المقابرُ
محا الموتُ أسبابَ العداوة بيننا فلا الثأرُ ملْحاحٌ ولا الحقدُ ثائر
وما استحدثَت عندالكرام شَماتةً صُرُوف المنايا والجُدودُ العواثر
وداعا وإن نحن اقتتلنا وجَرَّدتْ حُسامَيْهما أوطانُنا والعشائر
تَحَدّيتنى بالموت حتى قهرتنى ومالى سلطانٌ على الموت قاهر
ترفَّعت عن قَيْدى ومُتِّ عزيزةً وأيدى المنايا للقيود كواسر

وأنت التي نازعت روما مكانها ... وجَرَّتْ بناديك القيود القياصر
لعبت بأنطونيو ويوليوسَ حقْبةً ... كما جاء بالمسحور أو راح ساحر
وما أنا إلا سيفُ رومةَ باتراً ... أصيبَ به سيفٌ لرومةَ باتر
زَجرتُ فلم أُسمَعْ فقاتلتُ مكرَهاً ... وفى الحرب إن لم تَردَعِ السِّلمُ زاجر
وأنطونيو صهرى الكريم بمثله ... يُطاولُ أنسابَ الملوك المُصاهر
وَداعاً عروسَ الشرق كلٌّ ولاية ... وإن هَزَّت الدنيا لها الموتُ آخر

[يخرج أكتافيوس وحاشيته وتزف التحايا له من الأبواق والحناجر خارج القصر]

أنوبيس :

أكثرى أيها الذئاب عُواءً ... وادّعى فى البلاد عزًّا وقهرا
أنشدى واهتفى وغَنِّى وضِجِّى ... واسبحى فى الدماء ناباً وظُفرا
لا وإيزيسَ ما تملَّكتِ إلا ... وادياً من ضَياغم الغاب قَفرا
قَسَماً ما فتحتمُ مصرَ لكنْ ... قد فتحتُم بها لرومةَ قبرا

ستار الختام

على بك الكبير

أو

دولة المماليك

تمهيد

زمن الرواية :

حوالى سنة ١٧٧٠ ميلادية .

مكانها :

الفسطاط والصالحية وعكا .

أشخاصها :

على بك الكبير :	حاكم مصر ، ويلقب بشيخ البلد .
محمد بك أبو الدهب	متبنى على بك والخارج عليه ومن أمراء المماليك
مراد بك	من أتباع على بك وأولاده .
ضاهر العمر	صاحب حصن عكا وحليف على بك .
مصطفى اليسرجى	« الجلاب »
آمال	
شمس	إماء معروضات للبيع
زكية	

عشاق	شاب شركسى مع الجلاب .
أم محمود	الماشطة والواسطة فى بيع الجوارى .
رزق الله الوكيل	وكيل على بك .
بشير بك	من أصحاب على بك .
عثمان بك	« « محمد بك .

قائد الأسطول الروسى فى عكا .

أمراء .

جواسيس .

قواد .

جند .

فتيات .

أغوات .

خدم .

الفصل الأول

فى قصر على بك الكبير

«حجرة من القصر واسعة فخمة على الطراز الشرق مفروشة بنفيس الطنافس قد نثرت فيها الوسائد والصفف وزين سقفها بثريات الزجاج الملون المشكل وركزت فى زوايا أرضها الشمعدانات الكبيرة ..»

«جلس هناك فى انتظار على بك الكبير، مصطفى اليسرجى (الجلاب) ومعه ثلاث فتيات شركسيات (آمال) و(شمس) و(زكية) وشاب شركسى اسمه عشاق من جنسهن وقرابتهن وأم محمود الماشطة»

زكية : يا أمَّ محمود تلك دنيا ... وهكذا فلْتَكُ القُصورُ
وهكذا شمس فى الليالى ... تنزل هالاتِها البدور
قصرٌ سماواتُه الثريا ... وأرضه الوشيُ والحريرُ
أم محمود : ونحنُ ياشمس نحن بؤسٌ ... بيوتُنا الجصُّ والحصيرُ
نُنْقَلُ من حُفرةٍ لِلَحْدٍ ... تساوت الدورُ والقبورُ
شمس : يا أم محمود خبِّرينى ... أههنا ينزلُ الأميرُ
أم محمود : أجل

شمس : ومن ذا وما يُسمَّى ؟

أم محمود : سلطان مصرٍ على الكبير

شمس : والطيبُ يا أمُّ لم تُشمِّى النَّدُّ والمسكُ والعبيرُ

مصطفى: لا تعجبي هم ملوكُ مصرٍ دنياهمُو الطيبُ والبخورُ

زكية : وما الأميرُ يا يسرجى ما له من العمرُ

مصطفى: قد جاوز الشبابَ إلاّ أنه كهلٌ نضر

أم محمود الماشطة :

ما بلدُ العزِّ غير مصرٍ كيف طعمتُنَّ يا بناتُ

شمس : طعامُ شاهٍ طعامُ عُرس لم يَروِ أمثالَه الرواةُ

ما القصرُ ما الفرشُ ما الأواني

ما الأكلُ ما الشربُ ما الطهاةُ

مصطفى: هذا هو المُلكُ مُلكُ مصر وهكذا الحظُّ والهباتُ

وأنتِ آمالُ ؟

آمال : خلِّياني ما تلك إلا خُزَعبلاتُ

القصرُ كوخي على جبال جلَّلَها الثلجُ والنباتُ

إذا عوى الذئبُ من مكانٍ أجابَه الكلبُ والرُّعاةُ

زكية : أجل حَنَنَّا للجبال الشيبِ وللشتاء القارس العصيب

وكلِّ راعٍ واقفٍ للذيب أمَّنَ خوفَ الحَمل الرعيب

تلمحه كالعلمِ المنصوبِ والوعل في الجيئة والذهوب
والديدبان في فم الدروب

مصطفى : بَخٍ بَخٍ مرحى يا كَوْمَةَ الشحمِ
يا جَـزْر بلُّوطٍ لكن من اللحم

أم محمود : أعرفت يا جلاب أنك جئت بالحمـل الثقيل
عن تلك كان لنا غِنًى ما تلك إلا سقط فيل

مصطفى : يا أمَّ محمودَ اقصدى لكل سلعةٍ ثمن
إن سَراةَ الناس في مصرَ يحبون السِّمَنْ
وهـذه الكَوْمَةُ فيـها سِمَنٌ لكن حَسَنْ

[يسمع أذان العصر بصوت شجى من محراب في دار الامارة فتلتفت شمس بأم محمود وتقول]

شمس : ما هـذه الرنة في قبـة القصر
زكية : صوت من الجنة يهتف بالعصر
أم محمود : ما زالت السُّنَّة والبرّ في مصر
يا رب أيدها بالعز والنصر

شمس لعشاق : قم غنّ يا عشّاق أغنية المعّاز
وناج بالأشواق ـ أحبّة القوقاز

عشاق يغنى: كوخ وراء الجبالِ مُكَلَّلٌ بالجليد
فديتُه لا أبالى بكل قصرٍ مَشيد
ما مرَّ يوما ببالى إلا بللتُ خدودى

* * *

يا منزل القوقازِ عِم من بعيد صباحا
لمعتَ لمعةَ بازى فى الجوِّ سلَّ الجناحا
سلِّم على المعّاز إذا غدا أو راحا

* * *

وقل له يا راعى فى الناى هات الأنينا
اسمع على البعد راعٍ صوتاً من الغائبينا
هل أنت للعهد راعٍ أم قد تركت الحنينا

« بعد صمت واطراق من الجميع »

أم محمود للبنات :

تعالين بنات الشر كس الغيدَ تعالينَا

زكية : ولِمَ ؟ ماذا ؟

أم محمود: تعالينَ تَزدْكُنَّ يدى زينَا
فلا أتركُ لا شعْرا ولا خداً ولا عينَا

أم محمود لشمس :

تعالى أيها الشقرا وهاتى شعرك التبرى
هَلُمِّى اقتربى منى وألقى الرأسَ فى حجرى

غداً يأخذُك الشارى ‎ ‎ وما تدرينَ من يَشرى

أم محمود لآمال :

تعالَىْ أيها السمرا ‎ ‎ فان الخيرَ فى السُّمْر

أشَعْــرٌ ذاك آمالُ ‎ ‎ أم الليلُ إذا يَسْرى

قضــاك اللهُ للوالى ‎ ‎ أو الحاكِم فى مصرِ

آمال فى غضب :

دعينى مرأةَ السوءِ ‎ ‎ دعينى بومَــةَ الشرِّ

قضــاك الله للجــوع ‎ ‎ وللسجنِ وللقبرِ

أم محمود لمصطفى :

ياسيدى النخاس هذه ضُبُعْ ‎ ‎ فارجعْ بها لا تَشرها ولا تبعْ

إلا إذا ساوَمنا فيها سَبعْ

آمال الى صاحبتيها :

قوما إليهـا

شمس : وأنت ؟

آمال : لا ، لا أحب الفضولا

علىَّ ثوب جمال ‎ ‎ ما احتاج يوماً ذيولا

شمس : ما الخطب ممَّ غضبتْ آمالُ ؟

زكية : مابالُها ساخطةً ما بالُ

أم محمود : غبيَّةٌ ما عَرَفتْ ما المالُ

مصطفى همساً لشمس : شمسُ

شمس : يَسْرجيُّ

مصطفى : انظرى آمال ماذا غمَّها

ميلى إليهـا وخُذى فيما يُسرِّى همَّهـا

آمال : بل الحقُّ معى وحدى وأنتُنَّ الغبيَّات

سواءٌ نحنُ أم نحنُ نفوسٌ آدميـاتُ

أم محمود لزكية:

وأنت يا ضخمةُ يا بدينه يا محملا يخطُرُ بالمدينه

قومى إلىَّ أقبلى للزينه رُزقت عمدة بلا قرينه

ثروته فى داره دفينه يطلب منا امرأة سمينه

مصطفى : يا أمَّ محمودَ أرَى آمالَ جِدَّ مُغضَبَه

هائجـة صاخبـة ثائرة مُقَطَّبَه

فى وجهها تكاد تبدو نفسها المعـذَّبه

مصطفى لآمال:

آمال بنتى استريحى وقللى التفكيرا

لا تحملى هم شىء دعى لىَ التدبيرا

عساى أغنم ملكا أو أستفيد أميرا

فتحكمين بمصر وتنزلين القصورا

مُلْكُ الجمال كبيرٌ زيديه مُلْكا كبيرا

صونى جمالك هذا عن أن يعيش فقيرا

آمال : يا أبي ما تريد بي أنت تلهو وتلعب
مَلِكَةٌ أو أميرةٌ أبهذا أُلقَّب
حُلُمٌ ثم ينقضي وأمانيُّ تكذبُ
كيف تسمو إلى العلا ابنةٌ باعَها الأبُ

ثم مستمرة : أبي .. تاجر كما شئت وكيف أردت فاحترفِ
ولكن لا تَرُم ثمني ولا في هذه الغرَف
فبيعُ الجنس فاحشةٌ أليسَ كذلكَ اعترف
أبي ، شرف على فقر ولا فقر إلى الشرف

مصطفى لنفسه

يا مالُ ما فيكَ من سحرٍ ومن خطر
لقد نزلت بنا عن رتبة البشر

تاجرت بالجنس حتى صار محتقراً
عند الشعوب وما جنسي بمحتقرِ

ذهبتُ بالشركس الآساد أعرضهم
عرض الرعاة صغارَ الشاءِ والبقر

لولاكَ ما بعتُ أطفالي ، فما كبدي
من الحديد ولا قلبي من الحجر

مصطفى يقبل على آمال :

طفلةٌ آمالُ أنتِ أنت ما تدرينَ شيَّا
ههنا الدنيا ومُلكٌ لك في الدنيا تهيَّا

آمال : خلِّ عنك المُلك والقهـ ـر ولا تذكر عليَّا
إن ما تصنعُ بي قد بغَّض الدنيا إليَّا

ثم لنفسها

رَبِّ جنِّبنى شبابَ ذا البلد ... لا يُصبنى منهمو ربِّ أحد
لى أخٌ فى أرض مصر باعه ... والذى لم يخش من بيعْ الولد
ركب الآفاق فرخاً ما له ... من جناح الأب والأم سند
فجعَ القريةَ فيه وسقَى ... أُمَّه الثُّكلَ فماتت بالكمد
لستُ أنسى عبرات إثره ... قد جرَت شيَّعنه حتى ابتعد
وهو يومى بيدٍ من رقةٍ ... وأبى من غضبٍ يومى بيد
ربِّ ما صار إلى أين انتهى ... أهو فى الخيل لواءٌ أم وتد
يوسف المسجودُ فى مصر له ... أم من الجوع ليوسف سجدة

زكية : وأين بنو السلطان ؟ لم لا نراهمو
أليس له ابن يغتـــدى ويروح
يرفُّ الشباب الغض من طيلسانه
وينفح ريحان الصبا ويفوح

شمس : فلا خير فى دارٍ إذا لم يطف بها
نسيم شباب أو شعاع جمـــال
ولا خير فى روضٍ بغـــير بهارةٍ
ولا خير فى قاع بغـــير غزال

مصطفى : أجل له ابنٌ

شمس : ما اسمه ؟

مصطفى . محمد العالى النسب

شمس : لعله أبو الدهب ؟

زكية : لله ما أحلى اللقب
ففيـه رنة الذهب

مصطفى : متبنّى الأمـير والمتبنّو | ن بهذى البلاد كالأبنـاء
نعتوه لنـا فقالوا أمـيرٌ | أريحىٌّ من صفوة الأمراء
تغدق الألسن المديح عليه | وتفيض الشفاه حسن الثناء
مَلكٌ سابقٌ إلى كلّ فضلٍ | نابغ الغرس عبقريُّ البناء

ثم مستمراً : وأنت يا أم محمو | د ما الذى تعلمينا ؟
أم محمود : محمـــدٌ ليس برًّا | ولا وفيًّا أمينـا
بالأمس عقَّ أباهُ | فكان شرَّ البنينا
واليوم يشهر حرباً | على الأمـير زَبونا
وأما أخوه

زكية : كيف ؟ من؟ هل له أخ ؟

أم محمود : أجل ، وهو أيضاً لم يلده أبوه

زكية : إذن فعلىٌّ والد النـــاس كلهم
وكل شبـــاب الضفتين بنوه
وكيف الفتى ياأم محمود، ما اسمه؟

أم محمود : غلام وضىءُ المفرقين جواد
رأيتنَّه مثلى تذكرنَ ساعة رأيناه

شمس : من ؟ ما اسم الأمير ؟

أم محمود : مرادُ

أم محمود لآمال :

هنـــاكِ آمال انتي هنـــاكِ

آمال : ما ذاكِ يا أم اذكرى ما ذاكِ

أم محمود : الحظ يا بنتـــاه قد أعطاك

عُشقت عشقاً سوفَ يُروى فى السِّيَر

عشقٌ له فى مصرَ والشرق خَطَرْ

وعاشق عالى السنـــاء كالقمر

آمال : يا أم محمود هُديت . . ما الخبر ؟

أم محمود : لقيتُ مراداً أمس

آمال : ماذا يهمنى ؟

أم محمود : عجيب ! ألا يعنى النساء مرادُ ! ؟

فتىً عَلمٌ فى مصر . . فى الشرق كله

نبيل كأبنـــاء الملوك جواد

يُحبُّ عَليّاً جهـــدَه ويُحبُّه

علىٌّ فبين السيدَيْن وداد

كأنى به نال الولاية وانتهت

إليه أمورٌ فى غد وبلاد

يُحبُّك يا آمالُ حُبّاً مُبرِّحاً

على مثله ما انضمّ قطُّ فؤاد

زكيـة : عرفتُه

آمـال : ومن ؟

زكيـة : فتًى أمس إلى السوق حضَر
ذاكَ الخفيفُ كالقنا ة والوضيءُ كالقَمَر
أتى لنـا أمس فما اختص سواك بالنظر

آمـال : عرفتُه ذاكَ الوَقَاحُ فى دعابة الهـذرْ
ذاكَ الذى قلبَّنا أمس كتقليب الحُصُر

شمس : وكنت أنت قِبلة الـ لحظ وموضع الفكَر

أم محمود : وأنت كنت وزكيـ ة الحصـير المحتقَر

آمـال :أوذاك الذى تقولين يهوانى

أم محمود : أجل وهو أرفع الناس قدرا
هسِّ صهٍ هُس انظرا ها هو ذا قد حضرا

« يدخل مراد بك »
مراد بك عند الباب لنفسه :

ويحَ لى رب ما أرى أمُّ محمو دَ إلهى وهذه آمالُ
هى فى القصر كيف جاءت إليه
كيف وافاه مصطفى المحتـال
أتُراها قد حازها لعلىٍّ جبرالجاه واحتواها المالُ
كيفَ هل بعدُ فى فؤاد علىٍّ
موضعٌ يحتوى عليه الجمالُ

ربِّ مالى أهابُها كلما قمتُ ومالى يُرِدُّنى الإجلالُ
وأنا الذئبُ لم تُسلَّط على قلبى
مَهَاةٌ ولم يُسيْطر غزالُ

ثم لأم محمود ومن معها :

سلامٌ أمَّ محمود سلامٌ يا بُنَيَّاتى

أم محمود : سلام لك مولاى

زكية : وعلوىٌّ التحيات

مراد بك ويشير الى آمال : أمّ محمود مالها ما لتلك المحببه

أم محمود : مالها سيدى

مرادبك : انظرى كيف تبدو مقطبه
لقيتنى فلم تَقُم بلقائى مُرحِّبَه
مالها اليوم مثل عهدى بها أمس مُغْضَبه

أم محمود : سيدى قد ظلمتها إن بنتى مُهذَّبَه
غير أنى وجدتُها مُذ بدا الصبح متعبه

شمس : معذرة ياسيدى لأختىَ المعذَّبَه
نحنُ النهارَ كلَّه كالسلع المقلَّبَه

مرادبك: مصطفى

مصطفى فى ناحية وحده : سيدى

« لنفسه » : أهذا مراد؟

ويْحَه ما أضلَّه فيمَ جاءَ

مرادبك: مصطفى هل نسيتَ أنّا التقَيْنَا
عند سوق الرقيق أمس مساءَ
مصطفى : سيدى ما نسيت واليوم نستأ
نف فى حجرة الأمير اللقاءَ
مرادبك: والتى اخترت من ظبائك
مصطفى : نرجيها إلى أن يرى الأمير الظباءَ
مرادبك: أتُرى ما تزالُ تأبى
مصطفى : أجل
مرادبك: ويحَكَ هل يملكُ الرقيقُ الإباءَ
آمال : سيدى مَنْ عنيْتَ؟ قل لى بمن عَرَّضت؟
مرادبك: أعنى المليحة الحسناءَ
آمال : سيدى إننا حرائرُ ما زلنا
مرادبك: ولكن غداً تصرن إماءَ
آمال : وغدٌ سيدى عليه غطاءٌ
أترى عن غد كشفتَ الغطاءَ
مرادبك: قُمْ مصطفى، هذه الحسناء تُعجبنى
أليس يكفيك فيها ألف دينار

مصطفى : ألفٌ ! قبلتُ

مرادبك: إذن تأتيك كاملة
فاخرج ببنتك واحملها إلى دارى

آمال : أبى أبى أنت تمضى بى وتحملنى
كالشاة ! هذا لعمرى أعظم العار

مصطفى : آمال

آمال : قف أنت عبد المال يا أبتى
تُلقى البرىءَ لأجل المال فى النار
لا سيدى ، لا أبى ، لا تذكرا ثمناً
فلست مخلوقة للبائع الشارى

مصطفى لنفسه :
رباه أعظم من وجدى ومن شفقى
على ابنتى اليوم إعجابى وإكبارى
وأنتَ تعلم والأفعالُ شاهدةٌ
أن ابنتى حرةٌ من نسل أحرار
يا ألفُ سحقاً ويا مالُ امضِ من سُبلى
قطعتُ منك أسبابى وأوطارى

ثم لآمال:
آمال هَيِّ اذكرى لى كيف أدفعه

ثم لنفسه: ماذا أقولُ فإنى لستُ بالدارى

آمـال : أبي أما نحن في دار الأمير «علي»
إني لجارةُ حُرٍّ مانع الجار
لا أبرح القصر إلا عن مشيئته
فحُكمُه هو فيّ النافذ الجاري

مراد بك : ويحَ لي قد رُددتُ أقبحَ ردٍّ
وأبَتْ أن تُجيبني الحسناءُ

لمصطفى : سترى من يفوز بالبنت يا وغد

لآمـال : ومن يقتنيك يا حمقاءُ

« ويخرج مراد بك »

آمال لنفسها :

ما بالُ قلبي بمراد مُذْ تلاقينا اشتغل ؟
لعـلّني أحببْتُه لا لا ، فمالي والرجُل
عساىَ قد هِمتُ به هـذا لعمرىَ الخَبَل

خيـالُه في فـكرتي في كل سـاعةٍ مَثَلْ
مالي أُحسُّ لاعجـا بين الجوانح اشتعـل
إن فُتح البابُ يُرى أولَ إنسان دَخَلْ
أو جيءَ بالزاد وجـدته بجانبي اكل
وإن شربتُ حضَر الماءَ فعلَّ ونَهِلْ
قد أخذتْ صورتُه على مشاعري السُّبُل

وحيث سرتُ طاف بى وأينما حللتُ حلّ

أم محمود تنظر الى الباب وتقول :

أرى الأبوابَ قد فُتحت وأسمَعُ وقع أقدام

مصطفى : علىٌّ جاءَ قُمْنَ له بإجلال وإعظام

يدخل على بك وفي حاشيته رزق الوكيل . . الأغا مرجان . بعض الخدم

على بك : أضعنا نهارك يامصطفى أطلنا انتظارك لاعن جفا

مصطفى : بباب الأمير ولىِّ النِعَمْ يطيبُ الوقوفُ لاوفى الخدم

على بك [همسا لمصطفى] :

يا مصطفى قد بعتنى من سنوات ولدا

مصطفى : أجل صبي كان من أذكى الصغار محتدا

على بك : ما ارتبتُ فيه ساعة أن سيكون سيدا

مصطفى : عاش أبوه لا أرى أباه إلا أسدا

على بك : ولكنه لم يَدُر فى البلاد ولم يعرف الناس حتى فَسَدْ

فسَلَّ الحسامَ وهَزَّ القناةَ وأصبحَ عزريلَ هذا البَلَدْ

مصطفى : ذاكَ ذنبٌ لم أبعْه حنشٌ غيرى باعَه

بئسَ ما باعوكَ يا مو لاىَ يا شؤمَ البضاعَه

على بك : وأين البنيات ؟

مصطفى : ها هُنَّ قُمْ نَ وقاراً لمولاىَ فى المجلس

على بك : تخـــير الحسن قبلى فـكيف كيف اختيارى
على بك[لرزق] : يارزق ماأنت راء
رزق الوكيل : كذا تكون الجوارى
أم محمود : بل قل ثلاث شموسٍ تـــنزلت فى نهـــار

على بك [ممازحا] :

من أنتِ يا شرَّ وجهٍ ومن أحلَّك دارى ؟
أم محمود: أنايامولاى حُسْن الماشطه أنافى أمر البنات الواسطه
ثم لنفسها: آه من لى بحيـاةٍ ثانيه ليتنى أرجع يوماً غانيه
ليتنى يا ليتنى يا ليتنى آه لو ينفع قولى: ليتنى!

[أم محمود . تأخذ يد شمس وتأتى بها] :
فهـــذى كاسمها شمسٌ ولكن حُسْنُها أحسَنْ
على بك : تعـــالَى اللهُ ما أبهى تعـــالَى اللهُ ما أفتَنْ
[ثم ترجع شمس وتأتى بزكية] :
أم محمود : وهذه زكية
على بك [معرضاً عنها ومشيراً الى آمال] :
وهذه الحوريه ؟
أم محمود : مهاة فداها الغيد من شركسية

لها سيرة عندَ الملوك تُدارُ

إذا برزت ودّ النهار قميصَها

يُضيءُ به شمسَ الضحى فتَغارُ

وإن نهضَتْ انشى ودّ قوامَها
نساءٌ طوالٌ حولهـا وقصارُ
لهـا مَبْسِمٌ ... الخليجُ لأهله
وعاشت لآلٍ فى الخليج صغارُ

على بك : ما اسم هـذى ال...ة ؟

أم محمود : آمالٌ الحسناء

على بك لآمال : آمال كيف ألفيتِ قصرى

آمال : جنةالله ياأمير على الأرض ولم لا ألست سلطان مصر

على بك : وهذا الوشى والديبا ج ما موقعه منك ؟
وهاتيـك المصابيحُ من البلّورِ والسِّلْكِ
وهذا الخشبُ المصنو عُ بالصندلِ والمسكِ
لقد طفتِ على فار س والقوقاز والترك
وأدخلتِ قصور العز والثروة والملك
فهل أبصرت ما يشبه هذا الصنع أو يحكى ؟

ثم مستمراً: وكل ما أبصرت فى قصرىَ من صُنع البلد
فليس يعلو الصانعَ المصرىَّ فى الذوق أحد

آمال : لا عَجَبٌ مولاىَ يا طالما قد بلغَ الفنُّ بمصر الكمال

على بك : لكن أرى القوقاز أعلى يداً مَنْ غيره يصنع هذا الجمال؟

آمال : سيدى

مصطفى [همساً] :

حاذرى ابنتى قدرى المو ... قف لا يخطر العقوق ببالك

آمال : لا أبى ،خلّنى أبحْ أشكُ بثّى ... خَذَل الصبرُ قلبىَ المتهالك

آمال [لعلى بك] : سيدى

على بك : ما أرى ؟ دموع لآلٍ ... ذهبت فى الخدود شتى المسالك

مِمَّ تشكين يا ابنتى ما وراء الدمع ؟

آمال : لا شىء

على بك : بنِّتى ما هنـــالك !

آمال : سيـدى ،غـيرُ شأننا بك أولى

هـذه السوق لم تلِـق بجلالك

تُشترى النفسُ أو تُبـاع على الأر

ض ولم يرض فى السماء المالك

مصطفى : قلِّى الهمَّ يا ابنتى والتَّشكى

وانظرى الحال وافكرى بمآلك

هذه السوق نعمةُ الوطن البا ... ئس منها

على بك : ونحنُ نعلم ذلك

أنا أيضاً مررت بالسوق يا آما

لُ ، حالى يا بنتُ من مثل حالك

قد وقفنا بهذه السوق نبغي دولا من ورائها وممالك

وقديماً كانت سبيلَ المعالي للمماليك أوسبيلَ المهالك

علي بك [مستمراً] : لك الله يا آمال، أنت كبيرة

وكل كبير النفس سوف يسود

فداؤك نفسي هذه نفس حرة

وهذا إباء ما عليه مزيد

أتيت بما لم يأت فيما مضى لهم

ملوكٌ على عرش الكنانة صيد

شَرونا وباعونا صغاراً وفتية

كما بيع سودان بمصر عبيد

فما كان منا من رأى الرِّقَّ سُبَّةً

ومن قال عند البيع لست أريد

ثم مستمراً: الخطبُ غيرُ عظيم لا تحزني يا فتاة

وكلٌّ جرح يُداوى إن عالجته الأساةُ

آمال : مولاي قالوا أُرزِقْتَ نفساً فضائلُ الصالحينَ فيها

بأيِّ دين تحوزُ رقِّي وتشترى البنت من أبيها

علي بك : أبوك ! ؟

آمال : أجل والدى

علي بك : مصطفى أأنت أبوها ؟

مصطفى : أجل سيدى

على بك : فماذا ترى ؟

مصطفى : فى يديك الفتـــاة
تصرّف لقد خرجتْ من يدى

على بك : دع البيْعَ يا مصطفى والشراءَ
وزوّج فتاتكَ أو فارددُ

مصطفى : بمَنْ ؟

على بك : بى

مصطفى : إلهى !

على بك : أجـل بى أنا

مصطفى : سمعتِ فتاتى اشكريه احمَدى

آمـال : علامَ أَجَرِّبتُه بعدُ ؟ لا سأعلمُ ما صاحبى فى غد

على بك : لم تقبلى الرق منذ حين يالك من حرة نبيله
والآن تخشينَ من زواج تمشينَ فى ظلِّه ذليلَه
آمال

آمـال : مولاى

على بك : هاك قصرى سُوسيه بالنُّبل والفضيله

أم محمود : تحيـــةٌ للملـكه من أَمة فى المملـكه

مصطفى : أُقَبِّلُ سترَ مولاتى

آمـال : أبى ! أستغفـــر الله !

على بك : وأنت الملكةُ اليومَ مُرى وانهَىْ على الدار
وحلّيها حُلولَ الشمـ ـس فى أرجاء آذار
وكونى قُفْلَ أموالى وأذخارى وأسرارى
ولا يَهمُمْك تَرْحَالى ولا تشغَلْك أسفارى
فللغنم والصيـد خموف الأسد الضارى
وللرفعة والمجد سفار القمر السارى

آمال : مولاىَ هاتها يداً قد طوّقتنى خيرَ يَدْ
هات أضَعْ فى راحتيْـك قُبَلاً بلا عَدَدْ

مصطفى : يا للجلال والخطَر ويا لتوفيق القَدَر
من البشيرُ بالخبَرْ إلى البيوت والأُسَرْ
حظٌّ لعمرى قد كَمَل فمن يُبلِّغ الجبَلْ
وكلَّ دارعٍ نَزَل على الشعاب والقُلَلْ
أنا ظفرنا بالأمل

أم محمود : فمن بنات الشركس للهو والتأنُّس
زدنَ سرورَ المجلس برقصكُنَّ الخمس

شمس : عُشّاق ماذا أخرّك لِمْ لَمْ تجرِّدْ خنجرك
قم لاعب الغيدَ نَرَكْ كيفَ تخوضُ المعترك

عشاق : غدا يُعقدُ للوالى على الحسناء آمال
جبالَ الشركس اختالى بهذا النسب العالى

هلّلوا الفرحَ الأكبر هلّلوا رقصةَ الخنجر
غداً يمتلك الوادى من الحاضر والبادى
فمن طالب أفراح ومن شاهد أعياد
هلبوا الفرح الأكبر هلبوا رقصة الخنجر
غداً يبتهجُ العصرُ وتُمسى فرحا مصرُ
وتُجلى الشمسُ والبدرُ ويزهو بهما القصرُ
هلبوا الفرح الأكبر هلبوا رقصة الخنجر

هتاف خارج القصر :

لازلت منصور القنا يا أسد المعارك
أطعمتَنا سقيتَنا ياربِّ زدْ وبارك

علي بك : اسمعوا

رزق : ضجّةٌ

الأغا مرجان: أجلْ وابتهالٌ ورجالٌ بسيدى يهتفونا

على بك: من تُرَى الهاتفونَ رزقُ ويامرجانُ أُخرج فانظر مَن الصاخبونا

الأغا : عادةٌ تلك كل يوم خميس عندنا ألف جائع يطعمونا

علي بك : امض فاجعل فى كفّ كلّ فقير

ذهباً يطعمونَ منه البنينا

نفحةٌ من أميرة النيل مولاتك

آمال : بل منك سيّدَ المحسنينا

رزق : مولاي

علي بك : من ؟ أوَ رزقٌ ذا ؟

رزق : كم ذا تجودُ وكم تَهَبْ

إن الخزانة أصْبَحَتْ بنداكَ كالجحر الخرِبْ

الفضّةُ انفضّتْ وما قد كان من ذهب ذَهَبْ

رمضان راحَ بنصفه والنصف راحَ به رجَبْ

علي بك : أجل نحنُ أطعمنا الفقير ولم يكُنْ

له في قصور المُترَفينَ طعام

ونحن سقينا ابن السبيل ولم يكن

يُبَلُّ له فوقَ الطريق أوامُ

ونحنُ حضَنّا اليتمَ نمسحُ دمعهَ

وآواهُ منا محسنونَ كرامُ .

ترى الزاد مبذولا وفي كل ساحة

يتامى قعودٌ حولَهُ وقيام

ونَبني فركنٌ للثقافة والحجا

يُشادُ وركنٌ للصلاة يُقامُ

ودارٌ يُواسَى البؤسُ فيها ومنزلٌ

تداوى جراحاتٌ به وسَقامُ

ونرفُق بالعجماءِ نأسو جراحها تُقاتُ على ساحاتنا وتنامُ

على بك للاغا مرجان وهو بالباب .

مرجان ، خيرٌ

مرجان . سيدى الشيخ ؟

على بك أدخله ليس دونه ستورُ

الإمام : أمرنى الراعى يتسرُ من أولادى

آمال لأم محمود .

يا مولاى شغله بالمهمات قد كثُرْ

أم محمود .

أم محمود . مليكتى ما تريدينَ ما الخبرْ

آمال ، شمس

شمس . لبيك مليكتى دونك الشمس والقمر

آمال لزكية : أختُ

زكيــة : أفديك مليكتى زاد فى شأنك القدر

آمال : جُلْنَ فى القصر جوْلةً وتنقَّلْنَ فى الحُجَر

نحنُ فى الوُدِّ والصفا ءِ كأمس الذى غبَر

عشنَ ضيفاً علىّ فى ال قصر ما امتدّ بى العُمُرْ

« يخرجن مع مصطفى وعشاق .. ويدخل بشير بك فتنتحى آمال ناحية »
« من الحجرة تشرف من نافذة فيها على ساحة الدار »

على بك : ماذا وراءك يا بشيرْ

بشير بك : شأنٌ سأعرضه خطيرْ

علي بك : قل

بشير بك : لا أقولُ لأنه شأنٌ يُسَرُّ إلى الأمير

على بك يذهب ببشير بك الى ناحية أخرى من الحجرة :

على بك : عجل وكاشفنى بما بَلَغَتْ من الجدّ الأمور والبوَّ

بشير بك : مَنْ ؟

على بك : أبو الدهب

بشير بك : يأخذُ للشرِّ الأُهَبْ

حاز الأقاليم إليه وتألف العرب
والغُزُّ فى ركابه والشعبُ جذلانُ طَرِبْ
فلنرتحل فربما جُنَّ فعجل الطلب

على بك : أرى الأزْمَةَ اشتدتْ وأبطا انفراجُها

بشير بك : فصبراً عساها آذنت بذهاب

على بك : صبرت طويلا يا بشيرُ فما جلا
ولا ذلّلَ الصبرُ الجميلُ مُصابى

ولو أن رُزْئى بالغريب احتملتُه
ولكن بأهلى نكبتى وعذابى
يُطاردنى فى الأرض من دَبَّ فى يدى
ورُبِّىَ فى حجرى وشبَّ ببابى
ومن طلب الدنيا بيأسى وسطوتى
فلما حواها فى يديه سَطَا بى
ومَنْ عشتُ أبنيه وأعْمُرُ ركنه
فصَيَّرَ هدمى شُغْلَهَ وخرابى
لقد آن أن أسعى وأن أدفع الأذى
بشيرُ امض هيِّىءْ للرحيلِ ركابى
إلى كم قعودى عن عدوى وكيده
وهذا عدوى لا يملُّ طلابى
سأخرج نحوَ الشامِ فى فَلِّ شيعتى
فهيىءْ جيادى وادع خيرَ صحابى

بشير بك: وماذا وراء الشام ؟

على بك : أُسْدٌ ضراغِمٌ
ألُفُّهمو حولى لنُصْرة غابى
يزيد بهم جيشى وتقوى عشيرتى
ويشتد ظفرى فى القتال ونابى

الان قرشها

بشبرنك أسمى بالأمس؟ أأمضي؟

علي ملك . بل ابق انتظرْ يا بشيرْ

إذ أما قضيتُ هذا المساء بقرب الأميرة ماذا تضير

بشبرنك: وليـــل غدٍ والذى بعدَه

وإن شئتَ فابقَ الليالى الكثير

ونحنُ فنمضى فنأتى العريش

ونبقى بها بانتظار الأمير

نُريغُ الجواسيس طولَ الطريق

ونهربُ من مُنكرٍ أو نكير

وندركنا أمسِ مستعجلا

كثير التوارى قليل الظهور

علي ملك : بل امض بنا سر بنا سر بنا

فما جَلَبَ الخيرَ مثلُ البكور

لآمال لا تجزعى أميرتى لابد لى من السفر

لقد دعت حادثة من الحوادث الكُبر

كيف رواجٌ وسفَرْ

مُزاحةٌ من القَدَر

أغيب شهراً واحداً فـــانتظرى

آمال : سأنتظر

على بك : ما أنتِ إلا مَلَكٌ نَهَى بقصرِى وأمر

في ذمة الله يا ربّة القصر

آمال : وأنتَ مولاىَ شُيِّعتَ بالنصر

على بك لرزق : سأصعد يا رزقُ نحوَ الصعيد لشغلٍ

رزق: ولِمْ لا صعودَ القمرْ

« ثم لنفسه: صُعودًا الدخان إلى ذروة إذا صارَ فيها امحّى واندثرْ

على بك : وما في الخزانة أو في القصور بأمر الأميرة فيه ائتمر

« لآمال: هكذا مصر كل يوم شئون شغلت مصر بالشئون الناسا

وكأن البلاد خيلُ جهاد كلَّ يوم تُبدِّل السُّوّاسَا

رزق الوكيل لنفسه :

لا رحلةٌ ، لا سَفَرٌ هـذا لعمرىَ الهَرَبْ

وما الصعيد يقصدون بل إلى الشام الطلب

أما أنا فقد ملأت اليد من أبى الدهب

إذا الزمان بىَ ملّ بعد حين انقلَبْ

يجعلنى محمد على خزائن الذهب

على بك : سلام على قصر الإمارة والغنى

وإيوان سلطانى ودست جلالى

ووالله ما فارقت مغنَاكَ عن قِلًى

ولا خطرت سلوى الأمور ببالى

وأعلمُ أنى عنك لا بدّ زائلٌ
وأنك منى لا محالة خال
ولكن أُمورٌ قد جَرَتْ وحوادثٌ
بنقلةِ دنيا أو تبدل خال
فخالفني من كان عند إشارتي
يصول بجاهي أو يعيش بمالى
وعقّ الذى ربيت فى حجر نعمتى
ووطّأْتُ أكنافى له وظلالى
تألّف أصحابى وألّب شيعتى
علىّ وأغرى بالخروج رجالى
لقد جئت بابن ليس لى فكأنما
أتيتُ بأفعى من سحيق تلال
تفرّق عنىّ الناسُ إلا بطانتى
ولم يبقَ حولى اليومَ غيرُ عيالى
سأمضى وماعندى لهم إن تركتهم
سوى قوتِ أيام وخُبز ليالِ
وقد زَعَمَ الناسُ الغِنَى فى خزانتى
أتى من حرام تارةً وحلالِ
وأُقسمُ لم تُحرز يمينى درهماً
من المالِ إلا أنفقته شمالى

أسير. أجلْ أمضى نَعَمْ فعسى السُّرى

تَرُوحُ بنَجْمى أو تَجى بهلالى

فما الدهر إلا حالةٌ ثم ضدُّها

والا ليـالٍ بعدَهُنَّ ليـالِ

وتلك التى أحبَبْت أول وهلة

وأشركتُ فى مُلْك وشيكِ زوالِ

أعود إليها فى المواكبِ ظافراً

وفرقَ بالنصر المؤزَّرِ حالى

وأرجعُ حُراً تحتَ النيلُ كله

وما من بنى عثمانَ فوقىَ والِ

[يخرج على بك ومعه بشير بك ورزق الوكيل ويبقى مرجان بالباب]

[تسمع ضجة وصرخة من امرأة أمام القصر تقول]

يا ربَّة القصر لامسَّك الضُّرُّ

هل عندكم غوث هل عنـدكم نصرُ

لحرةٍ فى وادْ ليس به حرُّ

آمال : مرجان ويحى هذه صيحة وامرأةٌ صارخة باكيه

مرجان أنظر

مرجان : هىَ ذى أقبلت مُعوِلةً صاخبةً شاكيه

[تدخل امرأة مقطوعة الأذن وصارخة]

آمال : ماذا دهى يا خاله أنتِ بشرِّ حاله
ذا الدمُ من أساله ؟

المرأة : جنودٌ وراء كبيرٍ لهم من الذين قد جرَّدوا الخُلُقْ
أتوْا دارنا فمضى نصفهم أزال العفاف ونصفٌ سرق
ومال على أذنى بعضهم بسكينه طمعاً فى الحلق

آمال تدفع الى مرجان صرة :
مرجان خذ ناول

مرجان : تعالَىْ خذى

آمال : لا بأس يا خالةُ لا باسُ
انتظرى عوْدَ عليٍّ غداً فنى غد يرتدعُ النـاسُ

« المرأة تأخذ الصرة وتصيح مولولة »

وأذْنى أينَ ألقاهـا مضَتْ آهـاً لها آهـا
ويا مَنْ عندَه أذنى أما يكفيكَ قرطاها

« تسمع ضجة ثم تدخل فتاة مذعورة »

الفتـاة : سيدتى

آمال : وأنت أيضاً

الفتـاة : رحمةٌ سيدتى

آمال : ما تشتكين يا [illegible]

الفتاة : الأمر [illegible] سيدتى

يذبحون إخوتى [illegible] فى ساحة الرميلة

آمال : ويحَ لهم ماذا جَنَوْا ويحَ لهم

الفتاة : لا شىء

آمال : لا لا بُدَّ من داعٍ دعَا

النفسُ لا تُقتَلُ يا أختُ سُدَى

الفتاة : صدقتِ يا أميرتى إلا هنا

لا ينزلُ الرأس بمصرَ جسداً

إلا نزولَ المرء فى بيتِ الكِرا

آمال : تذكّرِى قُولِى لىَ الحق اصدُقى

الفتاة فى حياء : قد سرقَ الإخوة جحشَ الكتُخدا

سرْ امض مرجانُ مع الفتاة

واشفع لدى الحاكِم للجناةِ

« ينصرف مرجان مع الفتاة »

يدخل أغا آخر ويقول :

سيدتى

آمال : وأنتَ ما عندَك قُلْ

الأغا : ابنُ الأمير سيدى مرادُ

آمـال : ابنُ الأمير . ! هيِّ عجِّلِ جئْ به
أكلُّهـم لسيـدى أولاد
أدخل مراداً وائتنى بمصطفى

آمال لنفسها: أخافُ إن قلتُ أبى أن يعرفا

[يظهر مراد بك]

آمال لنفسها: ويحى وويحٌ لعلِّ ما أرى
إنى أرى الغَدْرَ على هذا الفتَى

مراد بك: تحيـةٌ سيـدتى أتذكرينَ مَنْ أنا ؟

آمال : كل الذى أعرفه ابن الأمـير ههنا

مرادبك: أميرتى قد خدعوكِ ما علىٌّ لى أبا
ما أنا إلا صاحبٌ قدَّمه وقـرَّبا

آمال : يا عجباً !

مرادبك: ومـم يـا مالكة القلب العجبْ
وكلُّ ما فى الأمر أن ليسَ علىٌّ لى بأبْ
وليس ما يمنعُنى من أن أُحبَّ وأُحَبْ

آمال : تحِبُّ أو تُحَبُّ قو لٌ لا يليقُ بالأدبْ
نسيتَ للقصرِ ولى ولأبيكَ ما وَجَبْ

مرادبك: قد عرفناك يا أميرتى إننـا أمسِ التقينا فى معرض الجلاب

مرادمستمراً: ذهبت لأشرِى فاشترانى وباعنى

غـزالٌ بسهم المقلَتيْن رمانى

هَمَمْتُ ولـكن صاحبُ الصيْد ردَّنى

وصيَّر سلطان البلادِ مكانى

ولم يدر أنى فوق شأن محمدٍ

وشأن علىٍّ فى الرياسة شانى

إذا ما حوتنى كِفَّةٌ رجح الذى

رمى بىَ فى ميزانه لحوانى

وجاء علىٌّ فاشترى

آمـال : لست صادقاً بنىَ بىأمير للمكارم بان

مرادبك : وطار عن الوادى

وماذا يَعيبُه أَلَمْ تُخْلَق العِقبان للطيران

مراد بك يقترب منها :

آمـال لو تعرفينـا آمـال لو تعطفينـا

مصطفى بالباب وقد سمع كلامهما «لنفسه»:

أرى شبحَ الجريمةِ حامَ حولى

كما ناشَ الغريمَ الأفعوانُ

آمـال لمراد بك :

لا تدعُنى باسمى ولكن نـــادنى باللقبِ

مرادُ هـذا هَوَسٌ قف عند حدِّ الأدب

مراد ما مقصورتى بمجلس لأجنبي

أخرج

مرادبك : على رسلكِ مولاتى

آمال : دعنى . إذهب

مرادبك : بحقّ الحب مولاتى

آمال : ظلمتَ الحبّ يا نادر

فما الحبُّ فُضوليٌّ ولا لصٌّ ولا فاجر

ولكن معدن النبل وكنز الخُلُق الطاهر

(تنحسر العمامة عن جبهة مراد بك فيظهر أثر جرح قديم)
(بجبينه كان قد أصيب به في صغره . . . .)
مصطفى بعد أن يرى أثر الجرح وهو بالباب :

إلهي هذا جُرحه ذا مكانه

أما زال طولُ الدهر للجرحِ لاثما

إلهي هذا الجرح فوقَ جبينه

مَضَتْ سنواتٌ ما محَوْنَ علائما

لقد بارز الصبيان بالسيف ناشئا

فصادفَ سيفاً خدش الرأسَ صارما

إلهي أرى أشياء ثَمَّ مهولةً

وأشفقُ فيها من عقابك صارما

إلهى لا تجعله حقاً ومُرْ أكُن
بما أنا راءٍ من عذابك حالما
كَفَى غضباً يا ربُّ حسب عقوبةً
وحاشاكَ لم تظلم ولم تَكُ ظالما
إلهى كانت هفوتى عن غَوايَةٍ
فتُبتُ فكن لى فيهما اليوم راحما

آمـال لمصطفى :
وا أبتـــا

مصطفى : لبيْكِ آمالُ

آمال : إلىّ يا أبى

مصطفى : أحبِبْ بهذا الصوت أحببْ بالنداءِ أحبب

آمال : أبى

مصطفى : ابنتى أنتِ هنا ؟

آمال : تعالَ قِف بجانبي

مصطفى : لا بأس يا ابنتى عليـ ـك دونَ ناديك دمى

آمال : أبى لقد ديسَ العرينُ فى غيـــابِ الضيْغَمَ

مصطفى : مَـنْ فى مقاصير الأمير ؟ ما أرى من الفَتى ؟

آمال : ذئبٌ بشكل آدم للصيـدِ فى الغـاب أتى

مصطفى [مهمها] :

خنجرى أين خنجرى اليومَ منى

يغسل العــارَ والدنيّــةَ عنى

فعسى أن يُريحنى من صبىّ

عابثٍ ، أو يريحــه هو منى

هو يطغى بسنه سأريه

أننى الليث ساعدى هو سنى

آمال : أبتى ما تقول ؟ ماذا تلمستَ ؟

مصطفى : سلاحى

آمال : لا لا أبى لا تَرُعْنى

آمال [لمراد بك] :

يربك إلا حقنت الدماء

مرادبك : دمائى أنا أم دماءُ اللعين ؟

مصطفى : أتلعنُنى يا أضلّ الشباب

أتلعننى يا أعقّ البنين

مرادبك : ولِمْ لا وما لكَ من حُرْمَةٍ

مصطفى : ستعلم ما حرمتى بعد حين

سأقلع عيناً سمت للبـاة

وأقطَعُ رجلاً مَشَتْ فى العَرين

آمال : كفى هوساً أيهذا الأمير

مرادبك : أبى هَوَسٌ ملْكتى !

آمال : بل جنون

كفى جرأة

مرادبك : وعلامَ اجترأت ؟

آمال : على امرأةٍ تحفظ الغائبينْ

مصطفى : مراد لك الويل من سادرٍ وقاحِ اللسان وقاح الجبين

هتكتَ على الحزن محرابَهُ ودُسْتَ على عبرات الحزين

ولم تحتشم فى خطاب الشيوخ ولم ترج فيهم وقار السنين

مصطفى [لنفسه وهو يبحث عن خنجره] :

ربِّ ضلِّلْ يدى وحطِّمْ سلاحى

ربِّ لا تَقضِ أننى أقتل ابنى

مرادبك : سيسبق سيفى خنجر الشيخ

مصطفى : مرحباً

بسيفك من ماضى الحديد يمانى

فهاتِ مرادُ السيفَ هاتِ منيّتى

أرحْ من عذاب الحادثات جَنانى

مراد بك [وقد شهر سيفه] :

إلهىَ مالى قد غُلبتُ على يدى

وما بالُ سيفى إذ هممتُ عصانى

وما بال نفسي بعد طول جمودها
قد انفجرت من رحمةٍ وحنان
عَفَوْتُ فَهلْ ياشيخُ مِلْ عنِّيَ انطلق
وعش ناعماً في غِبطةٍ وأمان

مصطفى: أميريَ ذا رأسي لحذه بضربةٍ [يخرج مراد بك]
عساني أرى هذا الضمير عساني

مصطفى [لنفسه، ويتبع مراد بك]:
أأُنْبيه؟ لِمْ لا؟ لا. بل استأنِ مصطفى
أأذكرُ لابني كيف خِسَّةُ شاني

آمال لنفسها: ويحَ لى ويحَ قد قسوتُ عليه
وتجاوزتُ في العقوبة حَدِّي
ما الذي استوجبَ الأمير وما أذنب حتى رددتُه شرَّ ردٍّ
ويحَ قلبي يحبُّه كذبَ القلبُ
وبعداً لحبِّه ألفَ بُعْد
هو مستهترٌ عـلى حجراتي
وتناسى أمانةَ الزوج عندي
لا. بل القلبُ شُغْلُه بمراد هو شغلي من الحياة وقصدي
ربِّ مالي أحِسُّ نحوَ مراد
شفقاً زائداً ولوعةَ وجد
وحناناً كأنه رقَّةُ العشق جرى في دمي ولحمي وجلدي

صدق الأولون ألآن أدرى
كيف تجزى القلوبُ وداً بودّ
كيف قلبي تحبُّه كيف تهواهُ
بودّى لو تستفيق بودّى
عبثًا آمُر الفؤادَ وأنهى
وسدىً أستردُّ عقلى ورُشدى
كلّ نُصح يُقالُ للقلب فى التَّرك
وفى سلوة الهوَى غيرُ مُجد .

لم لا أشتهى مراداً وأهواه
ومالى أغالبُ الشوق جُهدى
ومرادٌ ألذُّ فى العين لمحاً
من سنا الصبح بعد ليلة سُهد
مَلكٌ جاء حجرتى يشرحُ الحبَّ
أفى الحقِّ أن يُجازَى بطَرد
لمَ لَمْ أتخذه فى حادث الدهر
نصيراً يرد عنى التعدى
لمَ لَمْ أتخذه بعد علىٍّ
ركن دنياى أو دِعامة مجدى

لا وربّ الجلال والحقّ «آمال»

ارجعي للصواب «آمال» جِدّي

أنت من أمةٍ تصون حمى الزوج

وتقضي حقوقه وتؤدي

ربِّ لا تجعل العَلاقةَ إلا

من سلامٍ إذا التقينا وردّ

رَبِّ إن البلاءَ مني قريبٌ

وأرى حُفرةً وأخشى التّردِّي

رب لا تَقضِ أن أخون عليًّا

وأعِنِّي على الوفاء بعهدي

أنا حَيْرى وأنت تهدي الحيارى

كيف أهوَى على هوى الزوج عندي

ثم مستمرة: لا لا رويدك يا آمال لا تثبي

على الأمير ولا تجزيه طغيانا

واحمي حمى الليثِ في أيام غيبته

إن اللبـاة تحوط الغاب أحيـانا

هبيه لم يخلع الدنيـا عليك ولم

يُلبسكِ تاجاً ولم يُنزلك إيوانا

هبيه لم ينفجر قبل الزواج ولا
بعـد الزواج ولم ينهلّ إحسانا
هبيـه سافر فى شأن له جَلَلٍ
يبنى لدولتـه فى الأرض أركانا
أما هو الزوجُ يُرعى حقُّ غَيبته
وتَجعل الحرّة الفُضلى له شانا
لقد أقامَك فى محرابه مَلَـكا
لا تجعلى الملَكَ المهـدىّ شيطانا

ســــتــــار

الفصل الثانى

فى قلعة ضاهر العُمر صاحب عكا

« فناء قليل الضوء مبنى من الحجر انتشرت المصاطب فى جوانبه »
« يطل من بعض جهاته على الميناء حيث يرسو الأسطول الروسي »
« في ناحية من فناء الدار بعض الجند يتحدثون ... ... »

أحد الجند: سمعْتم الرعد ؟

آخر : سمعنا القعْقعه

بربكم هل فى السماء مسبعه ؟
أم فى السماء وقعة ومعمعه

الأول : كجبل من الرخام انشقَّا
أو كالنحاس بالنحاس دُقَّا

الثاني : والبرقُ لمحةُ القبَسْ أو زفرةٌ حرَّى النَّفَس
أو كالدم القانى انبجس
شقَّ الظلامَ وخَفَقْ على مُلاءةِ الأُفُق

كأنه خيْطُ الشَّفقْ

حبيش : ضرغام

ضرغام : ماذا يا حبيش ؟

حبيش : أَلعَمَى لك العَمَى

البرد زاد

ضرغام : صه أما في طوبة نحن أما

حبيش : ضرغام إنى قد حسدت القوم في جهنما

ضرغام : اصعد إليهم إن أردت

حبيش : كيف ؟

ضرغام : هاك سلما

وانشد حماتى بينهم وطف بها مسلما

حبيش للاط: ملَّاط

ملاط : لَبَّيْكَ حُبَيْشُ

حبيش : قم أخى لك العطَبْ

ملاط : وما الذى أصنع يا حبيش

حبيش : جئنا بحطب

ملاط : من أين؟

حبيش : قم خذ كلما لاقت يداك من خشب

ملاط : كيف أجُرّ الساق والبرد بأطرافى ذهب

كأنني مَيْتُ اليهود نُزِعتْ منه الرُّكب

حبيش : يالك برداً قارساً وزمهريراً لاذعا
لا الصوف فيه واقياً ولا الحرير نافعا

ضرغام : مــــاالصوف ماالحرير لا لا أعطنا برادعا

حبيش : أنظر قفا صاحِبنا كأنه بغل ذُبح
وانظر أهاتيك أنو فٌ في الوجوه أم بلح ؟
كأن كل رجُل في أدنيه قد جُرح

« تسمع فرقعة »

آخر : صوت ؟ !

ضرغام : أجل !

الأول : ما الصوت ؟

ضرغام . تلك فرقعه

الأول : وأين ؟

ضرغام : عند التركِ هل من موقعه ؟

[تسمع فرقعة ثانية]

حبيش : وذاك ؟

الأول : مدفعٌ وتلك بُندقه

اسمع !

ضرغام : وما ذلك !

الأول تلك طقطقه

أقدامُ خيل في الفضاءِ مُطلقه

ملاط : ربِّي متى ينقضي البلاءْ وتنقضي الحربُ والشتاءْ

حبيش : ربِّي متى نَنْعم بالسِّلم متى
كم.ذا إلى كم نحنُ حربٌ وشتا

آخر : كم أنا كالفار شق من خندق لخندق
أصحو على المدفع أو على صفير البندق

حبيش : قل لنا يا خرابُ ما هذه الحالُ متى تنتهي وأينَ المصيرُ؟
قدسئمنا القتال واشتاقت الزوج إلى زوجها وحنّ الصغير
وتركنا وراءنا الدور عزّ القمح فيها وقلّ فيها الشعير
وبنو ضاهرٍ شرابهمو العُناب والشهّد قوتهمْ والفطير

آخر : كل حين يجيء من مصر جيش
ينزل القدسَ أو يحلُّ الشآما
وأميرٌ يقاتلُ التركَ في مصر
أتى شاهراً علينا الحُساما

نحنُ ما بينَ مصرَ والتركِ ضعنا
وَسَئِمنا الحياةَ والأياما
غنم نحن بين راع وذئبِ
أى هذين جاع كنا طعاما

آخر : وغداً . .
حبيش : ما غدٌ ؟
الأول : بلاءٌ عظيم
حبيش وآخرون : كيف ! ما ذاك ؟
الأول : إسألوا ضرغاما
ضرغام : العَمى للرجال ما تُبصرونَ الفُلك فى البحر تُشبه الأعلاما
آخر : فلك من ؟
فُلكُ قيصر الروس فى البحر تَصُبُّ الردى وترمى الحماما
قِطع من جهنم راسياتٌ قعد الشرّ حولهنّ وقاما
وغداً ينزل الجنود فيحتلون هذى القلاع والآجاما
ملاحظ : إذن فأهلا بغدِ إن غداً قد اقترب
آخر : كيف ! وماذا فى غد ؟
ملاحظ : فيه كرائم السلَب
غداً نفوز بالسلاح والملابس القُشُب

آخر : وما على الصدور من قلائدٍ ومن صُلُبْ

وعـادة الـروس يـنوءون بصلبـان الـذهب

[يدخل ضاهر العمر ومعه حسين المصري]

ضاهر : وكيف حال الدار ؟

حسين : غابة الأسَل

أو هى وكر النسر فى رأس الجبل

ضاهر : وسَهَرُ الدار على الضيف الأجل

حسين : تحفظه حفظ الجفون للمُقَل

ضاهر : والشام ، كيف تجد الشام ؟

حسين : نُزُلْ

يليق فى جنة عدن للرُّسُل

أنهارها من لبنٍ ومن عسل لا شيء إلا فى ذرا الشام كمل

إن تخلُ من شيء فمن لحم الحَمَلْ

ضاهر [ويصفق] :

غضبانُ صعبُ يا عبوسُ يا نَكد

صعب وغضبان : لبّيك مولاى اقترح أشرْ تجدْ

ضاهر : امضوا اجمعوا الحُملان من سوق البلد

وقدموها للضُّيوف منذُ غدْ

[ينسحب حسين والخادمان]

يدخل خادم ويقول :

مولايَ

ضاهر : ما ذا . . زائر آخَرٌ ؟

الخادم : لا سيدى ، بل هذه زائره

ضاهر : امرأةٌ أنثى ؟

الخادم : أجل سيدى

ضاهر : وما اسمها ؟

الخادم : لم ترض أن تذكره

ضاهر : هلْ صَرَّحَتْ منْ أيْنَ جاءتْ ؟

الخادم : أجَلْ منْ مصرَ مولايَ منَ القاهرهْ

ضاهر : وما سنها ؟

الخادم : غادةٌ فى الصبا تُشَبِّهُها الزنبق الطيِّبا
وقد لبِسَتْ حلَّةً للسِّفار
وشالا كوشى الضحى مُذْهَبا
تريدُ تقابلُ ضيفَ الأمير

ضاهر : تريد عليّاً إذن مرحبا

ثم لنفسه : إلهيَ أنثى لدارى سَعَتْ تريدُ عليّاً فما تطلبُ
ترى امرأةٌ هىَ أم حيَّةٌ تُريدُ صديقَ أم عقربُ

[يخرج ثم يعود بشمس]

شمس : سلامٌ لكَ مولاى

ضاهر : سلامٌ جارَةَ الدّار

فما أنْت وما تَبغينَ مِنْ ضَيْقٍ ومِنْ جارى

شمس : رسولٌ أنا يامولاىَ قد جئتُ بأخبار

جرى فى مصرٍ الدهر بأحوال وأقدار

ضاهر : وما ذلك؟

شمس : لا أعطى سوى مولاى أسرارى

ضاهر : هيَّ تقدم فتِّش السيده

شمس: لا سيدى يَحسن أن تبعده

مُرْ لا يمدَّ الوحش نحوى يده

الخادم ويتقدم نحوها :

ماضرّ لو زحزحت الـ غـادة فضلَ البرقع

شمس : مالك يا وغـد ولـلـ ـبرقع دع عنك دع

الخادم : عمّى لك ياعمرُ ما ذى غدا ةٌ لـكنها أفعوان قَبَعْ

وتلك الجفون سلاح مضى وسهم أصاب وسيف قطع

وفى الصدر غدارةٌ ههنا وأخرى إلى جانبها تَقَعْ

وهذا القَوام كرمح الأمير إذا اهتز فى كفه أو لمع

أميري أأنزع منها السلاح

[يدخل علي بك]

علي بك بعد أن يسمع : سلاح الملاحة لا ينتزع

« ينسل ضاهر »

علي بك لشمس :

أهلا بشمسٍ بالرسولِ ومرحباً
بنسيمِ مصرَ ونفحة الأحبابِ

كيف الأحبّةُ «شمسُ» هاتِ خبّري
قد طال بُعدي عنهمو وغيابي

كيف الديارُ وكيف قصري هل تُرى
تركَ القواصدُ والصنائعُ بابي

أتراهمو قدّردهم خدمي وقد منعوا اطماعي عنهمو وشرابي

وموائدي ياشمسُ كيف موائدي
والطاعمون بها وكيف رحابي ؟

شمس : مولايَ طِبْ نفساً فبرّك لم يزل
يَجري وخيرُك في يدِ الطلّابِ

علي بك : والناسُ شمسُ ؟

شمس : مع الأمير قلوبهم لكنْ سيوفهمُ مع الكذابِ

العزُّ والأمراء حول ركابه

على بك : وكذاك كانوا أمسِ حول ركابى
والأزهر المعمور ؟

شمس : صادَ محمدٌ فيه الشيوخَ وعاد بالطلاّب

على بك : والشعبُ ؟

شمس : سالٍ يا أميرُ كعهده قد مالَ عن بابٍ وقام ببابِ
والتركُ قد نصبوه بعدك هِرَّةً يتصيَّدون بظفرها والناب

على بك : والقصرُ كيف القصرُ كيف صديقتى
وشريكتى فى شدتى ومُصابى ؟
أرأيتِ آمالا وكيف وجدتِها ؟

شمس : لم نفترق مولاى

على بك : منذ ذهابى ؟

شمس : عزمت علينا أن نقيمَ بقصرها
وتعطَّفت وحَنَتْ على الأتراب

على بك : فوجدتها ياشمس

شمس : خيرَ عقيلةٍ وأجلَّ ربة منزل وحجاب
مَلَأتْ مكانكَ عزَّةً ومهابةً
وكَسَتْ حِمَاكَ جلالة المحراب

سَهرت على ذكرى الأمير وعهده

سَهَرَ اللبـاة على حريمِ الغـاب

لو كنتَ أمسِ ترى رأيتَ أبيـةً

غَضْبَى محاميةً عن الأحساب

علي بك : غَضْبَى ؟ ومِمَّ وماجَرَى ماراعها ؟

شمس : من سـافل مُتهـافت دبّاب

علي بك : ما ذاك شمس من الوقاحُ من الذي

نـقل الخطى بمنازل الغيّاب

شمس لنفسها :

ربّاه ماذا قلتُ لمْ خبّرتُه

علي بك : قولي أجيبي ؟

شمس لنفسها : ربِّ كيفَ جوابي

شمس لعلي بك :

ذنبٌ فلا تجعله شغلك سيدي

إن القـذارة شيمةُ الأذناب

علي بك : من ذاك شمسُ ؟

شمس : مراد

علي بك : ويح له ولي ويحي من الأتباع والأصحاب

أمرادُ يَصنعُ ذاكَ ماذا غرّه بخزانتي ما غرّه بثيابي

والزوجُ شمسُ ؟

شمس : استعصمت فى دينها

ورَمَت بزائرِها وراءَ البابِ

على بك لنفسه :

يانفسُ قد خان مَنْ قلّدته ثقتى

وكان حولى لواءَ الصحبِ والآلِ

هذا أبو الدهب استولى على شيَعى

وحازَ دونَ جاهى واحتوى مالى

واليوم هذا مرادٌ نال من شرفى

ما لا يمر لأعـــدائى على بال

على بك لشمس :

تعالَىْ نَجُلْ يا شمسُ فى دار ضاهرٍ

تعالَىْ نرى الجيشَ الحليفَ تعالى

فنحنُ اقتسمنا الحصنَ ثَمَّ عيالُهُ

على كثرة اللاجى وثَمَّ عيالى

« يدخل حسين من باب ويدخل سعيد من باب آخر »

سعيد : حسين هنا ؟

حسين : من أرى مَنْ سعيد ؟

سعيد : سلامٌ حسينُ

حسين : سلامٌ سعيدْ

سعيد : أأنت هنا لم تزلْ يا أخي تراقبُ في الشام حالَ الطريد؟

حسين : وكيف اقتحمت فِناءَ العرين

وجاوزت هذا الحصارَ الشديد؟

سعيد : بمالٍ بذلت هنا وهناك وبالمالِ يُعطى الفتى مايريد

حسين : متى جئْتَ منْ مصْرَ؟

سعيد : هذا الصباح

حسين : ومن كان معك؟

سعيد : بغالُ البريد

حسين : وماذا بمصْرَ مِن الحادثات؟

وهل جدّ في أرْضِ مصرٍ جديد؟

سعيد : حوادثُ مِصْرَ على حالِها

وأمس القريب كأمسِ البعيد

حسين : وكيف محمد؟

سعيد : خلّفته كما يشتهي وعلى مانريد

قبولٌ يحرّقُ قلبَ الحسود ودنيا تفيض وشأنٌ يزيد

لقد نزلَ الريفُ في راحتيه وحج إلى قدميْه الصعيد

ترَى الأمراءَ على بابهِ يقومون فيه قيامَ العبيد

وللفقهاءِ على دارِه صباحَ مَساءَ زحامٌ شديد

حسين : إذن قُضىَ الأمرُ مصرٌ لنا

سعيد : أجل ملكُنا اليومَ فيها وطيد

حسين : وكُتبي سعيد ؟ تجىء الأمير ؟

سعيد : أجل وهى موضعُ إعجابه

يشيرُ بها فى أحاديثه ويَنشُرُها بينَ أصحابه

ونحنُ كلانا على بالِه غداً نتلاقى على بابه

ونَطعم أطيبَ إحسانه ونلبَس أسبغَ أثوابه

حسين : وما أتيتَ يا أخى تصنعُ فى هذا البلدْ

سعيد : ذلك سرّى يا حُسينْ لا يقالُ لأحدْ

حسين : حَذارِ أن تقول أو تفعلَ شيئاً يُنتقَدْ

نحن بدارِ ضاهرٍ دارِ العديد والعُددْ

الجمع يقظانٌ بها وإن ظننته رَقَدْ

وكلُّ جاسوس هنا عليه عينٌ ورصَدْ

وقد تظُنُّ ضاهراً مبتعداً وما بَعُدْ

وضاهرٌ ليلَ نهار فى السلاح والزَرَدْ

قد جعلَ الشام هى الغاب وطاف كالأسد

« ثم بعد فترة سكون »

سعيد : حسين !

حسين : ماذا يا سعيد قل سلِ

سعيد : أينَ تُرَى أصادفُ الآن على ؟

« يقبل على بك »

حسين : سعيدُ أقبل السيد هذا الأميرُ مقبلا

يمشي الهوينا ويخالُ الأسدَ المستهلا

سعيد : حسينُ ما له أخي ما باله ترهّلا

لأمشينّ نحوه

حسين : لا يا أخي بل ابْقَ

سعيد : لا

حسين : إياك أن تقولَ ما يغضبه أو تفعلا

فهو مهيبٌ هنا كالليث في جوز الفلا

سعيد : لا تخشَ لا أكون إلا محسناً ومُجملا

ألم يكن أمس أمير البلد المبجّلا

على بك لسعيد :

من المرء من أينَ من أرض مصر ؟

فهذا اللباسُ لباسُ الوطن

سعيد : أجل مليكي من رعاياكمو

على بك : ومن مصرَ هذا اللسانُ الحسن

وما اسمُك ؟

سعيد لنفسه : ما همّه إسمي !

سعيد لعلى بك : سعيد

على بك : سعيد تذكرتَ مَنْ أنتَ مَنْ ؟

سعيد لنفسه :

تذكّرنى عجبٌ كيفَ ذاكَا
ولم نجتمع مرة فى الزمَنْ
تُراهُ بىَ ارتابَ ظنَّ الظنونَ
تراه لِما كلَّفونى فَطِنْ

على بك : وكيف تركت بمصر الأمور؟
سعيد : عواصفُ حولَ مراسى السُّفُنْ
وجوُّ الأمور من الحادثات كثيرُ الغُيوم كثيرُ الدُّجَنْ

على بك : وكيف تركت الأمير الجديد؟
سعيد : سقيمُ الولاية نكدُ الزَّمَنْ

على بك : ولِمْ يا فتَى هل تولَّى الولىُّ
وخانَ منَ الشيعة المؤتَمَنْ

سعيد : أجل يا أميرُ ودبَّ الخلافُ
وثارَتْ هنا وهناك الفِتَنْ

على بك : حديثكَ يا صاحبى لا يُساغُ
ولا تطمئن إليه الأذن
عساك تبالغُ فيما تقول لعلَّكَ تخلُقُ ما لم يكُنْ
إذن لم يَخُنْ عهدىَ الأمراء ولم يقلب الترك ظهر المجنْ

ولم ينس أصحابَ الفقهاءِ أياديَّ عنـدهمو والمـنَنْ

ولا الشعب ملَّ الأمير القـديم

ولا بالأمـير الجـديد افتتَنْ

بلغت المدى أيهذا الفتى رُوَيْدَ تأنَّ رُوَيْدَ تأن

فما نحن فى فلوات الحجاز ولا نحن فى ربوات اليمن

ولكن على الشام فوق الطريق

تمرُّ الركابُ بنا والسُّفن

وأخبارُ مصرَ وأحوالُها هنا سمرٌ للقُرى والمدُنْ

سعيد : وكتب الثقات إلى سيدى

على بك : وما هى من أرسل الكتب مَنْ ؟

سعيد : كتابان من عمر الچركسى ومن حسنِ

على بك : مَنْ ؟ صديق حَسَنْ ؟

كتابان من مصر من صاحبيَّ ؟

سعيد : أجل سيدى

على بك : سوف أُغلى الثمن

وأين الكتابان ؟

سعيد : خذ سيدى

خذ النعش خذ من يدىَّ الكفنْ

« وينقض عليه بخنجره ليقبض على بك على ساعده »

حسين لنفسه: أسفاه على سعيدٍ فما أدرى إلى أين ينتهى أين يُمسى

نحن سيانِ فى البلاء وأيدٍ طلبَتْ رأسه ستطلب رأسى
هو فى قبضة الأميريْن لِمْ لا أتوارى أنسلُّ أنجو بنفسى

« ثم ينسل هاربا »

على بك : كيف تَرَى يا معتدى لقد وقعتَ فى يدى

يدخل ضاهر ويقول :

اتركه لى يا سيدى

اتركه لى فإنه فى دارى سطا بضيفى وسطا بجارى

على بك : مَن ؟ ضاهرٌ ؟ بالنفسِ أفدى ضاهرا

أكنتَ معنا يا أمير حاضرا

ضاهر : كنت عليك يا صديقى ساهرا

والآن أذهب يا أمير بصاحبى

على بك : أتريدُ تذهبُ بالأثيم العادى

ضاهر : لِمْ لا وفى دَارى وبين عشيرَتى

شهَرَ السلاحَ على أمير الوادى

دعنى أُحلّ به العقابَ وخلّنى

أمنع حمَى شرفى وحوضَ ودادى

سعيد فى ضراعة :

مولاى !

على بك : مابكَ قُلْ ؟

سعيد : بمصرَ وحقِّها

لا تُلق رأسي في يد الجلادِ

مولايَ سيفُكَ بي أبرُّ فسُلَّهُ

إن شئت فاقتلني بسيف بلادي

ضاهر : حَسَنٌ قم انهض يا بنيَّ قم انطلق

فلقد طلبت الخير عند جواد

أنا قد وهبتُكَ للأمير وقد عفا

إن الأميرَ بكلِّ فضلٍ بادي

علي بك : ألانَ سعيد

سعيد : أميرىَ قُلْ؟

علي بك : تكلَّم أ بنْ نبِّى مَنْ أمرْ

ومن بَذَلَ المالَ بي مُغرياً وكيفَ أتاكَ جوازُ السَفَرْ

تكلم أبنْ

سعيد : سيدى أعفنى فلا خير فى أن يَذيعَ الخَبَرْ

علي بك : قل السرَّ لا تُخفِهِ لا تَخَفْ فسرُّكَ عند صديق العُمُرْ

أليسَ محمدٌ الجترى ؟ قل الصدق تأمن به كل شرْ

سعيد : مرادٌ أشار بقتلِ الأميرِ وغيرُ مرادٍ به لم يُشرْ

على بك : مرادٌ ؟

سعيد : أجل إنه المعتدى وما أنا إلا سلاحٌ شُهِرْ

على بك « ملتفتا بضاهر العمر » :

سمعتَ أخي ما يقول الغلام عدوٌّ من الأهل ثانٍ ظَهَرْ

إذا ما بغى الأهل والأقربونَ

فكيفَ مِن العالمَين الحذر

« يخرج الضاهر فيتغيب لحظة ثم يعود فيقول »

ضاهر : أميرىَ

علي بك : مَنْ صاحبي ضاهرُ ؟

ضاهر : هنالك مولاىَ ضيْفٌ حَضَرْ

على بك : ومَنْ ؟

ضاهر : قائد الروس فى عكَّةٍ أيدخل مولاىَ أم ينتظر ؟

على بك : أميرٌ على البحر ماذا يقود ؟

ضاهر : بوارجَ للروسِ مثلَ الجُزُرْ

على بك : وماذا ترى أنت مرنى أشِرْ

ضاهر : تلاقيه فهو جليل الخَطَر

على بك : ألاقيه ؟

ضاهر : لِمَ لا وما فى اللقاءِ إذا ما سمحتَ به من ضرر

« يصفق الشيخ ضاهر فيدخل القائد الروسي محاطاً برجال »

« الشيخ ... ويخرج ضاهر وسعيد ورجال الشيخ »

القائد : التحياتُ للأمير

على بك : تحياتٌ وأهلا بسيدى الربّان

أدنُ خذْ مجلساً بجنبي تفضّل

القائد : عِشت مولاى مُولِىَ الإحسان

نحن جاران ياأمير ولكن نحنُ فى منزلين يختلفان

أنتَ كالليث رابضا فى الصحارى

وأنا الحوت فى العباب مكانى

على بك : غيرَ أنى مُقيّد بخطوب حَبستْ همتى وردّت عنانى

القائد : لاتضق ياأمير ذلك أسطولى خلال البحار نور الموانى

سُفُن القيصر العظيم قصورٌ لك إن شئتَ زُيِّنت ومغان

على بك : أشكر القائد النبيل وإن لم يخف مافى خطابه من معان

مستمراً : أنا فى دار ضاهر وهى دارى مع أعوانه وهم أعوانى

أنا فى دار مسلم عربيٍّ مانع الدار مُكرم الضيفان

أنا فى الدار أولٌ منذ هاجرت إليها وصاحبُ الدار ثان

القائد : سيّدى ألى ضاهراً ونقلّه نجدة القيصر العظيم الشّان

لا ترومنّ بالعصا ملك مصر وانتض الملكَ بالحسام اليماني

كيفَ تبغى سريرَ مصرَ بشيخٍ

بدوى بصارم وحصان

على بك : بكريم من الرجال أبىٍّ عبقرىّ الوفاء والإحسان
فزن القولَ يا نبيلُ وأمسكْ لا تنلْ ذكر صاحبى بهوان

القائد : ما أهنتُ الصديق مولاىَ لكن
قلتُ أحسنْ تخيُّر الأعوان

على بك : ليست النجدةُ البوارجَ كالأعلام
تطوى اللُّجاج كالطوفان
لَيْسَتْ النجدةُ الحديدَ ولا النار
بأيدى المُشاة والفرسان
لَيْسَتْ النجدةُ اصطفافَ العوالى
والتفافَ العُروش والتيجان

ما النجدة الحق إلا صاحبٌ دمه
عند البلاءِ دمى أو ماله مالى
أخٌ قديمٌ كعرق التِّبر خُلَّتُهُ
لم أُسْقَ من وُدِّه إلا بسَلسال
وعِرضُه عندىَ الغالى وإن بعُدَت
به الديارُ وعِرضى عنده الغالى

القائد : كصاحب الدار؟

على بك : لم لا ضاهرٌ رجلٌ
من المروءة لا عُطْلٌ ولا خال

« يقبل شمس »

القائد : والملك مولاى ملك الضفتين

على بك : أجل
الملك يا قائد الأسطول آمالى

القائد : إذن فتلك سفينُ القيصر اضطجعت
على مراسخَ من عكا وأميال
فاركب أميرىَ فيها وائت مصر غداً
فى الدارعين وفى الفولاذ والمال
لعلنا ندخل الوادى معاً وعسى
على لوائك يغزو التركَ أبطالى

على بك : نمضى فنفتح مصراً ثم ندخلها
أمنيّة الدهر تأتى لى وتسعى لى
غداً أحلُّ بأعدائى العقاب على
ما استمر أو أمس من قهرى وإذلالى

« يدخل ضاهر »

على بك لنفسه : رباه ماذا يقول المسلمون غداً
إن خنت قومى وأعمامى وأخوالى

يُقالُ فى مشرق الدنيا و مغربها
فعلتُ فعْلَه نذل وابن أنذال

على بك[للقائد] : أجل سَمَوْتُ لملك النيل أطلبه
بهمتى وبإقدامى وأفعالى
لا أستعين على الأهل الغريب ولا
أرمى الذئابَ على غابى وأشبالى

القائد : مولاى تلك معانٍ تحتها كرمٌ
ليسَتْ لمن طلب الدنيا بأشغالِ

على بك : بُعداً وسُحقاً لعلياءِ الأمورِ إذا
لم أنتَهْها بُخلق فاضل عال
الموتُ فى ثمر ترقَى لتجنيَهُ
فى سُلَّم من ثعابينٍ وأصلال

القائد : إذن أميرىَ فالأسطول منتظرى
والبحر يسأل عن شأنِ الأميرالِ

على بك بصوت منخفض :

إذهب فما أنتَ دارٍ ماغدٌ فعسى
يُغيِّرُ الله من حال إلى حال

« ينصرف القائد ويشيعه ضاهر وأتباعه »

على بك لنفسه :

رباه ما بالى أبعدَ محمد وعقوقه أشقَى بكيدِ مرادِ

أنا صخرةُ الوادي يُراوحُ عاصفٌ
ركني ويبكُرُ عاصفٌ فيغادي
حَمَلَتْ كواهلَ الخطوبَ كما حَوَتْ
هوجَ الرياح مناكبُ الأطوادِ
ولقد تركتُ ورائيَ الوادي وما
بالضفّتَيْنِ فتًى يحوطُ الوادي
لم يبقَ في مصرٍ ومصرُ عزيزةٌ
من قائلٍ هذي البلادُ بلادي
الذئبُ يرتَعُ في الديار ويرتمي
والشعبُ يسرحُ كالقطيع الهادي
نقلَ الزمانُ زمامَه ورمى به
من فاتحٍ باغٍ لآخرَ عادي
ويحي فما وقف الرجالُ كموقفي
من ظلم أحبابٍ وكيد أعادي
فهناكَ في فسطاط مصرَ محمدٌ
يَجشيعُ العداوة لا يَمَلُّ طِرادي
حتى حوى بيدٍ مواكبَ دولتي
وحوى بأخرى طارفي وتِلادي
مالي محمدٌ الأثيمُ يكيدُ لي
ومرادٌ الباغي يدوس وسادي

عجبُ العجائب مصرُ صارت ضيعةً
لمحمدٍ ورفاقهِ الأوغادِ
ذئبٌ أتى الأتراكُ فى الوادى به
خلعوا عليه إمارةَ الآسادِ
وبقيتُ فى أرضِ الشآم مُشرَّداً
حيرانَ ليس لحيرتى من هاد
قد نمتُ عن حقى وتاركُ حقِّه
لاقى الخسارِ على الندامةِ غادِ
مالى قعدتُ وتركيا مقهورةٌ
والروس حولى يخطبون ودادى
أسطولهم بيدى وقائدهم معى
سأصيبُ جُندى عنده وعتادى
لا يا علىُّ روَيْدَ فى الغضب اتئد
ما تلك خُطَّةُ حكمةٍ ورشاد
ماذا جنَتْ مصْرٌ علىَّ وأهلُها
إن الجناةَ علىَّ هُمْ أولادى
ماضرَّ مصرَ وضــرَّنى إن لم تكُن
مهدى وكان بغيرها ميلادى

بلدٌ رعاني في الصبا وأحلَّني بعد الشباب مراتب القواد
ودخلتُه عبداً كيوسفَ مُشترىً
فاعتضتُ تيجاناً عن الأصفاد
لا يا عليُّ اسمع نُهاكَ ولا تُصغِ
لوساوسِ الشهواتِ والأحقاد
لا ترمِ بالروس الشداد جماعة
ضعفاء مهزولينَ غير شدادِ
لاتنس موضع مصر واذكر مالها
من أنعمٍ سلفَتْ وبيضِ أياد
لا تنسَ ماذا ألِفتْ من سامرٍ
لك في الشبابِ وهيأت من ناد

شمس : أميرىَ

علي بك : شمسُ سمعتِ النجيَّ ؟

شمس : أجل سيدي وعلمتُ الخبَرْ

علي بك : فماذا تريْنَ ؟

شمس : أرى الخطبَ جلَّ وأنتَ عليه جليلُ الصَّبرْ
ومازدتُ علماً بعلم الأمير ولا بخُلقه الأريحيّ العطِرْ
دع الروسَ لاتنتصرْ بالغريب وبالله بالأقربينَ انتصِرْ

علي بك : وأينَ همو شمس ؟

شمس : هم فى يديْك وتحتَ لوائك مُر قل أشِر
أصِخ لسجاياكَ فالخير فيكَ

علي بك : وليسَ يُقابَلُ إلا بشَرّ
أبو الدهب الغِرُّ بالتركِ لاذَ
وفى مصر فى غدِها ما افتكَرْ
وكم قد غزاها على رايتى وكم من سلاحٍ عليهم شَهَرْ
وكنا خطَطْنَا انتشال البلاد
وإنقاذها من عتوّ التتَرَ
وأن نستقل بسلطانها ونُنهضها فى النواحى الأخَرْ

شمس : تركت ورائى ما تبتغى من العون والمدد المنتظَر

على بك : جموعٌ ؟

شمس : هناك على الصالحية جمعٌ كسربِ الجراد انتشَرْ
وينتظرون ركاب الأمير كمثلِ انتظارِ النبات المَطَر

« يعود ضاهر »

ضاهر : ضاهرٌ عند ظن مولاى فيه

على بك : مَنْ ؟ صديقى أخى حليفىَ ضاهر ؟

ضاهر : قد سمعت الذي جري ولمست الفضل والنبل والسجايا الطواهر
عِزوتى سيدى ونفسى ومالى
فى الذى شئتَ ما الذى أنتَ آمر

نحنُ إلفان يا أميرى على الأرضِ
وإلفان فى مُتون الضوامرْ
ومعى مدفعانِ من سلَب الترك
وتلٌّ من السيوف البواتر
والمواشى كثيرةٌ فى ضِياعى
والطريقُ الطويلُ بالخير عامر
كلُّ شىءٍ كما تُحبُّ مُهيَّا فمتى الظّعنُ سيدى مُرْ نسافر

على باك : غداً الظعنُ يا أخى قُم تأهَّبْ
إنما الغُنمُ للخفيف المبادر
ضاهرُ اسمع هناك فى مصرَ

ضاهر : ماذا ؟

على باك : أُهبةٌ يا أخى وجيشٌ مناصر
من صحابى المُشردينَ وأتباعى ومن كل حافظ العهد ذاكر
إن جمعنا إليه جيشك سرْنا وأخذنا محمداً أخذَ قادر
وانتزعنا البلادَ من قبضة
الترك ومن كل فاسق الحكم سادر
آن أن نُنقذ البلادَ فماذا أنت راءٍ

ضاهر : هلمَّ والجيشُ حاضر

علي بك: حاضرٌ ؟ فلنَسِرْ إذن

ضاهر: بعيون الله فى حفظه بأيمن طائرْ

ثم يصيح: عَرَبَ الشام تلكَ مصرُ دعتكم

جماعة من عرب الشام: ألفَ لبّيْكِ مصرُ لبّيْكَ ضاهر

ستــار

الفصل الثالث

« الوقت بعد الغروب — في سرادق محمد بك ابو الدهب »
« بالصالحية حيث دارت رحى الحرب بينه وبين علي بك . »
« في الوجه محمد بك راقد على سرير وعثمان الجاسوس التركي »
« يكبس قدميه . في أحد جوانب السرادق جماعة من البكوات »
« يتحدثون ويلعبون الشطرنج . وفي الجانب الآخر خادمان مصريان »
« مشغولان بتنظيف ملابس محمد بك ابو الدهب ... »

أحد الخادمين للآخر :

ولدي زعزوع أنصتْ أصغ للحقِّ المبين
نحن في أيام جهلٍ وبلاءٍ وجنون
نحن فوضى من مراح الشاة للخدْر المصون
في زبون من حروب الأهل في إثر زبون
ورؤوسٌ في الصواني نُزِعَتْ منها العيون
وعزيزٌ هان ما كان ببالٍ أن يهون
أصبحَ الناسُ على الوادي بلا دنيا ودين
حركات كالسكونْ وحياةٌ كالمنُون

وقَفَ الحاكمُ من كل رخيصٍ وثمين
مثلَ ما قد وقف الدائن من مال المَدين
وشريك الشعبِ فى كدّ يديه والجبين
وشريكا فى الأوانى وشريكا فى الصحون

الآخر : يا شيخُ هذا بلدٌ أحمالهُ بلا عدد
من سلَفٍ وكُلف ومن نكوسٍ وفِرد
وكلّ يومٍ مطرٌ من الضرائب الجُدُد
وتلِدُ الفردة ما لا يعلمون من ولد
على الحمار فِرْدَة وفِرْدَة على الوتد
وفردة على اللجام وهو حبل من مسد
وفردة على برادع الحصير واللبد

مستمراً : يا شيخ لى نعجةٌ غرامى وكل همى كانا إليها

الأول : ما صنعت، ما الذى دهاها

الثانى : قد ضربوا فردة عليها
فضقتُ ذرعاً بذاك حتى ذبحتُ شاتى وطفلتيها

الأول : ما قد دهاك دهانى ومثل شأنك شانى
أتيت طنطا لشغلى وكان تحتى أتانى
خرجتُ منها مع الليل مُسبلاً طيلسانى
فمرّ فوق طريقى من لا أرى ويرانى
أغاً عليه سلاح فى صورة الشيطان

فصاح بي قف ترجَّل لقد سرقت أتاني

الثاني : وما جرى ؟

الأول : قلت له بل الأتان لي أنا

فقال ذاك أمس إلا أنها اليوم لنا

بل هي لي وحدي فدَعها ليَ وامض من هنا

ثم رماني بيدٍ كأنها كفُّ النَّمر

ثم اعتلى ظهر الأتان

الثاني : ثم ؟

الأول : لكن لم يسر

حتى سمعت هَدَّةً وصرخةً من النَّهَر

وأبصَرَتْ عيني وراءَ الليل آية القَدَر

حمارتي تجبرتْ مثل تجبُّر البشرْ

فأغرقت راكبها وغرقت على الأثر

بميش بك لعثمان بك [في تهكم واستهزاء] :

لقد رأيناك ضحَى اليوم تحمى من الجبل

فوق حصان كالغزال رقَّةً وكالحمَلْ

عثمان بك [في غضب] :

كذبتمو قد كان تحتي سيد الخيل «بطل»

لا حَمَلٌ ولا غزال هو لكن الوعل

كالأفعوان فى الشعـــاب والشهاب فى القُلَلْ

مميش بك : وقد تمايلتَ على السرج تمايلَ الثَّمِلْ

وقد تدلّى بطنك الضخمُ عليه وانسدل

كأنك المحمل والحصـــان تحتك الجمل

عثمان بك: مميش عِبت حصانى ولم تدع لى اعتبارا

هذا جزاؤك عندى خذ هاك منى عيارا

« ويطلق عليه غدارته »

محمد بك : عثمان

عثمان بك : ملكى

محمد بك : لا تُرَعْ قد كان من حزب على

كفيتنيه فتولّ اليوم ما كان يلى

هيوا احملوا جثته هيوا اذهبوا بالرجل

« يخرج به البكوات والخدم »

« عثمان الجاسوس وهو يكبس قدم محمد بك »

عثمان لنفسه : خدمتُه والله ما خدمتُ إلا دُولتى

كبّسته والله ما كبّست إلا حاجتى

خادمٌ تركيا أنا ما أنا خادم الغبى

كم من حرير فى نواحى صُدرتى وذهب

هاتيك ألقابى وتلـــك شُرُطى ورتبى

مما بلغتُ فى رضا اللـــه وطاعة النبى

وتحت أعلام السلا طين السيوف القُضُب
أقمتُ فى مصر سنيــــن أنزوى وأختبى
وأنا حيناً ماهنٌ وأنت أحياناً صبى
أرمى أخاً على أخٍ وأصدم ابناً بأب
لم آلُ حكم الغُزّ جُهد الباحث المنقّب

« يفيق محمد بك وينادى و [illegible] »

محمد بك : ماذا يقولون عنا فى مصر يا عثمان ؟
عثمان : عهد الأمير رخاءٌ وغبطةٌ وأمان
فمصرُ راضٍ بنوها والناسُ فيها لسانُ
يقول إن أميرى يحبه السلطان
محمد بك : والأمراءُ أمنهم مخالفٌ غضبانُ
عثمان : الأمراء جميعاً ببابكم أعوان
لا يذكرون علياً وبيته مذ بانوا
فما لغيرك صيتٌ ولا لغيرك شان

محمد بك : صدقت هم حيث كــــان الجدُّ فى مصر كانوا

يقبل جندى ويقول لمحمد بك :

مولاى عندى أخبارُ سوءٍ وقَفْن فى فىّ فهو حائر

محمد بك : أنت رسولٌ ؟

الجندى : أجل

محمد بك : خبِّر بيِّنْ إلامَ القتال صائرْ ؟

الرُّسلُ لا يُسألونَ عما بعد المناعى ولا البشائر

الجندي : مولاىَ

محمد بك : ماذا ؟ عجِّل . تكلَّم

الجندى . دارتْ على جيشنا الدوائر

محمد بك : وما الذى كان من علىٍّ ؟

الجندى : أُعينَ فى أمره بضاهرْ

محمد بك : وفاز ؟

الجندي : فى أول التلاق بقوة الشام والعشائر

محمد بك : إذن هلكنا ؟

جندي آخر وهو داخل : لا يا أميرى بل أنتَ ناج بل أنتَ ظافر

محمد بك : من قال ذا ؟

الجندي : شاهدا عيانٍ

محمد بك : من أين ؟ ممَّن ؟

الجندي : من العساكر

« يدخل الجنديان ويتبعهما خدم يحملون صينية كبيرة »

الجندي : ها هما

محمد بك : مرحبا

الجنديان : عوافٍ حياةٌ

محمد بك : أوجزا

الجنديان : نحنُ موجزان المقالا

هُزِمَ الجيشُ صُبحَ أمس ولكن
عادَ نجمُ العدو ظهراً فالا

لحملنا عليه حملةَ صدقٍ وحوينا الرجال والأموالا

محمد بك لأحدهما :

زِدْ ، أبنْ

الجندي : ما قصَّرَ الجيشانِ ضربا وطِعانا

« يقبل البكوات »

محمد بك للجندي :

وأبو مَيْلةَ(١) ؟

الجندي : غشَّى ساحةَ الحربِ دُخانا

أحد البكوات :

قد رأينا من هنا ظُلمته واللمعانا
وسمعنا من هنا رَجَّته والدَّوَرانا

(١) مدفع من صنع واختراع محمد بك أبو الدهب .

محمد بك : اختراعي مدفعي قد ظهر اليوم وبانا
ومُرادٌ ؟

الجندي : كان كالليث لحاظاً وجنانا
شد بالزأرة والوثبة في الحرب قُوانا
كلما انهار حصانٌ تحته احتلَّ حصانا

محمد بك : ثم ؟

الجندي : رمى بنفسه على عليٍّ في الرحى

محمد بك : ثم ؟

الجندي : تجالدا فلم يدعه حتى جُرحا

محمدبك : أين هو الآن

الجندي : على آثارنا على سرير لينٍ مُظلَّل
يخدمه الناسُ ويُعنونَ به
كالولد الممهَّد المدلَّل

محمد بك همساً لعثمان :

عثمانُ هذا علوى لاتنسَ رأسَه غداً

محمد بك للجندي :

تلك رؤوس شيعته . ومن سعى لنصرته . من بيته وعزوته

« يأخذ الجيش في العودة من ميدان القتال في أزياء شتى بين »
« الضجيج المتواصل من الطبل والزمر، وتقبل طائفة طائفة »
« فيمر بخيمة محمد بك، وكلما طافت به جماعة خرج إليهم »
« البيك فينثر عليهم الذهب وهو يقول »

محمد بك : خذوا خذوا خذوا خذوا إني أنا أبو الذهَبْ
خذوا املأوا أيديَكم من الشعاعِ المنسكب

الجماعة : سلمت يا أبا الذهب وعشتَ تُعطى وتهَب
أخجل جودك السُحُبْ

الجيش والنظارة يهتفون معاً :

بني الوادي قفوا حيّوا اللواء
وغطوا الأرضَ ورداً والسماء
رَجَوْتُم من وراءِ الحرب نصراً
وهذا النصرُ بينَ يديْه جاءَ
هو الرمزُ المُقدسُ فاتبعوه وموتوا في القتال له فداءَ
عليه ضجّةُ الفرح ابتهاجا بطلعته الحبيبة واحتفاءَ
كأن وراء هيكله خيالا
من الشهداء والجرحى تراءَى

على قدم حيُّوا العَلَمْ
حيُّوا الشعار حيوا الفخار
رمز الوطن مجد الديارْ

أحد القواد القادمين :

سيدى فُزت بالُمنى هو ذا الجيش قد رجَعْ
وهَبَ الله نصرَهُ للمريدين والتَّبَع
وعلىٌّ وجيشه شبعَتْ منهما الضُبعُ
ليس يُدرى أمات أم فى يد الُجند قد وقع

محمد بك : أجل أرى الجيش اقتربْ نشوانَ بالغَ الأرَبْ
يرسل رنّةَ الطرَبْ

فريق من الجند يتغنون من خارج الخيمة :

سلمتَ يا أبا الدهبْ وعشتَ تُعطى وتهَبْ
أخجل جودُكَ السحُبْ

جماعة أخرى من الجنود والنظارة يهتفون :

يا عسكر النيل بالسلامه يا عسكر النيل بالسلامه

ظفرت بالنصر كلَّ حينِ وفُزتَ بالعزِّ والكرامَه
فى يومِ سلمٍ وفى قتالٍ وفى رحيلٍ وفى إقامه
فما شهدت القتال إلَّا رفعت للصفقتَيْن هامه
أبليتُمو قادةً وجُنداً بوركَ فى الجندِ والزعامَه
قد شيَّد الله مجدَ مصرٍ والجيشُ من مجدها الدعامه

جماعة آخرون :

هلمَّ خيلَ الوطن تخايلى فى الرسَن
اليوم أنت مطلقه حمحمةً وطقطقه

محمد بك ابو الدهب وينثر الذهب :

خذوا خذوا خذوا خذوا إنى أنا أبو الدهب
خذوا املأوا أيديكم من الشعاعِ المنسكب
الجماعة : سلمت يا أبا الدهب وعشت تعطى وتهب
أخجل جودك السحب

أحد البكوات :

مليكى

محمد بك : ما جرى ؟

الأول : تاْمَّلْ أسيرٌ

سيدى من عواهل الشامِ كهْلُ

محمد بك : من يسوقُ الرجالُ ضاهرٌ الشاميُّ
عانٍ عليه قيْدٌ وغُلُّ

« يدخل ضاهر يحوطه الجند »

محمد بك : ويحهم ذاك ضاهرٌ ما لجندى
قد غووْا ما لقادة الجند ضلُّوا
كثر الجندُ فى الحديد عليه
وهو كالليثِ فى الحديد يُدِلُّ

محمد بك ، ويتقدم منه :

ما أرى ضاهرٌ يُساقُ أسيراً
أنتَ من ذَاكَ يا أمير أجلُّ
أيها الجند ضاهرٌ صار لى ضيفا
خلُّوا سبيلَ ضيفىَ خلُّوا

من فلسطينَ أنتَ ضاهرُ أم من أرز لبنان أم لك الشام أصلُ ؟

ضاهر : كل هذا هناك مولاى أصل
واحدٌ يجمعُ الرجالَ وفصلُ
عرَبٌ كلنا ومنطقنا الفُصحى
وآباؤنا نـِزارٌ وذُهلُ

محمد بك للجند :

ما صنعتم بسيفه ؟

أحد الجند : هو عندى

محمد بك : هاته فهو محرمٌ لا يحلُّ

محمد بك ويناوله السيف :

خذ تقلّد والله ليس لهذا الظُّفر

إلا يدَ المصُور محلُّ

أنت خِلٌّ للبائسين وفىٌّ وهو أيضاً لهم صديقٌ وخلٌّ

ضاهر : لستُ أنسى لسيدى الفضلَ ما عشتُ

محمد بك : وهل فى رعاية الحق فضلُ

قد رددْنا على السموءل سيفاً

كان دونَ الوفاء أمسِ يُسَلُّ

ضاهر : كيف أمشى فى الشام أو فى سواها

ألبسُ العزَّ حين جارى يذلُّ

ذاك سيفى فأينَ إكرامُ ضيفى

مالَى اليوم غيرَ ضيفىَ شُغْلُ

محمد بك : من ! علىٌّ ؟

ضاهر : أجل ومن كعلىٍّ ملكٌ ماله على الأرض مثلُ

سيدى قيلَ فى خلالِكَ برٌّ ليس يُحْصَى وفى سجاياك نبْلُ

قد تركت الأمير فى شدة الـ

ـكرب وغادرتُ جمعنا وهو فَلُّ

ما الذى أنتَ صانعٌ بعلىٍّ ؟

محمد بك : غايةُ الخيرِ فهو للخيرِ أهلُ

هو فى قصرِهِ كأمسِ المفدّى

بينَ أولاده الأميرُ الأجلُّ

ضاهر : أسرونى ولو بقيت طليقاً

محمد بك : ماالذى كنت صانعاً ؟

ضاهر : كنت تبلو

كيف أبنى اللواء حول حليفى

وأرمُّ الصفوفَ إذ تضمحِلُّ

محمد بك : بل ستبقى بمصر ضيفاً علينا

مصرُ دارٌ للأكرمينَ وأهلُ

ضاهر : ورجالى

محمد بك : سيلحقونك فيها لك عندى وللعشيرة نُزُلُ

ضاهر لنفسه :

ذلك الغدرُ والمماليك فيهم

من قديم الزمان غدرٌ وخَتْلُ

« يشير محمد بك الى جماعة من رجاله فيخرجون بضاهر »

« يقبل مراد في جماعة من الجند »

محمد بك : ما أرى ؟ ما ترون ؟

أحد الحاضرين : هذا مرادٌ

محمد بك : هو ذا جرَّ ذيلَهُ إدْلالا

مراد بك : التحياتُ للأمير

محمد بك : مرادٌ مرحباً مرحباً تعالَ تعالا

مراد بك : ألف بشرى مولاي

محمد بك : أهلا وسهلا أدنُ منّي أعانق الرئبالا

« يعانقه »

مراد بك : قد بلغتَ الآمالَ

محمد بك : لِمَ لا وما علقت إلا بسيفك الآمالا

كيف كان القتالُ؟ أينَ تركتَ الجيش ؟

مراد بك : خلفي مُظفراً مختالا

بعد حين يمرُّ من ههنا الجيشُ على سيدي رِعالا رعالا

محمد بك : وعليٌّ

تركتُهُ في يد الآسِينَ قد ناءَ بالجراح ثقالا

بعد حين يأتي به الجُندُ محمولا مُسجّى إذا استطاعَ انتقالا

« جماعة من الجند يتغنون خارج السرادق »

سلمت يا أبا الذهَبْ وعشتَ تُعطى وتَهَبْ
أخجل جودُك السُّحُبْ

« يخرج محمد بك فى جماعته لتحيتهم »

«فى هذه الأثناء يتقدم مصطفى اليسرجى جريحا من مراد بك زاحفاً على الأرض»

مرادبك: يالعجائب الحياة ماأرى هذا اليسَرْجىّ

مصطفى اليسرجى: اليسرجى مصطفى

مرادبك: أنتَ الذي برزتَ لى من ساعة

مصطفى: أجل لألقىَ من حُسامكَ الردى

مراد بك: لقد جُرحتَ من يدى لِمْ لَمْ تَمُتْ

مصطفى: إنى أحسُّ أجلى الآن دنا
مولاى لا تقطع حديثى وانتظرْ
عجائبُ الحياة فوقَ ما تَرَى

مراد بك: وهل عجائبُ الحياة غيرما يجرى هنا الآن؟

مصطفى: أجل وما جَرَى

مراد بك: فمُتْ إذن وأعفنى

مصطفى: لا بل أقمْ
واسمع فقد يُنجيك ما أروِى هنا

مراد بك: سِرٌّ ؟

مصطفى : أجلْ وقد ينالُك الأذى

من أن أموت أنا والسرُّ مَعا

مراد بك: إذن فقم إبقَ تأخّر ساعةً قل مالديكَ ثم مُت كيف تشا

مصطفى : أهكذا ربَّاك جافٍ خَشِنٌ من المماليك مُضيِّعُ الوفا

ليتك عشتَ راعياً في وطن مُهذبِ الفتية صالح النَشا

مرادبك: دَعِ الفضولَ واحترس يا مصطفى

أنت غبيٌّ لستَ تدرى مَن أنا

أما كفاك أمسِ أن أخرتني أنا وقدمت علياً فاشترى

مصطفى : أنت تُحبُّها ؟

مرادبك : أجل

مصطفى : أنت

مرادبك : أجـل

مصطفى : حَذارِ يامرادُ مَن هذا الهوَى

مراد بك مضطربا :

ولِمْ ؟ وما آمالُ ؟ أهْيَ من دمى ؟ أم هى لحمى

مصطفى : هى والله هُمَا

مرادبك : أختى ؟

مصطفى : أجل أختك

مرادبك: يالى ولها من هول ما كنتُ عليه مُقْدما

مصطفى : مراد أنت فى صعيدٍ واحدٍ
ضربت بالسيف المُرِقِّ والأبَا

مرادبك : ومن أبوها وأبى أنت ؟

مصطفى : أجل أنا الذى باعَ الفتاةَ والفتى
أنا الشقىُّ بائعُ ابنيْه

مرادبك : أبى مابعتنا إلا لتدركَ الغنىَ

مصطفى : مراد أدركنى

مرادبك : فداك يا أبى
رُوحى وإن قلّت لك الروحُ فدىَ

مصطفى : أنظر مرادُ أنا فى النزع وما يُغنى المُفدُّون إذا النزعُ أتى
سُقتُ لك الرقَّ وسقتَ الموتَ لى
والرقُّ والموتُ على حَدٍّ سَوا

مرادبك : أعفُ أبى عنى أتعفو يا أبى ؟

مصطفى : القلبُ عنك وعن السيفِ عَفَا
بل اعف أنت يامراد عن أب
باعَكَ طفلاً كبديعة الدُّمى
مارحمَ الدمعَ بعينْيكَ ولا رقَّ لذلك البُكى ولا رثى

مراد بك: واأسفى وا ندمى أبى عليك قد غُمى
أفق أبى تكلَّمْ

مصطفى : مراد ! لا يقوى فمي

« ويموت مصطفى »

مراد بك: ماتَ انتهَى ربِّ ارحمِ

« مراد بك يلقي عليه عباءته ويرجع باكيا »

تدخل آمال فيلمحها مراد بك ويقول لنفسه :

آمال أختيا أجلْ أجلْ هيا

لاكفينَّهـــــا تلك الضواريا

آمال لنفسها :

مالَهُ مضطرباً يرمقُني بالرضا حيناً وحيناً بالغضَب

ما به ؟

مراد بك: آمال

آمال : مهلا سيدى ادعُنى حينَ تُنادى باللقبْ

مرادبك: اسمى آمال أختى

آمال لنفسها : أخته ؟

ربِّ من أينَ متى هذا النسَبْ

ثم لمراد بك :

كيفَ من نبّاك

مراد بك: نبّأنى أبى أنّنَا يا أختُ من أمٍّ وأبْ

آمال : وأبى ؟ أينَ أبى ؟ أين مضى ؟

مراد بك: هو هذا جُثَّة

آمال : مات أبى

مراد بك: احملى الجُثَّةَ يا أختُ معى هىَّ نحجبْها هلمِّى نحجُب

آمال بعد أن تقف أمام الجثة وتتأملها :

حنانيْكَ ربِّ أبى رمةٌ يَمُرُّ عليها الترابُ الخشنْ

أبى كيف صرت وراءَ التراب

إلى جسد بالبلَى مرتَهنْ

أبى ما الأذنْك قد أبطأتْ وكنتَ إلىَّ سريعَ الأذُنْ

وما بالُ حظى َمنك الصدود وكان نصيبى اللقاءَ الحسَنْ

وأين يدٌ سمحةٌ طالما مسحتَ بها عبراتى الهُتُن

أحقٌّ أبى دهمتْكَ المنون

أجل وجَرَتْ فيك كبرى السُّنَنْ

ذهبت كما ذهب الأولون قتيل الحياة جريح الزمن

مراد أخى

مراد بك: أختُ لا تحزنى فماذا يَرُدُّ البكا والحزَنْ

آمال : أحقٌّ أخى أنه قد قضى وأنا فقدنا الذرا والركُنْ

قضى فى معارك لم يجنها

غريب التراب غريب الوطن

ثم مخاطبة الجثة :

تمنيت أني أقيكَ الردَى بنفسي ومن يدفعُ الموتَ مَنْ

وأجعل غُسلك ماء الشئون

وأصنعُ من هُدب عيني الكفن

وأختطُّ بين حنايا الضلوع صوانا ولحداً لهذا البدَنَ

جُعلتُ الفداء لكَ مما دهاكَ ومِمَّن رَمَاكَ ومِمَّنْ طَعَنْ

وليتَ جراحَك بي يا أبي

مراد بك : رويدك أختُ أقلِّي الشجن

ولا تكثري حسرات الصديق

ولا تُشمتي الكاشحَ المضطغنْ

آمال : وكيف مراد وهذا أبوك لقىً في التراب كأن لم يكن

[يخرج مراد بك وآمال بالجثة]

[يؤتى بعلي بك بجروحا محمولا على سرير من جريد فيوضع في ناحية من الساحة]

علي بك لنفسه :

ويحي تفرَّق عسكري وخيامي

وطوَى الزمانُ وريْبُه أعلامي

أحتالُ والأحداثُ تُفسدُ حيلتي

وأروم والأيام دون مرامي

لما طوَت مُلكَ الكنانة راحتى
لم يكفنى فطلبت مُلكَ الشام

صيّرتُ حربَ الترك وجهَ سياستى
حتى اقتنيتُ عداوة الأقوام

وكفرت إحسان الذين خدمتهم
حتى تجرّأ خادمى وغلامى

فى الصالحية مالَ صرحُ مطامعى
وكذاك ركُن بنايةِ الأوهام

النصرُ غابَ وكان طاف برايتى
حيناً وحام على شباةِ حسامى

وحُمِلت فى سُرُرِ الجريد ببلدةٍ
وطئتْ جواهرَ عرشها أقدامى

قد عشتُ بالدنيا العريضة حالماً
حتى انتبهتُ فلم أجد أحلامى

دنيا أردتُ من العروش حُطامَها
جعلَتْ سرير القشّ كلّ حُطامى

بالأمس جلَّلتَ الترابَ مواكبى
والیومَ لا خلفى ولا قدامى
الیومَ أرسفُ فى دمى وجراحتى
وغداً أجرُّ منّیتى وحمامى
أنا قد جعلتُ الغُزّ مهبط نعمتى
وخصَصْتهم بمنازل الإكرام
فلُدغتُ من صِلّینْ منهم عقّنى
هذا وذاك أضاعَ حقّ ذمامى
وتتابعَ الأمراءُ فى أثرَیهما
یستمرئون عداوتى وخصامى

« یقبل محمد بك ابو الذهب فى حاشیته »

محمد بك ابو الذهب :

یا ویحَ لى ماذا جرى هذا أبى وسیدى
سیعلمُ المغُرى به كیف عقابى فى غدِ

« ویتظاهر بالأسف ویتقدم للاقاة الجریح »

محمد بك ابو الذهب :

یا أسفا عَلى،علِى،یا أسفا على أبى وسیدى،ومَوئلى
یا أسفا على الكریم المفضل

أحد البكوات همساً :

ماذا يقول ؟ سيّدُه ! شلَّتْ يده شلَّت يده

على بك لمحمد بك :

محمد اسمعْ مراد غادرْ
اقضِ عليه وأنتَ قادرْ

محمد بك: لا بل تعيش سيدى ويديك تقتـــله
سيدى انس اليوم وافكر فى غد

على بك : ليس للمغلوب غيرَ الذل غد

محمدبك : بل غداً تبرأ من جُرحك

علي بك : لا قلما قام من الجرح الأسد

أحد الحاضرين همساً لآخر :

الذئبُ جرَّب فى المُرَبِّى ظُفْرَه فأصابهُ
لا تحوِ دارُك أرقاً حتى تحطِّم نابه

على بك لمحمد بك :

محمد اطلب لى قليل ماءٍ إنى أحس حرقة الظماءِ

محمدبك : مولاى لا باس فداؤك النـاس

محمد بك لعثمان ويناوله حقاً :

عثمانُ جىءْ بالشراب أغثهُ بالعُنابِ

على بك : عجلْ وأطفىءْ لهيبى أسرع وخَفِّفْ عذابى

« يذهب عثمان ثم يعود بالماء »

علي بك لمحمد بك ويتأمل الكأس :

أغريتَ في الصبح بي عَقوراً   ما أنا من جرحه بصاحِ
والآن أرسلتَ كلبَ سوءٍ   يَدُسُّ لي السُّمَّ في القَراح
وهكذا تجرحُ الأفاعي   وتُفرغُ السُّمَّ في الجراح

علي بك لعثمان :

عثمانُ ما دسَسْتَ لي في الكاس
عُشْبَ القفار أم تُرابَ الماس
السم أحيانا طبيبٌ آس

« ويشرب »

محمد بك لعلي بك :

أبي وأميري   كفى سوء ظَنِّ

علي بك : محمدُ نَلْ كلَّ   ما شئتَ منِّي
ومالي ألومُكَ   والسُّمُّ فنِّي
أخذتَ الخيانة   والغدر عنِّي

« محمد بك يبتعد في حاشيته فيختلط بالأمراء الآخرين »

علي بك وقد لمح آمال ومراد بك قادمين :

أرى ويحَ لي ماذا أرى ؟
توالَتْ جراحاتي وطالَ عذابي

مرادٌ وآمالٌ . عدوِّى وزوجتى
فيا زمنى هل من جديدٍ مصاب !
يُعذبُنى يا رب أنى أراهما
قد اختلطا من جيئةٍ وذهاب
إذن هى تهوى النذلَ وهو يحبها
إذن ليس ما خُبِّرتُه بكذابِ
إذن فرادٌ لم يَثِبْ بىَ وحدَه
ولم يقتحم سترى ويَسطُ ببابى
ولكن أعارته الخبيثة نابها
وما فى ذراها من نقيع لعاب
أجلْ هدَمَا عُشِّى معاً وتعاونا
على ثلم محرابى وهتك حجابى

آمال لنفسها :

إلهى أعنْ زوجى وبُلَّ جراحَه
فما باله مستوفزاً لعتابى
رمانى بعين قلّبت عن كراهة
وعن نظرات كالشّرار غضاب
تُرى ظنّ بى سوءاً تُرى ارتابَ فى أخى
ففكر فى جُرمى وكيف عقابى

له العذر فى حال أضاعت صوابه
فإنى أنا الأخرى أضعت صوابى

وتتقدم من على بك :
سيدى مولاى

على بك : من ؟ أنت ؟
آمال : أجل
على بك : أعزبى عَنِّيَ خلّينى اعزُبى
الأقاويلُ إذن صادقةٌ الرواياتُ إذن لم تكذبِ
آمال : ما أذاعوا سيدى ما نقلوا ؟
على بك : خبّرونى امرأتى تعبَثُ بى
آمال : مع مَنْ أعبثُ ، مَعْ هذا الفتَى ؟
مع شقيق وابن أمى وأبى

على بك لمراد بك :
مراد

مرادبك: مولاى
على بك : اعزُبِ لا بل تعالَ اقتربِ
مرادبك: أبى
على بك : سؤالٌ يافتَى أَصْغِ إلىَّ أجب
مرادُ كنتَ لا ترى غيرىَ فما غرَّكَ بى
أنتَ الذى اشتريتُه بفضتى وذهبى
ولم أقصّر معه عن واجب المؤدّب

مراد بك: مولاىَ خلّنى إلى ... ضميرىَ المُعذب
أعفُ فأنتَ أهلهُ ... هبْ لى جرائمى هب

على بك : مرادُ

مراد بك : مُرْ

على بك : أوصيك خيراً ... بالملاك الطيِّب
أما تراها أصبحتْ ... من غير زوجٍ وأب

ثم مستمراً : مرادُ بنىَّ أصخْ أصْغِ لى ... تعلمْ من الذاهبين استفد

مراد بك: تكلم أبى هات قل سيدى ... وبَيّن كذا بك سُبْلَ الرشَدْ

على بك : بناء المماليك واهى الأساس ... وسلْطانهم مُضمحلُّ العمَدْ
وضيعتهم بعد طولِ الإباء ... عوى الذئب فيها وصاح الأسد
إذا فَسَدَ الخُلْقُ فى أمة ... فقل كلُّ شىء لهم قد فَسَد
وصاحبُكم ذَهَبَتْ نفسهُ ... فكلُّ عنايته بالجسَدْ
يحبُّ النساءَ ويهوى الطعام ... ويبنى القصورَ ويُغنى الولد
بفضل التعاون سُدنا البلاد ... ولولا تعاوُنُنا لم نَسدْ
إذا قام بانٍ إلى غاية ... تعثر بالهادم المجتهد
وأُولعَ بالعصبةِ العاملينَ ... رجالٌ كسالَى مُنوا بالحَسَد
فلم يَرَ واحدُهم همةً ... وفضلا لآخرَ إلا حقَد
يميناً مرادُ لما فى البلاد ... سوَاكَ يليقُ لحكم البلد
يَلُمُّ المماليكَ من فرقة ... ويوقظُ من حزمهم ما رقَدْ

ويُرجعُ للطاعة المارقينَ ويكسرُ من شرَّة المستبدْ
فثِبْ بالغيّ غَداً ثبْ به وقم أنتَ فاحمِ الحمى بعدغَدْ

« ويغمى عليه »

مرادبك: ويحَ للمجد حلّ بالماجد الموتُ وأخنى على الكريم الحِمامُ
رحمتاهُ له مضى وتولّى واستردت جمالَها الأيامُ

آمال : مات ! لا يا مرادُ قل هو حيٌّ
قل أخي تلك ضجعةٌ ومنامُ

فرحي ياعليُّ ماأنتَ راءٍ مأتمٌ بين ناظريْكَ يقامُ
فرحي مثل يوم نحرٍ عليه من دم البر لمحة وابتسام
ضحت الحادثاتُ فيه بكبش
لجمع الشرق فيهِ والإسلام

قد أُصبنا من العيون كلانا أدركتني وأدركتك السهام

أحد البكوات لآخر :

أرأيتُم أسمعتُم جرأةٌ تلك يا ويحَ مراد ويحَ لهُ
ماله استهتر فى موقفه ومضى يفعلُ فعلَ السَفلَهَ
أنظروا فهو عليها مُقبلٌ وهى بالسمع إليه مُقبله
تركا المقتولَ لم يكترثا لدمٍ من حوله قد جلَّله
أتُرى يطمع أن يخلُفَه وهى هل تطلبُ زوجاً بدلَه

آمال وتلتفت نحوها :
مراد أخي

مراد بك : لبيك آمال

آمال : مالنا رمَتْنَا عيونُ القوم من كلٍّ جانب

وإنى لشكلى مرَّتين وما دَرَوْا
تولّى أبى عنّى ولم يبق صاحبي

مرادبك : كذاك فضولُ الناس شُغلٌ بحاضر
كما قد شغلناهم وشُغلٌ بغائب
ومن ألسُن تجرى بسوءٍ وهَمُّها
فوائدُ عند الغير أو فى مصائب

آمال : صدقتَ مرادُ انظر تأمل فضولَهم
لقد رمقونا بالعيونِ الشواغبِ
يَرَوْنَ عجيباً أننا ههنا معاً
وأنك تمشى يا أميرُ بجانبي

أحد البكوات يتقدم :
مرادُ من الحسناءُ؟

مرادبك : ما أنت ؟ ما الذى
يهمُّك من أمرِ الحسانِ الكواعبِ

« ثم لآمال :
أأبصرتِ يا أختُ الفضوليَّ

البك لنفسه : أخته عجيب فلم نعلم له من أقارب

« لمراد بك : وأينَ تُرى كانت ومن ذا أتى بها ؟
رواية غاوٍ أو مقَالةُ كاذبِ

« مراد بك يهم ويلطمه بيده لطمة شديدة »

آمال لمراد بك:

ترفق أخي ساعة

البك لنفسه : تدعوه يا أخي إذن لم يكن فيها روراه بلاعب

مراد بك: تعلَّمْ إذن أن الفضولَ وقاحةٌ

وأن عقابي عنك ليسَ بعازب

البك : وأنت تعلَّمْ أن سيفي منيَّة وغدارتي محشوَّةٌ بالمعاطب

مراد بك: وقوسك ؟

البك : قوسي ليس يخطىء سهمها

مراد بك: ورمحك ؟

البك : مثل الأفعوان المواثب

مراد بك :

وقلبكَ إني لا أرى القلبَ حاضراً على أنه أمضى سلاح المحارب

وإلا فذا صدري فضع فيه ما تشا

وسدِّد إليه ماضياتِ المضارب

البك : وكيف اجترائي سيدي وابنَ سيدي

معاذَ أياديكم معاذَ المواهب

مراد بك: إذنْ خلِّ شأنينا ولا تَشْتَغِلْ بنا

وطر في فضاء الأرضِ ذاتِ المناكب

آمال : مرادُ أخى

مرادبك: آمال هــذا محمدٌ

يلاحظنا فى الجمع لحظَ المراقب

ولابدَّ مِنْ إنبائه بالذى جَرَى

آمال : وما ضرَّ سرٌ قابله كُلَّه خاطب

محمد يقترب ويقول :

مرادأرى شَغْباً وأسمعُ ضجَّة بنىَّ أهذاموضعٌ للتصاخب

ونحن على موتٍ وحولَ جنازةٍ

وفى مأتمٍ فخمٍ وشيكِ المواكبِ

مراد !

مرادبك: أميرى !

محمدبك : تلك والله ريبة

مرادبك: تفضل أميرى واستمع ثم عاتب

محمد بك: أما هذه عرس الكبير فما أتى بها ههنا بين ازدحام المناكب

مرادبك: بلى يا أمــيرى وهى أختىَ

محمدبك : أخته ! حنانيك ربي تلك إحدى العجائب

مرادبك: أجل سيدى أختى اجتمعنا من النوَى

على قدرٍ من صنعةِ اللهِ غالب

ولم ندر قبلَ اليوم أنا قرابةٌ وأنا التقيْنا فى كريم المناصب

محمدبك : ومن قال للصنوين هذا ؟

مرادبك: أبوهما

محمدبك : وما هو ؟ مَنْ ؟

مرادبك: بعضُ التِّجار الجوالب

محمدبك : وأينَ فأدعوه فأُعْلِي محلَّه وأرفعه وابْنيه فوقَ الكواكب

مرادبك: تعيش وتبقى . . مات

محمدبك : مات أبوكما ؟

مرادبك: أجل . هو ذا يَدمَى وراء العصائب

محمدبك : جريح ؟

مرادبك : أجل لكن قضى من جراحِه

محمدبك : قتيلٌ ؟

مرادبك : أجل ثاوٍ وراءَ السباسب

محمدبك : وما تصنعانِ الآنَ ؟

مرادبك: ما أنتَ آمِرٌ

محمدبك : هنالكَ حراسي وثَمَّ ركائبي

خذها إلى الفُسطاط حتى تَجيء بها
إلى قصرِها محفوفةً بالرغائبِ

وبعد غدٍ تجري على القصرِ نعمتي
ويأتيه برِّي كالغيوثِ السواكب

آمال وهى منصرفة :

وداعاً أبى !

محمد بك : صبراً جميلا أميرتى

ولا تفعلى فعل البواكى النوادب

آمال : عفا اللهُ عنه كان شيخاً مصلِّياً

محبَّ اليتامى راغباً فى المثاوب

لقد طلب الدنيا بمصر فنالها

فولَّى إلى الأخرى وجوه المطالب

ستار الختام

الست هدى

تمهيد

زمن الرواية : سنة ١٨٩٠ م
مكان الرواية : حى الحنفى ـ القاهرة
أشخاص الرواية :

الست هدى
الست زينب : صديقتها
خديجة
أسماء
بهية
اقبال
(خديجة، أسماء، بهية، اقبال) : من فتيات الجيران
عبد المنعم المحامى : زوج الست هدى
حلمى : كاتبه
السيد العجيزى : من أعيان الريف وزوج آخر للست هدى

محمد أحمد عامر الشيخ الحلبى مصطفى النشاشقى	من أصدقاء «السيد العجيزى»

ألماز : أغا

رضوان : خادم

سلمان : مرابٍ

الفصل الأول

« فى دار صغيرة مؤلفة من : « مندرة » فى الطبقة السفلى ، ومن سُلم يُصعد منه إلى قاعة صغيرة ، وثلاث حجرات ... والمنزل مطل على مسجد « أبى الليف » بحىّ « السيدة زينب » ! ... » .

« الست هدى » وجارتها « زينب » فى إحدى الحجرات ... » .

الست هدى : كيفَ يا أختِ أنتِ ؟...

زينب : نحن برَغْدِ كلُّنا مابقيتِ أنتِ برَغْد

الست هدى : أنتِ يا «زينبُ» الوفيَّةُ بالعَهْد

زينب : ولِمْ لاَ أَفِى وخَيْرُكِ عِندي ؟

نحن من أربعينَ عاما على خيْرِ جوارٍ بين اثنتين وَوُدّ

الست هدى : لاَ ، بلِ العهدُ لايزيدُ على العشرينَ . . .

خَلِّى حسابَه ، لا تَعُدّى ! .

اسمَعى زينبُ ، اسمعى يا صديقى . لك هذا الدبُّوس

زينب : لِي أنا ؟...

الست هدى : بَعْدِي

أنا أعطَيْتُ كلَّ صاحبةٍ شيئاً
وأنصفتُ فى الوصيَّة جُهدِى
مايقولُ الجيرانُ «زينبُ» عنى ؟

زينب : اترُكيهم ، لا تَحفلى بالردِّ

الست هدى : يقولون فى أمرى الـكثيرَ وشغلُهم
حديثُ زواجى أوحديثُ طلاق
يقولون إنى قد تزوجتُ تسعةً
وإنِّىَ واريتُ الـترابَ رِفاق

وما أنا «عِزْريلٌ» وليسَ بمالِهم
تزوجْتُ ، لـكن كان ذاك بمالِي

وتلكِ فَدَادينِى الثلاثونَ كلّما
تولّى رجال جئْنَنِى برِجالِ

فما أكثرَ عُشّاق وما أكثر خُطّابى !..
ولولا المـالُ ما جاءوا أذلاء إلى بابى ...
لستُ ما عشتُ ناسيهْ لستُ أسلُو حَياتِيَهْ
أول البختِ «مصطفى» «مصطفى» كان سَارِيَهْ

حـــينَ يمشى تظنُّه نخلةَ «المَرْج» ماشِيَهْ

رحمـةُ الله عليــهِ لم يكن يطلبُ مالِي
تلكِ «أبْعَادِيتّي» وَهْيَ جنونٌ للرِّجال
لم تــكن تخطر فى العـام له يوماً بِبَـالِ

لم يكن يَعنيهِ من ذَاكِ سوى قبضِ الإجارهْ
جعـل الله تعـالى جنةَ الخُلد قَرارَهْ

ماتَ فكدتُ أموتُ حزناً وكانَ عمرى عشرينَ عاما
ثم تزوجتُ بعد خمسٍ من ذا يرَى فعلتى حَراما؟!.

زينب : أجل! . تَعيشِينَ وتَدْفِنينا حتى تصيبى مِنهُمُ البنِيناَ

الست هدى : وزوجىَ الثانِي «عَلِى» ولم يَكنْ يصلُحُ لِي
يَالَيْتنِي لم أقْبَـــلِ

ذاك ، لِمَا لى اختارَنِى واخـترْتُه لـمالِهِ
ما كان إلا مُفلِسًا وقَعْتُ فى حِبَالِهِ

يرحمُه الله ، وكان ذَا بَخَرْ
وكانَ إنْ يقعدْ وإنْ يقُمْ نَخَرْ
وإن مشَى تخرجُ أصواتٌ أُخرْ

يرحمه الله لقد عشنا معاً
من السنينَ الصاخباتِ أربعاَ
ثم مضى لربِّه لا رجَعاَ

رحمةُ الله عليه جُنَّ بالنسل جُنوناَ
ثم لمَّا مات، ما خلَّف لى إلاَّ دُيُوناَ

وماتَ لم تبكهِ عُيوني وكان عُمْرى عشرينَ عَاماَ
ثم تزوجتُ من سِواهُ من ذا يرى فعلتى حَراما؟!.

زينب : أجل!.. تعيشين وتدفنينا حتى تُصيبى منهمُ البنينا

الست هدى : ولستُ أنسى زوجيَ الرابعا
لا نافعاً كان ولا شافِعا
قالوا: أديبٌ لم يروْا مثلَه ولقَّبوه الكاتبَ البارعا
قد زيّنوه لىَ، فاخترتُه ما اخترتُ إلا عاطِلا ضائعا

راحٌ أكثرَ الزمان على الصُّحْف مُغْتدِى
يكتب اليومَ فى «اللِّوا» وغداً فى «المُؤيَّد»
ليلَه أو نهارَه فارغ الجيبِ واليَدِ

ويُعجِبُنى عند المُباهاةِ قولُه:
بنيتُ فلانا أو هدمتُ فلاناَ

وقد يُصبحُ المَبْنِىُّ أوضعَ منزلا
وقد يصبح المهدومُ أرفعَ شانَا

رحمةُ الله عليه كان لا يحقِر مالاَ
كان إن أفلَس لا يسألُنى إلا ريالاَ

ثم تزوجتُ بيوزباشي « قمرْ »
نهَى كما شاء هَوَاه وأمَرْ
لقد وددْتُ أنه زوجُ الغُمُرْ

لاعفَا اللهُ عنه ، لاغفرَ اللهُ له ، لاارتقى لرُتبَةِ «صاغٍ »
لاعفَا الله عنه، قد كان لصًّا، لم يُردْنى لكن أراد «مَصَاغى»

وطالما زَيَّنَ لى أننى أبيعُ أو أرهَنُ أطيانى
من أجلِ «يوزباشى» ؟ لقد ضَلَّ ، لاَ
لا أشترى جيشا بفدَّانِ

لحاهُ الله كان مُنَى فؤادى
وفاكِهتى ورَيْحَانِى وراحِى
وكنتُ أحبُّه ويحبُّ طيبِى
ويحلمُ بالقِلادة والوِشَاحِ
وكان مُقامِراً شِرِّيبَ خمرٍ
يجىء البيتَ فى ضوء الصباحِ

يكادُ إذا تورَّطَ فى قِمارٍ
يُقامِر بالنُّجوم وبالسِّلاحِ

عشنا ثلاثاً ثم افترقْنا وكان عُمرِى عشرين عاماً
طلَّقنى فالتمستُ زوجاً من ذا يرى فَمْلَتِى حراماً؟!.

زينب : أجل تعيشينَ وتدفِنينا حتى تصيبى منهمُ البَنِينا

الست هدى : وعشتُ عامين دون زوجٍ ثم تزوجتُ بالموظفْ
لم أنسَهُ منذ ماتَ يوما
ما كان أبْهَى !. ما كان أظْرفْ !..
كان خفيفاً وكان حُلْوًا
ومن نسيمِ الربيعِ ألطفْ !..

ما كنت أدرى إذا تولَّى
أجيبُه أم قفاهُ أنظفْ !..

يرحمه الله مات ما وجدوا
فى جيبه غيرَ قِطعتىْ ذهَبٍ !..

وسُبحةٍ من خزانتى سُرقت
كانت على الرفِّ من وفاةِ أبى
وسَّمت فى دفْنه ومأتمهِ ولم أضِق عليه فى رَجبِ

رحمةُ الله عليه كان «جَخَّاخاً» كبيرَا
كلَّ يوم يدعُ البيتَ رئيسًا أو وزيرا
ثم لا يرجعُ لِي إلاَّ كما كان صغيرا

رحمةُ الله عليه كان مشغولا بِطِينى
كلَّ يوم بزبُونٍ أو بسمسارٍ يَجِيئنِى
وفدادِينىَ عندِى هى فى الحفظِ كَدِينى

ما كان فى وجَنَتِى يقبِّلُنى بل همُّه فى يدِى يقبِّلهاَ
وعينُه فى خَوَاتِمِى أبداً يحدِّثُ النفس كيفَ ينْشِلُهَا

ثم اقترنتُ بفقيهٍ عالمٍ فى البلدِ
لا فى الشيوخِ القُدَمَا ولا الشيوخِ الجُدُدِ
كهلٌ أخُو خمسينَ لكنْ فى نَشَاطِ الأَمْرَدِ

زينب : عرفْتُهُ ، ذاك الفقيهُ «الشيخُ عبدُ الصمدِ»
قد كانَ فى « الخُطِّ » وجيهاً ومُقَبَّلَ اليَدِ
وكل من مَرَّ به خاطَبَه بسَيِّدِى ! . . .

الست هدى : يرحمه الله لقد أدَّبنى
حتى عرفتُ كيف تخضَعُ النِّسَا ؟

زينب : أنْتِ ؟...

الست هدى : أجلْ !.. أدَّبَنِى بيدِهِ ورجلهِ وبالعصَا

زينب : كيفَ ؟... متى ؟

الست هدى : رأى غُباراً عالِقاً بجَبْهَتِي
ولم أكنْ أعلمُ من أينَ أتى ؟

فقالَ هذا التربُ من نافذةٍ
مَنْ كنتِ منها تنظرين يا ترى ؟..

وهاجَ حتى خِفتُ أن يقتُلَنِي
وشمَّرَ الذيلَ وجرَّد العَصَا

وجاءَ بالنجَّار من ساعَتِه
سدَّ الشبابيكَ وسمَّرَ الكُوَى

فقلتُ يَهْوَانِي وتلكِ غَيْرَةٌ
يا حبَّذَا الزوجُ الغيورُ حبَّذَا !..

وقبلَه لم أرَ من غارَ ولا
من ظَنَّ في قلبي لغيرِه هَوَى

يرحمه الله لقد مات على
سَحْرِي ونَحْرِي بعدَ ما صلَّى الضُّحى

مات ولم يرقُدْ له جَنْبٌ ولا
بدَتْ عليه عِلةٌ ولا اشتكى

رحمة الله عليه لم يكنْ فمُه يذكرُ « أبعَادِيَّتِي »
وإذا ماجاءَنى أوجئتُه لم يُقلِّبْ عينَه في « صِيغَتِي »

لـكنه مُنذُ كنَّا ما حلَّ عقدةَ كيسِه
يفضِّل الأكلَ منْ غيــــرِ مالهِ وفُلوسِـــه
كأنَّ الأزهرَ المعمورَ بيتى
هناكَ «جرايةٌ» وهُنا «جرايه»!.
خَلَّفَ الشيخُ من الأولادِ ما يملأُ حارهْ !...
قُسِّمتْ ثروتُه فيهمْ فنَالَ الطِّفْل بارهْ !...

عشتُ مع الشيخ نصفَ عامٍ
وكان عمــرى عشرين عاماَ
ومات فاختارنى سِــوَاهُ
من ذا يَرى فَعْلتِى حرَاماَ ؟!...

زينب : أجل تعيشين وتدفنينا حتى تُصِيبى منهمُ البنينا
الست هدى : أتذكــرينَ بعــدَه من جاءَ بيْتى يَخْطُبُ؟!.
زينب : منْ ذاكَ ؟ منْ ؟
الست هدى : أنْتِ الَّتِى جِئْتِ بهِ يا زيْنَبُ!..
زينب : «مهْدِى» المقاولُ الثَّرِى المُتَلِى مِنَ الذَّهبْ
الست هدى : قد ذَهَبَ اللهُ بهِ أَجَلْ!. إِلَى النَّارذهبْ!.

لم ينسَ أن يذكرَ «أبْعَادِيَّتى»
ما للغنِّى ، ولطينى مَالهُ ؟!

ولم يكن عند الطعام يَسْتَحِي
يأكل مالِي ويعدُّ مَالَهُ !...

يرحمه الله وإن لم أر لَونَ قرشهِ
عشتُ اثنتيْن معهُ لم أنتفعْ بفَرْشِهِ
لو لم يَمتْ لمتُّ منْ جَخْتِـــه وفَشِّـــه
كأنَّمَا تسرَّبتْ عمارةٌ في كِرْشِه
يَدِبُّ كالحلُّوفِ في خُرُوجِهِ من قَشِّه
وما استرحْت ليلةً من طَحْنِهِ ودَشِّه
ومن تِلالِ جيرِهِ وَمنْ جِبالِ «دبْشِهْ»
ظللْت عامَيْن في بلاءٍ وكان عُمري عشرين عاماً

ومات « مهْدِي » فاعتضْتُ عنْه
من ذا يرى فَعْلتي حرَاماً ؟!..

زينب : أجل تميشين وتدفنينا حتى تُصيبي منهمُ البَنينَا

الست هدى : ثم اقترنْتُ بمُحام عَاطِلِ
شِرِّيبِ خمْرٍ يحتسيها في الضُّحى
قَلَّتْ دعَاوِيهِ وقلَّ مَالُه
وأصْبَح المَكْتبُ منهقدْ خلا..

عبد المنعم المحامى: « زوج الست هدى ، وهو سكران ، يصعد السلم » :

هدَى ، ضلالٌ ، أين أنتِ ياهدَى ؟
أين العَجوزُ ؟ أين جدّتى هدَى ؟

الست هدى : وَانَــكَدا « زيْنبُ » واداهيَتاَ
لقد أتى لم أَدْرِ من أيْن أتى ؟!.
يشْتِمُ فى السُّلّم

زينب : خلِّيهِ دعى لاتفرِضيهِ غيرسكْرانَ هذَى!.
رأيتُه ،

الست هدى : وكيف ؟

زينب : منْ تحْتُ وقدْ
كان من السقْف أطلَّ وانحنى
وكانت الحارةُ منَّا امتلأتْ فأرسل القىْءَ عليناَ ورمى!.

الست هدى : القىء ؟ ماذاَ قلتِ ؟

زينب : قلتُ ما رأتْ عينى ومامرَّ على رَأْسى وَماَ

عبد المنعم : « وهو بالسلم »
هدى ، عجوزَ النَّحْس ، أنت قردةٌ
خطوطُك الوحلُ وكُحْلُك العَمَى

الست هدى : سمعتِ يا زيْنبُ ؟

زينب : خلِّيهِ ، دعى

لا تفرِضيهِ غيْر سكْرانَ هذى

ومرةً جاءَ « أبَا الليف » ضُحًى

أذَّنَ فى الناس يُصلُّون العِشاَ

فضيحةٌ فى الخطِّ !

الست هدى : وَافضيحتا

زينب : ما شهدُوا فى « الحَنَفِىِّ » مثْلها

عبد المنعم : « وهو بالسلم »

هدى تعَالىْ يا عتيقةُ اظْهَرِى

عندى لك النَّعْلُ وهذه العَصاَ

الست هدى : سمعت يا زينب ؟

زينب : خلِّيه ، دعى

لا تفرضيهِ غير سكران هذى

الست هدى : دعيهِ يهذى ما يشا غداً ترينَ زينبُ

فى غـدٍ لى وَله شأنٌ ، غداً يُؤَدَّبُ

زينب : ومَا الذى عـزمْتِ يَا حبيبَتِى أن تصْنَعى

الست هدى : أقذف فى القسمِ به وأشْتَكِى وأدَّعى
إن رجال القسْم ، والنَّـائبَ والقاضى معى !..

«لزوجها»

لَتنْدَمنَّ يا لُـكَعْ يَا منْ يَقُومُ ويَقعْ

عبد المنعم : « وهو بالسلم »
ماذا سَمِعتُ ؟ صوتها ؟ أأنتِ بومتى هنا ؟ !..
الآنَ ياجُمَّيْزَةَ « الخطِّ » أُريكِ مَن أنا ؟ ...

زينب : هُدَى ، حبيبَتِى اسمِعى تعالىْ اهْربى مَعى ! ...

الست هدى : أَنَا ؟

زينب : اسمِعِى ، دَعِيهِ ،

الست هدى : لاَ

زينب : دَعيهِ يا هُدى ، دَعِى ! ...
لا تُغضِبيهِ إنهُ مُمْتلِئٌ ، ليس يَعِى ! ...

عبد المنعم : « وهو بالسلم »
هدى ! . هدى ! أينَ هدى ؟
أينَ العَجُوزُ الباليهْ ؟ ...
أينَ مضيْتِ بومَتِى ؟ أينَ ذهبْت خُفَّتِى ؟
خدَّاكِ ضِفْدِعْتَانِ قد أَسنَّتَا
وأُذُناكِ عقْرَبَانِ من قِنا

وحاجباكِ وَالخطوطُ فيهما
كدُودتَيْنِ اكتَظَّتا منَ الدِّما

وبينَ عينَيكِ نِفارٌ وجفا
عَيْنٌ هناكَ خاصمتْ عيناً هنا !..

الست هدى : دعِينى أُقَطِّعْ عليهِ الحذَاء وأَجْزِ الوَقاحَ على ذنبهِ
دعينىَ أَضْرِبْهُ حتى يُفيـ
قَ فلابدَّ زينبُ من ضرْبهِ ! ..

زينب : قد جاءَ ... هَيَّ نتقى جنونَه وهَوَسَهْ
فنى يمينِه العصاَ وفى الشِّمال المِكنَسهْ
سكرانُ يضربْ إذن لنهربْ هلمَّ زينبْ
هذهِ حجرةُ نومى أسرعى زينبُ فيهاَ
نحنُ يازينبُ لا نكبحُ سكرانَ سَفيهاَ

« تدخلان الحجرة ، وتستتران وراء الباب »

عبد المنعم : « وهو داخل يترنح »
هدى ذاتُ الفدادينِ هدى

الست هدى : فكِّرْ فى طينى

عبد المنعم : من لىَ بالزبرجدِ ؟ من لىَ بالزُّمُرُّدِ ؟
ياليتَ ذاكَ فى يدى ! ...

الست هدى : سمعتِ ؟ عبدُ المنعمِ قد هام فى خواتمى

« يجتاز « عبد المنعم » القاعة إلى حجرة نومه »

الست هدى : زينبُ انظرى ما الذى صنَعْ ؟

زينب : جاءَ حجرةً ثمَّ فاضْطَجَعْ
فلندعْهُ فى النـــوم فلْندعْ
الآن أستودعك الله هُدى
محفُوظةً ،

الست هدى : لا تُهمليْنى زينبُ ! ...

« تخرج زينب »

« تسمع ضجة بالسلم ... »

الست هدى : ما الصوتُ ؟ . . .ما أسمعُ ؟ من يا تُرى ؟
ما هذه الضَّجَّة فى السُّلَّم ؟
هذا خطُوطى وكُحْلى وتلك صبغةُ شعرى
لم أنس حُمرةَ خدِّى لم أنس زينةَ صدْرى
وهذا الثوبُ ما أبهى!. وهذا الخُفُّ ما أحسنْ!.
ومنديلى على رأسىَ ما أحْلى ! .. وما أَزْيَنْ!...
وهــذه خَواتمى بهــا يدِى مُرَصَّعَهْ
وهــذه قلائدى فى لَبَّتى مُلَمَّعهْ
اقترب الصوت وتلك أرجلُ
تَدِبُّ عند البابِ ، مَنْ ؟

أصوات : هل ندخلُ ؟؟

الست هدى : ادخُلْنَ ! .. أهلا وسهلا ومرْحباً بالحبائب

« تدخل أربع فتيات من بنات الجيران : « خديجة » و «أسماء » و « بهية » و « إقبال »

خديجة : صباح الخير يا عمةُ

الست هدى : صُبِّحْتُنَّ بالخيرِ

« خديجةُ » ابنتي هُنا ؟ هذا هو التفضُّلُ !..

خديجة : إنْ أنا بالعمَّةِ لم أسلْ ، فعمَّن أسألُ ؟..

الست هدى : أنتِ ابنتي ستأخُذينَ خاتَمِي الزُّمرُّدا !..

خديجة : اليوم يا عمةُ ؟ ..

الست هدى : لا ! ..

خديجة : متى إذن متى ؟ !

الست هدى : غدًا ! ..

من بعدِ موتي ،

خديجة : لا تموتي ، أنا عمتي الفِدا ! ..

الست هدى : « لأسماء »

: وأنت يا أسما إذا مِتُّ غدا

أخذْتِ هذا الخاتم الزبرجدا

أسماء : لا كان يا عمةُ عشتِ الأبدًا ! ..

اقبال : أسماء يا عمةُ مخطوبةٌ ،

الست هدى : لِمَنْ ؟

اقبال : لشيخ عمدةٍ في الصعيد !

الست هدى : حــذارِ يا أسماء أنْ تَفْعَلِي

أسماء : أنا ؟ أبي يَخْتَارُ لي منْ يُريدْ !...

الست هدى : قُولِي لهُ : العُمْــدَةُ جَرَّبْتُهُ

أسماء : أقولُ ؟ مَنْ يَسْمَعُ أوْ مَنْ يَعِي ؟...

إن أبي صعبٌ ولا أجترِي

الست هدى : إذَنْ دَعِيني أنَا أفعل ، دعِي !...

« لبهية »

وأنت يا ابنَتِي ؟

بهية : خُطِبْتُ من زَمَنْ

الست هدى : مِنْ زَمَنٍ ؟ تبارَكَ اللهُ، لِمَنْ ؟...

بهية : لضابطٍ في الجيش !

الست هدى : ضابطٌ ؟

بهيه : أجلْ ! ...

الست هدى : أحْسَنْتِ ، أحْسَنْتِ ، تَخَيَّرْتِ الرجلْ !...

بهية : ما اخترتِ يا عمَّتي ولــكنْ أبي وأُمِّي تخيَّرَا لِي !...

بناتُ مصرَ يُخْطَبن لَـكِنْ لا يتناقَشْنَ في الرجالِ !...

نُبَاعُ يا عَمَّتي ونُشْرى ما نحن إلا عُروضُ مالِ !

الست هدى : «لأسماء»
وكيف أختُك « بَنْبا »

أسماء : تقبِّلُ اليدَ

الست هدى عشتِ

أسماء : مخطوبةٌ هيَ أيضاً !...

الست هدى : ماذا تقولين بنتي ؟. .
مَنِ الكبيرةُ ؟ « بَنْبا » أمِ الكبيرةُ أنتِ ؟...
عمرُكِ بالتَّخمين

أسماء : لستُ خالتي مُخَمِّنَهْ
في رجبَ الّذي مضى أتممْتُ عشرين سَنَهْ

الست هدى : عشرون أنت يا ابْنَتي إذنْ فما عُمْري أنا ؟

أسماء : ستُّون يا خالَةُ ؟

الست هدى : سَنَهْ لم أرَ مِنْكِ أرْعَنا

أسماء : خمسون يا سيِّدتي ؟ !

الست هدى : كذبْتِ كِذْباً بَيِّناً

أسماء : إذنْ ففي العشرينَ يا خالةُ أنتِ وأنا !

الست هدى : هذا الحديثُ عَبَثٌ خُذِي بنا في غيْرِه !
كل امرىء داخلُها برزْقِه وعمرِه

خديجة : أُسكُتى أسماءُ خلِّى السنَّ ما هذا الفضُولْ ؟ ...
هى يا خالةُ حمْقى ليْس تدْرى ماتقُولْ !...
أنتِ يا خالةُ فى وجْهك قد خُطَّ القبُولْ !...
لا مشيبٌ لا اصفرارٌ لاغُضونٌ لا ذُبُولْ !...

الست هدى : سمعتِ أسماءُ ؟ علِّميهاَ ما القَوْلُ ؟

خديجة : بل أنْت عَلِّمينا !...

الست هدى : صُنَّ جمالَ الوُجوه صوْناً فالسنُّ بالوجهِ لاالسِّنينا !.

« يسمع صوت خارج الحجرة »

ماذاك عنـــد الباب ؟ صوتُ رجلٍ ؟

القادم : سيدتى! ... أدخلُ ؟

الست هدى : « ألمــازُ » ، ادخُلِ ! ...

« ألْماز »أغا ! ...

الأغا : سيِّدتى ! ...

الست هدى : يا مرحباً يامرحباَ ! ...

الأغا : أرسَلَتنى حرمُ الباشاَ

الست هدى : أعِدْ

الأغا : أرسلتْنى حرمُ الباشاَ إليكِ

الست هدى : هذا أغا الباشاَ اقترِبْ ماذا وراءَ القادِمِ ؟

الأغا : أحمــلُ يا سيِّدَتى تحية الهوَانِمِ !...

الست هدى : بالله « ألْماَزُ » إلا جلستَ بالقُرْب منّى
تُحِبُّ بنىّ تجَرِّب بُنَّ السَّراى وَبُنَّى

« تناوله قهوة »

ما للهوانم « ألمـــازُ » ليس يسألنَ عَنى ؟!...

الأغا : نسيتِ يا سيِّـدتى أمسِ ، أمَا كُنَّ هُنَا؟...
الست هدى : ومن أنا حتى تزورنى الشُّمُوسُ منْ أنَا ؟ ! ...
الأغا : واليوم يا سيِّدتى أرسلْتَنِى بالمرْكَبَهْ
الست هدى : جئتَ إذنْ فى طَلَبى ؟
الأغا : أجلْ ، وتحتُ العَرَبَهْ
الست هدى : أَيَّتهُنَّ يا أغَا ؟
الأغا : « فيكْتُوريا »،ألْقفلهْ ؟
ذاتُ الرَّفَارفِ الخفَا فِ والسُّتُور المسْدله ؟

ركوبةُ الهانمِ فى الأعْيَـاد والمـواسم ؟
إلى السرايات مِنَ الإنشاَ إلى الهيَاتم ؟

الست هدى : « للفتيات »

«الجوانتى» هُنَاكِ « أسما » انظُريهِ
أُنْظُرى يا « خـديجةُ » الفرَجيَّهْ

« وهى تلبس »

انظُرى « إقبالُ » ما أجمل هذى الفرجيَّا
انظُرى شالىَ « أسما » كيف حلَّى كتفيّا

ثم انظُرا هُنَاكَ يا بنتىَّ فوق الـكَنَبَهْ
مرْوَحةً من النَّعَامِ بيـــدٍ مُذهَّبَهْ
وخلِّيَا هناكَ لى مروحةً
عاجًّاوأُخرى كلُّهامن الصَّدفْ

خديجة : « همساً »
أسماء ! ...

أسماء : أختى ! ...
خديجة : أبيتٌ أممعملٌ من مراوحْ ؟! ...
أسماء : ما تصنَعينَ خالتى بهذه المراوحِ ؟ ! ...
الست هدى : أنا ابْنَتِى مولعةٌ بهَا وبالرَّوَائحِ ! ..
ذكَّرتِنى « أسماء » لا تنسَى الوردَ -
على الرَّفِّ ولاَ اليَاسَمِين

أسماء : خالةُ ماذَا ؟
الست هدى : كلُّ شىءٍ عندِى
أسماء : أأنتِ سمعانُ أم المَاوَرْدِى ؟
الست هدى : « أسماء » تعالَى انظرى
كيف ترَيْنَ رِجْلِيَا ؟ !

هذا الحذاء هل تُرى
يليق للفِـكتُورِيَا ؟! ...
أسماء : خـالة لا تُبـدَّ لى
هذا الحذاء « مملـكَهْ » ! ...

الست هدى : اللهُ يا بُنَيَّتِي
يطرح فيكِ البَرَكهْ ! ...

« للأغا »

« ألماز » هيَّ ننطلقْ طالَ وقوفُ المربَهْ
لا أحدٌ فى الخُطّ إلاَّ استوقفَتْه المرَبَهْ
لحارة قائمةٌ وحارةٌ مُنقَلِبَهْ

الأغا : سيدتى لا تخافى مركبتى لا تحِزْ
الست هدى : «ألمازُ» أنتَ ظريفٌ ومركباتك عِزٌّ

« للفتيات »

قد آن أن أجيبَ دعوةَ الأغا
هيَّ ابنتَىَّ هيَّ ألبسانِي

« الفتيات يشتغلن بلباسها ... »

الست هدى : « لخديجة وأسماء »

أنت ابنَتِي وهذه فتاتِي بناتُ جاراتِي وصاحِباتِي
إذا حُرِمْتُ النسلَ هنّ بناتِي

وكل ما فوقَ صَدْرِي وفى يدِى من «مصاغِ»
وكل شىْء ببيتى لكُنَّ بعد دماغِي

ســـــتـــار

الفصل الثانى

« فى قاعة الدار »

« عبد المنعم يتناول طعام الفطور ... الست هدى »

« عبد المنعم ينادى حلمى الكاتب وهو تحت . . . »

عبد المنعم : حلمى ! . . . تعالَ ! . . .

حلمى : سيِّدى ! . . .

عبد المنعم : تعال يا ابنى إصْعدِ

« يحضر حلمى »

تعالَ قرِّبْ « شَلْتَةً » تعال هَهُنَا اقعُـدِ

صُبِّحْتَ بالخيرِ أهـلا

حلمى : يا صَبَّحَتكَ السعادة ؟ . . .

هذا الفَطور سيـدى بصحةٍ وعافيهْ ! . . .

عبد المنعم : تعال جرِّب هذه الصناعهْ

حلمى لقد أكلتُ الفول منذُ ساعهْ

عبد المنعم : تلك بضاعةٌ وذى بضاعَهْ

حلمى : « وهو يأكل »
الفول يا سيدى لذيذٌ

عبد المنعم : الفولُ من حارة النصارى
والعيش من مخبز الرمالى

الست هدى : والزيت من مَعْمل «البَدَارى»

عبد المنعم : البدارى ! ما تِلْك ؟ لا تِلْكَ سوقٌ
قد سمِعْنَا بها ، ولا تلك حارَهْ ! . . .

حلمى : وليمونُكِ يا هانمُ

الست هدى : كالشهْدِ وكالسُّكرْ

حلمى : ومن أين به جىء ؟

عبد المنعم : من الجنّة والكَوْثرْ ! . . .

الفول يا حلمى لذيذٌ فكلْ
وخلِّ ما تسمع من دَشِّها
فما على الدنيا سوى أكلها
ولا على الأرض سوى فَرْشِها

كلْ ، كلْ ، ولا تُصغِ لها فإنها مُمَخْرَقَهْ
وكل شىء لم يكنْ قادرةٌ أن تخلقَهْ

السّت هدى : لا أيها الفاضل، لا ما أنَا بالحاميَهْ !...
أُثير من شقْشقَةٍ زوبعةً فى آنيهْ !...

حلمى : وما ذاك يا سيِّدى فى يديْك ؟

عبد المنعم : ألذُّ من اللّبن المزْبدِ
زبيبٌ !!...

حلمى : على الرِّيق ؟!...

عبد المنعم : لا يا غبىُّ !...
على الفول !...

حلمى : أفْطِرُ يا سيِّدِى !...

السّت هدى : نحن ياحلْمى هلكْنَا أصبحَ المنزل حانَهْ
صار لا يكفى المحامى كلَّ يوْمٍ «جدانَهْ»!...

زينب : « لدى الباب »
العَوَافى !...

عبد المنعم : صوتٌ لدى الباب

السّت هدى : هذى زينبُ جارتى، تعالَىْ تعالِى
« لزوجها »
خبِّىءِ الخمرَ أخْفِ ما أنت فيه

عبد المنعم : دعْنَى، دعْن، ما لكُنَّ ومالى ؟..

السّت هدى : ادخُلِى جارتى ادْخُلِى، هىٍّ خُشِّى
« لزوجها » خبِّىءِ الخمر !...

عبد المنعم : أَتْرُكينى وَحالى

الست هدى : أدخُلى زينبُ ادْخُلى لا تهابى
زينب : مَنْ هُنا ؟ قد سمعت صوت رجال ! . . .
الست هدى : الأفندى وسِكْرِتير الأفندى
ادخُلى ، لا غريبَ زينبُ عندى
زينب : الأفندى وتقولين ادخلى ؟
الست هدى : ادخلى ليس سواه ها هنا ؟ . . .
ما الذى تخشَين ياأخت ادخلى
زينب : لا ، دعينى ! . . . أنا لم أنس العَصا

«زينب تنصرف مذعورة ، ويظهر «ألماز أغا» لدى الباب»

ألماز أغا : صباح الخير يا هانمُ
الست هدى : مَن ؟ صُبِّحتَ بالخير
«لزوجها»
هذا أغا الباشا أتى وفيم جاء يا تُرى ؟ ...
إرم الزبيب من يديك فهو من أهل التُّقَى
عبد المنعم : لينصرف لشأنه فما لَه وما لنا ؟ . . .
الست هدى : إرم الزبيب قلتُ
عبد المنعم : لا
الست هدى : يستهزئ الناس بنا
قم امض حلى بالزبيب ، بل به أمضى أنا
« تخبىء الزبيب ... فيدخل الأغا

الأغا : سيدتي ، عندكِ ناسٌ ؟

الست هدى : ماسوى زوجي هُنا

أغا : « للزوج »

عافيةً ياسيدى هذا فطورٌ أم غدا؟...

عبد المنعم : ادنُ تفضَّل ، كلْ معى فولٌ لذيذٌ ياأغا

الأغا : بصحة يا سيدى أكلتُ من وقتٍ مضى

عبد المنعم : لا ، لا ، بل ادخُل ياأغاَ ادخُل مكاناً غيرَ ذا

هذا المكانُ قذرٌ خذيه ثَمَّ يا هُدَى

الأغا : ياحبَّذا المجلسُ لولا شُغُلٌ داعٍ لقضَّيتُ النهارَ هَهُنا

حلمى : وما الذى يشغُلكَ الآنَ ؟

عبد المنعم : ومايعنيك يا أحمقُ من شأنِ الأغا ؟

الأغَواتُ تنقضِي أعمارُهم بينَ السَّرايات هناكَ وهنا

« همساً »

اتركه يمضي يا غبي فلا أريدُه هُنا

حلمى « للأغا » : أنت ظريفٌ ياأخي

الأغا : أنت الظريفُ لا أنا

« للمحامى »

مـاسم أخينا؟

عبد المنعم : ذاكَ «حلمى» كاتبي

الأغا : السـكرتيرُ؟.... مَرْحَباً يامَرْحَبَا

والآنَ فى حراسة الله

حلمى : انتظرْ ياسيدى ! ...

عبد المنعم : «همساً»

دعهُ ! . . .

حلمى : انتظرْ نَخْرُجْ معاَ

عبد المنعم : وأين ياحلمِى؟

حلمى : أشيِّعُ الأغاَ

الأغا : لا سـيدى بالله

حلمى : لا ،

الأغا : بل ابْقَ !

حلمى : لا ! . . .

الأغا : لى كلْمَة ياسيِّدِى أقولُها للهانِم

عبد المنعم : «مبتسما» اذهبى مع الأغا هُدى

الأغا : ياسيدى الهانمُ أختى. لا تخفْ

حلمى : أنظر إليه ما أخفَّه دماً ! . . .

عبد المنعم : إمضِى هدى هلُمِّ شيِّعى الأغَاَ

الأختُ ياهدى تشيع الأخا

«السيدة والأغا يخرجان»

الحمـــد لله على نعمتـــه زال العـــناَ

أشربُها ؛ فلا هدى ولا الطواشىُّ هنا

لى ساعةٌ ما ذاقَها أنفِى ولا ذاقَ فمى

«ويخرج الكأس من مخبئها بين قدميه»

حتى لَكِدتُ من ظَمى أشربها بقـدمى
حرمت منها ساعةً وأنتَ كنتَ السببَا
سبحان من لم يُعطِك الفهْم وأعطاكَ الغَبَا
الآن تأتى هدى فـكن فطناً حلمى و كن ثعلباً وكن حذرا
إن هدى ذئبةٌ

حلمى : علىَّ أَجِلْ
سوف ترى ما أكون ، سوف ترى

ما ذاكَ أولُ نصب جرَّبتَ فيه صبيَّك

عبد المنعم : احفظ لسانك حلمى فمالُ زوجىَ مالى
حلمى صهٍ هاهى ذى عائدةٌ

حلمى : من يفتحُ الحديث ؟ أنتَ أم أنا ؟

عبد المنعم : بل أنت ثم خلِّ لى تمامَه

حلمى : ولِمَ لا نقتحم النارمعا

« تدخل هدى »

عبد المنعم : هدى

الست هدى : لقد كنتَ غليظاً جافياً
ولم تعظِّم الأغا

عبد المنعم : قد كنتُ مشغولا بلقمتى هدى

الست هدى : تعاقرُ الخمر ضُحى ! . . .

ولو رآكَ لجرتْ فضيحة

عبد المنعم : لـكن مضى وما رأى ! . . .

حلمى : رأيتِ سيدى وكيف ساسَهُ وكيف دارَى وَاتَّقَى ؟!
لأجل عينيكِ رمى الزبيب منْ يديْهِ

الست هدى : ألرِّجْسَ رمى ! . .

عبد المنعم : الآن أَسمِعِى يا هدى مسألة آن بها أن يُعتنى

الست هدى : وبمْ تريدُ أَعتنى ؟

عبد المنعم : بمكتبى ،

الست هدى : وما الذى له جرى ؟

عبد المنعم : يكادُ مكتبى يكون مقفلاً

الست هدى : ما ضَرَّنى أن يُقفلا ؟!..

حلمى : سيدتى المكتب «أبعادية» هل تتركانه سُدى ؟!
غَلَّته ألفان كلَّ سـنةٍ

الست هدى : وكيف ذاك ؟ ومتى ؟

حلمى : بل زاد عن ذلك يا سيدتى
بالأمس ، من عامٍ مضى

الست هدى : وما الذى تريدُ أن أصنعَه ؟

حلمى : مُدِّى لزوجك اليدَا

الست هدى : وكيف ياحلمى ؟

حلمى نبيعُ الطينَ أو نرهنُه إلى مدى

الست هدى : طينى أنا أبيعُه ، أرهنُه ؟ ماذا تقول يافتى ؟ ..

حلمى : لقد عرضتُ صفقةً رابحةً

إن أُنقذ المكتب أنقذْنا الغنى

الست هدى : حلمى تعقَّل ! ..

حلمى : دعينى « المتر »[1] أُغرق دينْنا

كنا نقيمُ الدعاوَى صارتْ تقامُ علينا

فى كل يوم يطلبون « المتر » بالقدَم

ويلى عليك سيدى ويلى على معلِّمى

غدا ترين سيدى فى قفص التُّهم

الست هدى : « لنفسها »

أتسمعين يا هدى ؟

إبكى هدى ، اندُبى ، الطِمى ! ..

غدا يقولون : هدى تزوجت بمجرمِ

حلمى : المحامى عليه للناس دينٌ

تصلحُ الحالُ حين نُخلص منه

دَينُه أنت تقدرين عليه

مائتا ليرةٍ[2] ؛ فأدِّيه عنه ! ..

(١) أى الأستاذ المحامى

(٢) الليرة الجنيه

الست هدى : أؤدى الدينْ ياحلمى ؟ ومن أين ؟

حلمى : من الطِّين

الست هدى : وماذا بعدُ يبقى لى إذا بعتُ فدادِينى ؟

« لنفسها »

لولا فدادينى وغلاتُها ماطاف إنسان على بَابى

بهاتزوجتُ وفى قطنِها كفَّنتُ أزواجى وخُطَّابى

« لحلمى »

أنا أؤدى الدين عنه ، أنا

ما تستحى يا شَابُّ ما تخجلُ ؟

حلمى : ألستِ يا سيدتى زوجه والزوجُ عن صاحبها تحمِل

الست هدى : أحمل عن مستهترٍ يومَه وليلَه سكران لا يعقل ؟

« تنادى »

رضوان !...

« يدخل رضوان »

رضوان : منْ ؟ « ستّى » ؟

الست هدى : « همساً » رضوان !...

رضوان : مولاتِى !...

الست هدى : اذهب على الفور أدعُ صديقاتى

« يخرج رضوان »

« عبد المنعم يتمشى مغضبا »

عبد المنعم : « لحلمى »

قد قلتَ ياحلمى الصواب إسمى هذا هو الصدق هدَى
مكتبىَ الثروةُ مكتبى الغنى لا مكتب إلا أنا

الست هدى : أنت ؟ لأنت حانة تنقلتْ وأنت برميل مشى
وأنت شىء فى الرجال ضائعٌ وعالةٌ على النسا

حلمى : سـيدتى لا تشتمى سيدتى لا تغضبى
طينك قد تُرجمه قضيةٌ فى المكتب

عبد المنعم : إنىَ لم أخطبْكِ يا هدَى لفرط حسنِكْ
ولا تزوجتُـك يا صغيرتى لسـنكْ
ولا وقعتُ فى البلا ء لسوادِ عينِكْ

الست هدى : إذن لطينى بى تزوجت ؟

عبد المنعم : أجلْ لطينكْ ! ..

الست هدى : وأنا يا محامىَ الشوم ِما اخترتُك للقبح والمحيا الدميم ِ

عبد المنعم : هذر بيِّنٌ وقولٌ هراءٌ لِمْ إذن قد قبلْتنى لك بعلا

الست هدى : ذكر الخاطبون فضلك عندى
فإذا أنت لست للفضل أهلا

عبد المنعم : إذن دعى الزبرجدا لى ودعى الزُّمرُّدا
وكلّ ما حلّيتِ منه الـكفّ والقلّدا

الست هدى: : ولمْ ؟ قل لي : أمالُ أبيكَ هذا ؟
أأمك خلفتْ هذِي الحُليّا ؟

عبد المنعم : ألستُ الزوجَ ؟

الست هدى : لا ما أنت زوجٌ

عبد المنعم : فما أنا ؟

الست هدى : بل طُفَيْلِيٌّ عليّا

عبد المنعم : هاتِ مصوغكِ !..

الست هدى : لا

عبد المنعم : إذن لابد لي من فلْق رأسِك

الست هدى : تضربني ؟ أهكذا يكون شكرُ الحسنَهْ ؟

« وتتناول عصا »

تضربُني أنا التي تأكل زادي من سنهْ

عبد المنعم : حلمي!... تقدّمْ نحوها خذ العصا من كفها

حلمي اختطف منها العصا

حلمي : ما حاجتي بخطفها ؟
أما تراها كاللبّاة في مثار عُنفها

عبد المنعم : طِرْ ياجبان ، وانتزع من الخبيثة العصا

حلمي : بل الجبانُ من يُجرّدُ العصا على النّسا
تريد أن تأخذ بالقوة منها مالها ؟
فما لها لا تستميت في الدّفاع مالها ؟

الست هدى : يا ويلتا واخجلى وعارى لى رجلٌ بأذُنىْ حمار
أضحوكة الجارة شغل الجار لم يُرَ إلا طافحاً فى الدار
ثيابُه كفوطة الخمَّار تنضحُ بالليل وبالنَّهار

عبد المنعم : أتسمع حلمى كلام العجوز ؟ وماتقذف الرِّمَّة الباليهْ؟
أخذتُ عصاى لتأديبها فَجُرَّ عصاك وقفْ ناحيهْ

حلمى : رأيت رجالاً يضربون نساءهم
فشلَّت يمينى يوم تُضرب زينب (١)

« تدخل زينب ثائرة وراءها نساء من الحارة »

زينب : من قال تُضربُ زينبُ؟ من قالهاَ ؟ أنا أُضرَبُ ؟
: من قال ذلك ياهدَى ؟ لأريه كيف يؤدبُ ؟..

الست هدى : ما قالهاَ كاتب المحامى وإنما قالهاَ المحامى
زينب : إذنْ هو السِّكِّير يا أخْت
الست هدى : أجلْ

زينب : ماتستحى تقول ذاك يارجلْ؟
منذ متَى فارق وجهَك الخجلْ ؟

الست هدى : دافعى زينب عنى شاركينى ما أقاسى
منذ حينٍ أوعدَ السكِّيرُ أن يَفلق راسى
إن أنا لم أعطه دُرِّى ويَاقوتى ومَاسى

(١) بيت قديم .

زينب : إذن دعيني هدى دعيني أُنزِلْ على زوجك انتقامى

عبد المنعم : حلمى تأملْ هـذه عصابةٌ

من خدم البيت ومن بعض النِّسا

قد نظرتْ فى البيت حتى جمعتْ سلاحهاَ من ههنا وههنا

زحَّافةٌ مكنسة مِغْرفة ونحن ما فى يدنا غيرُ العصا

حلمى تأهَّبْ إستعدَّ دافعِ

حلمى : قفْ أنت ، عن رأسك حامِ ، رافعِ ا.

أسامعٌ أم أنت غير سامعِ ؟

انظر إلى الزَّحافهْ تدور فى لطافهْ كعنق الزَّرافهْ

عبد المنعم : وتلك ؟

حلمى : تلك المِغْـرفة كالعقْرب المؤلَّفـهْ

النساء : « يضربن المحامى ويقلن »

اضْربْنـهُ حـتى يقـعْ

اضربْنـه ، خـذ يا لُـكَعْ

كيف ترى ؟ أين الوجـعْ ؟

عبد المنعم : أَجِرْنىَ حلمى تعالَ احمِنى

حلمى : أنا ؟ خلِّنى ، خلِّنى ، أهربِ

علىَّ من اليوم لا تعتمد

فإنى استقلتُ من المكْتبِ

عبد المنعم : « لحلمى وهو منصرف » :

قف يا جبانُ تعالَ !... قلتُ

حلمى : لا تنتظرنى إنى استقلتُ

أنت تعرضت لذا إبق!... خذالزّبرجداً..

وأنت كنت المعتدى أقم!... خذِالزُّمرُّدا..

إنىَ مستعفٍ

عبد المنعم : والأجر ؟ ننساه ؟

حلمى : الأجر قد ضاَع يعوّض اللهُ !...

الست هدى : زينب تلك صخرةٌ بغير حسٍّ فاضربى

« تضربه »

أسما خديجةُ اضربا رضوانُ أدِّبْ أدِّبِ

هذا هو الفولُ فكلْ هذا الزبيب فاشربِ

خذ من يدى الزبرجدا خذْ من يدى الزُّمرُّداَ

وخذْ إن اسطعْت اليدا

عبد المنعم : حسبي هُدى كفى كفانِى ضربا

قد كان هذاَ اليومُ لى مُخبَّا

سلّمتُ رايتى فكُفِّى الحربا

الست هدى : إن أنا خلّصْتكَ ماذا تصنعُ ؟

عبد المنعم : أذهبُ !...

الست هدى : ثم ؟ . . .

عبد المنعم : أبداً لا أرجعُ !..

الست هدى : اخْرجْ إذن وَلِّ القفا يا لُكعُ

قف يا محامى لِى استمعْ واسمعَن يا مَنْ ههُنا
النـــذلُ قد ردَّ الطلاق لمشيئـــتى أنـا

« تخرج عقد زواجها »

عصمتى منكَ فى يدى شهدتْ لى الوثائقُ
إمض يا نذلُ لا تُمدْ إنكَ اليوم طالقُ !..

ستـــار

الفصل الثالث

« بحجرة بالطبقة العليا من دار المرحومة
« الست هدى » . « السيد العجيزى » من أعيان
الريف وزوج المرحومة « الست هدى »

العجيزى : « لنفسه »

المالُ صار يا عجوزُ مالِى
وأصبحَ البيتُ وما حوَى لِي
من بَعْدِ عشْرةٍ من الرِّجال

نَعم رجال كثيرٌ ماتوا بحسرةٍ مَالِكْ
كنتُ الموفّقَ وحدى لما ظفرْتُ بذَلكْ

الطين فى « بَنها » كما قيلَ لِى
من أجوَدِ الأطيانِ فى الناحيهْ
وفى الضواحِى ياعجيزِى ابتهجْ
ما قيمةُ الفدان فى الضاحيهْ ؟

والبيتُ مِلكٌ قيِّمٌ وإن مشى فيه القِدمْ
مُهَنْدَمٌ مُنَوَّرٌ من رأسه إلى القَدمْ

بأيسر البياضِ والترميمِ يحيَا من عَدَمْ

ما قيمة البيت يا عجيزتى
وما يساوى إن بيع يوما ؟

قد قيل لِى هى ألفٌ
وقيل ألفٌ ونصفُ

والفرشُ شىءٌ حسنٌ الفرشُ لا بأس بهِ
لا بدَّ من تنجيدِهِ لا بدَّ لى من قلبهِ

الكنَبَاتُ خشبٌ زانٌ وسنديانُ
قيِّمَةٌ يبدو على صانِعِها الإتقانُ

وهذه سَجادةٌ نادرةٌ ذاتُ ثمنْ
وهذه أخرى علَيها قد تقادَمَ الزمنْ

وصيغَةُ العجوزِ والحلىُّ
أين تُرى موضعُها الخفىُّ ؟

أسألُ « رضوانَ » فمالِى غيرُه من مُرْشدِ

« ينادى »

رِضوان ! . . .

رضوان : من ذاكَ يناديني ، أأنت سيدى ؟

العجيزى : رضوان أنتَ صادقٌ تعالَ «رضوان» اصعدِ !

« يحضر »

رضوانُ قل ياوَلَدى أين مكان الصيغَةِ ؟
فى أى موضع تُرى جواهرُ الميِّتَةِ ؟

رضوان : « مَصَاغُهاَ» ياسيدى ليسَ هنا

العجيزى : أيْنَ إذَنْ ؟

رضوان : فى منزلِ الباشا « صفَرْ »
قد ذهب الأغا به فى عُلْبةِ

العجيزى : منذُ متَى ؟

رضوان : من نحو شهرٍ قد غَبَرْ

العجيزى : فى المرضِ الأخيرِ ؟

رضوان : فى أوّلِه

العجيزى : وأين كنتَ ؟

رضوان : كنتُ فى بعضِ السفَرْ

العجيزى : أمانَةً ثم تُرَدُّ

رضوان : سيِّدى أعلم منِّى بالدخائلِ الأُخَرْ

العجيزى : وكنت أنت حاضراً ؟

رضوان : أجلْ حضرتُ يومَ ذاكَ ، وخدمْتُ منْ حَضَر

« صوت من الطبقة السفلى »

يا صاحبَ المنزلِ

العجيزى : مَنْ

الصوت : ثلاثةٌ محمدٌ وعامرٌ وأحمدُ

جئنا نراكَ ساعةً فقُلْ لنا

تنزلُ أم نحنُ إليكَ نصعَدُ

العجيزى : قد حللتم بداركمْ اصعدوا عِندِيَ اصعَدُوا

« لرضوان »

رضوان أجلسْهم هنا وحيِّهم حتى أجى

وجئْهُمُ بقهوةٍ من عَزَبانَ «القهْوَجى»

« الثلاثة يصعدون »

رضوان : تفضلوا ياسادتى الآن يأتى سيِّدى

« ويخرج »

محمد : ثروة ضخمة

أحمد : وخَيْرٌ كثيرٌ

محمد : كلُّ هذا إلى العجيزىِّ آلاَ

أصبحَ الكلبُ بعد أن كانَ يمشى

ينفض الجيب أكثرَ الناسِ مالاَ

أحمد : و « المصاغُ » « المصاغُ » بالروح أفديه

فماذَا من لؤلؤ وزبرجدْ !؟.

محمد : وهل نسيتَ يا أخى خاتمهَا الزمُرُّدَا ؟!

فهم يقولون يساوى مائةً وأزْيَدَا !

أحمد : قد ارتدَى المغفلُ الحريرًا

محمد : واتخذ الشاهِىَّ والكشميرَا

أحمد : إذا مشى حسبته أمِيرَا

وحذاؤه ، أرأيته ؟

محمد : لا ، كيف ، كيف حذاؤهُ !

أحمد : تسبيك رقته ويأخذ ناظريك بهاؤهُ ! . . .

والحزام الحزام ، رقعة كشميرٍ تمنيت أن أكفَّن فيها

وكم وكم من قيِّمٍ قد اقتنى بعد السَّعَهْ

ذاكَ الحمارُ تحتُ مثلُ الشمعة الملمَّعَهْ

محمد : لا ياأخى الحمار شىءٌ من شهور أربعهْ

قد اشتريتُه له وكنتُ فى السوق معهْ

إن زاد شىء فاللجامُ أو يكون « البردعَهْ »

أحمد : الطين ياعامرُ الطين عجبْ !...

الطين أبعاديَّة من الذهبْ

والبيت ياسيدي محمدْ البيت فخم البِنا مُشَيَّدْ

محمد : كم ياتُرى الأرض والمبانى ؟

أحمد : ألف ذراعٍ وقيل أزيدْ ! . . .

محمد . عامرُ لِمْ سكتَّ لِمْ وما ابتلاك بالبَكَمْ ؟ !

عامر : صهْ فى غدٍ أستأجرُ الطينَ

محمد : وكيف وبِكَم ؟

عامر : ذاك فنّى

أحمد : مذ كان يُستأجَر الطين

عامر : أجل تلك صنعتى يا عزيزى

في غد تكتب الشروط وأمضى

نحو « بنها » أحتلُّ طينَ « العجيزى »

محمد : ما كالعجيزى رجلٌ يَدْرى اغْتنامَ الفرصِ

إنَّ « هدى » دجاجةٌ باضت لهُ فى القفصِ

أحمد : وقد رأيتَ كيف كان دفنُها

قد دُفنت مثل فقيراتِ النّسا

عامر : لا ياأخى ظلمته إن الذى قام على المأتم والدفن الأغا

جاء من الباشا ومن زوجتِهِ

أخرجها « خرجة » عزٍّ وغنى

« يدخل العجيزى فيقول : »

العجيزى : يا مرحبا بالأحباب يا مرحباً بالصِّحاب
: كذا أُنْسَى، كذا أُجفَى كذا عنّيَ لا يُسألْ ؟

محمد : بنـا شـوق ولـكنّا نرى المشغول لا يُشْغَلْ

أحمد : ياعجـيزىُّ عـزاءَ مَرّةً أخرى عزاء
أنتَ قد أحسنتَ واللهِ وأظهرتَ الوفاء
مثل ما قد دُفنت ما دَفَن القومُ النِّساء

محمد : وما الذى أنفقتَ ؟

العجيزى : خمّنْ ، قلْ على التَوَهُّمِ ؟

محمد : أَمِائةً ؟

العجيزى : فى الدفن ثم مثلَها فى المأتَمِ

« زائر ينادى من تحت »

يا صاحبَ البيتِ !...

العجيزى : « لنفسه » قد صار لي بيتُ

الزائر : يبقى لنـا الحىُّ ويُرحَمُ الميْتُ

العجيزى : « لنفسه »

: يرحمكِ اللهُ هدى خيرُكِ هـذا عَمَّني

الزائر : تهانِئي يا عجيزى لقد وَرِثْتَ جَليلا
تهانئى يا صـديقى قد نِلْتَ خيراً جزيلا

العجيزى : مَنْ ؟

الزائر : « مصطفى النّشَاشِق »

العجيزى : أجئتَني بعُلبَتى؟

الزائر : أجل ! ...

العجيزى : تعالَ اصعَدْ بِهاَ إصعَدْ ، معِى أحبَّتِي

الزائر : معي الفقيهُ الحلبي

العجيزى : يا مَرحباً بهِ ، اصعدَا

« للحاضرين »

ذاكَ فقيهٌ من سبيل دينه عَلَى هــــدى

أتعرفون الشّيخ ؟

أحمد : قل عامرْ

عامر : سَلْ مُحمدًا

محمد : فى « الزينَبىِّ » قد سمعناهُ يرُجُّ المسْجــــدا

ذاكَ الفقيهُ ليس بعدَهُ أحَدْ لـكنّه عندى مُزوِّرُ البَلَدْ

كم حلَّ بالفتوَى و بالفَتوَى عقَدْ

أحمد : ياحلبيُّ أنتَ حبلُ المشنقه

كم لكَ فى الحارات من معلَّقهْ

لم يخل بيت لكَ من مطلَّقهْ

« يدخل النشاشق والشيخ »

العجيزى : هذا هوَ الشيخُ أتى يا مرحباً يا مرحباَ

« للحاضرين »

اســتقبلوه وقِفُوا بين يديْهِ أدَباً

« لرضوان »

البنُّ يا رضوانُ

الشيخ الحلبى : لا .. شيئاً من الـكراويَة

العجيزى : اذهبْ جىء الشيخَ بهـا عاطرةً وصافيَة

النشاشقى : « همساً فى أذن العجيزى ، ويناوله العلبة : »

هذا النَّشُوقُ من نَشوق المُفْتِي

يليقُ للوَارث زوجِ السِّتِّ

آخر : « ينادى من تحت »

صاحبَ البيتِ

العجيزى : سيدِى

الزائر : عِمْ صبَاحاً أنا عبدُ اللطيف شيخُ الحاره

العجيزى : مرحبًا مرحبًا تعالَ تفضّلْ

« للحاضرين »

رجلٌ لا يَرَى ثيَابَ الجارَه

الشيخ : « عند وصوله »

ولـكن أنا ما قَدْرِى ؟ وهـذَا مجلسٌ عالِ

العجيزى : « همسا »
تعالَ ، ما يقولُون ؟

الشيخ : صنوفَ القِيلِ والقَالِ

يعزُّونكَ بالمَيْتِ يهنُّونكَ بالمَالِ

« وهو ينظر إلى جوانب البيت »

تعالَى اللهُ ماأبْهَى ! ... تعالى اللهُ ماأوسعْ !...

مكان الأنسِ والبَسْطِ وبيْتُ النسوةِ الأربعْ

يرحمُها الله لقد كانت ملاكا محسناَ
ولم تقابلْ رجلاً في بيتِها إلّا أنَا

فَكَمْ طعِمتُ وشربتُ وكُسِيتُ هـهنا

البيت لما اشترتْه كان أبي شيخَ حاره

ولم تزلْ كلَّ عام تُجيل فيه العماره

العجيزى : وأنْتَ ؟ ..

الشيخ : كنت ابن خمسٍ فلست أذكرُ شيَّا
إلا ليالِيَ عُرْسٍ لعبتُ فيها صَبِيَّا
لم يدخلِ البيتَ زوجٌ وفارَقَ البيتَ حيَّا

العجيزى : إذن فعمرُ البيت ستون سنَهْ

الشيخ : ومن يقولُ مائةً ماغَبَنهْ

فهم يقولون « الفرنسِى[1] » سكنَهْ

العجيزى : إذن فلقِّبوه بالعتيقِ

أحد الحاضرين : والأرض والموقع يا صديقى ؟

آخر : البيت كله على الطريقِ

الشيخ : بل منزلٌ مباركٌ تسكنه فى عافيهْ

يكفيه ما حلَّ عليه من جلالِ الناحيهْ

فأنت بين الحنفىِّ[2] والبتول الزاكيهْ[3]

لاتنس مَن جارُكْ إنك جارُ (الحَنفِى)

الحاضرون : وكلنا خادمه وكلُّنا فى الكَنفِ

آخر : « يزعق من السلم ويقول : »

ياعجيزى ياصديقى

العجيزى : « فى اضطراب لنفسه »

ذاك داودُ المغنِّى

ربما خـلَّط حتىٰ

أضحك المجلس منى

(١) المراد بالفرنسى نابليون . (٢) السلطان الحنفى رضى الله عنه .

(٣) السيدة زينب رضى الله عنها .

داود : « من تحت »

أيها الوارث قل لى
أأعزِّى أم أهنِّى ؟

العجيزى : « للحاضرين »

ذاكَ داودُ المغنِّى
قد أتى يسألُ عنِّى

داود : لقد أتيتُ ومعى حميده لكى أريها دارَكَ الجديده

العجيزى : « لنفسه »

الويلُ لى الويلُ لى حميدةٌ فى منزلى
كيف أوارِى خجلى ؟ !

العجيزى : « للحاضرين »

أتسمعون ؟ معه زوجتُه

أحد الحاضرين : وما لداودٍ وللتفرجِ

آخر : أصعِدْه ، دعه ياعجيزىُّ يجى

العجيزى : لا ومقام (الحنفىّ) ان يجِى

آخر : قابله لاتُضع عليه سعيَه ليس على أمثالِه من حرَج

العجيزى : لا، ان يطا لى عَتَبةْ سوف أريه أدبهْ

« وينزل فيصرف « داود » ويعود »

زائر آخر : « يصيح من تحت »

الزائر : سيدى ! سيدى ! . . . أأنتَ هنا ؟

العجيزى : مَنْ ؟

الزائر : أنا سلمانُ ياعجيزى أأصْعَدْ ؟

العجيزى : « لنفسه »

ذاكَ سـلمانُ جاء يطلبُ بالدينِ
وقد جُن أمسِ حتى تهدَّدْ

أحد الحاضرين : سلمانُ مَنْ ؟

مصطفى : تجهـلُه ؟ ذاكَ مُرابى الناحيهْ
استرجَعَ الخمسينَ منى بعد شهرَيْن مِيَهْ

محمد : مُسْلمٌ ؟

مصطفى : وابنُ مسلمٍ ولَه جَـدٌّ بقلب الصعيد شيخٌ ولىٌّ
لم يدَع لليهودِ فى « الخط » رزقا
ليس فى « الخط » غيره رِبَوِىٌّ

يا يهودَ الأرضِ قد أصبحَ يشقىْ العالَمون
من بنى الإسلامِ سلمانٌ ومنـكم « سالمون »

محمد : «همسا» وماله والعجيزى وما الذى جاء يصنعْ ؟

أحمد : أليست الزوجُ ماتتْ فالوارث اليوم يدفعْ

العجيزى : سلمانُ يا إخوانُ لمْ يأتِ لديْن أو سندْ

عامر : وما يضير الدِّينُ لم يخلُ من الدينِ أحدْ

العجيزى : لا ، بل علاقتى به علاقةٌ من البلَدْ
آباؤه كانوا وآبائى شيوخاً وعُمَدْ

محمد : نادِ إذنْ يصعدْ فلا بأس فى
مجيئه

العجيزى : سلمانُ سلمانُ
تعال سلمانُ فما ههنا إلا أحباء وإخوانُ

« يدخل سلمان ويقول للعجيزى »

سلمان : قيل لى عنك مطلَقُ البطْن شاكٍ
كيف ياسيدى العجيزىُّ حالُكْ ؟

العجيزى : أحمدُ الله قد تعافَيتُ فاجلس
«همسا»
لا تخفْ ، فى غدٍ يوافيك مالُكْ

سلمان : أمامَكَ شهران حتى تفيقَ
وتهدا فلمْ لاتمدُّ الأجلْ ؟ ! . .
وتدفعُ خمسين فوقَ الحساب
إذا الإرثُ من كل وجه كَمَل ؟!.

دواتى علىَّ وفيها اليراعُ وأنتَ بخير وهذا السندْ
فخذ فضع اسْمَكَ

العجيزى : سِرٌ فى الرواقِ لا يطلعُنّ علينا أحد

« ينصرفان »

محمد : قددخلا فى الرُّواق سرًّا وفاز بالوارثِ المُرَابى

أحمد : وبين هذا وذا حسابٌ ويعلم الله بالحسّابِ

« يعودان »

سلمان : « همسا لمصطفى »

يامصطفى يانشوق

لَبَّيْكَ سلمانُ أهلا

سلمان : لى كِلمةٌ فادْنُ منى لا تنسَ، دينُك حَلاَّ

العجيزى : ماذا يقول المرابى ؟ وما أسرَّ إليكا ؟

مصطفى : يريد منى نَشوقًا مما رأى فى يدَيْكا

الحلبى : الحق أنه نَشُوقٌ طيبٌ

مصطفى : وفيهِ يا فقيهُ عرقُ العنبرِ

الباشوات كلهم قد أقبلوا عليه والمفتى وشيخُ الأزهرِ

وسيدات « الخط » من حين إلى

آخر يبعثن الأغا فيشترى

عامر : « فى سخرية »

السيدات ؟ أأنثى

على النَّشوق تطوفُ ؟

مصطفى : لمْ لا ؟ أما هُنَّ خلقٌ أما لَهُنَّ أنوفُ ؟

لا تنس يا عامر ! . . .

عامر : ماذا مصطفى ؟

مصطفى : لا تنس ياأخى أعزَّ الناسِ

أمُّك كانت من غَرامها به تأخذُه مِنّى بالأكياسِ

عامر : أمى أنا يا رجلاً لا يستحى نشاشِقىٌ يذكر الخدَّره

« يتناول كل من مصطفى وعامر عصاه »

مصطفى : وأى عارٍ بالنشوق إنما

العارُ كل العار شغْل السمسره

شيخ الحارة : خذوا العَصا من « عامر » و« مصطفى »

إنى أخافُ أن تكون « مَجزَرَه »

عامر : دعوهُ لى لابد من تحطيمه

مصطفى : خلّوه لى لا بد أن أُكَسِّرَه

العجيزى : وحرمة الميْتةِ تنسيانها وحق بيتى لاتراعِيَانه

غدا يقال عنكما قد سخرا من العجيزىِّ ومن ضيفانِهْ

مصطفى : تلك العصا طرحتها ياسيدى حُبًّا بِكَا

عامر : وأنا أيضا قد رميت بالعصا لأجلكا

« صوت من الخارج: »

دستوركم يا أهلَ هذَا المنزل

العجيزى : مَن ؟ . .

الصوت . الأغا ! . .

العجيزى : ألماز أغا ؟ .. تفضَّلِ

الأغا : « يدخل باكيا مولولا ... ويقول : »

آهِ على صديقتى آهِ عليكِ يا«هدى»
قدخُرِّبَ البيتُ فليتَ لكَ عينا فترى !
أين جَبينٌ كان كالـــــبدر سناءً وسَـنا ؟
وأين « أهلاً » كلَّما جئت وأين «مرحَبا» ؟
وأين ما قد كان لِى عندكِ من طيبِ اللِّقَا ؟
وأين صوتٌ كان كالسحرِ ينادِى يا أغا ! . .

العجيزى : ماذا دهاكَ سيدى هَوِّن عليكَ يا أغا ! . .

الأغا : «مستمرا» قد ذهب البيتُ ، لبيتِ الله وحدَه البقَا
قد ذهبَ المال ، فسبحانَ الذى له الغِنَى ! . .

العجيزى : أفِقْ تجلَّدْ يا أخى ليسَ البُكا مِنَ التُّقَى

الأغا : أبكيكِ يا هدى وإن لم يُرجِع الميْتَ البُكا
« ويقع مغشيا عليه »

مصطفى : « للأغا »
جرِّب نَشوقَ مرةً خذ تجدِ الحزنَ هدَا

العجيزى : رُشُّوهُ بالماء يُفِـــق

« لرضوان » رِضوانُ هاتِ كوزَ ما

الأغا : « يرفع رأسه قليلا ويقول : »

وَلَيكُ عَـذْبًا بارِدًا إنى أحِسُّ بالظَّمَا

ليتكِ مامت وليتَ المَيْــتَ ياهُدى أنا ! ؟ !

هُدَى تعالىْ انظرِى البيتُ منكِ قد خلا

« للعجيزى : »

سيدى أصْغِ لى :

هدَى رحمة الله على روحِها وألفُ سَلَامِ

يا أسفا على هدَى يا أســفاَ يا أســفاَ

مالى يخونُنِى فمِى ؟ مالِى تخونُنِى القُوَى ؟

« ويتمايل الأغا ثم يسقط »

محمد : لقد رجعْنا فوقعْنا فى البــلاء والعنا

العجيزى : « للأغا »

قم ياأخى انهَضْ قل تكلّمْ هاتِ بيّنْ ياأغــــا

ما نحن فى مأتمها مأتمُها قد انقضى

وكل حىٍّ ميّتٌ يوماً و إن طالَ المدَى

الأغا : تركتْ عندَنا وَصَاةً

العجيزى : وما ذا ؟

الأغا : كتبتُها قبل الزَّواجِ بعامِ
كتبتها وأشهدتُ مُفتي القُطرِ عليها وقاضِيَ الإسْلامِ

قد تركتُ يرحمُها اللهُ امسكونى لا أقعْ ...
« ويتمايل كالنشوان »

العجيزى : قم خلفه يامصطفى ! ...

مصطفى : دعْه لساعِدَيَّ دَعْ

الأغا : قد تَرَكْتُ فى عُلبة «مَصَاغَها» عشرَ قطعْ
من جوهرٍ مُبرَّإٍ من الخُدُوشِ والبُقَعْ

العجيزى : لمن ؟ . .

الأغا : لعشرٍ من نساء الحارهْ من كل جارةٍ و بنتِ جاره

العجيزى : وعيَّنْتَهُنّ ؟

الأغا : أجل ، و بَيَّنْتْ

العجيزى : ياليَ ، يالغَبن والخسارة ! ...

يا أسف الدهرِ على جواهرى يا ندماً

مصطفى : مالك يا أخى ؟

العجيزى : أحسُّ أنَّ ظهرى انقسما
عوقبْتِ يا هدى ولا أُخرجت من جهنّما

« يغمى عليه »

محمد : لا. بأس لا بأس إني أرى به إغماء

شيخ الحارة : رضوان طرْ جىء بكُوزٍ

الحلبي : صُبُّوا عليه الماء

العجيزي : « وهو يفيق »

والبيت يا أغا أجبْ البيت ما أصابَهْ ؟ . .

الأغا : وَقَفتْه لبنت أول زوجٍ

الحلبي : إن هذا قضاه حقٍّ قديمِ

العجيزي : أترى البغى والتعسُّف حقًّا

يا كثيرَ التحليل والتحريم

قلَّبتْنى هدى على النار حيًّا

قلَّب الله جسمها فى الجحيم

« للأغا »

وأثاثُ البيت هذاَ ؟

الأغا : جاءأيضاً فى الوصيّهْ !

أصبح البيت وما فى البيت مِلْكا لبهيّه

العجيزي : إرم يا دهرُ بالمصائب إرم

ظلمتنى هدى فما كان جُرمى ؟

شيخ الحارة : بقى الطين فانتظرْ رحمة الله

ولا يدخلنَّكَ اليأسُ منها

إنها خلَّفتْ ثلاثين فدانًا بينها وأنت تعرف بنْها

الأغا : لا ، لا تصدق سيدى

فما درى ، ما عَرَفا

العجيزى : ماذا جرى إذنْ ؟ أَيِنْ

الأغا : الطينُ أيضا أُوقفا

العجيزى : لمن ؟

الأغا : لبيتِ الله والروضـةِ قـبرِ المصطفى

العجيزى : يارِبِّ بيتُك غنِّى وعن نصيبى غنىٌّ

وقل لقبرك يُرجعْ لى ثروتى يا نبىٌّ

الطين أيضاً قد مضى وكل شىء انقضى

يا لأعاجيب القضا

الحلبى : اصبرْ أخى ، تعزَّ ، ما هذا الجزعْ

هب أن ذلك الزواج ما وقعْ

ليس الحياةُ غير رِىٍّ وشِبعْ

العجيزى . « وهو يهجم عليه »

هبْ أن رأسك انفلقْ هب أن مخّك اندلقْ

حتى جرى على الزلق

سلمان : الطينُ أيضاً قد مضى ياويح لى ، ويْحَ لِيَهْ !..
ضاع علىَّ تعبى وضاعتْ الخسميهْ !..

هــذا العجيزىُّ مزيج من غباءٍ ونكدْ
قد جاء مصر هارباً من الديون فى البلدْ
ومـاله من عمـل فيهـاً ولا له أحـدْ
لكنْ عليه سند

الشاشق : إذهبْ ، كل ، اشرب السند
الجميع : إذهبْ ، كل ، اشرب السَّندْ ! . . .

ستار الختام

البخيلة

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٤

تمهيـــــد

زمن الرواية	سنة ١٩٠٧
مكان الرواية	القـاهرة

أشخاص الرواية

الست نظيفة	(البخيــلة)
جمـال	حفيــدها
حُسْنى	خادمتهـا
عبد السلام	طبيب
رشـاد	سمسـار
عزيز	من أبناء الذوات

الفصل الأول

« قهوة « جميل » بميدان « لاظ أوغلى » . « جمال » و « رشاد »
« على مائدة يتحادثان ، وآخرون متفرقون . يدخل صبي القهوة »
« بصينية عليها المطلوب من المشروبات فيتناول الزبائن . و يقول : »
« هنا سادة ، هنا القرفة ، هنا الشاى . ثم ينتقل إلى مائدة « جمال » »
« و « رشاد » ، و يقول : خشاف سيدى . والبازهيران[1] ؟ »

جمال : البازهير لى أنا

رشاد : وشيشتى يا مصطفى

الصبي : طلبتها يا سيدى

[يمر بائع جرائد مناديا]

اللوا[2]

---

(١) الليمون

(٢) جريدة « اللواء » التى أسسها الزعيم مصطفى كامل

رشاد : اللوا تعال يا ولد

البائع : إقروا حديث مصطفى[1] إقروا خروج المعتمد[2]

رشاد : كُرُومَرْ ؟ خروجه متى ؟

البائع : غدا أو بعد غد

رشاد : من قال ذاك ؟

البائع : [ويمشي]

مصطفى

رشاد : التفّت الأفكار حول مصطفى كالقلائد

جمال : وصارت الأخبار عند باعة الجرائد

رشاد : آمنْ معي بمصطفى كفى تعنُّتا كفى
والعقلاء

جمال : كُلُّهمو

رشاد : والأذكياء

جمال : أشربهمو

---

(١) الزعيم مصطفى كامل

(٢) اللورد « كرومر » ، المعتمد البريطاني

رشاد : ما أنت ؟

جمال : لستُ منهمو

إنى أنا مع البلدْ إن قام قمتُ أو قعدْ

لم يرنى فيه أحدْ

[اثنان على مائدة يتحادثان عن جمال] :

الأول : تأمّل المُكثِر من إعجابِهِ بنفسه ينظر فى ثيابِهِ

تلفُّتَ الطاووسِ فى إهابِهِ

الثانى : لله ما أظرفَ . ياله فتى قد أبدع البارِى تعالَى شكلَهُ

لو كان هذا ولدى وواحِدى خرجتُ قبل الموت من مالى لَهُ

الأول : من الفتى يا أخى ؟

الثانى : جمال هذا الذى يخلف البخيلهْ

على الدكاكين والضِّياع والثروة الضخمة الجليلهْ

هذا الذى يفترس الأكياسا ولا يرى الأحلام إلا ماسا

فإن صحا شكا لك الإفلاسا

يأخذ من هذا وذاك بالرِّبا يُعطى نحاسًا ليردَّ ذهبا

وقيل شىء فوق ذا

الأول : وما يقولون ؟

الثانى : عَجَبْ

الأول : ماذا ؟

الثانى : بلاطُ بيتِها مركّبٌ على الذهبْ

الأول : وذلك الآخَرُ من ؟

الثانى : ذاك من السماسرِ

يبيع كل عامرٍ يصيبه وغامرِ
وكم زوّج أو طلّق من حرائرِ
تلقاه فى كل طريق كالغبارِ السائرِ
من قهوةٍ لبيرةٍ لمنتدَى لسامرِ
ويدفع الشباب فى الوُحولِ والمخاطِرِ
لمن يدَىْ مسلِّفٍ الى يدَىْ مُقامِرِ
ومن سموم حانةٍ الى لُعاب عاهرِ

لا يُبغِضُ اللهُ ولا رسوله
من العبادِ كالمرابين فئةْ

الأول : أىّ رباً يشـــترطون يا تُرى ؟

الثانى : عشرون أو ما فوق ذاك فى المائةْ

أنظر إلى السمسار يسحر الفـــتى

وانظر إلى الغلام كيف استحسنهْ

عنـــدىَ ألفٌ ما ملكتُ غيرها

مَن لى بهـا ألفين إن فاتت سـنةْ ؟

الأول : عندك ألفٌ أنت ؟

الثانى : ألفٌ ذهبا

الأول : تريـــد تعطيهـا بفـاحش الربا ؟

إذن لقـــد كنت تُرائى يا أخى

ولم تكن تقـــواكَ إلا كَذِبا

[جمال يرفع صوته] :

باللهِ مِن ذا الحـــديثِ دَعْنـا

وانظـــرْ معى هـذه الكُرُنْبَـــةْ

[ينظر إلى رجل وجيه ملفف بالثياب ومعمم] ويقول :

ومن يكون الوجيه ؟

رشاد : هـذا مقاول يُكبرون كَسبَه
وكلّ يوم عليه نعلٌ وكل يوم عليه جُبّة
تراكم المال فى يديه من حبة أمس صار قُبّة

جمال : وما فتَنَ الحظَّ بالكركدنّ وما أعجب المالَ من سحنتِهْ ؟

رشاد : ومن عجبٍ بعد هذا المشيب
بَنَى باثنتين على زوجتِهْ
ورام الزواجَ ببنت النقيب ؟
فما قبلوه على ثروتِهْ

جمال : وما تلك ؟ من هى بنت النقيب ؟

رشاد : فتاةٌ هى البدرُ فى ليلتِهْ

جمال : وما بيتُها ؟

رشاد : قصرُ آبائها
طويلُ العمادِ عريضُ الغرَف

جمال : وما مالُها ؟

رشاد : القصرُ عنوانُه
أليس القصورُ رموزَ الترَف ؟

جمال : وما سمعةُ البيتِ ؟

رشاد : ماذا تقولُ ؟

أما فى قديم البيوتِ الشرفْ ؟

جمال : وَلِمْ أَبَت الشيخَ وهو الغنىُّ

رشاد : وهل كل ما فى الزواج المهورْ ؟

وهل يملأ التيسُ عينَ المهاةِ

وهل تحمل الكركدنُّ القصورْ ؟

جمال : رشاد أَهْىَ حلوةٌ ؟

رشاد : وذات قصرٍ ، وكفى

جمال ، ما ضرَّ لو أَنِّىَ صاهرتُ الغنى والشرفا ؟

أتعرف البنتَ يا رشادُ

رشاد : وأعرف الأمَّ يا جمالُ

جمال : كيف ومن أين ؟

رشاد : لى ببيتِ النقيب من نشأتى اتصالُ

أُمِّىَ كانت إليه تغدو

إذ أنا طفلٌ . ولا تزالُ

جمال : ماذا ترى رشادُ إن طلبتُها ؟

تُرى تَردُّني إذا خطبتُها ؟

رشاد : أصْغِ لي . أنت مثل ما تتمنى

«زينبٌ» تجمع الغنى والجمالا

جمال : الغنى يا رشاد ؟ إنك تهذي

رشاد : أنا أهذي ؟

جمال : أجلْ . وتخلِطُ

رشاد : لا . لا

أنت فوق النقيب دخلًا ورَيعًا

بعد حينٍ وأنت أكثرُ مالا

جِدَّةٌ تجعل الحديد على الما

لِ وتحمى الأبوابَ والأقفالا

جمال : لكنها يا صديق أشدُّ مني ومنكا

رشاد : صبرا فعمّا قليل سيُفرِج الله عنكا

جمال : وجمالي ؟

رشاد : [ويخرج مرآة]

أفي جمالك شكٌّ ؟

خذْ تأملْ . أنظرهُ في مرآتي

سوف تَسبِي فؤاد زَينبَ

جمال : من « زينبُ » ؟

رشاد : هذا يا صاحبي اسمُ الفتاةِ

جمال : رشاد ، اسمع . عقدتُ العزمَ فاذهبْ

وأُمَّكَ فاخطبا لي اليومَ زينبْ

رشاد : إذن أعطني ليرة من حِسابي

وبعد غدٍ نلتقي ها هنا

جمال : [يناوله الليرة] :

قبلتُ خُذْ

رشاد : [بعد أن ينظر أمامه] :

إنتظر يا جمالُ بربِّكَ فالحظُّ قد أحسنا

فهذا أخو زينبٍ مقبلًا

فسِر حيث شئتَ ، ودعني أنا

[يجلس عزيز فيتقدم إليه رشاد]

رشاد : عزيزُ ؟ مَنْ ؟ أهلاً أخى منذ شهورٍ لم أَرَكْ

عزيز : رشادُ أنت ها هنا ؟

مَن ذا الذى كان مَعَكْ ؟

رشاد : أنظر إلى ثيابِهِ ولونِها كيف اتّحَدْ

أنظر إلى حذائه من النظافة اتَّقَدْ

والبنطلون مُسْتوٍ لم ينكسِرْ ، لم ينعقِدْ

أَعِرْنِيَ السمعَ أَعِرْ عندى لكم شيءٌ يَسُرْ

عزيز : ما ذاك ؟ هاتِ . ما الخبرْ ؟

رشاد : هذا جمالٌ وحيدُ جَدّهْ

بخيلةٍ يا عزيزُ ، جِلْدَهْ

عزيز : وعمرُها يا رشادُ ؟

رشاد : يربو على الثمانينَ

عزيز : تلك مُدّهْ

والمالُ ؟

رشاد : ما شئتَ من فدادينِ

ومن بيوتٍ ومن دكاكينِ

والذهبُ الصبُّ كلَّ ناحيةٍ

في البيتِ ، مِن مُخْبَأ ومدفونِ

عزيز : والآن ماذا تبتغي ؟

رشاد : أُريدُهُ لزينبا

عزيز : وكيف ؟ هل يقبلُها ؟

رشاد : كلَّمتُهُ فما أَبَى

فامضِ إلى أمِّكَ يا عزيزُ بلِّغْها النَّبَا

لقد وصفتُ القصرَ لأبيهِ وصفاً عَجَبَا

ولم أزلْ أُطري له المجدَ وأمدحُ الأَبَا

وأَنْعَتُ المجدَ القديمَ وأَحَلَّ النَّسَبَا

وقلتُ عن أُمِّكَ خَيْرًا وامتدحتُ زينبا

عزيز : وقد نسيتَني أنا ؟

رشاد : لا . بل أَطَلْتُ الكَذِبا

عزيز : وما الذي قلتَ عنِّي ؟

رشاد : قُلت : فتًى ما أفاقا

باللّيلِ يَغشَى الملاهي وبالنهارِ السِّباقا

تسألني عزيزُ رأيي

عزيز : لِمَ لا ؟ ألستَ منذُ زمنِ المهدِ أخا ؟

رشاد : أنتم عزيزُ يا أخي في أزمةٍ

ولا يَفُكُّ ضِيقَكُمْ إلا الغِنى

المالُ فيه وحدَهُ خلاصُكم

لا بدَّ منه اليومَ أو لا فَغدا

عزيز : أجلْ ، بغير المالِ لا عَيْشَ لنا

وكيف ؟ من أين يجيءُ ؟ أفتِنا

رشاد : مما نخوض فيه منذ ساعةٍ

مِن الغنى ، من مَوتِ جدّةِ الفتى

عزيز : وما الذي نصنع كي نصيدَهُ ؟

لا بد من مَصيدةٍ

رشاد : تلك أنا

اسمعْ أخي عزيزُ أنتم أسرةٌ

لم يبقَ من وجودِها إلا شَفا

قصرُكمو من قِدَمٍ مُهدَّمُ
قد خاطَ فيه العنكبوتُ وبَنَى
سكنتموه ها هنا وهاهنا
كالبوم . كل بومتَيْنِ فى فَضَا
ملأتموه خدماً أشداقُهم
دائرةٌ على الرغيف كالرَّحَا
أنظر إلى القصور كيف أصبحتْ
لم يبقَ من مقدَّمٍ ولا أغا
احتجب القوم وراء ظلها
لا يُسألُ البوابُ إلا قال : لا

عزيز : كفى رشادُ صِفةً لبؤسِنا . كفى . كفى
ولا تعذِّبْ مهجتى ولا تهِجْ لِيَ البكا
وامضِ اجتهدْ رشاد فى تزويج أختى بالفتى
إذا كان لها أهلا

رشاد : ولِمْ لا يا أخى ؟ لِمْ لا ؟
فتًى لم يحكه الشبا نُ هنداماً ولا شكلا
ولم يُنكرْ له الإخوا نُ لا ظَرْفاً ولا عقلا

ومن بيتٍ يرى الناس عليه الخيرَ والنبلا
أبوه كان إنسانا

عزيز : وهذا كله فضلا
عما وراء جدَّتِهْ

رشاد : وعن عظيمِ ثروتِهْ
يا ليتنى فى حالتهْ

اسمع عزيزُ يا أخى أنا وأنت لا نَرِثْ

أملَطُ يارب كما خلقتنى راضٍ على قلّةِ ما رزقتنى

عزيز : دعنا من الهزل . هلا أخذت فى الجدّ ساعهْ ؟
رشادُ أنت صديق ماذا ترى فى البضاعهْ ؟

ادخلْ بنا فى الجدّ يارشاد متى تراه ؟

رشاد : فى غدٍ أراه

عزيز : لم تقل لى عن الفتى . ما أبوه ؟

رشاد : كان نخْرَ الرجال .. كان مديرا

[ثم لنفسه]

كان والله يسكَرُ الصبح والليل الى كل حانةٍ سِكّيرا

عزيز : والفتى . كيف شغلُهُ ؟

رشاد : في الدواوين

عزيز : إذنْ قد نراه يومًا وزيرا

رشاد : لِمَ لا ؟

[ثم لنفسه]

قلتُها ومن أين أدرى ؟ ربما صار حاجباً أو خفيرا

[ثم لعزيز]

لا تسلْني ما أبوه يا أخى أو مَن الأمُّ وسَلْ ما جدَّتُهْ

لا ولا ماشغله ؟ ماجاهه ؟ في الدواوين ولا ما رتبتُهْ

لجمالٌ في غدٍ أو بعدَه بوزيرين تساوى ثروتُهْ

[بعد لحظة]

وَلِمْ لا وجدَّتُهُ نملةٌ

إذا وقفتْ او مشتْ حصَّلَتْ

وتُدخل في بيتها ما تُصيبُ

ولا يُخرج الدهرُ ما أدخلَتْ

لو انقلبتْ من جميع الجهات

على القشِّ في فمها ما انفَلَتْ

ترى المال في بيتها في اللحاف
وتحت البلاط وحشو الشّلت

عزيز: عجبتُ . يأتي البخيلَ المالُ وهو يرى
أنّ البخيلَ إليه غيرُ محتاجِ
وقلّ ما جاء حرًّا ماجدًا ومشى
إلى الكريم الكثير الهمّ والحاجِ

آهِ ما أكثرَ حاجي من بحاجاتي أناجي ؟
أزمةٌ دُرتُ فلم ألقَ لها وجهَ انفراجِ

رشاد: عزيزُ أنت مفلسٌ

عزيز: ما شئتَ في ذاك فقُلْ

رشاد: على البلاط يا عزيزُ كلّنا ذاك الرجلْ

عزيز: إذن بمالُ صفقةٌ رابحةٌ لنا كلينا

رشاد: قد فهمتَ مأربي
ولستُ أنسى فضلكم عندي ولا
ما طوّقتْ أمّكَ أمّي وأبي

عزيز: اذهبْ إذنْ رشادُ فاخطبْهُ

رشاد: لمن ؟

عزيز : لى ، ولزينبٍ ، وأمِّ زينبٍ

رشاد : للأُمِّ والإبنِ وللبنتِ ؟

أجل

عزيز : وكلِّ مَن مَتَّ لنا بالنسبِ

رشاد : أصبتَ يا عزيزُ أنتَ فَطِنٌ

عزيز : لا . بل هو البؤسُ يفطِّن الغبي

رشاد : ورُكوبى يا صديق وذَهابى وإيابى ؟

عزيز : إمضِ أنفقْ ما تشا واصبِرْ إلى يومِ الحسابِ
أنا لو بيع بفَلسٍ لم يجدْ سوقًا جرابى

كلانا رشادُ على زورقٍ كسيرٍ وموجٍ عنيفٍ شقى
فإن ننجُ ننجُ بخير المتاع وإلا غرقنا مع الزورقِ

* * *

« ثلاثة آخرون جلوس على مائدة بالقهوة . »

« أحدهم يقرأ جريدة ، والآخران يتحادثان »

الأول : مَن ذلك المُطِلُّ من لحيتِهِ
كالبغل من وراء بِخلاةٍ رنا

الثانى : تسألُ عن ذاك الذى انحنَى على
صحيفةٍ يَقرا وولَّانا القفا ؟

الأول : أجل، أجل هذا القفا

الثاني : هذا هو الدكتور

الأول : منَ ؟

الثاني : عبدُالسلام مُرتضَى

يقرأ ما صادف من جريدة

من سطرها الأول حتى المُنتَهَى

وتستوي صُحُفُ الصباح عنده

وصُحُفٌ ظهرنْ من عامٍ مضى

تذاكرُ الدفن التي يكتبها

في الشهر أضعافُ تذاكرِ الدوا

وعيبه البخلُ

الأول : فيه بخلٌ ؟

الثاني : أبخلُ من جارَتي نظيفة

الأول : من يا أخي هذه ؟

الثاني : عجوزٌ في (الخط) من أسرة شريفة

ليس لها في الحياة إلا عبادةُ المالِ من وظيفة

حتى لقـد صارت حديثَ الحـارهْ

وضحكَ الجـارِ ومُخْـتَرَ الجـارهْ

كلهمـو يحسدها بمـالها ويتمـنى حاله كحـالها

وهكذا الأنفس فى ضلالها

الأول : ما غِناها يا أخى ؟

الثانى : أكـثرُ هـذا الخُطِّ مالا

الأول : ومن الوارث إن ماتت

الثانى : فتًى يُـدعى جمالا

الأول : وذلك الدكتورُ ؟

الثانى : هذا « مادرٌ »(١)

الجـوعُ يا أخى ولا الأكلُ معَـهْ

لقـد دعانى للغَـداء مرّة

فقسَّم البيضـة بين أربعَـهْ

وجىءَ بالشواءِ

(١) أبخل العرب ؛ ويضرب به المثل فى البخل .

الأول : قل ماذا جرى ؟

الثانى : أوْمَا إلى خادمه أن يرفعَهْ

رأى فيه عيبًا وإن لم نجدْ
على الجسم عيبًا سوى قِلَّتِهْ
فقد كان أنضجَ لحمٍ رأيتُ
وقد كان كالمسكِ فى نكهتِهْ
ومن بخلِهِ تُفتحُ القهواتُ
وتُغلقُ ، وهو على « شيشتِهْ »
يُقضِّى بها طرَفَىْ يومه
ويُمضى بها طرفَىْ ليلتِهْ

الأول : ومرضاهُ ؟

الثانى : يلقاهمو فى الطريق حينًا ، وحينًا على قهوتِهْ

[غلام يدخل القهوة صائحًا]

الغلام : أين هو الدكتور ؟

أحدهما : ذاك

الغلام [للدكتور] : سيِّدى أخى سَقَطْ
تحت الترام

الدكتور : فليكن أو تحت وابور الزاَــطَ

فما الذى أصَابهُ ؟

الفلام : إنفلَقَ الرأسُ

الدكتور : فقــطْ ؟

هيَّـــا ولـــو أنّيَ ما عالجت فى الشارع قَــطْ

الفلام : اللهُ فى عــونِ الجريـــــح منـــكَ جرّاحَ القِطـط

« ســتار »

الفصل الثانى

[فى منزل السيدة نظيفة]

« حجرة بها دكة عليها شلتة ومخدات ثلاث — السيدة »
« نظيفة تلبس جلابيــة من الشاش الأبيض ، ومتعصبــة »
« بمنديل ، وفى رجلها القبقاب »

نظيفـة : [تتكلم وحدها فى الحجرة] :

منزلى حــولى نظيفٌ   وأنـا الست نظيفـــةْ
وبلاطى ذاك أنـــق   بكثيــر من صحيفـةْ
كل ما كلفنــى ما ء   وصــابون وليفـةْ
لا بســاطٌ لا كلــيمٌ   لا حـــريرٌ لا قطيفـــةْ
غير هــذى الخشبات الــــخيزُرانات الخفيفــةْ

ليس بيتى كبيوت الناس أحمالاً كثيفة
أنا بيتى فى الهواء الطَّلقِ والشمس اللطيفة

ودكتى تلك أغلى لدىَّ من ألف صفّة
كم مال زوجى عليها وكان يقطر خفّة
جلستُ فيها عروسا واليوم إذ أنا قُفّة

[بعد أن ترى « حسنى » الخادمة داخلة عليها وبيدها شيء]

تعالىْ يا ابنتى جيئى بماذا جئتِنى « حُسنى » ؟
حسنى : لقد جئتُ بفنجانِ
نظيفة : خُذيهِ جرّبى البُنّا
وهذا شُبُكى هاتى [1]
حسنى : أجل بالعود قد جِيتُ [2]
وفى الكيس مع الدخانِ زَندانِ وكبريتُ [3]
نظيفة : سلمتْ حسنى يداك

(١) أداة التدخين .
(٢) عود البخور .
(٣) مثنى « زند » ، وهو ما تقدح به النار .

حسنى : أنا مولاتي فِداك

والآن هل آخذ خَرْجَ النهار (١)

نفليفة : إمضى خذيه إنه في (الكرار)

حسنى : هيّاتِه سيدتى ؟

نفليفة : أجل

حسنى : وما أخرجتِ لِي ؟

نفليفة : رأسٌ من الثومِ وخمسٌ من صغارِ البصلِ

حسنى : والسمن مولاتي تُرى ؟

نفليفة : كأمس . لَمْ أُقلِّلِ

أوقيّةٌ

حسنى : والأرز ؟

نفليفة : لا لا يدخلنَّ منزلى

لقد غلا سعرًا ولا يُعجبنى السعرُ الغَلِى

حسنى : ليتك بالزيت اكتفيت والدقيقِ والعسلْ

نفليفة : ولِمَ ياحُسنَى أراك اليومَ ماذَك الخَبَلْ ؟

---

(١) ما تخرجه « نفليفة » عادة من مواد لإعداد الطعام .

نسيتِ أنَّ هاهنا وتحت هذى الكنبَهْ
العشراتِ من قديم الكعك والغُرَيِّبَهْ ؟

حسنى : لمْ أَنْسَ يا سيدتى

نظيفة : أنت إذنْ مخرِّبَهْ

حسنى : قد اشتهيتُ لُقمةَ القاضى

نظيفة : اشتهتك عقربَهْ ؟

وما الذى اشتريت يا « حسنى » لنا من الخضَرْ ؟

حسنى : « الباميا » كأنها الزُّ مرُّدُ الخامُ الحجَرْ

نظيفة : « الباميا » ؟ منذ متى هذا الخضارُ قد ظهرْ ؟

حسنى : جديدة .. قلت عسى سيدتى بها تُسَرْ
نادَى المنادونَ عليها منذ أسبوعٍ عَبَرْ
ترفلُ فى شوكتِها وفى شبابها النَّضِرْ

نظيفة : أجل لقد أكلتُها فى منزل الشيخ « عمرْ »
كالذهب الإبريزِ والشومُ عليها كالدررْ

حسنى : واليومَ تأكلينها

نظيفة : أمَرّ من طعم الصَّبِرْ
اشتُرِيَتْ غاليةً مثلَ البواكيرِ الأُخَرْ

حسني : هدية تلك

نظيفة : ومِمَّنْ ؟

حسني : مِن قريبٍ لي حضَرْ

نظيفة : من أين جاء ؟ ومتى ؟

حسني : من الصعيد قد بَكَرْ

نظيفة : وبِمْ تُرى جَزَيْتِيه ؟ بقبلةٍ مستعجلهْ ؟
إمضى فتاتى واطبخى « دقيّة » مكمّلَهْ
كأنها خليّةٌ من عسلٍ محمّلَهْ
والثوم فيها لؤلؤٌ وهى به مكلّلَهْ
والعظم ..

حسني : واللحم ..

نظيفة : احذرى يُتعبنى أن أكُلَهْ

حسني : اللحم يا سيدتى فى « الباميا » ما أسهلَهْ

نظيفة : « حسني » انظرى

حسني : سيدتى

نظيفة : على البلاط وَسَخُ

حسنى : الآن أغسل البلا طَ ثم أمضى أطبخُ

[تنسل السيدة إلى حجرتها .. يدخل جمال]

جمال : حُسنى

حسنى : جمالُ سيدى ؟

جمال : أنتِ هنا ؟

حسنى : أنتَ هنا ؟

جمال : ما تصنعين ؟

حسنى : صنعتى اليومَ وصنعتى غدا

على البلاط أنحنى أغسله كما ترى

جمال : يارب لِمْ خلقتَ للعذابِ هذه اليدا ؟

حسنى : لا .. لا عذابَ سيدى إنى أُحب العملا

جمال : وأين جدتى فإ نّى لا أراها ها هنا

حسنى : أظنها مضتْ تصلّى فى الخزانةِ الضحى

جمال : لله أو للمال يا حُسنَى تُرى ؟

حسنى : كما تشا

مالى وما تعملُهُ ؟ لكلِّ عبد ما نوَى ؟

جمال : [لنفسه وقد رأى كيسا على الدكة] :

ما ذاك تحتىَ ... كيسٌ ؟ بُشراىَ . هذا جرابُ
أعامرٌ ليت شعرى جرابُها أم خرابُ ؟

كيسٌ ؟ أجل كيسٌ وحُسـنَى لا ترى ... لا تسمعُ

[ثم يقبله] :

كيس وفيه ذهبٌ آخُذُهُ أم أَدَعُ ؟

[يتركه مترددا]

لا ... لا ... ألصٌّ أنا ؟ لا ليت يدى تنقطعُ

[يتناوله] :

لننظرْ ما حوى الكيسُ

[يفتحه و يعد ما فيه]

جنيهان . . . ريالانِ
وهذا فصٌّ ياقوتٍ وذى سُبحةُ مَرجانِ

[يخرج ما فى جيبه]

لننظرْ ما حوى جيبى اقرشانِ ونصفانِ ؟
حرامٌ شدة البخل حرامٌ طولُ حرمانى

[يرد نقوده ، وينظر إلى الكيس] :

فإن مددتُ نحو كيسها اليدا　　سرقتُ نفسى ما سرقتُ أحدا

ولا أرى سارقَ نفسه اعتدَى

لا يا جمالُ .. ما رأى　　رأيَكَ فى الناس أحدْ

من قال مالُ الوالدين　　مُستباحٌ للولدْ ؟

[حسنى ، وقد نظرت إليه خلسة فرأته ، وهو يسرق]

يا أسفا على جمالٍ ما صنعْ ؟　　جاء إلى الكيس مرارا ورجعْ

حام عليه برهةً ثم وقعْ

[لنفسها] :

ويحَ جمالٍ جَرؤتْ　　على الحرام راحتُهْ

ما كان لصًّا إنما　　جَنَتْ عليه جدّتُهْ

[جمال يدس الكيس فى جيبه] :

ولِمَ لا ؟ والمال مالى بعدَها　　وإنْ تصرفتْ بمالى وحدَها

وديعتى حتى تموتَ عندَها

[يخرج مسرعا]

حسنى : يا ألفَ ويلٍ على جمالى انسلّ كاللصّ فى الظلامِ
الفقر والبخل صيّراه من ابن بيتٍ إلى (حرامى)

هو لصٌّ وسارقٌ غيرَ أنى أُحبُّهُ
حرمتُه القليلَ من حقّه .. أين ذنبُهُ؟

إنى بعينى هذه رأيتُه مرددا
لما أحسّ المال جُنّ وأضاع الرّشدا
على الضمير والعفا ف والحجا تمرّدا
لو ملأتْ جدّتُه يديه ما مدّ اليدا

[ثم تسمع ضجة فتقول] :

قد رنّ فى الحجرة قبقابها
صلّتْ وعادت من مُصلّاها

وما درتْ وهى تصلّى الضحى
أنّ جمالًا من ضحاياها

[تدخل السيدة نظيفة بدون أن ترى « حسنى »]

[فتقول حسنى لنفسها] :

تسرع نحو كيسها لم ترنى .. فلننتظرْ

ماذا تُرى تفعل؟ هل تبكى دماً أم تنتحرْ؟

[نظيفة لنفسها] :

كيسىَ كان هاهنا من ساعةٍ .. شىءٌ عجبْ!
من ياتُرى طَيَّرَهُ؟ كيف اختفى؟ أين ذهبْ؟
فيه ريالان وفيه قطعتان من ذهبْ
وضعتُه هنا وغبتُ عنه .. ليت لم أغبْ
كيسى حبيبى أين أنتَ؟ كيف ألقاكَ؟ أَجِبْ!

كيسىَ .. يارب أعدْ لى كيسى وخذه لى يارب من إبليس
وكلِّ لص فاجر خسيس

إن عدتَ لى فشمعةٌ للحنفى أو شمعتانْ
قرش يعود لى به من القروش مائتانْ

وشمعةٌ للسيدهْ توضعُ فى مسجدها
تبيت فيه مُوقَدَهْ بالقرب من مَرقدِها

لا .. أنا فى فقرٍ إلى شمعةٍ
سيدتى « زينبُ » بى عالمهْ

ولم يَرَ الناس ولم يسمعوا

سيدةٌ تأخذ من خادمهْ

[ثم بعد أن ترى « حسنى »]

نظيفة : حُسنى

حسنى : مُرِى

نظيفة : أنتِ هنا ؟

حسنى : أجل

نظيفة : تعالَى اسمعِى

خلِّى البلاطَ

حسنى : ما جرَى ؟

نظيفة : دعيه ساعةً دعِى

حسنى : ماذا جرى سيدتى ؟

نظيفة : مالم أكُنْ أنتظرُ

مصيبةٌ .. فاجعةٌ

حسنى : ماذا دهَى ؟ ما الخبرُ ؟

نظيفة : كيكىَ كان ها هنا طيَّره المُطَيِّرُ

حسنى : ما كان فيه ؟

نظيفة : ذهبٌ وسُبحةٌ وجوهرْ

حسنى : وهل ظننتِ السوءَ بى سيدتى ؟

نظيفة : أستغفر الله ابنتى أستغفرُ
« حُسنَى » ابنتى خادمتى تسرقنى ؟
ذلك ما ليس ببالى يخطرُ

فى ذمةِ الله كيسى عوّضنى اللهُ عنهُ
واللصُّ لا بد يوما يقتصُّ لى اللهُ منهُ

حسنى : سيدتى مسرفةٌ سيدتى مضيّعهْ
إن الجرابَ لم يكنْ هذا المكانُ موضعَهْ

نظيفة : إذهبى يا ابنتى عرفتُ غريمى
أنت لا تجهلينه فهو منّا

حسنى : مَن تُرى؟ مَن ؟

نظيفة : سلى ضميرَك عنه أنتِ منه ملئتِ قلباً وذهنا

حسنى : مَن ؟

نظيفة : جمالٌ

حسنى : ماذا تقولين يامو لاتى

نظيفة : الصدقَ

حسنى : بل تظنِّينَ ظنَّا

مَن ؟ جمالٌ ؟ هذا محالٌ فَظُنِّى

بِى أنا السوءَ

نظيفة : أنتِ؟حاشاكِ «حُسنى»

حسنى : إذن مَن ؟ قطةٌ فى البيـــتِ لمَّا لَمْ تجــدْ لحمَا

مضت بالكيس طَنَّتْــهُ هــو الجـلدَ أو العظمـا

نظيفة : [مستضحكة]

إمضِى اذهـبى ياخَباثْ يا نكبــةَ فى الإناثْ

أوشكتْ تدخلُ الضحى .. إلهَسى الفو

طةَ « حُسنى » طِيرى إلى الكانونِ

واحذرى الطَّبخ أن يشيِّط وسُدِّى الـ

ـبابَ دون الأنوفِ .. دون العيونِ

حسنى : ســيدتى ها أنا ذى ذاهبــةٌ لشانيـا

انتظـــرينِي ساعةً ثم انظُـــرِى طعاميــا

[تخرج]

نظيفة : [لنفسها]

قـــد ذهبتْ اشأنهـا اليـــوم يومُ « البـاميا »

« حُسنَى » اذهبِي إنى لفى شكٍّ وإن
أظهرتُ أنّى بِكِ جِدًّ واثقهْ
قد سُرِقَ الكيسُ وما من أحدٍ
سواكِ فى البيت فأنتِ السارقهْ

ولكــنى أداريــكِ فَأُخْفِى خــبرَ البــئرِ
وكم ســيدةٍ قيّـــدَها الخـادمُ بالســرْ

[جمال يدخل] :

نظيفة : مَن ؟

جمال : جدتى ... هــذا أنا

نظيفة : مَن ؟ وَلَدِى جمـالُ ؟

جمال : ما صــنعَ الزكامُ يا جـــدةُ

نظيفة : لا يزالُ

وأنت ما تصنع يا جمالُ ؟ كيف الحالُ ؟

جمال : الحال يا جدة زفتٌ وقطرانْ

نظيفة : كيف ؟ انفض الجيبَ

فيه جنيهانْ

جمال : أنا ؟ جنيهان ؟ ومن أين له ؟

جيبي حتى من ريالين خلا

جدة

نظيفة ؟ روحي ... تكلم ماذا ؟ فداك البنونا

جمال : أقول لكن مدينى جدة لا تغضبينا

نظيفة : إلا النقود فإني حلفتُ أمس يمينا

جمال : إذن أمضي كما جئتُ إذن لا شيء يا جدهْ

على أني لم أظفر بشيء منك من مدهْ

نظيفة : والثلاثون ريالا ؟

جمال : قد مضى شهرٌ عليها

تلك شمّتها يد النشال فانسلّت إليها

نظيفة : لا حَرَمَ اللهُ اللصوصَ خيرَكا

ما بالهم لا يسرقون غيرَكا

لم تلقَـنِي وتنصرف بمالى إلا وعادتْ قصةُ النشّالِ

كأن مالى ليس بالحلالِ

جمال : لم اقـلْ مالُكِ يا جـدّةُ سُحْتٌ أو حـرامْ

فلقـد يُسرق مالُ الالـه والبيتُ الحـرامْ

نظيفة : العينُ يا جمـالُ

جمال : لا تقـولى ما إلى مالك من سبيل

لعين حاسـدٍ ولا فُضـولى

مالُكِ فى الحـافِ والمنـديل

مالُكِ فى القفّـةِ والزنبيـلِ

وتحت مـاءِ البئرِ فى برميـلِ

نظيفة : فى البـئر ؟ إنّ ذا عجب ماذا تصوغ من كذِبْ ؟

[فى اضطراب]

جمـال لا تنْسِ الأدَبْ

في البئر يا ابني؟ هذه ما خطرت ببالي
لِمْ لا تقول المالُ قد خبّأتُ في سِروالي؟
لكن هبوني قد فعلتُ ما لكم ومالي؟
ألستُ يا ابني حرّةً بصيرةً بمالي؟
أصنعُ ما شئتُ به أصنع ما بدا لي

جمال : هوّني جدتي عليك فإني لم أنازعك هذه الحريّة
خبّئي المالَ حيث شئت من المنـ
ـزلِ في السقف أو وراء حَنِيّة
ادفنيه في مطبخ أو كرارٍ
أو لحافٍ أو شلتةٍ أو حَشِيّة
أو فواديه في قرارة بئر
ذات عمقٍ عن الظنون خفيّة

جدتي هذا كثيرٌ ما الثلاثون ريالا؟
هي يا جدة ليست عند أمثالي مالا
لا يمينًا ملأتْ يو مًا ولا أغنتْ شِمالا

نظيفة : عند أمثالك؟

جمال : أىْ واللهِ

نظيفة : ما أنــتم رجالا

هى تبـــغِى ثروةَ المـــر ءِ إذا كانت حـــلالا

اسمع جمالُ

جمال : سامعٌ يا جدتى

نظيفة : جَدُّكَ يا بُنَىَّ كان مُفلِســا

جمال : مثلِىَ يا جدةُ ؟

نظيفة : لا يا ولدى بل كان أشقى حالةً وأتعسا

أسَّسَ من شروى نقـــيرٍ ثروةً

جمال : لم تذكُرى جدةُ كيف أسَّسا

ألم يكنْ سكناهُ رَبعًا دارِسا ؟

ألم يكن طعـــامه المدمَّسا ؟

ألم يكنْ على البلاطِ نومُهُ ؟

ألم يُحَـــرِّمْ نفسه أن تلبسا ؟

نظيفة : ومَن نبَّـــاكَ أو مَن ذا

رأى جـــدَّكَ عُريانا ؟

جمال : هَبيهم لم يُنبِّئوني كفانى بك عنوانا

جدتى ما رأيت قطُّ على جسـ
ـمِك مذ كنتُ غير هـذى الثياب
بدِّلى ثوبَكِ القديمَ أهـذا
كفنٌ يُرتدى ليومِ الحساب؟
وعلى الرأس ذلك الشاش و (الأو
يَةُ) مَلّا تَطَاوُلَ الأحقابِ
قد عفا رقعتيهما النشر والطـ
ىُّ وطولُ المدى وطولُ الخضاب
لم يَر الناظرونَ رجليكِ إلا
كعصىِّ الحمّامِ فى القبقاب

لطيفة : قد توقَّفْتَ يا جمالُ

جمال : دعيني

اتركيني (أفش) جدةُ ما بى
والدى مات فى الشباب من الحسـ
ـرة واليومَ تقتلين شبابى

نابغة : لا تـذكرني العزيز جمال
وَدَعِ الجرحَ ، لا تحرّك مُصابي

جمال : اقتليني كوالدي

نابغة : بَعُدَ الشر بل اسلمْ وحُطّني فى التراب
إن يا اخى الجرابَ والمالُ فيه لكَ

جمال : مَن لى ببعض ما فى الجراب ؟
ما انتفاعى به ؟ كُليه .. اشربيه
بعد ما آذن الصِّبا بذهابِ

[مبرورق عيناه بالدموع]

إصفحى جدةُ عما كان منى واغفرى لى
وائذني أيتها الجدةُ أمضى لسبيلى

نابغة : لقد نسيتُ يا جما لُ وطويتُ ما جَرى
والآن ادعوكَ

جمال : لما ذا ؟

نابغة : للغَداء .. ما ترى ؟
ابقَ جمالُ نقتسمْ لونًا جديدًا غاليا

ابقَ بنيّ كُلْ معي اليومَ عندي (باميا)

جمال : « الباميا » جديدةٌ ؟ من قال يا جدّتيا ؟

نظيفة : أكلتَها ؟

جمال : أجل مراراً عند أصدقائيا

نظيفة : في (الباميا) خلّ الطهاةَ وخُذ الطّواهيا

وطبخ «حُسنَى» يحفظُ الشباب والعوافيا

اجلس جمالُ ساعةً وناجني بحاجتِكْ

جمال : ماذا أقول جدتي ؟

نظيفة : قل ما تشا لجدّتِكْ

جمال : أنا يا جدتي كبرتُ ولا أطلب إلا الزواج

نظيفة : عندي صبيّةٌ لكَ

جمال : الخادمُ ؟ لا ، كم قلتُ : لا

نظيفة : لا تدعُ « حُسنَى » خادماً

جمال : ابنةُ من ؟

نظيفة : بنتي أنا

جمال : لقيطةٌ ربّيتِها أنت ، أليس هكذا ؟

فطيمة : تذاكرنا الزواج تعالَ ننظرْ

زواجُكَ كم يكلِّف يا جمالُ

جمال : قليلاً بحقي

ظريفة : كم ؟

جمال : نصف ألف

حميدة : أعندك ما لنصف الألف بالُ ؟

[تهمس]

ما ثَمّ مهرٌ لا يُبقي عليها ولا يُبقي على الأفراح مالُ

[ثم إلى جمال]

اشرحْ جمالُ ما يكو نُ المهرُ

جمال : هديّةٌ هيّنةٌ

سعيدة : من الجنيهات ؟

جمال : أجل ليست ريالاتٍ هيّنةْ

و « شبكةٌ » تصلح أن تُهدَى وأنتِ المُهدِيَةْ

فطيمة : وكم تُساوِي ؟

جمال : مائةٌ

فطيمة : أتخرجُها من ماليّةْ ؟

جمال : ومشـــةَ كِراءَ بيــتٍ للعروس وليَــهْ

نمــلؤه أمتعــةً وحليــةً وآنيَــهْ

ومشــةً لقَــرَحى ومتَــةً لجيبيَــهْ

نظيفة : واحــيرتى ! واضــيعتى ! « جمـالُ » .. واخرَابيَةْ !

إنْ أنا زوجتكَ يا ابــنى بعتُ ما ورائيَــهْ

جمال : إذن فاعلمى جدتى أننى خطبتُ

نظيفة : وما لِى ومَن تخطبُ ؟

أحقا خطبتَ ؟

جمال : أجل جــدتى

نظيفة : ومن تلك؟ ما بيتها؟ ما الأبُ ؟

جمال : فتاةٌ من « الخُط » بنت النقيبِ

نظيفة : بلا والدٍ واسمها « زينبُ »

هنيئاً لك البيتُ بيتُ العفافِ

جمال : وبيتُ الغِنى ، والغنى يُطلبُ

نظيفة : أأنتَ تعرِّفنى من تكون

وما مالُها ؟ إنها تكذبُ

لأنت أسعدُ منها وأنت أكثر مالا

جمال : أنا ؟ انظري ذاك جيبي هل تُبصرين ريالا ؟

نظيفة : بل تلك « حسنى » فتاتى أتمُّ منها جمالا

وربما صارت على فقرها أكثرَ منها فى غدٍ مالا

وكيف وجدتَ المالَ يا ابنى ؟

جمال : اقترضتُهُ

نظيفة : وممن وكم يا ابنى وكيف رِباه ؟

ومن أين تقضى الدينَ ؟

جمال : يقضيه قادرٌ

على الشيءِ لا يَقضى الديونَ سواهُ

نظيفة : ازعق « جمالُ » ناد « حسنى » أدْعُها

[ثم تنادى] : يا بنتُ

جمال : حُسنَى

نظيفة : بنتُ

حسنى : [تدخل] مولاتى

نظيفة : عندي « جمالُ » يتغدّى معي

هاتي حديثَ « الباميا » هاتي

حسني : سوف ترى ياسيدي صَنعتي

وسوف تنسى « كفتة الحاتي »

نظيفة : حُسني بذاتِ كثيرًا وما رفقتِ بحالي

أكفتةٌ بيمينٍ وباميا بشمال

حسني : سيدتي لا تغضبي لا لحم في المطبخ لا كفتةَ لا كبابا

العظمُ لا غيرَ ملأتُ « الباميا » منه ... فطابت نكهةً وطابا

نظيفة : يَسلمُ فُوكِ يا ابنتي

[ثم لجمال] : إسمع لها

« جمالُ » ... كيف تُحسنُ الجوابا

جمال : جدتي هل فكّرتِ في أمرِ « حسني » ؟

نظيفة : كيف ؟ ماذا ؟

جمال : كما افتكرتِ بأمري

زوجيها

نظيفة : أزوِّجُ البنتَ ؟

حسنى : لا . . . لا سيدى ... ذاك لم يَمُرَّ بفكرى

أنتَ ياسيدى « جمالُ » كثير الـ مَزْحِ فاجعلْ مَحَلَّ مزحِكَ غيرى

أنا لا أقبل الزواج بإنسا نٍ ولَو ساق مالَ قارونَ مهرى

أنا ماعشت لا أفارق هذا الـ بيتَ إلا الى قرارةِ قبرى

نائفة : عشتِ « حسنى »

[ثم لجمال] :

سمِعت كيف أجابت ؟

كيف لم تنسَ لى حنانى وبِرِّى ؟

[وتهم السيدة نائفة بالوقوف] :

جمال : أين يا جدة تمضين

نائفة : قريبًا . . خُطوتينْ

أنا قد خبَّأتُ أمس لك يا ابنى موزتينْ

[تمشى وتخرج] :

جمال [لحسنى] :

بَعُدَتْ جدتى تعالَىْ أقبِّلْـ

ـكِ تعالَىْ حبيبتى قبِّلينى

حسنى : بعدتْ فليكنْ عفافى ودينى

حول عرضى لا يُبعِدُ الله دينى

إن أكن خادماً فنفسيَ في خِد
رٍ من النبلِ والعفافِ مَصونِ
ابغِ يا سيدي سواي لما تد
عو له اليوم من خسيسٍ ودُونِ

جمال : هي حُسنَى لا يذهب الوقتُ

حسنى : دعني

وقتُ مثلي بجانب الكانونِ

جمال : قبلةٌ ها هنا على الجيد «حُسنَى»

أو على الوجنتين أو في الجبين

حسنى : ما الذي قلتَ يا جمالُ

جمال : طلبتُ الحقّ

حسنى : حقُّ المهوَّسِ المجنون

لكَ يا سيدي جمالُ شئونٌ
فامضِ فيها وخلِّني وشئوني

جمال : إلى أين ؟ قفي (حُسنَى)

حسنى : إلى الكانون والنارِ

إلى الشغل الذي يَنهى عن الريبة والعارِ

[وتمشي .. السيدة نظيفة تدخل]

نظيفة : جمـالُ يا ابنى

جمال : جـــدتى

نظيفة : [تحسن] : ما لكِ توجعينا

الموزتان يا جمـا لُ صـار تا عجينـا

جمال : ألقيهمـا يا جدتى الـــــفِى العَفَنَ التّينـا

نظيفة : اشربْهما يا ابنى عسى أن يُورثاك لينـا

جمال : أنا يا جـــدة لا أقـــوى على هذا العلاجْ

إن فى البيت دجاجًا فاطرحيـه للدجاجْ

« ســتار »

الفصل الثالث

المنظر الأول

« الست نظيفة على فراش أرضى فى قاعة من منزلها »

« وحولها « حسنى » وجماعة جئن للسؤال عنها من الجارات »

زائرة [وهى داخلة] :

العوافى أمّ الأفندى العوافى

حسنى : اخفضى الصوتَ . . أُميسكى يا خالهْ

الزائرة : ما لها ؟ ما بها ؟ عفا الله عنها

حسنى : هى من ليلتين فى شرِّ حالهْ

زائرة : أمُّ الأفندى عوفيتْ من قلبها تحبنى

ما كان أندَى يدها على الفقير والغنى

شفاها الله للبيت وللجار وللجارهْ

جَرى إحسانها كالسيلِ حتى أغرق الحارةْ

قد وقعتْ عيني عليها مرّةً في « السيدهْ »

أخرى : فما رأيتِ ؟

الأولى : نخوةً وكرمًا ما أزيدَهْ

جاءت وراحت تُقرِضُ الله وتُعطى مسجدَهْ

وكلما مَدّ فقيرٌ يدَهُ

الثانية : عضّتْ يدَهْ

يا أختُ أين ذلك المدحُ العَطِرْ ؟

وأين جُودها الذى كان المطرْ ؟

الأولى : [لحسنى]

انظرِى خلفَكِ « حُسنى »

حسنى : مَن ؟

الأولى : هى الشيخة « بنبهْ »

[الشيخة بنبه تتقدم] :

بنبه : كيف حال المائم اليوم ؟

حسنى : انظرِى . الحالةُ صعبة

إحدى الزائرات :

« حسنى » اطرَحِى الغمّ ولا

تستسلمى إلى الـكدَرْ

رأيت رؤيا أمس

أخرى : ما ذلك

حسنى : خيراً . ما الخبرْ ؟

الزائرة : رأيتنى فوق طريق فيه طينٌ ومطرْ

مشتْ به أم جمالٍ تنثنى وتفتكرْ

تحملُ حِملَ جملٍ أو جملين من حَجَرْ

حسنى : ثُم

صاحبة الرؤيا :

إذا فوقَ الطريقِ ثَم شيخٌ قد ظَهَرْ

كأن نورَ وجههِ تحت العمامةِ القمرْ

قد طرحَ الأحمالَ عنها فجرَتْ على الأثرْ

حتى لبثتُ ساعةً عجبتُ كيف لم تَطِرْ

سمعتِ يا شيخةُ رؤياىَ ؟

الشيخة : سمعتُ العجبا

رؤيا كأنها الفَلَقْ تبارك الذى خلَقْ

أم بجمالٍ أُعِيدَتْ وزال عنها العناءُ

وذلك الشيخ قطبٌ على يديه الشفاءُ

أخرى : أم بجمالٍ بخيرِ قد أُلْقِيَ الحمل عنها

[يظهر الدكتور مقبلا]

إحدى الزائرات :

ماذا ؟ من الداخل ؟ من يا تُرى ؟

أخرى : هذا هو الدكتورُ عبدُ السلامْ

الأولى : أبعدَ هذا .. القطبُ يؤتَى به ؟

الثانية : وأىُّ قطبٍ ؟

الأولى : هلْ نسيتِ المنامْ ؟

أخرى : ماذا تقول ؟ تظنُّ هذا القطبَ ؟

الأولى : ذاك هو العَمَى

هذا الطبيبُ مُطربَشٌ والقطبُ كان مُعمَّمَا

شتَّانَ بين القمرِ المنوَّرِ الملمَّح

وبين تيس الجبلِ المفلفَلِ المملَّح

ما تلك فوق عينه ؟

الثانية : زجاجةٌ مُدوَّرَهْ

تقيه ضوءَ الشمسِ أو تمنعُ عنه الغَبَرَهْ

كأنها غمامةٌ تحجب عيْنى بقرهْ

الأولى : ولِمْ تغطَّى بالثيابِ السودِ رأساً لقدم ؟

كأنما أُخرجَ من زكيبةٍ من الفَحَمْ

الثانية : سودُ الثياب بمصرٍ صارت ثيابَ الإمارهْ

فلا ترَيْنَ بياضاً إلا على شيخِ حارهْ

الأولى : وما يغطيه ؟

الثانية : إسألى حُسنى

حسنى : يغطيه « تُوسكَنهْ »

الأولى : مسكينٌ الدكتورُ قد أصبح فُوهُ مدخنَهْ

الدكتور: العوافى أمّ الأفندى العوافى

حسنى : هى فى غَشْيةٍ ونومٍ عميقِ

الدكتور: كيف حسنى؟ما حال أمّ جمالٍ ؟

حسنى : هى فى الكَرْبِ خفّف الله عنها

الدكتور: ودوائى ؟

حسنى : لما تعاطَتْهُ نامت

نومةً لم تَقُمْ إلى اليوم منها

ما بها يا سيدى ؟ ما داؤها ؟

الدكتور : تُخَمةٌ من أُكْلَةٍ ذاتِ دَسَمْ

حسنى : تخمةٌ ؟ لا سيدى الدكتور . . لا

نحن لا نعرف فى البيت التُّخَمْ

الدكتور : إذن بها ضعفٌ

حسنى : ومن أين جاء الضعفُ

الدكتور : من قلّةِ ما تَطْعَمُ

حسنى : وما يقوّى الضعفَ ؟

الدكتور : الأكل يا حسنى

حسنى : وكيف الأكلُ؟ أين الفمُ؟

الدكتور : رحم الله زوجها إنه كان صاحبى

كان فى كل منزل وطريق بجانبى

[ثم ينتقل الدكتور بغتة لمخاطبة إحدى الزائرات]

« خضرةُ » أنت هنا ؟ ما تصنعين يا ابنتى ؟

خضرة : في كل ساعةٍ أجي أسألُ عن سيدتي

الدكتور : و« حسنٌ » زوجُك ما يصنعُ ؟

خضرة : في البيت انطرحْ

منذ تناول العلا جَ بالأواني ما سَرَحْ

الدكتور : وما له لم يَجِئْني ؟

خضرة : بأيّ رجلٍ يَجِيكَا ؟

الدكتور : [إلى مرجانة] :

ما ذاك يا بيضاء ماذا أرى ؟

مرجانة : تورّمَ الخدُّ من الدُّمّلِ

الدكتور : [يخرج مشرطا من جيبه]

هاتي أُريه .. إصبري ساعةً أفتحهُ

مرجانة : لا ، يفتحُ اللهُ لي

أخرى : دَعيهِ يفعلْ تستريحي

أخرى : اقْعدي حَذارِ « مرجانةُ » أن تفعلي

[يدخل جمال]

الدكتور: من ذاك؟ أنت جمالٌ؟

جمال: من؟ سيدى الدكتورُ؟

كيف وجدتَ جدتى؟

الدكتور: تسير نحو العافيَهْ

جمال: وكيف وهى من ثلاث لم تُفِقْ؟

حسنى: بل إنها من أربع كما ترَى

وارحمتاهُ لك يا سيدتى

ولطفَ اللهُ بنا فيما جرَى

جمال: حُسنَى أقلِّ الحزنَ.. يعفو اللهُ عن

أزيدَ من هذا ويَشفِى أكثرا

الدكتور: دَعَا.. لا تخافا ولا تحزَنا

فما الأمر لليأس بالصائرِ

وكم فاقدِ الرشدِ لا غائبٍ

ورائى تركتُ.. ولا حاضرِ

وآخرَ لا راقدٍ فى الفراشِ

إذا قلَّبوه.. ولا ساهرِ

حسني : أمرضاك كلُّهمو هكذا ؟

وهل يستفيقون يا سيدي ؟

الدكتور: تقوم عليهم يدي بالشفاءِ

قيامَ المسيح على المُقعدِ

حسني : [لجمال]

وأنت سيدي جمالُ قَوَّني

علّمْنِيَ العزاءَ والتصبُّرا

زائرة : « مرجانةُ » انظريهما

الأخرى : يحبها

الأولى : تحبُّهُ

الثانية : وبيديه قلبُها

الأولى : وفي يديها قلبُهُ

« يخرج جمال ، وتخرج مرجانة وبعض »

« الزائرات ، وتدخل إحدى الجارات تدعى زهرة »

زهرة : ما حال أمِّ الأفندي ؟

حسني : سيدتي في العذابْ

مضى عليها أربعٌ في كُربةٍ لا تُفْرَجُ
في النزعِ لا وعىَ لها والسرُّ ليس يخرجُ

زهرة : لدىَّ خاطرٌ خطَرْ

حسنى : ما ذاك ؟

أخرى : ماذا ؟ ما الخبَرْ ؟

زهرة : اصغينَ .. مما جرَّبوه في الأسَرْ
صوتُ « الفلوسِ » عند رأس المحتضَرْ
إن كان في دنياه بالبخل اشتهرْ
يسمعها فينطفي على الأثَرْ
وكلما تأخرتْ عنه انتظَرْ

حسنى : إذن قومي أريحيها إذن من هذه الحالَةْ

زهرة : وأين الشاشُ والفضةُ ؟

حسنى : من ماليَ يا خالَةْ

زهرة : مالُكِ أو مالُ سوا كِ كلُّ مالٍ قد حضَرْ
القصدُ أن يقرَعَ صو تُ المالِ سمعَ المحتضَرْ

« حسنى » اسمى لىَ أصغى

هاتى ملاءة فرش

والآن فليلقِ كلٌّ منكنَّ فيها بقرش

ثم لحسنى

« حُسنَى » خُذِى من طرَفٍ

ثم لأخرى

وأنتِ من ذاك الطرَفْ

للجميع

وأنا أبقَى ها هنا

لصبى موجود

وأنت قُم خُذْ لا تخَفْ

والآن فلنقمْ الى الفراشِ

ومثلَ صُنعى فاصنعوا بالشاشِ

يدخل جمال

جمال : ما الحال حُسنى ؟ وكيف أمستْ ؟

حسنى : فى النزعِ والكَرْبِ لا تزالُ

« يلهبون بالشاش حتى يقتربوا من فراش المحتضرة ، وهم »
« ممسكون بجهاته الأربع ، فتخرج الأولى نقودا وتلقيها فى »
« الشاش ، فيعمل الباقون مثلها ، ويتقدم « جمال » بلا ة »
« ويخرج من جيبه نقودا ، ويقول : »

جمال : وأنا أيضا أشترِكْ هاكِ خُذى ما أمتلِكْ
وضعتُ كل فضتى كى تستريحَ جدتى

« يأتى النقود »

« الأربعة يوزون الشاش بالنقود بينهم » »

« وتقول الأولى مخاطبة المحتضرة »

الأولى : إمضِى ولا تُفكِّرِى فى المالِ وانسَىْ حديثَ القرش والريالِ
أنتِ وما ملكتِ للزوالِ

هُزُّوا معى . . هزُّوا معى يا أيها الروحُ اطلعى
إلى النعيم الأوسَعِ

وديعةَ الله اذهبى إمضِى ولا تُعذِّبى
لله عُودى والنَّبى

إحدى السيدات [بعد وفاة الجدة] :

قد انقضى الأمرُ قد خرجَ السرُّ
« حسنى لكِ الأجرُ

حسنى [لجمال] :

الصبرَ . . وانعرِجْ سيدى جمالُ

لمثلِ ذا لا يصلحُ الرجالُ

المنظر الثانى

« فى منزل المرحومة الست نظيفة . »

« تظهر « حسنى » فى ثوب أسود »

حسنى [لنفسها] :

عَينى أحقٌّ أننى فى منزلى ؟
لا ، كان لى فوهبتُهُ لجمالِ
غاليتُ فى شَغَفِ الفؤادِ بحبِّه
حتى وهبتُ له الثمينَ الغالى
أعطيتُه ما كان أصبح فى يدى
من مال جدته .. فليس بمالى
لم يرضَ قلبى أن أعيش سعيدة
ويعيشَ فى بؤسٍ ورقة حالِ
أتُراه يقدرُ خدمتى ومحبتى
أو لا يمرُّ له الصنيعُ ببالِ ؟

رحمة الله على سيدتى
وسقى الله ثراها وجزاها
حرمتنى الشاش حتى ذهبتْ
فكستنى الخزّ فى الموتِ يداها
وحمتنى الماءَ حتى احتجبتْ
فسُقيتُ الشهدَ من فيض نداها
صار لى من بعدها منزلُها
والدكاكينُ وآلتْ ضَيعتاها
ثروةٌ قد نهض الجوعُ بها
ومشى الحرمانُ فيها فبناها
وهبتْ لى كلَّ ما قد ملكتْ
لم تَدَعْ من ذاك شيئاً لفتاها

[بعد لحظة]

لا .. ذاك مالُ جمالِ تركتُهُ لجمالِ
وعدتُ ما كنتُ مِن قبْلُ ، فوطنِي هى مالى

أجل أنا الخادم والطاهيَهْ
وما أنا السارقةُ الباغيَةْ

ولا على الناس طفيليَّةْ
أجمل أموالهمو ماليَّةْ

سمعتُ حديثَ البخلِ حتى صحبتهُ
زمانًا أراه كلَّ حينٍ وأسمعُ
يروح ويغدو بين عينيَّ صورةً
ويأتى خيالى بالحياةِ ويرجعُ

سيدتى وبخلها   فى (الخطِّ) سارا كالمثَلْ
وانتقلتْ وذكرُها   بالبخلِ فيه ما انتقلْ
يرحمها الله فما   أنسى لها تلك الجمُل
فى غضبٍ عند الحوا   رِ واضطرابٍ و (زعَلْ)
وما اختلفنا مرةً   فى حَمَلٍ ولا جمَلْ
لكنْ لأجلِ الثومِ كا
نَ الخُلْفُ ، أو حول البصلْ
ولم نكنْ من الدقيـ   ـق ننتهى ولا العسَلْ

يرحمها الله وإن لم تأتِ يوماً بحسَنْ
عاشت بثوبٍ واحدٍ كالميْتِ عاش بكفَنْ
أما أنا . . فالشاش أو ما دون ذاكَ في الثمَنْ
وبذلتي وفوطتي طال عليهما الزمَنْ
وأجرتي عشرون قرشاً مع كثرةِ المهَنْ

البيتُ لا أبرحُها خارجةً وداخلَهْ
صامدةً كالداوِ كلَّ ساعةٍ ونازلَهْ

طبَّاخةٌ أصنع من لاشيء شيئاً نأكلُهْ
وأنحني على البلاطِ كلَّ حين أغسلُهْ
وكلُّ دكانٍ على أجرُها أحصِّلُهْ

[تدخل زهرة]

زهرة : العوافي يا ابنتي

حسنى : من جاءنا ؟ خالتي زهرةُ ؟ أهلاً مرحبا
ادخلي

زهرة : [لنفسها في حسد وحقد] :

يا لك من طبّاخةٍ نثرَ الحظُّ عليها الذهبا

[ثم لحسني]

يا هَناكِ المالُ حسني

حسني : مالُ من ؟

زهرة [لنفسها] : هي تُخفي

حسني : بلغوكِ الكَذِبا

زهرة : عَجَبًا . . أنت إذن لم تَرِثي

مال مولاتِكِ ؟

حسني : لا . لا . عَجَبا

أنا يا خالةُ لستُ لِصَّة

لعنَ اللهُ الغِنَى المُغتَصَبا

زهرة : إن للجيرانِ « حسني » ألسُنًا تهذي ما والا

حسني : ما الذي قالوه ؟

زهرة : قالوا أنتِ جَرَّدتِ جمالا

حسني : كذبوا والله لم ألمس له باليد مالا

[تخرج « زهرة » وتتبعها « حسني » ويدخل « جمال »]

[تدخل « حسني » فترى جمالا]

حسنى : مَن ها هنا ؟ أَهُوَ جمال سيدى ؟

جمال : أجل . أنا الغريبُ فى بيتِ أبى

أنا الذى قد سلبوه مالَهُ

لم يبقَ من مالِىَ ما لم أُسْلَبِ

قد ضربَتْنِى فى الحياةِ جدتى

وفى المماتِ

حسنى : الف لا . لم تُضْرَبِ

اجلسْ . تفضلْ . استَرِحْ

هَوِّنْ عليك سيدى

جمال : لم يبقَ من مالِكِ يا

جدةُ شىءٌ فى يدى

ضَيَّعْتِ أمسى ثم لم يَكْفِ فضيَّعْتِ غدى

« حسنى »

حسنى : « جمال »

جمال : افترقنا

حسنى : كيف ؟ لا . أبدا

جمال : تغيّرَ الأمرُ من حالٍ إلى حالِ
أنتِ الغنيةُ « حسنى » والفقيرُ أنا
المال مالُكِ منذُ اليوم لا مالى

حسنى : المالُ يا جمالُ ؟ الفقرُ ؟ الغنى
ماذا تقول سيدى ؟ ماذا جرى ؟

جمال : أليس حرمانِيَ أسونًا متقنًا
طبختِه أنت وجدتى معا ؟
« حسنى دَعى الخُبْثَ ولا تجاهلي

حسنى : أتعلم الخبثَ علىَّ والرِّيا ؟
حُرمتَ مِمَّ ؟

جمال : من تراثِ جدتى

حسنى : إذن من الوارث

جمال : أنت لا أنا

حسنى : أنا أراك سيدى تهزأ بى
كفى بجمالُ تحقرًا منى كفى

أُقسمُ هذا الأمرُ لم أعمل لَهُ
وإنى آخرُ من درى بِهِ

جمال : أما رأيتِ كاتبا معمَّماً

وشاهدَيْنِ يعملون ها هنا ؟

وشيخةً تُملِي عليهم سخفَها

تحْرِمُ ذا قُربى وتعطِي أجنبا

كمثِلِ ربوةٍ تخطَّى خيرهُا

إلى الوهاد مُستحقّاتِ الرُّبى

حسنى : جمالُ سيدى تعالَ نحتكمْ

إلى الحقوقِ والصوابِ والنُّهى

هَبْ ما تقول يا جمالُ قد جرى

جمال : لقد جرى

حسنى : هاتِ الكتابَ فامحُ ما

تشاءُ ، واثبتْ ما تَشا

بدِّلْ وغيِّرْ فى كتابِ وَقْفِها كما ترى

أنت غِنای . . إنْ غضبْتَ ما انتفاعِى بالغنى ؟

أمضى فابغِى سيداً أو ابتغِى

سيدةً أطهو لها

جمال : ماذا أرى ؟ تبكينَ حسْنَى ؟ مِمَّ ؟

حسنى : لا

جمال : كَفَى ابنتى كفى بُكا

حسنى : خُذْ مالَها وخلِّنى أعِشْ كما

كنتُ أعيشُ أوَّلا

جمال : بحياتى قُولِى الحقيقةَ حُسْنَى

أتحبِّينَنِى ؟

حسنى : أجلْ . مِلْءَ قلبى

جمال : مثلَ حُبِّى ؟

حسنى : جمالُ أحببتَنِى اليو مَ ؟

جمال : قديمٌ وحقِّ عينيكِ حُبِّى

كنتُ أهواكِ طفلةً تملأينَ ال

بيتَ والحوْشَ من صياحٍ ووثْبِ

كنت أُهواكِ طفلةً في الكوانينِ نافخهْ

كنت أهواكِ خادمًا كنت أهواكِ طابخهْ

[ثم يمسك يدها و يقول]

كم اشتهيْتُها يدًا ما فرغَتْ من العمَلْ

كنت أراها كَبَيـدِ الـمَلْكَةِ أهلًا للقُبَـلْ
واشتهى رائحـةَ الثُّـومِ عليها والبصلْ

حسنى : سيدى أنت خطبتَ

جمال : لا

حسنى : نعم بل خَطَبْتَ امرأةً ذاتَ يَسَارْ
وأبـوها كابِرٌ ذو لقبٍ وله زرعٌ وضرعٌ وعقَارْ

جمال : وما تريدين "حسنى" ؟ أأنفضُ اليـد منها ؟
الله ربُّ جمـالٍ يُغنيـه عنـك وعنها

[امرأة تريد الصعود]

المرأة : أأحدٌ فى المنزلِ ؟

جمال : [من أعلى]
مَن هذه ؟

المرأة : أمُّ "على"
أنتَ هنا ياسيدى ؟

جمال : أجل ، تفضَّلى ادخلى

أم علي : [تصعد] .

دستورَكم

جمال : تفضَّلي لا أحدُ في المنزلِ

حسني : [لجمال]

من تلك من ؟

جمال : إمرأةٌ مِن بيتِ أصهاري الجُدُدْ
صديقةٌ قديمةٌ في كلِّ أمرٍ تجتهدْ

حسني : ماذا تُريد يا ترى ؟

جمال : الآن نعلم الخبَرْ
أما أنا فليس لي في بيتِ إنسانٍ وَطَرْ

حسني : كرهتَ سيدي الغني ؟

جمال : أجل

حسني : وهكذا أنا

[ثم وهي خارجة]

لا يأخذُ الإنسانُ مِن دُنياهُ إلا الكَفَنَا

[تدخل أم علي]

جمال : يا مرحبًا أمَّ علي ماذا حملتِ من خبرْ ؟

أم علي : كنتُ رسولَ الصفوِ والـيومَ أتيتُ بالكَدَرْ

جمال : ماذا ؟

أم علي : أصِخ يا سيدي أمُّ العروسِ جُنَّتِ

جمال : كيف ؟ ولِمْ أمَّ علي ؟

أم علي : تريد فسخَ الخطبةِ

جمال : كذا أنا

أم علي : وأنت أيضًا ؟

جمال : تلك كانت نِيَّتي

قد سمعتْ لا شكَّ أنّي قد خسِرْتُ ثروتي ؟

قد علمتْ بأنني قد حرمتني جدتي ؟

أم علي : أجل

جمال : فقالت مفلسٌ ليس يليق لابنتي

أم علي : وهذه (الشبكةُ) ياسيدي

انظر ، تأمّل ، خاتمٌ لا يُعاب

وهذه قيمةُ ما جاءنا

من (سَبَتِ) النقلِ وغالى الثيابْ

خمسون خُذْها، عُدَّ، مِنْ عادتى

جمال : [يأخذها]

أنْ تَغْلَطِى يا خالتى فى الحسابْ

[ثم ينتهى من العد]

أم على : هى خمسون سيدى

جمال : هذه خمسةٌ لَكِ

اذهبى . لستُ ناسيًا أَبَدَ الدهرِ فضلَكِ

[تخرج أم على ثم تدخل حسنى]

جمال : [بعد أن يراها]

رَبَّاهُ . . ما ذاك ؟ تلك حُسنَى ؟

من أين حُسنَى ؟

حسنى : مِن الستارَهْ

سمعتُ ما قالت العجوزُ

ولم تَفُتْنِى لها عِبارَهْ

خُذْ سيدى

جمال : ما ذلكا ؟

حسنى : ذلك وقفُ أسرتِكْ

[تناوله ورقة]

كانت شروطُ الوقفِ لى

فاسْتُعْمِلَتْ لخدمتِكْ

وما ظننتُ ثروتى ما كان غيرَ ثروتِكْ

ذاك اتفاق قد جرى بيني وبين جدتِكْ

ما أرصدتْ بجهتى حوَّلْتُهُ لجهتِكْ

جمال : جدتى فى تمَاتِها بَرَّةٌ بى ومحسنَهْ

فعلتْ فىَّ فعلةً نبهتْنى من السِّنَهْ

ساء فى المال مذهبى فرأت أن تُحَسِّنَهْ

وأنتِ « حسنى » أتحبيننى ؟

حسنى : أإنتَ فى ذلك ترتابُ ؟

قد كنتَ دنيا مغلقاً بابُها

دُونى .. فكيف انفتحَ البابُ ؟

جمال : الآن «حسني» أقبل نُخْبِرْ حديثَ ما مضى
كيف وجدتِ جدتي ؟ وما مكاني عندها ؟

حسني : تحبُّك الحبَّ الذي كانت تحبُّهُ ابنَها
وتكتسِي إن غبتَ عنها أو بَعُدْتَ الوَلَهَا
تكاد لا تسمعُ إنْ غِبْتَ.. تكادُ لا ترى

جمال : فما لها كانت تُذيقُني الجفاءَ ؟ مالَها ؟
فلو سألْتها العَمى ضَنَّتْ علىَّ بالعَمَى

حسني : سيدتي بخيلةٌ

جمال : أعلمُ يا حسني بذَا
وهى إذا قيستْ إلى جَدِّى.. كالغيثِ نَدَى
علَّمها جَدِّى.. وكا ن أجمدَ النَاسِ يدا

حسني : وأنا أيضًا سيدى أُصِبْتُ بالبخلِ أنا !

جمال : حنانيك، ماذا قلت «حسني» أَخَفْتِنِي
اقَدَّرَ ربّى أنْ يطولَ عذابي ؟
أأعداكِ حُسني بُخْلُ جَدِّى، إنني
أخافُ من مصاب صائرٍ لمُصاب

حسنى : لا تخش بخلى سيدى .. لستُ مَنْ
تبخلُ فى حقٍّ ولا واجبِ

جمال : ويحى ! أأرميك بالبخلِ ؟ قَبَّحَ اللهُ ظنِّى
وقد رأيتُ بعينى وقد سمعتُ بأذنى
فأنتِ أرجعتِ مالى وكان قد ضاع منى
فما سوى الله «حُسنَى» يَقْدِرُ يجزيكِ عنى

ستجمعنا الدنيا غداً .. كيف يا تُرى
يكونُ طعامى أو يكون شرابى ؟

حسنى : سنشرب الماء فى أوانٍ
غاليةٍ حلوةٍ نضيدَهْ
وبيرةً كل ظهرِ يومٍ
توضع فى الثلج والبرودَهْ

جمال : والأكل ؟

حسنى : ماشئتَ من شواءٍ
ومن دفينٍ ومن عصيدَهْ

جمال : نسيتِ «حسنى» ما ليس يُنْسَى

حسنى : ما ذلك ؟

جمال : « البامية » الجديدة

هذه « الشبكةُ » التى أرجعتها المُقفلة
خاتمٌ قد وضعته فى البنانِ المُقبّلة

[يلبسها الخاتم و يقبل يدها] :

حسنى : والمهــــر ؟

جمال : [يشير إلى النقود المردودة]

تلكَ هى لكْ أعطى جمال ما ملكْ
ما المالُ مهرًا للملكْ

حسنى : ومهرُكَ سيدى ؟

جمال : مهرى ؟ تُرانا
تزوجنا على دينِ النصارى ؟
دعى حُسنى المزاحَ

حسنى : أقول جدًّا
ولِمْ تأبى ؟ أتحسبُ ذاك عارا ؟

وكم من مسلماتٍ سُقْنَ مهرًا — وإن دُعِيَ الأباعدَ والعقارا

جمال : إذن هاتي اذكري مَهرى — وسمِّيه على قدرِى

فقد تمطينى قرشًا — وقرشين . . وما أدرِى

حسنى : بل الدنيا وما فيها — وما جلَّ عن الحصْرِ

جمال انزل إلى البئرِ — تجدْ مهرَكَ في القعرِ

جمال : مَهرِيَ في البئرِ ؟

حسنى : أجلْ

جمال : كيف هوَى ؟ كيف نزلْ ؟

أنزِلُها ؟ هذا خَبَلْ !

حسنى : ننزلُ إنْ شئتَ معا

لكى أريكَ الموضعا

هناك تُبصِرُ العَجَبْ

جمال : ما ذاكَ ؟

حسنى : صُندوقُ خَشَبْ

ممتلئٌ من الذهبْ

جمال : هناك الذهبُ الحلوُ إذن طيرى بنا طيرى

قبلتُ المهرَ يا حُسنىَ إلى البيرِ إلى البيرِ

(ستار)

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٤/٢٠٦٧

ISBN ٩٧٧ ٠١ ٠٢٦٨ ٩